

التَّزْيِينُ بِالْعِقَابِ

بَحْثٌ فِي ضَوَابِطِ الْعِقَابِ التَّرْبَوِيِّ
وَالْمَرْفُوضِ مِنْهُ وَالْمَقْبُولِ



إِعْدَادُ

الْفَرِيقِ الْعِلْمِيِّ بِدَارِ الْأَمَلِ



التَّيْبَةُ بِالْعِقَابِ

بَحْثٌ فِي صَوَائِدِ الْعِقَابِ التَّرْوِيِّ
وَالْمَرْفُوضِ مِنْهُ وَالْمَقْبُولِ

التَّيْسُ بِالْعَقَابِ

تَحْتَ فِي صَوَابِ الْعَقَابِ الرَّيَافِ
وَالْمَرْفُوضِ مِنْهُ وَالْمَقْبُولِ

مُتَعَفِّقُ الطَّبَعِ مُحَفَّوْضَاتِ

الطَّبَعَةُ الْأُولَى

١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٣ م

رَقْمُ الْإِنْدَاعِ

(2023/15229)

I.S.B.N. 978 - 977 - 86764 - 2 - 6

دار الأمل للطبع والنشر والتوزيع

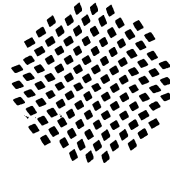
☎️ 📞 +21 01000 28 21 66

📌 دار الأمل للطبع والنشر والتوزيع

📌 Daralamal 📌 Dar Alamal

📌 Daralamal2014@gmail.com

— www.alamalpub.com —



دار الأمل

للطبع والنشر والتوزيع

سلسلة: محو الأمية التربوية (٣)

التربية بالعقاب

بحث في ضوابط العقاب التربوي
والمرفوض منه والمقبول

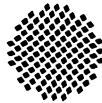
إعداد

الفريق العلمي بدار الأمل

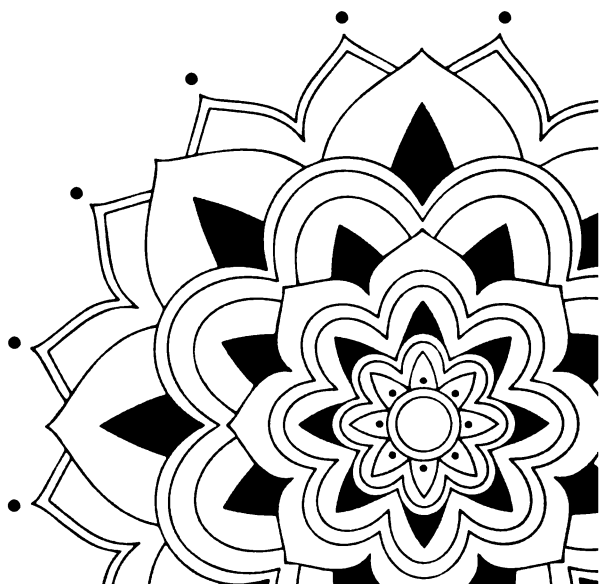
تحرير

محمد السعيد الملقح

دار الأمل
للطباعة والنشر والتوزيع



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمدًا يليق بجنابه، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على عبده
ورسوله وخليله محمد، وعلى آله وأصحابه.

أما بعد...

فكما أن حقَّ الوالدين على الأبناء برُّهم بهم والإحسان إليهم، فإنَّ حقَّ
الأبناء على الآباء أن يحسنوا تربيتهم وتأديبهم.

ومع أنَّ الطفل ليس ممن يُعاقب شرعًا، ولا يُوصَفُ فعله بالجناية قبل
البلوغ، فإنَّ هذا لا يُعفي الأبوين من مسؤوليتهما في تأديبه بالجزاء التربوي الذي
يشمل الثواب والعقاب.

إنَّ المربي مؤتمن على حسن تربية الطفل، وهو أمانة في عنق والديه، ومن
الخطأ الفاحش أن ينظرَ المربي إلى الطفل على أنه «شيء» من ممتلكاته الشخصية،
يتصرف فيه كيف يشاء، وآية ذلك أنك ترى الأب -مثلًا- يضرب ولده ضربَ
غرائب الإبل، فإذا تدخَّل شخصٌ ينصحه بالرفق به ورحمته، فإنه يبادر إلى قوله:
«وما شأنك؟! هو ابني، وأنا حرٌّ فيه».

وأسوأ ما في الأمر أن من المربين الجهلة من يُسوِّغُ (جرائمه) التربوية -إن
جاز التعبير- عن طريق التمسُّح بالشرعية الشريفة؛ مستدِلًّا على مسلكه بالسنة
الشريفة التي تُدينُ في الحقيقة إساءته إلى طفله، وتُحاسبه عليها.

إنَّ تربية الأطفال أكبرُ مسؤولية تواجه الوالدين، وتحتاج إلى كثيرٍ من الوقت والطاقة والمثابرة والمهارة، وتحتاج قبل ذلك إلى «التأهل» لأداء هذه الوظيفة السامية عن طريق التعلم الذاتي واستشارة المختصين.

وإنَّ معظمَ المشاكلِ التربوية تنشأ من نقص المعلومات، أو من المعلومات المغلوطة، فعدم العلم جهل، والخطأ في العلم جهلٌ أيضًا.

وكما لا تدفع القماش إلى غير الخيَّاط ليخيطه، فأولى أن يكون المربي مؤهلًا للتربية، وخاليًا من موانع أهليتها التي أخطرها الجهل.

وهذا الكتاب محاولةٌ لاستيعاب ضوابط العقاب التربوي، ونوعيه المقبول والمرفوض، وقد قدِّمتُ بين يدي ذلك مدخلًا يضمُّ تنبيهاتٍ تمس الحاجة إلى بيانها، والله من وراء القصد، وهو حسْبُنَا، ونعم الوكيل.

محمد بن عبد الله بن محمد (المقرئ)

نصر الإسكندرية

في الخميس ١٢ من جمادى الآخرة ١٤٤٤ هـ

الموافق ٥ من يناير ٢٠٢٣ م

البَابُ الْأَوَّلُ

(*)

مدخل وتنبهات

(*) قد أغتننا اللغة العربية - سيدة لغات العالم - عن تشنيت القارئ

بهوس تكرار ضمائر التأنيث والتذكير (هو/ هي) بمناسبة وبغير مناسبة، بزعم عدم (التمييز) ضد الأنثى، مع أنه يقطع سياق الكلام، ويُضعف انسيابيته، فاستعمال ضمائر الذكور يشمل بعمومه النساء، والأبوان أو الوالدان يُعَبَّرُ بهما عن الأب والأم، والولد يشمل الذكر (الابن) والأنثى (البت).

ومع اعتزازنا بلغة القرآن المجيد لم نجد بأسًا في ترجمة «المصطلحات» إلى اللغة الإنكليزية؛ لما في ذلك من فائدة لبعض المختصين.

التنبيه الأول: حضانة الطفل البشري أطول فترة حضانة في الكائنات الحية

إنَّ فترة الطفولة عند البشر أطولُ منها عند أيِّ كائنٍ آخر؛ فالسَّمك لا توجد طفولة لصغاره، والطيور تتم تربيته خلال فترة قصيرة، أما الإنسان (الطفل) فهو أكثر الحيوانات اعتمادًا على رعاية الآخرين، حيث يظل مستعدًا للتقدم أعوامًا طويلة بسبب خصائص جهازه العصبي، وقابليته للتغير والتعلم، وهذا لأنه أحوَجُ الكائنات الحية إلى حظٍّ وافٍ من الرعاية والتربية المتأنية والممتدة بدون تعجُّل؛ كي تؤثِّر ثمارها في تنشئة هذا الكائن المكرَّم، وتمهيته لوظيفة الاستخلاف في الأرض.

يقول الأستاذ الدكتور أحمد عزت راجح رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ الإنسان أكثر الحيوانات حاجةً إلى التعلُّم، كما أنه أقدرها على التعلُّم، فالحيوانات تُولَدُ مُرَوِّدَةً بالفطرة بأنماطٍ سلوكيَّةٍ تكفي لإشباع حاجاتها، وتمكُّنها من التكيف لبيئاتها المحدودة الضيقة الثابتة نسبيًّا، أمَّا الإنسان فلا يوجد لديه عند ولادته إلا النَّزْرُ اليسير من هذه الأنماط الموروثة؛ لذا كان عجزه عند الميلاد عن مواجهة مطالب الحياة المادية والاجتماعية أكبر من أي حيوانٍ آخر، ومن ثَمَّ كان لازمًا أن تطوَّلَ مدَّةُ حضانته ورعايته حتى يتعلَّم ضروريًّا من السلوك مُتَمَكِّنًا من إرضاء دوافعه التي لا حصر لها، وتعيّنه على العيش في بيئته الإنسانية المعقدة المتغيرة التي تتطلب مرونةً بالغَةً في التكيف؛ لأنَّ ما يصلح للفرد فيها قد لا يصلح لأولاده»^(١).

(١) لأنه يولد بجهازٍ عصبي ناقص النمو، ثم يكتمل نموه بعد ولادته.

(٢) «أصول علم النفس» (ص ٢٢٧، ٢٢٨).

إنَّ التربية الصحيحة هي التربية المتوازنة بين القسوة المفرطة والتدليل الزائد، أي إنها تتميز بخاصيتي الحب والحزم معًا.

«إنَّ التوجيه الرقيق وحده لا يكفي لتحويل الأطفال من عملٍ سيئٍ أو خُلُقٍ شائنٍ إلى عكسه، ما داموا يجدون في ذلك مسرةً وهواً؛ لأنهم بطبيعتهم الفطرية لا يملكون عقولاً ناضجةً يتدبرون بها ما يُلقى إليهم من توجيهٍ رقيقٍ دائماً فينتفعون به، كما لم يؤثروا عزيمة الرجال التي تجعلهم يتحولون سريعاً عن العمل السيئ أو الخلق الشائن مُصَحِّين بما يجدون فيه من لذةٍ ومتعةٍ وهناء»^(١).

التنبيه الثاني: حاجة الطفل إلى سلطة ضابطة لسلوكه؛

ليست التربية إطلاقاً لحبل الطفل على الغارب، بحيث يتحول الكبار إلى مجرد أدواتٍ وظيفتها تلبية أوامر ورغبات هذا «السيد الصغير» المدلل، وبالتالي ينشأ مغروراً متمرداً عنيداً، لا يحترم أيَّ سلطةٍ خارجية.

وليست التربية أن نرفع شعار «الأطفال دائماً على حق»، حتى إذا ساء سلوكهم تغاضينا، وقلنا: «ستُحلُّ المشكلة تلقائياً»، أو قلنا: «إن الزمن جزء من العلاج»؛ لأنَّ هذا هروبٌ لا يحل المشكلة، بل يفاقمها ويعقدها.

ولكن التربية هي أساليب علمية مدروسة تهدف إلى انضباط سلوك الطفل، ومن وسائل ذلك «الجزاء التربوي» ثواباً كان أو عقاباً.

(١) «أهداف التربية الوقائية في الإسلام» (ص ١١٧).

وحين يُولَدُ الطفلُ لا يكون لديه أيُّ قدرٍ من المعرفة؛ ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨]، ولكنه يبدأ في اكتسابها من البيئة المحيطة به رويدًا رويدًا.

ولا تقتصر تربية الطفل على رعاية احتياجاته المادية الفسيولوجية من طعام وشراب وكساء ونحوها، ولكن تمتد لتشمل إشباع حاجته إلى الأمن والاستقرار والحب والحنان والعطف، وحاجته إلى الإيثار والتدين، والتقدير والتقبل، وتعلم المعايير السلوكية، وشعوره بالنجاح في الحياة، وحاجته إلى سلطة ضابطة موجّهة ومُرشدة.

ورغم سعي الطفل في مرحلة معينة إلى «الاستقلال» عن أسرته؛ ليعلن عن وجوده الخاص، إلا إنه مع ذلك يشعر في قرارة نفسه بأهمية اعتماده عليها، ورقابتها عليه، بل يحتاج إلى تدخل الوالدين نفسيهما - أحيانًا - حتى يوقفاه عند حدوده.

إنَّ الطفل لا يجب الحرية المطلقة طول الوقت، بل يحتاج أحيانًا إلى من يقول له: «لا» بحزم وحنانٍ عندما يخطئ.

وإنَّ إيقاف الطفل عند حده باللوم -مثلًا- يرضيه نفسيًّا؛ لأنَّ هذا اللوم دليل (اهتمام به)، وقد يشعر بالوحدة والقلق إذا فقد (بُوصلة) الوالدين التي تراقبه، وتوجهه، وتضبط حريته، وتنظمها.

ومن هنا نراه يحرص على إرضاء الكبار باحترام (القواعد الأسرية)؛ كي ينال ثناءهم وإشادتهم بحسن سلوكه.

إنَّ الحزم الأبوي لا يسيئ إلى شخصية الطفل، ولكنه نافع له ومفيد؛ فالطفل يعرف أنه قليل الخبرة، وأن أمنه وأمانه يتوقفان على احترام «السلطة الأبوية» التي تحبه، ولا تريد به إلا الخير.

أهداف السلطة الضابطة:

- دفع الأطفال إلى حب النظام وإقناعهم أن الهدف منه هو مصلحتهم، وليس كبت حريتهم.

- اكتساب المعايير السلوكية التي تضبط تصرفاته مع من حوله، وتيسر له سلوك السبيل السوي، وتردعه عن القبيح.

- بناء قناعات تامة لدى الأطفال بالسلوك المقبول والسلوك المرفوض، وبالتالي فهم العلاقة التي تربط بين الحقوق والواجبات، وإدراك أن كلَّ حقٍّ يقابله واجب.

- السلطة الضابطة تحد من اندفاع الأطفال، وتعوضهم عن ضعف إرادتهم، وتنمي قدرتهم على كبح رغباتهم.

- السلطة الضابطة تدرب الطفل على تحمُّل الإحباط، وحسن التصرف إذا لم ينل ما يشتهي، فلا يغضب، ولا يتمرد، بل يصبر، ويؤجل الإشباع.

- ولهذا كله فإنها تُعدُّ الطفل لخوض الحياة - فيما بعد - باستقلالية وشجاعة وبدون تهيُّب ووجل.

التنبيه الثالث: تربية الأولاد مسؤولية جسيمة:

نحن نولد على الفطرة عجيبة لينة يسهل تشكيلها لننمو أسوياء قادرين على مواجهة الحياة، وكلما قومنا سلوك الطفل مبكرًا كلما استجاب وأثمر فيه التأديب:

قد ينفع الأدب الأحداث في صغرٍ وليس ينفعهم من بعده الأدب
إن الغصون إذا عدلتها اعتدلت ولا يلين إذا قومته الحطب

وكان مالك بن دينار يقول في قصصه: «ما أشد فطام الكبير!»، وأنشد:
وتروض عرسك بعد ما هرمت ومن العناء رياضة الهرم

ومن أمثلة العرب في الأمر الذي انتهى فساد به حيث لا يقبل الإصلاح:
«كدابغة وقد حلّم الأديم»، وحلّم الأديم حلماً: إذا فسد الإهاب، ووقع فيه دودٌ فيثقب، ولا يصلح للدباغ.

وكثير من مشاكل الكبار تعود جذورها إلى أحداث طفولتهم التي لا تمرُّ مرورَ الكرام، لكنها تستقر وتلتصق «بالصندوق الأسود»، لكي تطفو على السطح فيما بعد.

يقول الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ: «وكم ممن أشقى ولده وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله وترك تأديبه، وإعانته على شهواته، ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه، ففاته انتفاعه بولده، وفوت عليه

حظّه في الدنيا والآخرة، وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد؛ رأيت عامته من قبل الآباء»^(١). اهـ.

وقال بعضهم: «يتساءل الآباء: لماذا تحمل مياه القنوات طعماً مراً؟ وهم بأنفسهم الذين سمّموا النّبع».

إنّك إن رزقت طفلاً معوّقاً فإنّك ترضى وتسلم بقضاء الله، وتبذل ما تستطيع لتعيّنه على التكيف في حدود قدراته، أمّا «الجريمة الكبرى» فهي أن يرزقك الله طفلاً سويّاً، ثم تحوّله إلى شخصٍ مُشوّه أو مضطرب نفسياً بسبب جهلك وقسوتك، أو تدليلك وإهمالك تربيته.

إنّ ساعة واحدة من التخطيط لتربية أولادك قد توفرّ عليك سنواتٍ طويلةٍ تنفقها في محاولة إصلاحهم وتعديل سلوكهم.

وإنّ مما يجسد أهمية الوعي والصبر في التربية شعورَ المربين أحياناً بالمرارة؛ لأنهم يبذلون جهوداً مضيّنة من أجل تربية أولادهم، ثم يحصلون على نتائج ضئيلة بالنسبة إلى ما بذلوه.

وسبب ذلك أن هناك متغيراتٍ طرأت في عصرنا أضافت إلى البيت والمدرسة والمسجد مؤثّراتٍ أخرى تشاركهم (أو تنازعهم) في تربية أبنائهم، فالمجتمع ككل له أثره الذي لا يُستهان به، والنوادي، والصحبة، والإعلام، والقنوات الفضائية، والشبكة العنكبوتية، و«وسائل التواصل الاجتماعي» التي صارت رافداً غير آمنٍ تتدفّق من خلاله الوافدات الثقافية المخيفة التي تتصادم

(١) «تحفة المودود» (ص ١٤٦).

مع عقيدتنا وطرائقنا في الحياة، كل هذا يستوجب أن يكون المربون على وعي بمخاطر هذه الوسائل، وأن يحرصوا على حماية أبنائهم من أخطارها.

ومن رَعَى غَنَمًا فِي أَرْضٍ مَسْبُوعَةٍ^(١) وَنَامَ عَنْهَا تَوَلَّى رَعِيَهَا الْأَسَدُ

التنبيه الرابع: نستفيد من العلوم التربوية الحديثة، لكن بحذر؛
إنَّ الإسلامَ يحرص على مواجهة المشكلات بالعلم؛ لأنه يقدم تحليلًا سليمًا، وحلاً مناسبًا، ومن أدار ظهره للعلم فسيصبح غريبًا عن عصره، وفريسةً للمتعلمين الذين تفوَّقوا عليه بالعلم والمعرفة.

وينحاز الإسلامُ انحيازًا كاملاً لكل ما يحقق مصالح الطفل، ولكل ما يحمي الطفولة من الأضرار النفسية والبدنية، ولذا فإنه يرحب بكل نهج تربوي يحقق هذين الهدفين؛ لأنَّ العلومَ البشرية ميراثٌ مشترك بين بني آدم.

ومع ذلك، فإننا نستفيد من علومهم بحذرٍ شديد؛ لأنَّ منها ما هو علمٌ حقيقي قائمٌ على تجاربٍ وبراهينٍ وأدلةٍ، وهذا هو القسم الذي يتوافق مع الإسلام، وقسم آخرٌ هو نظريات «الأريكة» (Armchair Theories) التي لا تقوم على أدلة وبراهين (Non-evidence-based Theories)، وإنما هي أفكار بشرية قاصرة أو مَعْبِية^(٢).

(١) المسبوعة: الأرض الكثيرة السباع.

(٢) وقد وُفِّقَ الدكتور عبد الله بن محمد الزهراني -حفظه الله- إلى تجلية الفرق بين المنهج التربوي الإسلامي والمناهج التربوية الفلسفية الوضعية؛ كالمثالية، والواقعية، والبراجماتية، وبينَ تميُّزِ المنهج الإسلامي بالوسطية في مجالات التربية؛ الروحية، والجسمية، والعقلية، واختلاف نظرة الفلاسفة الوضعية عن نظرة الإسلام إلى «الطبيعة الإنسانية» وانعكاساتها التربوية، وذلك =

إنَّ بعض المناهج والفلسفات التربوية الغربية تكمن وراء ما يسمى بـ«موت الأسرة» في الغرب، وانهيار الروابط الاجتماعية، وتقليد الغربيين في هذه المناهج يُعدُّ جريمةً اجتماعية، وأكاديمية متكاملة، أضِفْ إليها ما جدَّ من الإلحاح على فرض ثقافة «النسوية»، و«الإباحية» على أمتنا بالإكراه.

والعلوم النفسية الغربية خالية تمامًا من الإيمان بالله ورسله والغيبات كلها، ولا شكَّ أن هذا الخلل الجذري ينعكس في طرائق تفكير أهلها وغاياتهم وأساليبهم في الحياة.

إنَّ التعريفات الغربية للتربية تلتقي على إعداد الطفل ليكون قادرًا على تحقيق رغباته الدنيوية، ثم تطبق عليه التجارب التي أجريت على الحيوانات.

والحاجة إلى الأمن في العلم الغربي ترتبط بإشباع الحاجات المادية فقط؛ كالملبس، والمسكن، وحماية النفس والمال والعرض، وتُهمَل تأثير الإيمان، وإشباع الحاجات الروحية في بثِّ الشعور بالأمن والطمأنينة في النفس، أما في الإسلام فينبغي إشباع كلا النوعين من الحاجات المادية والحاجات الروحية الإيمانية.

نحن لسنا أمة ﴿أَقْرَأُ﴾ فحسب، ولكننا نقرأ ﴿بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، ومرجعيتنا المعرفية الأسمى هي الوحي الشريف^(١) الذي لا يرفع به الغربُ رأسًا، مع أنه أحيا أمةً كانت غارقةً في الوهم والخرافة والوثنية.

هل تطلبون من المختار معجزةً يكفيه شعبٌ من الأمواتِ أحياءُ

= في رسالة الدكتوراه التي قدَّمها في كلية التربية، جامعة أم القرى، وطَبَعَتْها دارُ طيبة الخضراء بمكة المكرمة سنة (١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م) بعنوان: «الوسطية في التربية الإسلامية».

(١) إلى جانب العقل والحس والفطرة، باعتبارها أيضًا مصادر المعرفة في الإسلام.

وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحرية: ٦]، ومثل هذه الوقاية تتحقق أساسًا بالتربية الصحيحة، قبل أن تتحقق بالإمداد بالغذاء والكساء.

- والتربية الإسلامية هي: «علم إعداد الأجيال المسلمة إعدادًا كاملاً للحياة الدنيا والآخرة، في جميع مراحل نموهم المختلفة في ضوء القيم والمبادئ الإسلامية»

- وأصول التربية الوقائية في الإسلام هي: «القواعد والأسس التي تساعد على تلافي ضياع الأطفال، وتعمل على حمايتهم مما يضرهم، كما تعمل على إعدادهم إعدادًا كاملاً للمستقبل الناجح في الدنيا والآخرة»^(١).

التنبيه الخامس: لا تنحصر التربية في العقاب. ولا ينحصر العقاب في الضرب؛

الثواب والعقاب من أهم وسائل تعزيز المواقف التعليمية والسلوكية، وقد فهم بعض القاصرين من ارتفاع الأصوات المنادية بالكف عن الضرب في البيت والمدرسة أن هذا يعني إلغاء العقاب من العملية التربوية.

إنَّ ازورار الأوساط التربوية عن الضرب، ونفورها منه لا يعني إلغاء الوسائل التربوية الأخرى التي ترمي إلى تعزيز السلوك المرغوب (بالثواب)، وكف السلوك السلبي (بالعقاب).

(١) «أصول التربية الوقائية للطفولة في الإسلام» (ص ٢٧).

(٢) «نفسه» (ص ٣٣).

وسبب هذا الفهم الباطل أنه أتى على مجتمعاتنا حين من الدهر كان الناس يعتبرون التربية هي العقاب، والعقاب مرادفًا للضرب، وبهذا حصل اختزال كل وسائل العقاب اختزالاً معيياً، فاختزلت التربية في العقاب، واختزل العقاب في الضرب، مع أن العقاب جزء صغير من التأديب، والضرب (Corporal Punishment) وسيلة واحدة من وسائل العقاب المتعددة، وهي وسيلة قد تؤدي إلى عواقب وخيمة بدنية ونفسية^(١).

ولذلك فإنَّ الفهم الصحيح لهذه الأداة التربوية (العقاب) يوفر على الأبوين والأولاد كثيراً من الجهد والعناء.

التنبيه السادس: العقاب التربوي؛

تعريف العقاب؛

العقاب هو شكل من أشكال الجزاء، وقَسِيمُهُ الثواب، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿[الزلزلة: ٧، ٨].

والعقاب التربوي؛

هو أثر يُحدثه المربي فيمن يربيه، إثر سلوكه سلوكاً سلبياً غير مرغوب فيه، فيسبب له ألماً نفسياً أو مادياً، بهدف ردعه ومنعه من تكرار هذا السلوك، (أو تقليل احتمال حدوثه) في المستقبل في المواقف المماثلة.

(١) وسوف نفصل الكلام على «العقاب بالضرب البدني» في الجزء التالي من هذه السلسلة إن شاء الله تعالى.

أهم دواعي العقاب؛

- ١- أن يكرر الطفل السلوك السلبي كثيرًا رغم تحذيره.
- ٢- إذا أذى الطفل نفسه أو غيره.
- ٣- إذا تعدّى على ملكية الغير.

الأساس النفسي لمبدأ الثواب والعقاب؛

إنَّ الرغبة والرغبة عاملان مؤثران في سلوك الإنسان، ولهذا شاع في القرآن الكريم أسلوبُ الترغيب والترهيب؛ لأن العقاب يكف عن الذنوب، والثواب ينشط للعمل الصالح.

وثنائية «الترغيب والترهيب» تلتقي مع فطرة الإنسان الذي يميل إلى اللذة والنعيم، ويهاب كل ما يؤلمه ويُشقيه.

وقاعدة «الجزاء من جنس العمل» هي نتيجة طبيعية في معاملة الإنسان ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفي معاملته مع خلقه.

إنَّ شخصية الطفل تبدأ في التشكُّل في وقتٍ مُبَكِّرٍ إلى حَدٍّ يدعو إلى الدهشة، فمرحلة الطفولة (سن ما قبل المدرسة) هي أساس نمو الإنسان فيما يتلوها من مراحل، ولها تأثير خطير في رسم ملامح شخصيته.

أما معالم سلوكه الاجتماعي فتحدد بناءً على الاستعدادات الوراثية والمعايير الثقافية التي ينتمي إليها، وكذا على أساليب الثواب والعقاب التي يتلقاها من الأسرة التي تُعتبر العنصر الأهم في نمو الطفل اجتماعيًا؛ نظرًا إلى

كثافة التعامل معها وطول مدته، فالأسرة هي (الرحم الاجتماعي) الذي يستقبل الوليد بمجرد مغادرته للرحم البيولوجي.

ويتعلم الأطفال من خلال الملاحظة والمحاكاة والتقليد، ثم تماهي^(١) الابن مع الأب، والبنت مع الأم، ثم بالتنشئة الاجتماعية من خلال أسلوب الثواب والعقاب، وهي دوائر متداخلة تؤثر كل منها في الأخرى في علاقة متكاملة.

وعامة أساليب الثواب والعقاب تدور ما بين محفزات تحرك نحو السلوك الإيجابي المرغوب، وتعززه، وكوابح تكف وتثبط السلوك السلبي غير المرغوب؛ وذلك لأن الألم واللذة محفزان للكائن البشري، حيث يسعى دائماً إلى تجنب الأول، والحصول على الثاني.

يقول الدكتور حسين بن عبد الله بانيله: «وإذا كانت العقوبة هي إحداث ألم - سواء أكان مادياً أو معنوياً - في نفس المتربّي؛ فربّ ألم معنويّ أشدّ أثراً وأبقى في النفس من الألم المادي، خاصّة إذا قرن المربي هذا الألم بسوء تصرف الطفل، فإنه يمتنع عن مثل هذا التصرف مستقبلاً، وكذلك أيضاً إذا أيقن أن عملاً من الأعمال المذمومة يعقبه القصاص لا محالة؛ فإنه يتعد عن ذلك العمل، ويعمد إلى غيره مما لا حرج فيه؛ إذ الإنسان ميّال - على العموم - إلى تجنب العمل المقرون بالكدر والاستياء، كما أنه ميّال إلى القيام بالعمل المقرون بالغبطة والسرور»^(٢).

(١) التماهي أو (التقمص) أو (التوحد) (Identification): هو أعلى مراحل التقليد للوالد الذي تربطه بالطفل رابطة عاطفية، ويرى أنه يشبهه، فيشاركه في انفعالاته، ويتبنى نمطاً كلياً لسلوكه ودوافعه واتجاهاته وقيمه، والسلوك الناشئ عن التماهي يعد ثابتاً نسبياً، بخلاف السلوك الناشئ عن التقليد، فإن من السهل تغييره، وانظر: (ص ٤٧٩).

(٢) «أهداف التربية الوقائية في الإسلام» (ص ١١٧).

وإذا كان الطفل يتوهم أنَّ الثواب هو أن يحصل على كل ما يريد، فإنه يجب تصحيح هذا المفهوم المغلوط لديه؛ حتى يعلم أنَّ الثواب مرتبط بالسلوك الحسن؛ من أجل أن يلتزمه، بينما يأتي العقاب نتيجةً للسلوك السيئ؛ كي يردعه عن التماهي في الخطأ قبل أن يتحول إلى عادةٍ راسخة.

وقد رأينا أبناء يلومون آباءهم حين رشدوا؛ لأنهم لم يعاقبوه حين أخطؤوا وهو صغار، وتهاونوا في ردعهم باسم المحبة والحنان.

فوائد العقاب التربوي:

لا يُعدُّ العقابُ تربويًّا إلا إذا قُصدَ به التدريب والتعليم والانضباط وتصحيح المسار، ولا يتم عقاب تربوي بهدف العقاب لذاته، ولا يُقبلُ العقاب العشوائي المفاجئ الذي لم يسبقه تخطيط وشرح وقواعد.

من فوائد العقاب التربوي:

١ - أنه وسيلة تردع الطفل عن السلوك السلبي أو تقلل حدوثه؛ ليحل محله السلوك الإيجابي إذا اقترن هذا السلوك الإيجابي بالإثابة والتشجيع، مما يحسِّن المناخ الأسري، ويحجِّم المشاكل داخل الأسرة.

٢ - تطبيق العقاب التربوي بشروطه يمنح الطفل القدرة على التمييز بين السلوك المرغوب المسموح به، والسلوك المرفوض غير المسموح به، ويمده بالمعايير، ويرسم للطفل حدود حرّيته ونطاق صلاحيته.

٣- إذا صحب العقاب شرحٌ وتفهم وإقناع بضرر السلوك السلبي، والعواقب التي تترتب عليه، فإنه يعلمُ الطفل كيف يصحح خطأه، ويتجنب عاقبته.

٤- إذا اقترنت العقوبة التربوية المنضبطة بأسلوب الإثابة والتشجيع، فإنَّ هذا يساعد على تكوين الضمير لدى الطفل.

٥- تؤدي العقوبة التربوية -على المدى البعيد- إلى إضعاف الدافع العدواني لدى الطفل.

٦- يقلل العقاب الشعور بالذنب؛ حيث يشبه الكفارة عند الكبار.

٧- إذا تمَّ العقابُ بسبب عدوانٍ على آخر، فإنه يُشعرُ المعتدى عليه بالإنصاف.

٨- يُكسب العقابُ الإثابة والتشجيع بريقًا وجاذبيةً تجعل الطفل يُقدِّرُ الثناء؛ لأنه بالصدِّ تتبين الأشياء، (والصدُّ يُظهرُ حُسَنه الصدِّ)، والطفل إذا تلقَّى الثناء فقط تعودَّ عليه، وربما فقد تأثيره على المدى البعيد.

٩- يهيئ العقابُ الأطفالَ نفسيًا وعقليًا للانخراط لاحقًا في العالم الخارجي، وتحملُ مسؤولية أفعالهم، مع الالتزام بضوابط المجتمع وقواعد التعامل مع أفرادهِ.

من مميزات العقاب التربوي وخصائصه:

- أنه لا يتم إلا على يد مربٍّ مؤهل مُلم بفنيات التعامل السليم مع الطفل.
- أنه يقترن بالحب والرفق والاحترام والتقدير للطفل، ويحفظ كرامته.
- أنه لا يسبب مضاعفاتٍ جسدية ولا نفسية مؤذية.

- أنه خالٍ تمامًا من القسوة والفظاظة والصراخ والسب والشتم والإهانة والنقد الهدام.

- أنه ينصب على إدانة السلوك وليس الشخص نفسه.

- أنه يسمح للطفل بالتعبير عن مشاعره.

- أنه يستبقي أواصر العلاقة بين الوالدين والأولاد بدون شروخٍ تُصدِّعُها.

لماذا ينتج العقاب أحياناً سلبيات؟

الجواب -ببساطة- لأنه عقاب غير تربوي، يتسم بالتطرف والتعسف والمغالاة والقسوة، وبعبارة أخرى؛ لأنه لا يستوفي شروط وضوابط العقاب التربوي المقبول التي لو تأملتها لوجدتها مشحونةً باحترازات من شأنها منع حدوث هذه السلبيات:

- فالعقاب المقترن بالإهانة والسب والشتم والتحقير يسبب تشويه صورة

الذات (Self-image) وضعف تقديرها عند الطفل (Self-esteem).

- والعقاب القاسي المفرط يأتي بنتائج عكسية كالتمرد والعناد والتحدي.

- والمربي الذي اختار استراتيجية تربوية غير مناسبة يُثبِّت السلوك السيئ

(كالنبول الليلي، أو مص الأصابع، أو قضم الأظافر) بدل تحجيمه أو إلغائه.

لماذا يعاود الطفل ارتكاب الخطأ رغم العقاب؟

يقول الأستاذ الدكتور أحمد عزت راجح (ت ١٩٨٠م) رَحِمَهُ اللهُ:

«ما بال الطفل يعاود ارتكاب الذنوب بالرغم من تكرار عقابنا إياه؟ قد يعتبر

الطفل ضربنا له نوعاً من الثواب لو كان يُؤوّل هذا الضرب على أنه مظهرٌ للاهتمام به إن كان ظمناً إلى اهتمامنا به، أو ربما كنا نكثر من ضربه في مناسبات مختلفة فاختلط عليه الأمر، فلم يعد يستطيع أن يميز بين الأعمال التي يُعاقب عليها وبين غيرها، وإذا به أصبح يتقبل الضرب على أنه أمرٌ عادي، عليه أن يحتمله بحكم العادة، أو ربما كان على درجة كبيرة من عدم النضج العقلي بحيث يعجز عن الربط بين العقاب والممنوع، أو لعله يعاني من حاجة لا شعورية إلى عقاب النفس، فإذا به يجد في العقاب راحةً ومَفْزَعاً يُهرع إليه للتخفف من وخز ضميره، هنا تكون جاذبية الممنوع أكبر من ألم العقاب، أو ربما كان يرتكب الخطأ مُرغماً مقسوراً بدوافع مكبوتة لا سلطان له عليها، كالطفل المشكل^(١).



(١) «أصول علم النفس» (ص ٢٨٣).

البَابُ الثَّانِي

قواعد العقاب
وضوابطه



تمهيد

إنَّ تربية الطفل عملية حيوية تحتاج إلى تخطيط ينافي العشوائية والتخبط، وهي صعبة تحتاج إلى صبرٍ وجهدٍ متواصل من الأبوين معاً؛ قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

وتحتاج إلى تعلُّمٍ واكتساب ومهارة وبخاصة في زماننا حيث صارت «تربية الأطفال» علماً وفناً تتسابق فيه الأمم؛ كي يحظى أطفالها بأفضل وسائل التنشئة السليمة والرعاية المثلى.

والطفل ضيف جديد على الحياة يحتاج وقتاً طويلاً لكي يستوعب دروسها ويكتسب السلوك الصحيح، ويتشرب ثقافة أسرته وقيم مجتمعه.

وهو يمرُّ خلال نموّه بمراحل صيرورة وتشكل تشمل بناءه الجسدي والنفسي والاجتماعي، وحين يخطئ الأطفال فإنَّ أخطاءهم مرآة تعكس مراحل تشكُّلهم، وقد تكون جزءاً من خبرة قاصرة أو تجربة لم تنضج، ولذلك يجب أن ننظر إليها على أنها مرحلة إيجابية رغم الأخطاء والتجاوزات؛ لأنها -أي الأخطاء- تشير إلى نموهم ونزوعهم إلى الاستقلالية والتجربة.

ومن هنا يجب أن لا نجزعَ من تصرُّف طفولي، أو خطأٍ عابرٍ، أو موقفٍ غير لائق، بل يجب أن نرى خطأهم على أنه فرصة ثمينة كي يتعلموا؛ فإنَّ

أفضل فرصِ التَّعلُّمِ تتوفَّرُ عند ارتكاب الخطأ أو بعده مباشرة، فلنلتقط الخطأ، لا لنعاقب عليه، بل لنعلمهم منه دروسًا جديدةً.

وإنَّ أنجحَ وسائل التربية التَّربيةُ بالقُدوة، والتوجيه، والتعليم، والرفق والرحمة والحب، فمن وُفِّقَ لالتزامها لا يحتاج في الغالب إلى العقاب، فالوقاية توفر كلفة العلاج، وهي دائمًا خير من معاناة العلاج.

والعقاب وسيلة واحدة من وسائل تعديل السلوك، وهي وسيلة استثنائية تأتي بعد استنفاد وسائل ناعمة عديدة، ومع ذلك فإنَّ من المربين -بسبب ضيق صدره، وضعف خبرته- من يفرع إلى العقاب؛ استعجالاً لتعديل سلوك الطفل، وينسى أنَّ العقابَ -وإن كان جزءاً من أساليب التربية- محوَّطٌ بسياسات من الضوابط والشروط والقيود التي تهدف إلى تحقيق هدف العقاب التربوي، وتضمن حماية الطفل من آثار العقاب غير التربوي، وتمنع المربي من ظلم الطفل والإساءة إليه.

نتناول في هذا الباب -بحول الله ومعونته- أهمَّ ضوابط العقاب؛ حتَّى يكون تربوياً نافعاً في تعديل سلوك الأطفال وتعليمهم الانضباط، وقبل الشروع في ذلك ننبه إلى أمرين:

الأول: أنَّ من نِعِمَّ الله علينا في هذا الزمان -بعد ثورة المعلومات- سهولة الحصول على التوجيهات التربوية من خلال المواقع الإلكترونية النافعة، وكذلك توفُّرُ الأخصائيين الخبراء في التربية والإرشاد النفسي والعلاج النفسي، الذين يمكن استشارتهم والانتفاع بتوجيهاتهم، فليحرص المربون على مشورتهم

والرجوع إليهم ما داموا ينتمون إلى إطارنا المرجعي (Our Frame of Reference) الإسلامي، ويتمسكون بعقيدتنا، ويحترمون قيمنا.

الثاني: أنه مهما شرحنا من الضوابط والمسالك التربوية، فإنَّ عقلية المربي الإيجابي المبدع المرن ستظل قادرة -بحول الله- على ابتكار طرائق ووسائل تحقق الهدف التربوي من أقرب طريق دون اللجوء إلى العقاب، أو مع تحجيم استعماله في أضيق نطاق.



قواعد العقاب وضوابطه

الأولى: ابدأ بالوسائل الناعمة:

- إذا ذُكِرَتِ (التربية) قفز إلى أذهان كثير من الناس (العقاب والشدة) مع الطفل المراد تهذيبه، وإذا ذُكِرَ (العقاب) تبادر إلى أذهانهم (الضرب) توهُّمًا منهم أنَّ العقاب يُرادِفُ الضرب.

إنَّ فَرْغَ المربي إلى العقاب اعترافٌ بالهزيمة، وإقرار بالفشل التربوي، وإعلان عن إفلاسه من أساليب التربية السوية، يقول الأستاذ مخيمر عنتر: «إنَّ لجوء الوالد أو المدرس إلى العقاب يعتبر اعترافًا بالهزيمة، مؤدّاه أنه لم يتمكّن من تحقيق أغراضه باستعمال أي وسيلة أخرى، أي: إنه عجز عن توجيهه وجهته حسنة، وعن معاونته على تنفيذ ما يتوقع منه بأي طريقة أخرى»^(١).

- نعم، العقاب وسيلة تربوية، لكنه أضعف الوسائل التربوية، وآخرها رُتْبَةٌ، بعد التربية بالقدوة، والتربية بالثواب، وغيرها.

- والذي يُغري المربين بالعقاب كونه سريع النتائج؛ إذ ينتج عنه الكف عن السلوك السلبي، لكنه لا ينشئ السلوك الإيجابي، وله آثار جانبية، فمن ثمَّ لا بُدَّ أن يُستعمل العقاب وفقًا لضوابط دقيقة صحيحة لتجنّب آثاره السلبية المحتملة.

(١) «الحب أولى من العقاب» المجلة العربية، الرياض، عدد (١٨٠ / ص ٢٨)، ١٦ محرم ١٤١٣ هـ.

- وعلى المربي أن لا يجعل العقاب هو المسيطر على علاقته بالطفل،
وأساليب التربية الصحيحة -وأهمها: التربية بالقدوة- تُغني عن العنف وتجنبنا
سلبياته، وهي نوعان:

(أ) وقائية (قبل حدوث السلوك السلبي).

(ب) وعلاجية (عند حدوث السلوك السلبي).

- وعلى المربي أن يمزج الأساليب العقابية بقدر أكبر من التعزيز الإيجابي
بالحب والرحمة والحنان والاهتمام والرعاية والتشجيع والمكافأة والمدح التربوي؛
كي تكون هذه الأساليب الناعمة هي السائدة المسيطرة على علاقتنا بالأطفال.
- وإذا وَبَّخْتَ الطفلَ على سلوك سيء، فلا بد أن تكونَ قد أثبتت عليه في
مناسبات أخرى، وعلى أفعال جيِّدة أخرى قد فعلها.

- وعليه أن يستفرغ وُسْعَه في تجنُّب العقاب بأن يستنفد سائر الوسائل
التربوية الأخرى قبل اللجوء إلى العقاب.

الثانية: ابن مع الطفل علاقة متينة قائمة على الحب والاحترام والثقة؛
العقاب وسيلة تحل محل الوسائل التربوية الأخرى في حالة الضرورة، حين
يفشل الأسلوب الرفيق في تهذيب الطفل، وحتى في هذه الحالة لن يُجدي كثيرًا
ما لم تكن هناك شخصية أبوية سوية، وعلاقة حب قوية بين الطرفين.

ويتم إنشاء هذه العلاقة وتدعيمها بإظهار الحب لهم من خلال احتضانهم،
وتقبيلهم، والتعبير اللفظي عن حبِّهم والفخر بهم، وتمضية الوقت الكافي معهم
في اللعب والمرح أو الخروج في نزهة أو رحلة خارج المنزل.

إنَّ هذه العلاقة ترفع من تقدير الطفل لنفسه، وشعوره بالجدارة والاستحقاق، وتشحن ذاكرته بذكريات طفولية جميلة تسكن في قلبه مدى الحياة، كما أنها تدعم وسائل التربية الأخرى وتعمّق آثارها الإيجابية، فإنَّ الطفل يقبل التصحيح والتوجيه ممن يحبُّه، وكذلك يتأثّر أكثر بالعقاب إذا صدر ممن يحبه، ويحرص على رضاه وقربه.

وأقوى طرق تعليم النظام والانضباط هي ما خاطب القلب قبل العقل؛ لأنَّ الطفل الذي تربطه علاقة وجدانية قوية بأبويه يحرص على إدخال السرور عليهما، وجذب أنظارهما نحوه، والفوز بتقديرهما وإعجابهما، وعلى الجهة الأخرى يبذل الطفل قدرًا جيّدًا من ضبط النفس ليتجنّب ما يُغضب الذين يحبهم، ويعتنون به.

إنَّ الطفل يرى النظام والانضباط من خلالك؛ فإذا كانت العلاقة بينكما سلبية نظر الأطفال إلى النظام على أنه تحكُّمٌ وقيد، فهم يقاومون حينئذٍ الاستجابة للنظام بكل ما أوتوا من قوة، بينما حينما تكون العلاقة إيجابية فإنَّ الأطفال ينظرون إلى النظام على أنه مفيد، وأنَّ قواعد السلوك ترضى أمانهم وسلامتهم.

الثالثة: الرفق هو الأصل الأصيل في التربية :

دل الوحيان الشريفان القرآن والسنة، وهدي الصحابة رضي الله عنهم وكل من اتبعهم بإحسان، على أن الرفق بالأطفال والتلاميذ هو الأصل الأصيل

(١) انظر كتاب المؤلف: «الرفق أسلوب حياة» ط. دار الأمل (١٤٤١هـ)؛ حيث فصلنا الأدلة على هذا المبدأ.

في تربيتهم، وأنَّ اللجوء إلى الشدة -وبخاصة العقاب البدني- استثناءٌ لا يقعُ إلَّا بعدَ استنفاد كل السبل والوسائل الممكنة لتقويم سلوك الطفل، وهو مشروط بشروط كثيرة، أهمها على الإطلاق: أن يَصُبَّ في مصلحةِ الطفل وإصلاح سلوكه.

فالنصوص الشرعية تُقلِّصُ دورَ العنف في علاقتنا بأطفالنا؛ لينحصرَ في حيزٍ ضيقٍ جدًّا لمعالجة حالاتٍ استثنائيةٍ وبضوابطٍ دقيقةٍ وصارمةٍ.

- وقد حفل تراثنا الإسلامي بنصوص ومواقف مأثورة عن السلف والخلف تُظهرُ كيف عَظَّموا مبدأ الرفق مع المتعلمين والأولاد، والتزموه في واقع حياتهم.

- ثم دَلَّت الدراسات التربوية الحديثة على أنَّ التربية المبنية على الرفق أنجع من التربية القائمة على العنف والضرب والخوف، وعلى أنَّ «الأطفال لا يدركون الدنيا بعقولهم الصغيرة وأفهامهم المحدودة، وإنما يدركون ذلك بمشاعرهم، وبما يُغِدِّقُه عليهم الربون من لُطفٍ ورفق وحب وعناية»^(١)، وعلى أنَّ كثيرًا من الانحرافات السلوكية لدى أبنائنا، وضعف شوقهم نحو التفوق العلمي ترجع أسبابها إلى جفافِ ينباعِ الرفق والحب والرحمة لدى من يقومون على تربيتهم.

إنَّ الطفل ذا التحصيل الدراسي الضعيف هو أحوجُّ إلى الرفق من الطفل المتفوق، والمربي الناجح هو من يتتبع أسباب ضعف التحصيل ويعالجها، وليس من يرفع العصا ليعاقبه.

(١) «مسؤولية الأب المسلم في تربية الولد» (ص ٧٣).

قال إبراهيم بن عبد الله الزبيبي: «سمعتُ نصر بنَ عليٍّ يقول: دخلتُ على المتوكل، فإذا هو يمدحُ الرفق، فأكثرُ، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، أنشدني الأصمعي: لَمْ أَرِ مِثْلَ الرَّفْقِ فِي لَبْنِهِ أَخْرَجَ لِلْعَذْرَاءِ مِنْ خِذْرِهَا مَنْ يَسْتَعِنُ بِالرَّفْقِ فِي أَمْرِهِ يَسْتَخْرِجُ الْحَيَّةَ مِنْ جُخْرِهَا فقال: يا غلام، الدواة والقُرطاس، فكتبتهما»^(١).

وقال أحمد بن موسى الأزرق:

لَوْ سَارَ أَلْفُ مُدَجِّجٍ فِي حَاجَةٍ لَمْ يَقْضِهَا إِلَّا الَّذِي يَتَرَفَّقُ^(٢)

لقد نصَّ الإعلان العالمي لحقوق الطفل عام (١٩٥٩م) على ضرورة التعامل برفق مع الطفل، ونحن المسلمون يجب ألا نتحرَّج من الترحيب بالمواثيق الدولية التي تتفق مع شريعتنا الإسلامية، بل نلتزمها؛ لأنها قاسم مشترك يتفق عليه كلُّ البشر من أجل طفولة سعيدة تنعم بلين الجانب، ولطف التعامل، بما يضمن نموًّا شاملاً وسليماً للطفل، بعيداً عما يُحِلُّ بالشخصية، ويُفقدُها توازنها السلوكي، وسلامتها الخلقية والعقلية.

العقاب التربوي

استثناء يؤيد أن الرفق هو الأصل

يقول الأستاذ محمد سعيد مرسي: «العقاب يعني تقديم مُنبِّه مؤلم إثر ظهور سلوك غير مرغوب فيه... والتسليم بأنَّ العقاب أمرٌ ضروريٌّ في العملية

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٢/١٣٤).

(٢) «روضة العقلاء» لابن حبان البستي (ص ٢١٦)، ومعنى مُدَجِّج: مَنْ عَلَيْهِ سِلَاحٌ تَامٌ.

التربوية خطأً كبير، فمعظمُ الناس يُسلمون بهذا كأنه حقيقة لا تحتلُّ جدلاً، ويعتقدون أنَّ الأطفال لا يتمُّ توجيههم بغير عقاب، فالعقاب هو رد الفعل الطبيعي تجاه أخطائهم! وينسى هؤلاء أنَّ العقاب حالة استثنائية في العملية التربوية، وليس من أصول التربية وقواعدها، فهناك ما يُغني عن العقاب أو على الأقل لا يجعله أمراً ضرورياً في العملية التربوية، بل إنَّ علماء السلوك أمثال سكينر وثورندايك ينظرون بِشكٍّ إلى قيمة العقاب في إضعاف السلوك المرْضيِّ، فتأثيره مؤقت، كما أنَّ السلوك المرْضيَّ عادةً ما يعاود الظهور في مواقف أخرى.

فعَلِّم ابنك قبل أن تعاقبه، حيث هناك أكثر من خمسين أسلوباً للمحاسبة والمعالجة، لكن: تقديم العقاب أمر فيه استسهال وابتعاد عن أصول التربية الصحيحة. وإنَّ شعور الصداقة مع الأبناء هو أفضل من أيِّ سياسات أخرى في التعامل يمكن وضعها، هذا إن أردت لنفسك ولأبنائك التميز، فلم يَعُد العقاب الوسيلة الإيجابية لردع أطفالنا عن السلوك الخاطيء، وإنما هناك وسائل أكثر تأثيراً ينصح بها علماء نفس الطفل من أجل تطوير شخصياتهم.

ونحن نؤكدُ دائماً على أهمية الجوانب الإيجابية في التربية، حيث نقدم التوجيه على العقاب، ونقدم الثواب على العقاب، ونعامل بمبدأ المحبة والإقناع والتحاور الهادئ العقلاني، فالطفل الذي يُخطئ نعلِّمه ولا نعنفه، ونصحِّح له ولا نضربه، وعلينا أولاً أن نجعله يؤمن بالقيم، ويستمسك بها، وندربه على السلوك لفترة تتجاوز ثلاث سنوات^(١).

(١) انظر: «كيف تكون أحسن مُربِّ في العالم» (ص ١٥٧، ١٥٨).

«إنَّ العقوبة وسيلة وليست غاية، والهدف منها الإصلاح لا الانتقام، فهي زواجر وجوابر في الوقت ذاته، ولذلك دعا الإسلام إلى استخدام الحكمة في حال إيقاع العقوبة على من خالف أو أهمل أو قصَّر أو تسبب في ضررٍ ما، وتكمن هذه الحكمة في التدرج في تأديب المرء، حيث يلزم الرفق حتى في مثل هذه الأحوال، فلا يجوز أن يكون التأديب بشدة تقود إلى العنف، كما لا يجوز أن يكون ليناً متساهلاً فيه إلى درجة تنم عن الضعف، بل يتدرج المؤدب أو المربي في المعالجة من الأخف إلى الأشد؛ مراعاةً للرفق في معاملة الأبناء والناس بشكلٍ عام»^(١).

وما أصدق ما قاله سلطان العلماء العز بن عبد السلام رَحِمَهُ اللهُ: «مهما حصل التأديب بالأخف من الأقوال والأفعال... لم يعدل إلى الأغلظ؛ إذ هو مفسدة لا فائدة فيه لحصول الغرض بها دونه»^(٢).

الرابعة: حاول منع حدوث السلوك السلبي من الأصل؛

- وذلك عن طريق سدِّ الذريعة إليه، فمثلاً حين يطلب الطفل أن يشرب ماءً، وتوقعت أنه بعد الفراغ من الشرب يرمي الكوب الزجاجي فينكسر، فإذا أن تُسقيَه بيدك، أو تصب له الماء في كوب من البلاستيك.

- وقد يُعزَى السلوك السلبي من الطفل إلى حرمانه من الإشباع، فالحرمان يدفع الطفل إلى البحث عن أساليب جذب الاهتمام، ولو في شكل سلوك سلبي، فقد يتهيج الطفل، ويصبح عدوانياً لمجرد حرصه على أن ينال اهتمام الأم، وإذا

(١) «تربية الطفل في الإسلام» (ص ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) «قواعد الأحكام في مصلحة الأنام» (٢/ ٧٥) بتصرف.

زجرته الأم وعَنَّفَتْه لأجل ذلك؛ فقد دَعَمَت سلوكه السلبي دون أن تقصد ذلك، أما إذا منحتَه الاهتمام الكافي، وكلفتَه بما يناسبه من أعمالٍ منزلية، فإنَّ هذا يُشبع حاجته إلى الاهتمام، فيقل لجوؤه إلى محاولة انتزاع الاهتمام بالسلوك السلبي.

إنَّ السلوك السلبي (صورة غير لفظية) من الصور التي يعبر بها الطفل عن حاجة نفسية لديه تحتاج إلى إشباع.

بدائل مقبولة تحل محل السلوك السيئ؛

فإذا كان الغلام عدوانياً كثيرَ النشاط ويضرب أخته باستمرار، أهده كرة الملائكة لِيُقَرِّغَ طاقته العدوانية فيها بعيداً عن أخته، من باب التسامي (Sublimation).

- إذا كان يبصق في كلِّ مكان، فحدد له مكان البصق (في الحمام مثلاً) أو في الوعاء المُخصَّص لذلك.

- أخذ الطفل يتشاجر مع أخيه وهما يلعبان، هنا يمكن للأم أن تخيرهما ليقررا: «إما أن توقفا التشاجر، وتهدآ، أو أسحب الألعاب منكما».

- وتأمل هذا الدرس الذي يُجسد أفضلية البديل الإيجابي على العقاب المهين؛ يقول أحد الشباب: «ذات يوم كنت ألعب في فناء المدرسة، وفجأة ذهبت الكرة بين شجيرات الحديقة، فذهبت لأحضر الكرة، ودون قصد كسرتُ إحدى الشجيرات، ورآني معلم الزراعة فغضب كثيراً وقال لي: «اختر أحد

أمرين، أضربك على قدميك أو أستدعي ولي أمرك؟»، فاخترتُ الضربَ خوفاً من حضور أبي إلى المدرسة، وضربني المعلم، ولو أنه -بدلاً من ذلك- علّمني كيف أُحضِرُ شجرةً أخرى، وأزرعُها لكان خيراً لي وله».

الخامسة: دَعْمُ السلوكِ العكسيِّ (المرغوب)؛

من أجل كَفِّ السلوكِ السلبي يمكن أن ندعم السلوكِ العكسيِّ الإيجابي عن طريق (لعب الدور) أو (النمذجة).

مثال: طفل كلما أمسك بالقلم الرصاص كسره بدلاً من أن يكتبَ به. فنعطي قلمًا لأخيه الأكبر يمسكه بيده، ثم يكتب به، ثم نكافئ هذا الأخ بهدية أو مدح أو احتضان وتشجيع؛ ليتأسى به أخوه الأصغر.

- وعموماً، يمكن تعزيز السلوكِ المرغوب بوسائل الإثابة المتنوعة^(١) كلما عمله؛ لأن الإثابة والمكافأة على السلوكِ المرغوب تعطيه إحساساً بلذة العمل الذي أُثيب عليه، وتدفعه إلى الحرص على الاستمرار فيه.

- ويمكن إجراء (تعاقد) مع الطفل أنه سوف يُكافأ بشيءٍ يُحبه إذا استبدل السلوكِ الإيجابي بالسلوكِ السلبي.

السادسة: عَلِّمُهُ وَأَقْنَعُهُ أَوَّلًا؛

لا بُدَّ من بذل الوسع في إقناع الطفل أولاً بجدوى السلوكِ الجيد، ولا بُدَّ أن يكون الطفل قد استوعب حدود السلوكِ المرغوب فيه، وغير المرغوب فيه، ولماذا هو ضارٌّ ومؤذٍ، مسبقاً قبل اللجوء إلى العقاب.

(١) وقد شرحناها مفصلة في «التربية بالثواب».

- احرص على الاستماع الفعّال، وتعاون معه للوصول إلى حل، وساعده على القرار بعرض إيجابيات وسلبيات كل اختيار، معتمدًا في كل ذلك منهج الحوار الهادئ العقلاني من أجل إقناعه، وبخاصة مع المراهقين.

- فإذا كان يُفِرط في السهر -مثلًا-: فبين له أضرار السهر، وفائدة النوم المبكر، وملاءمته لفطرة الله التي فطرنا عليها.

- وتأمل هذا الموقف الرائع الذي يُقْصُّه صاحب مزرعة كبرى: «عندما كنتُ في المرحلة الابتدائية، رآني المعلم يومًا أقطعُ أوراقًا من شجرة في المدرسة، فنادى عليّ وذهبتُ إليه خائفًا، وظننتُ أنه سيضربني، ففوجئتُ به يبتسم ويقول لي: «لقد منعتَ هذه الأوراقَ من التسبيح، ومنعتَ شخصًا مُتعبًا أن يستظل تحتها، ومنعتَ عصفورةً من الوقوف عندها والأكل منها»، وربت على كَفِّفي وانصرف مبتسمًا، ومن يومها أحبيتُ الزرع والشجر، ودخلتُ كلية الزراعة، وعندي اليومَ مزرعةٌ ناجحةٌ والحمد لله».

- وحكى بعضُ التربويين كيف أنه تلقَّى شكوى من سوء سلوك ولده وفوضويته في الحافلة المدرسية، فأجرى حوارًا مع ابنه، وقال له: «أعلم أنك ستُحرم من صُحبة أصدقائك إذا منعتك من ركوب الحافلة، فهل لديك حل لهذه المشكلة؟»

فأجابه ولده: «يمكنني أن أجلسَ بجوار السائق بعيدًا عن أصدقائي المشاغبين»، وبالفعل انقطعت الشكوى من تصرُّفاته في الحافلة بفضل حكمة الأب الذي حرَّك دافعية ابنه ليُحسِّن سلوكه باختيار حل نابع من ذاته، وسيهتم بتطبيقه.

السابعة: بَيِّنْ لطفلك أَنَّ الهدف الوحيد من العقاب هو مصلحته؛

لا بُدَّ أن تجعلَ هدفك الوحيد من عقاب الطفل هو تهذيبه، وتقويم سلوكه سلبى معين يفعله، وليس الهدفُ الانتقامَ منه، ولا الاقتصاص، ولا السيطرة عليه والتحكم فيه، ولا إذلاله وإهانته، ولا تفريغ شحنة غضبك، وشفاء غيظك منه أو من غيره.

إنَّ الإقناع بأثر العقوبة جزء من عملية إصلاح السلوك من خلالها، وهو مهمٌّ لمنع رد الفعل السلبي تجاه من أوقعها، وتجاه النظام الذي فرضها.

وبدون الخوض في نقاشٍ طويلٍ فسّر لولدك أنَّ كل ما تستعمله من أساليب تربوية (ومنها العقاب) يصب -في نهاية الأمر- في مصلحته، وأنَّ حُبَّكَ له واهتمامك به وحرصك على خيره هو ما يدفعك إلى تصحيح سلوكه.

بين له أن هذا التهذيب والانضباط سيكون عوناً له في حياته العملية، وأنَّ العالم الخارجي -وراء حدود المنزل- لن يتركك تتصرف دون أن تتحمل عاقبة تصرفاتك، وأن هذا التأديب سيُعَلِّمه كيف يتحكم في نفسه، ويحترم القواعد، وكيف يستفيد من أخطائه، ويتخذ القرارات السليمة.

الثامنة: عاقب عند تكرار الخطأ وليس عند أول خطأ؛

لا تعاقب الطفل إذا أخطأ للمرة الأولى؛ لأنه قد يخطئ لسيانته، أو لأنه لم يسبق تعليمه وتدريبه على السلوك السليم.

ولا يُعاقب الطفل إلا في حالة تكرار الخطأ نفسه عدة مرّات، مع تكرار التعليم والتوجيه والتصحيح^(١) النظري والعملي في كل مرة؛ لأن للتكرار أثراً في تعديل السلوك، فلا تَمَلَّ منه.

التاسعة: قدّم التصحيح النظري والعملي:

أولاً: التصحيح النظري المعرفي:

إذا أخطأ الطفل بسبب عدم معرفة شيء ما معرفة صحيحة، فهنا يتعين تصحيح معلوماته، وبهذا تحميه من تكرار الخطأ الناشئ عن عدم العلم أو عن معلوماتٍ غير صحيحة.

نماذج من التصحيح النظري (العلمي) في السُّنة الشريفة:

١- عن خالد بن ذكوان عن الرُّبِيعِ بنتِ مُعَوِّذٍ قالت: دخلَ عليَّ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِدَاةَ بُنَيَّ عَلِيٍّ، فجلس على فراشي كمجلسك مني، وجُورَاتُ يَضْرِبْنَ بِالْدُفِّ يَنْدُبْنَ^(٢) من قُتِلَ من آبائهن يومَ بدر، حتى قالت جارية: «وفينا نبيٌّ يعلم ما في غدٍ» فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَعِي هَذَا، وَقُولِي مَا كُنْتَ تَقُولِينَ»^(٣)، وفي رواية أحمد: «أَمَّا هَذَا، فَلَا تَقُولَاهُ».

(١) بل والتجاهل أحياناً كما بيّناه (ص ٦٩-٧٦).

(٢) الندب: ذكر أوصاف الميت بالثناء عليه، وتعدد محاسنه بالكرم والشجاعة ونحوها، وهو مما يُهَيِّجُ الشوق إليه والبكاء عليه.

(٣) أخرجه البخاري (٤٠٠١)، (٥١٤٧)، وأبو داود (٤٩٢٢)، والترمذي (١٠٩٠)، والنسائي في «الكبرى» (٥٥٦٣)، وابن ماجه (١٨٩٧)، والإمام أحمد (٢٧٠٢١)، وابن حبان (٥٨٧٨)، وغيرهم.

وقد رجَّح الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ أَنْ سَبَّ نَبِيهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجارية عَمَّا تقول هو النهي عن الإطراء في المدح، ونسبة علم الغيب إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واحتجَّ برواية حمَّاد: «لا يعلم ما في غدٍ إلا الله»، فأشار إلى علة المنع^(١).

قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠]. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقالت أمُّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «من زعم أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم ما في غدٍ؛ فقد أعظمَ الفريةَ على الله»^(٢) الحديث.

وما أخبر به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الغيوب إنما كان بإعلام الله تعالى إِيَّاهُ، لا أنه يستقل بعلم ذلك، قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

ومن هذا الحديث: «يُعَلِّمُ أَنَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَمْنَعُوا أَطْفَالَهُمُ الصِّغَارَ إِنْ سَمِعُوا مِنْهُمْ مَا يَخَالِفُ شَرَعَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ حَلْفٍ بغيرِ اللَّهِ تَعَالَى، أو كلمات أخرى تتنافى مع التوحيد أو تتعارض مع احترام النبي الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه الكرام رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، أو سَبٌّ أو شتم، أو غيبة أو نميمة، أو كذب وزور، أو استهزاء بأحد، أو تنابز بالألقاب، أو التَّغَنِّي بها ينافي الشرف والحياء، ولا يجوز لهم أن يتركوا الإنكار عليهم بحجة صِغَرِ سنهم»^(٣).

(١) «فتح الباري» (١١/٤٧٥).

(٢) الفريية: اختلاق الكذب، والحديث رواه البخاري (٧٣٨٠)، ومسلم (١٧٧)، والترمذي (٣٠٧٠).

(٣) «الاحتساب على الأطفال» للشيخ إحسان إلهي ظهير رَحِمَهُ اللهُ (ص ٤٥).

٢- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَخَذَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَكَانَ صَبِيًّا - تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ - أَيْ فِيهِ - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَخْ.. كَخْ.. اأْرِمْ بِهَا، أَمَا شَعَرْتَ أَنَا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟»^(١).

فنهاه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْخَطَا وَذَكَرَ لَهُ عِلَّةَ النَّهْيِ؛ لِتَكُونَ قَاعِدَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ فِي حَيَاتِهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مُسْتَعْمَلًا تِلْكَ الْعِبَارَةَ اللَّطِيفَةَ الْمُؤَثِّرَةَ: «أَمَا شَعَرْتَ - وَفِي رِوَايَةٍ: أَمَا عَلِمْتَ - أَنَا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟»، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَمِّهِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّا أَلْ مُحَمَّدٍ لَا تَحُلْ لَنَا الصَّدَقَةَ، إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ»^(٢).

٣- وعن عمر بن أبي سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنْتُ غَلَامًا فِي حَجَرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّخْفَةِ (الصَّحْنِ)، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا غَلَامُ، سَمَّ اللَّهُ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ» فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ^(٣).

وقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تَطِيشُ»: أَيْ تَتَحَرَّكُ فِي أَنْحَاءِ الطَّعَامِ هُنَا وَهَنَّاكُ، وَالصَّخْفَةُ: الصَّحْنُ.

(١) رواه البخاري (١٤١٩)، ومسلم (١٠٦٩)، وترجم له النووي: «باب وجوب أمر أهله وأولاده المميزين وسائر من في رعيته بطاعة الله تعالى، ونهيهم عن المخالفة، وتأديبهم، ومنعهم من ارتكاب منهجي عنه»، وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقوله: «كَخْ، كَخْ» يُقَالُ بِإِسْكَانِ الْحَاءِ، وَيُقَالُ بِكَسْرِهَا مَعَ التَّنْوِينِ، وَهِيَ كَلِمَةُ زَجَرٍ لِلصَّبِيِّ عَنِ الْمُسْتَقْذِرَاتِ، وَكَانَ الْحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صَبِيًّا» اهـ. من «رياض الصالحين» (٢٩٨/١).

(٢) رواه مسلم (١٠٧٢).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٦٣٣٢)، والبخاري (٥٣٧٦)، ومسلم (٢٠٢٢)، وغيرهم.

وتأمل كيف أن المعلم الأعظم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

- كان يخالط الأطفال، ويجالسهم، وربما داعبهم ولاعبهم، وهذه المخالطة والمواصلة تنتج ألفةً وامتزاجاً شعورياً (Connection) يُمهّد لتقبلهم التصحيح عندما يحين وقته (Correction)، والقاعدة تقول: التواصل قبل التصحيح (Connection before correction)، فالتواصل (حب)، والتصحيح (حزم)، وهما الجناحان اللذان تطيرُ بهما التربيةُ (Kind&Firm).

وقد استثمر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرصة مخالطة الطفل في الطعام ليوجهه، ويصحح له الخطأ فور وقوعه؛ كي يُعدّل سلوكه قبل أن يستمرّ ويصبح عادة.

- كيف تَلَطَّف في خطابه «يا غلام» إثارةً لانتباهه، وتمهيداً لنصيحته.

- كيف لم يقتصر على تصحيح خطئه (طيش يده في الصفحة)، ولكنه جاد عليه بتعليمه آداب الطعام من بدايتها حسب ترتيبها الموضوعي المنطقي: «سَمَّ الله» ثم «كُلْ بيمينك»، ثم «كل مما يليك».

٤- وَرُوِيَ عن عبد الرحمن بن أبي عقبة رَحِمَهُ اللَّهُ عن أبيه، وكان مولى من أهل فارس، قال: شهدت^(١) مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُحْدَا، فضربتُ رجلاً من المشركين، فقلت: خذها مني^(٢)، وأنا الغلام الفارسي^(٣)، فالتفت إليَّ رسول الله

(١) شهدت: حضرت.

(٢) خذها: أي الضربة أو الطعنة.

(٣) وأنا الغلام الفارسي: الجملة حال، وقال ذلك جرياً على عادتهم في المحاربة، أن يجبر الضاربُ المضروبَ باسمه ونسبه إظهاراً لشجاعته.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «هَلَّا قُلْتَ»^(١): خذها مني، وأنا الغلام الأنصاري^(٢)»^(٣).

فلو صحَّ الحديث لكان فيه دلالة على تصحيحه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الخطأ فور وقوعه؛ لأن ذلك تم أثناء الحرب في غزوة أحد، فتأمل لطفه ورفقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الصحابي حين خاطبه قائلاً: «هَلَّا»، ثم بيَّن له الموقف البديل الصحيح، وهو الاعتزاز بالانتماء إلى الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأن مولى القوم منهم، فاستأصل الخطأ من جذره، وحقق الفائدة التربوية المرجوة.

٥- وعن رافع بن عمرو الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنتُ وأنا غلام أرمي نخلاً للأنصار، فَأَتَى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ف قيل: إن ها هنا غلاماً يرمي نخلنا، فَأَتَى بي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «يا غلام، لِمَ ترمي النخل؟» قال: قلت: أَكُلُّ! قال: «فلا ترمِ النخل، وَكُلْ ما يسقط في أسافلها» ثم مسح رأسي، وقال: «اللهم أشبع بطنه»^(٤).

فهذا الغلام الجائع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وقت الشدة والفقر، فأجأه الجوع إلى حدائق المدينة المملوكة للأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ولأنه في

(١) هلا قلت: أي: لِمَ لا قلت؟

(٢) لأن مولى القوم منهم، قال القاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: إذا افتخرت عند الضرب فانتسب إلى الأنصار الذين هاجرت إليهم، ونصروني، وكان فارس في ذلك الزمان كُفَّارًا، فكره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الانتساب إليهم، وأمره بالانتساب إلى الأنصار؛ ليكون منتسباً إلى أهل الإسلام» اهـ من «مرقاة المفاتيح» (٤/ ٦٦١).

(٣) رواه أبو داود (٥١٢٣)، وابن ماجه (٢٧٨٤)، والإمام أحمد (٢١٤٧٧)، وقال محققو «المسند»: «إسناده ضعيف»، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (١٠٩٦).

(٤) رواه الإمام أحمد (٢٠٣٤٣)، وأبو داود (٢٦٢٢)، والترمذي (١٢٨٨) وصححه، وابن ماجه (٢٢٩٩)، والبيهقي (٣/ ١٠)، وابن أبي الدنيا في كتاب «العيال» (١/ ٤١٦)، وقال محققو «المسند»: «حديث محتمل للتحسين».

غفلة عن حكم الأخذ من مال الغير بدون رضاه؛ أخذ يقذف النخل بالحجارة حتى يسقط منها ما يأكله، فأتوا به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليفصل في أمره.

فبدأ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسؤاله عن سبب سلوكه، مما أعطاه فرصة ليُبيد عذره، فقال: «أَكُلُّ» ما يعني أنه لم يقصد التعدي، إنما كان دافعه الجوع، فكان يستبيح الأكل فقط دون أن يحمل منه معه في ثوبه.

فصحح له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطأه، فقال: «لا ترمِ النخل» رعاية لمصلحة مالك النخل وحفظاً لماله، ثم أرشده إلى البديل المشروع الذي يحصل به قصده من دفع الجوع، فقال: «وَكُلْ ما يسقط في أسفلها» لأنَّ العادة أن ما سقط من النخل على الأرض يُترك، وإذا لم يلتقطه لا قِطْ فَسَدَ، ثم أتبع ذلك بالمسح على رأسه، ودعا له بالدعاء المناسب للموقف.

وعن سنان بن سلمة أنه حدَّث بالبحرين فقال: كنتُ في غِلْمَة بالمدينة، نلتقط البَلَحَ، فأبصرنا عمرًا، وسعى الغلمان (أي: هربوا) وقمتُ (أي: وقفتُ، ولم أهرب) فقلت: يا أمير المؤمنين! إنما هو ما أَلقت الريحُ، قال: «أرني أنظرُ»، فلما أَرَيْتُهُ، قال: «انطلق».

قال: قلتُ: يا أمير المؤمنين! وَلَ هؤلاء الغلمان، إنَّك لو تواريتَ انتزعوا ما معي، قال: فمشي معي؛ حتى بلغتُ مأمني^(١).

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «العيال» (١/٤١٨).

٦- وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسير، فحدا الحادي^(١)، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ازْفُقْ يَا أَنْجَشَةُ -وَيَحْك- بِالْقَوَارِيرِ»^(٢).

وفي رواية: «يا أَنْجَشَةُ، رُوَيْدَكَ سَوْفًا بِالْقَوَارِيرِ»^(٣).

لأنَّ أنجشة كان في سَوْقِهِ عُنْفٌ، فأمره أن يرفق بالمطايا.

والقوارير: كناية عن النساء اللاتي كُنَّ على الإبل التي تُساق حينئذٍ، فأمر الحادي بالرفق بالحداء؛ لأنه يحث الإبل حتى تُسرَّعَ، فإذا أسرع لم يؤمن على النساء السقوط^(٤).

فتأمل كيف ناداه باسمه، وخاطبه بلغة رفيقة رفيقة: «رُوَيْدَكَ».

٧- ورُوِيَ عن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غلامًا لنا، يُقال له: أفلح، إذا سجد نفخ، فقال: «يا أفلح تَرَبَّ وَجْهَكَ»^(٥).

قولها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إذا سجد نفخ، أي: في الأرض ليزول عنها التراب فيسجد، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَرَبَّ وَجْهَكَ» من التريب، أي: أوصله إلى التراب، ووضعه عليه، ولا تُبعدُه عن موضع وجهك بالنفخ؛ فإنه أقرب إلى التواضع، فإنَّ إصاَق التراب بالوجه الذي هو أفضل الأعضاء غاية التواضع.

(١) الحادي: قائد القافلة المسافر ليلاً، وحدا الإبل وبها: ساقها وحثها على السير بالحداء، والحادي: الذي يسوق الإبل بالحداء، وهو الغناء لها.

(٢) رواه البخاري (٥٨٥٦).

(٣) رواه مسلم (٢٣٢٣).

(٤) «فتح الباري» (١٠/ ٥٤٥).

(٥) أخرجه الترمذي (٣٨٢)، وابن حبان (٤٨٣)، وقال الترمذي: «وإسناده ليس بذلك، وميمون ابن حمزة ضعفه بعض أهل العلم»، وأقره الحافظ في «الفتح» (٣/ ٨٥)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترمذي» (٥٩)، وفي «السلسلة الضعيفة» (٥٤٨٥).

٨- وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: اقتتل غلامان؛ غلامٌ من المهاجرين، وغلامٌ من الأنصار، فنادى المهاجر: يا للمهاجرين، ونادى الأنصاري: يا للأنصار، فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «ما هذا؟ دعوى أهل الجاهلية؟» قالوا: لا يا رسول الله، إلا أن غلامين اقتتلا، فكسَعَ أحدهما الآخر (ضربه على مؤخريته)، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا بأس، ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلينبهه، فإنه نَصَرَ له، وإن كان مظلوماً فلينبصره»^(١).

٩- وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه مرَّ بفتيانٍ من قريش قد نصبوا طيراً، وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كلَّ خاطئة من نَبْلِهِمْ، فلما رَأَوْا ابنَ عمر تفرَّقوا، فقال ابنُ عمر: «من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، وإنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن من اتَّخَذَ شيئاً فيه روحٌ غرضاً»^(٢).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه دخل على يحيى بن سعيد، وغلامٌ من بني يحيى رابطٌ دجاجةً يرميها، فمشى إليها ابنُ عمر حتَّى حلَّها، ثم أقبل بها وبالغلام معه، فقال: «ازجروا غلامكم عن أن يصبرَ هذا الطيرَ للقتل، فإنِّي سمعتُ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى أن تُصَبَرَ بهيمةٌ أو غيرها للقتل»^(٣).

وتُصَبَر: تُحْبَس لِثُرْمَى، وتُتَّخَذَ هدفاً حتى تموتَ، أخذاً من الصبر، وهو الإمساك في ضيق.

(١) رواه مسلم (٤٦٨١).

(٢) رواه البخاري (٥٥١٥)، ومسلم (١٩٥٨)، والعَرَض: الهدف الذي يُرْمَى لِيَتَعَلَّمَ فيه الإصابة.

(٣) رواه البخاري (٥٥١٤).

١٠ - ولما قدم عبد الرحمن بن سهل ومُحِيصَةُ وَحُويَصَةُ ابنا مسعود إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذهب عبد الرحمن يتكلم، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَبُرَ، كَبُرَ»، وهو أحدث القوم، فسكت، فتكلما، وفي رواية أنه قال لعبد الرحمن: «كَبُرَ الكُبْرُ» والكُبْرُ: جمع أكبر، أي: قدّم للكلام من هو أكبرُ سِنًا منك.

وفي رواية: «الكُبْرُ الكُبْرُ» بالنصب على الإغراء^(١).

١١ - وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت أخدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكنت أدخل عليه بغير إذن، فجئت ذات يوم، فدخلت عليه، فقال: «وراءك يا بُني! إنه قد حدث أمرٌ، فلا تدخل علي إلا بإذن»^(٢).

والأمر الذي حدث هو نزول آية الحجاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ الآية [الأحزاب: ٥٣].

قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في رواية: لما نزلت آية الحجاب ذهبتُ أدخل كما كنتُ أدخل، فقال لي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وراءك يا بُني!».

وعند مسلم: «فانطلق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى دخل البيت، فذهبتُ أدخل معه، فألقى السَّترَ بيني وبينه، ونزل الحجاب».

(١) رواه البخاري (٣٠٠٢)، ومسلم (١٦٦٩)، وغيرهما، وانظر فصل «الأدب مع الأكابر» في كتابي «حرمة أهل العلم» (ص ٢٨٥-٢٩٩).

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٠٧)، والإمام أحمد (٣/ ١٩٩، ٢٠٩)، والبيهقي في «الشعب» (٦/ ١٦٤، ١٦٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٢٩٥٧)، وقال في «صحيح الأدب» (٦٢٠): «صحيح لغيره».

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أنا أول الناس عِلِمَ بآيةِ الحجاب؛ لما نزلت قال لي رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تدخل على النساء»، فما مرَّ عليَّ يومٌ كان أشدَّ منه.

ثانياً: التصحيح العملي التطبيقي:

إذا كان خطأ الطفل ناشئاً عن عدم قدرته على أداء عملٍ ما وإتقانه بسبب قلة خبرته، فهنا يأتي أسلوب التصحيح العملي الميداني التدريبي.
نماذج من التصحيح العملي في السُّنة الشريفة:

١ - عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ بغلامٍ يَسْلُخُ شاةً، فقال له: «تَنَحَّ حَتَّى أُرِيكَ، فَإِنِّي لَا أَرَاكَ تُحَسِّنُ تَسْلُخُ»، قال: فأدخل رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده بين الجلدِ واللحم، فدَحَسَ بها^(١) حتى توارث إلى الإبط، ثم قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هكذا يا غلامُ فاسْلُخْ»، ثم انطلق فصلَّى، ولم يتوضَّأ، ولم يَمَسَّ ماءً^(٢).
فليكن شعارُ المربي -إذا رأى الطفل يباشر عملاً لم يسبق له التدربُ عليه فأخطأ-: «تَنَحَّ حَتَّى أُرِيكَ».

٢ - وتأمل كيف اقتدى أبو مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تعليم الكبار والصغار كيف يطبقون أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صَلُّوا كما رأيتموني أُصَلِّي»، فإنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَمَعَ قومه، فقال: يا مَعْشَرَ الْأَشْعَرِيِّينَ، اجْتَمِعُوا واجْعُوا نِسَاءَكُمْ وأبناءكم؛ أَعْلَمَكُمْ صَلَاةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [التي] صَلَّيْنا بِالمدينة،

(١) دحس بها: أي دسها بين الجلد واللحم كما يفعل السلاخ من الدحس وهو أن تُدْخَلَ يدك بين جلد الشاة وصفاقها فتسلخها، والصَّفَاقُ: الجلد الباطن تحت الجلد الظاهر.

(٢) أخرجه أبو داود (١٨٥)، وابن ماجه (٣١٧٩)، وابن حبان (١١٦٣)، وقال الشيخ شعيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «إسناده قوي»، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح أبي داود» (١٧٠).

فاجتمعوا وجمعوا نساءهم وأبناءهم، فتوضأ وأراهم كيف يتوضأ، فأحصى الوضوء إلى أماكنه، حتى لما أن فاء الفيء، وانكسر الظل قام، فأذن، فصَفَّ الرجال في أدنى الصَّفِّ، وصَفَّ الولدان خلفهم، وصَفَّ النساء خلف الولدان، ثم أقام الصلاة، فتقدم فرَفَعَ يديه وكَبَّرَ، فقرأ بفاتحة الكتاب وسورة يسرها، ثم كَبَّرَ فرَكَعَ، فقال: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ»، ثلاث مرارٍ، ثم قال: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ»، واستوى قائماً، ثم كَبَّرَ وخرَّ ساجداً، ثم كَبَّرَ فرَفَعَ رأسه، ثم كَبَّرَ فسَجَدَ، ثم كَبَّرَ فانتَهَضَ قائماً، فكان تكبيره في أوَّلِ ركعةٍ ستَّ تكبيراتٍ، وكَبَّرَ حين قام إلى الركعة الثانية، فلما قَضَى صَلَاتَهُ أَقْبَلَ إلى قَوْمِهِ بِوَجْهِهِ، فقال: «احفظوا تكبيري، وتعلموا ركوعي وسجودي؛ فإنها صلاة رسول الله ﷺ التي كان يُصَلِّي لنا كذِي السَّاعَةِ مِنَ النَّهَارِ». الحديث^(١).

وفي رواية أنه قال لقومه: «أَلَا أَصَلِّيْ لَكُمْ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَصَفَّ الرجال، ثم صَفَّ الولدان خلف الرجال، ثم صَفَّ النساء خلف الولدان»^(٢).

٣- وعن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «بُتُّ عِنْدَ خَالَتِي مِمُونَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بنت الحارث، فقلتُ لها: «إِذَا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَيُّقِظْنِي»، فقام رسول الله ﷺ فقمْتُ إلى جنبه الأيسر، فأخذ بيدي، فجعلني من شِقِّهِ الأيمن، فجعلتُ إِذَا أَغْفِيتُ^(٣) يأخذ بِشَحْمَةِ أُذُنِي».

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٢٩٠٦)، وقال محققو «المسند»: «إسناده ضعيف لضعف شهر

ابن حوشب» (٥٤١/٣٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٢٨٩٦)، وعلته علة الحديث السابق نفسها.

(٣) أغفيت: نمت.

قال: فصلّى إحدى عشرة ركعة. الحديث^(١).

وفي رواية أخرى: «فوضع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده اليمنى على رأسي، وأخذ بأذني اليمنى يفتلها»^(٢).

فمع انشغاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصلاة اعتنى بتحويله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى شقه الأيمن، ولما انتابه النوم -الذي لا يناسب حال الصلاة- أخذ ينبهه، وينشطه بأخذ شحمة أذنه، وفي هذا من اللين واللفظ ما فيه.

وفي هذا الحديث أسوة لكل مُرَبٍّ أن يتولّى تصحيح خطأ الطفل في العبادات، وتوجيهه إلى الصواب، وألا يتهاون في ذلك احتجاجاً بصغر سنه، حتى تنطبع طريقة العبادة الصحيحة في ذهنه، ولا يكرّر خطأه.

٤ - وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أقبلتُ على حمارٍ أتانٍ^(٣) - وأنا يومئذٍ قد ناهزتُ الاحتلام^(٤) - ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصليّ بمنى إلى غير جدار، فمررتُ بين يدي بعض الصف^(٥)، وأرسلتُ الأتانَ ترتع^(٦)، فدخلتُ في الصف، فلم يُنكر ذلك عليّ»^(٧).

(١) رواه مسلم (٧٦٣).

(٢) قال الإمام النووي في شرح قول ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وأخذ بأذني اليمنى يفتلها» قيل: إنما فتلها تبيهاً له من النعاس، وقيل: ليتنبه لهيئة الصلاة، وموقف المأموم وغير ذلك، والأول أظهر لقوله في الرواية الأخرى: «فجعلتُ إذا أغفيتُ يأخذ بشحمة أذني». اهـ من «شرح النووي» (٤٧، ٤٦/٦).

(٣) أتان: الأثنى من الحمير.

(٤) ناهزتُ الاحتلام: قاربْتُ البلوغَ الشرعي.

(٥) أي: أمام صفٍّ من الصفوف.

(٦) ترتع: أي: تأكل ما تشاء، وقيل: تسرع المشي.

(٧) رواه البخاري (٤٩٣، ٧٦).

وفي رواية أخرى: «فلم ينكر عليّ أحد»^(١). أي: في أثناء الصلاة بالإشارة، ولا بعد الصلاة.

وذلك لأن سترَةَ الإمام سترَةٌ لمن خلفه، فلا يضر المأموم من مرَّ بين يديه، وقد استدَلَّ ابن عَبَّاسٍ على جواز المرور بعدم الإنكار عليه لانتفاء موانعه إذ ذاك، ويدل قوله: «فلم ينكر ذلك عليّ أحد» على أن الإنكار على الأطفال عند مخالفتهم أمراً شرعياً كان معهوداً معروفاً في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

العاشرة: العفو عن الطفل إذا أخطأ،

إذا أخطأ، والتجاوزُ عن خطئه مما يُلجأ إليه أحياناً، وقد روى عبد الله ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رجلاً جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، كم نغفو عن الخادم؟ فصمت، ثم أعاد عليه الكلام، فصمت، فلما كان في الثالثة، قال: «اعفوا عنه في كلِّ يومٍ سبعين مرة»^(٢).

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رجلاً أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، إن لي خادماً يُسيء ويظلم، أفأضربه؟ قال: «تعفو عنه كلَّ يومٍ سبعين مرة»^(٣).

(١) رواه البخاري (٤٩٣).

(٢) رواه أبو داود (٥١٦٤)، والترمذي بإثر (١٩٤٩)، وقال: «حسن غريب»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٨٨)، ورجَّح أن راويه ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٥٦٣٥)، وقال محققو «المسند»: «إسناده صحيح»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٨٠١/١).

الحادية عشرة: المداراة والتغافل والتجاهل؛

فصل تمهيدي للقاعدة الحادية عشرة

من الأساليب المهمة في التربية تجاهل أخطاء الطفل في بعض الأحيان، ولكن لهذه القاعدة ضوابط تحكمها، ولغموض معنى المداراة وإهمال كثير من الناس للتغاضي والتغافل نُفَصِّلُ أولاً معنى هذه الأخلاق، ونُدلِّلُ عليها، ونشرح أثرها في العلاقات الاجتماعية عموماً، ثم نتبع ذلك بذكر أهميتها وأثرها التربوي إن شاء الله.



أولاً: مدخل إلى فهم معنى المداراة والتغافل على العموم؛

المداراة: الملاينة والملاطفة، وأصلها المخاتلة، ومنه الدَّراية، وهو العلم مع تَكَلُّفٍ وحيلة^(١).

قال ابن بطَّال رَحِمَهُ اللهُ: «المداراة خفض الجناح للناس، ولين الكلام، وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة»^(٢).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «المداراة: الدفع برفق»^(٣).

قال تعالى: ﴿وَيَذَرُوهَا عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ [النور: ٩]، أي: يدفع عنها.

(١) «التوقيف على مهمات التعريف» للمناوي (ص ٣٠١).

(٢) انظر: «فتح الباري» (١٠/ ٥٤٥).

(٣) «فتح الباري» (١٠/ ٥٢٨).

ومداراة الناس من حُسن الخلق والمعاشرة بالمعروف، وتكون بملايتهم وحُسن صحبتهم، واحتماهم؛ لئلا ينفروا عنك.

ودرايته: إذا اتقيته، ولايته.

وتُسْتَعْمَلُ المداراة مع بعض الأشخاص في بعض الأحوال.

قال العلامة محمد الخضر حسين رَحِمَهُ اللهُ: «ترجع المداراة إلى حُسن اللقاء، ولين الكلام، وتجنُّب ما يُشْعِرُ ببغض أو غضب أو استنكار إلا في أحوال يكون الإشعار به خيرًا من كتمانها».

من صور المداراة في القرآن الكريم:

١ - قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ، قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحریم: ٣].

فقوله - سبحانه -: ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ﴾ أي عَرَفَهَا بَعْضٌ ما أَفْشَتْهُ مُعَاتِبًا، ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ أي بعض الحديث تَكْرُمًا.

قال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ: «وفيها حُسنُ المعاشرة مع الزوجات، والتَّلَطُّفُ في العُتْبِ، والإعراض عن استقصاء الذنب»^(١) اهـ.

٢ - وقال تعالى على لسان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم: ٤٣]، لم يَقُلْ: يا أبتِ إِنِّي عالمٌ وأنتَ جاهلٌ، أو ليس

(١) «محاسن التأويل» (١٦/٥٨٦٢، ٥٨٦٣).

عندك من العلم شيء، وإنما أتى بصيغة تقتضي أن عندي وعندك علمًا، وأن الذي وصل إلي لم يصل إليك ولم يأتك، فينبغي أن تتبع الحجة وتنقاد لها^(١).

٣- وقال تعالى على لسان إخوة يوسف: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾، المعنى: أي اقتدى بأخيه، ولو اقتدى بنا ما سرق، وإنما قالوا ذلك ليبرؤوا من فعله؛ لأنه ليس من أهمهم؛ وأنه إن سرق فقد جذبه عرق أخيه السارق؛ لأن الاشتراك في الأنساب يشاكل في الأخلاق^(٢).

قوله عَزَّجَلَّ: ﴿فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ يعني: الكلمة التي بعدها^(٣)، وهي قوله: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: تذكرون. وهذا تغافل من أجل بقاء وُدٍّ أو ستر زلة.

- ومن هذا قول الشاهد في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وامرأة العزيز: ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦].

قدّم هذا الفرض لأنه إن صح يقتضي صدقها وكذبها، فهي السيدة وهذا فتى، فمن باب اللياقة أن يُذكر الفرض الأول، والأمر لا يخرج عن أن يكون قرينة^(٤).

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص ٤٩٤).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٢٣٩/٩).

(٣) وهذا من باب الإضمار قبل الذكر، وهو كثير، وله شواهد كثيرة من القرآن والحديث واللغة.

(٤) «الظلال» (١٩٨٣/٤).

- ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالَ النَّسَوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠].

«ومقصد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما كان: وقل له يستقصي عن ذنبي، وينظر في أمري: هل سُجِنْتُ بِحَقٍّ أو بظلم؟ ونكَبَ عن امرأة العزيز حُسْنَ عِشْرَةٍ، ورعاية لِذِمَامِ الملك العزيز له.

وقوله: ﴿مَا بَالَ النَّسَوَةِ﴾ ذكر النساء جملةً ليدخل فيهن امرأة العزيز مدخل العموم بالتلويح حتى لا يقع عليها تصريح، وذلك حُسْنَ عِشْرَةٍ وأدب»^(١).

٤- وقال تعالى مخاطباً موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّئَلَّا نَعْلَهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

فأمرهما بالملاطفة واللين مع أنَّ فرعون كان غايةً في العتو والاستكبار، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ صفوةً الله من خلقه إذ ذاك.

٥- وقال عَزَّجَلَّ في الأبوين المشركين: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

أي: وصاحبهما في الدنيا مُصَاحِبًا حسنًا بصلة الأبوين الكافرين بالمال، وإلانة القول لهما، ودعائهما إلى الإسلام برفق مع أنهما مشركان بل ويمجاهدان ولدهما كي يشرك بالله تعالى.

٦- وقال عَزَّجَلَّ: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤].

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٢٠٧/٩).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: «هذا على وجه الإنصاف في الحجة، كما يقول القائل: «أحدنا كاذب»، وهو يعلم أنه صادق، وأن صاحبه كاذب، والمعنى: ما نحن وأنتم على أمرٍ واحدٍ، بل على أمرين متضادَّين، وأحد الفريقين مهتدٍ - وهو نحن - والآخر ضالٌّ - وهو أنتم، فكذبهم بأحسن من تصريح التكذيب»^(١).

وقوله عَزَّجَلَّ: ﴿لَعَلَّيْ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، قال السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «أي: إحدى الطائفتين منَّا ومنكم على الهدى مستعلية عليه أو في ضلالٍ مبين منغمرة فيه»^(٢).

وقال صاحب «الظلال» رَحِمَهُ اللهُ: ﴿وَلِنَّا أَوْ لِيَاكُم لَعَلَّيْ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، وهذه غاية النصفَةِ والاعتدال والأدب في الجدل؛ أن يقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمشركين: إِنَّ أَحَدَنَا لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى هُدًى، والآخر لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَلَى ضَلَالٍ، ثم يَدْعُ تحديدَ المهتدي منهما والضال؛ ليشير التدبر والتفكر في هدوء لا تغشى عليه العزة بالإثم، والرغبة في الجدال والمحال! فإنما هو هادٍ ومُعَلِّمٌ، يبتغي هدايتهم وإرشادهم لا إزلالهم وإفحامهم، لمجرد الإذلال والإفحام! الجدل على هذا النحو المذهب الموجي أقرب إلى لمس قلوب المستكبرين المعاندين المتطاولين بالجاه والمقام، المستكبرين على الإذعان والاستسلام، وأجدر بأن يثير التدبر الهادئ والافتناع العميق، وهو نموذج من أدب الجدل ينبغي تدبره من الدعاة..^(٣).

(١) «نفسه» (١٤/٢٩٨، ٢٩٩).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (٣/١٤١٧).

(٣) «في ظلال القرآن» (٥/٢٩٠٥).

٧- ومثل هذا قول مؤمن آل فرعون رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾. وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴿الآية [غافر: ٢٨]، ثم قال: ﴿يَقُولُ لَكُمْ أَلْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٩]. «يفرض لهم أسوأ الفروض، ويقف معهم موقف المنصف أمام القضية؛ تمثيلاً مع أقصى فرض يمكن أن يتخذه: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾.. وهو يحمل تبعه عمله، ويلقى جزاءه، ويحتمل جريرته، وليس هذا بمُسَوِّغٍ لهم أن يقتلوه على أية حال!

وهناك الاحتمال الآخر؛ وهو أن يكون صادقاً، فيحسن الاحتياط لهذا الاحتمال، وعدم التعرض لنتائجه: ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾.. وإصابتهم ببعض الذي يعدهم هو كذلك أقل احتمال في القضية، فهو لا يطلب إليهم أكثر منه، وهذا منتهى الإنصاف في الجدل والإفحام.

ثم يهددهم من طرف خفي، وهو يقول كلاماً ينطبق على موسى كما ينطبق عليهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.. فإذا كان موسى فإن الله لا يهديه ولا يوفقه، فدعوه له يلاقي منه جزاءه، واحذروا أن تكونوا أنتم الذين تكذبون على موسى وربّه وتسرفون، فيصيبكم هذا المآل.

وحين يصل بهم إلى فعل الله بمن هو مسرف كذاب، يهجم عليهم مخوفاً بعقاب الله، محذراً من بأسه الذي لا ينجيهم منه ما هم فيه من مُلْكٍ وسلطان، مذكراً إياهم بهذه النعمة التي تستحق الشكران لا الكفران: ﴿يَقُولُ لَكُمْ أَلْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا؟!﴾

إنَّ الرجل يشعر بما يشعر به القلب المؤمن، من أنَّ بأس الله أقرب ما يكون لأصحاب الملك والسلطان في الأرض؛ فهم أحق الناس بأن يحذروه، وأجدر الناس بأن يحسوه ويتَّقوه، وأن يبيتوا منه على وَجَلٍ، فهو يتربص بهم في كل لحظة من لحظات الليل والنهار، ومن ثمَّ يذكرهم بما هم فيه من الملك والسلطان، وهو يشير إلى هذا المعنى المستقر في حسه البصير، ثمَّ يُجَمِّلُ نفسه فيهم وهو يذكرهم ببأس الله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا؟﴾! ليشعرهم أنَّ أمرهم يهيم، فهو واحد منهم، ينتظر مصيره معهم؛ وهو إذن ناصح لهم مشفق عليهم، لعل هذا أن يجعلهم ينظرون إلى تحذيره باهتمام، ويأخذونه مأخذ البراءة والإخلاص، وهو يحاول أن يُشعرهم أنَّ بأس الله إن جاء فلا ناصر منه، ولا مُجبر عليه، وأنهم إزاءه ضعافٌ ضعافٌ»^(١).

ومن مواقف المداراة والتغاضي في السُّنة الشريفة:

- ١ - قول أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحسن الناس خلقًا»، ودلل لذلك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: «ولقد خدمتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشرَ سنين، ما قال لي أف قطُّ، ولا قال لشيءٍ فعلته: لمَ فعلته؟ ولا لشيءٍ لمَ أفعله: ألا فعلتَ كذا»^(٢).
- ٢ - وصَحَّ عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «أَحَبُّ حَبِيبِكَ هُونًا ما؛ عسى أن يكون بغيضَكَ يومًا ما، وأبغضُ بغيضَكَ هُونًا ما؛ عسى أن يكون حبيبَكَ يومًا ما»^(٣).

(١) «الظلال» (٥/٣٠٧٩، ٣٠٨٠).

(٢) انظر تحريجه (ص ٣١٩).

(٣) صححه الألباني في «غاية المرام» رقم (٤٧٢)، وحسنه لغيره عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٩٩٢).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أحب حبيبك هوناً ما» أي: أحبه حُباً قليلاً، قال الزمخشري: و«ما» إبهامية تزيد النكرة إبهاماً وشياعاً، وتسد عنها طريق التقييد. وقال غيره: مزيدة لتأكيد معنى القلة.

ويصح نصبه على الظرف؛ لأنه من صفات الأحيان، أي: أحبه في حين قليل، ولا تسرف في حبه؛ فإنه «عسى أن يكون بغيبك يوماً ما».

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وأبغض بغيبك هوناً ما» فإنه «عسى أن يكون حبيبك يوماً ما»، أي: رُبَّما انقلب ذلك بتغير الزمان والأحوال بُغْضاً، فلا تكون قد أسرفت في حُبِّه فتندم عليه إذا أبغضته، أو حُبّاً فلا تكون قد أسرفت في بغضه فتستحي منه إذا أحببته، ذكره ابن الأثير، وقال ابن العربي: «معناه: أن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن؛ فقد يعود الحبيب بغيباً وعكسه، فإذا أمكته من نفسك حال الحب ثم عاد بغيباً كان لمعلم مضاراً أجدر؛ لما اطلع منك حال الحب بما أفضيت إليه من الأسرار»، وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا يَكُنْ حُبُّكَ كَلْفًا، ولا بُغْضُكَ تَلْفًا»، وعليه أنشد هدبة بن خشرم:

وأبغض إذا أبغضت بُغْضًا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَذَرِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعُ
وَكُنْ مَغْدِنًا لِلخَيْرِ واضْفَحْ عَنِ الْأَذَى فَإِنَّكَ رَأَيْتَ مَا عَمِلْتَ وَسَامِعُ
وَأَحْبَبَ إِذَا أَحْبَبْتَ حُبًّا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَذَرِي مَتَى أَنْتَ نَازِعُ
ولهذا قال الحسن البصري: «أَحْبُوا هَوْنًا، وَأَبْغِضُوا هَوْنًا، فقد أفرط قومٌ في حُبِّ قومٍ فَهَلَكُوا، وأفرط قومٌ في بُغْضِ قومٍ فَهَلَكُوا»^(١).

(١) انظر: «فيض القدير» للمناوي رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ١٧٦).

ومن أحسن ما نُظِمَ في هذا المعنى قول أبي العتاهية:

قُلْ لِمَنْ يَعْجَبُ مِنْ حُسْنِ رُجُوعِي وَمَقَالِي
رُبَّ صَدٍّ بَعْدَ وَدٍّ وَهَوًى بَعْدَ تَقَالِي
قَدْ رَأَيْنَاذَا كَثِيرًا جَارِيًا بَيْنَ الرُّجَالِ

وقال الإمام الشافعي:

إِنِّي أَحْيِي عَدُوِّي عِنْدَ رُؤْيَيْهِ لِأَذْفَعَ الشَّرِّ عَنِّي بِالتَّحِيَّاتِ
وَأُظْهِرُ الْبَشَرَ لِلْإِنْسَانِ أَنْبَغُضُهُ كَأَنَّهُ قَدْ حَشَى قَلْبِي مَحَبَّاتٍ^(١)

٢- ومن ذلك ما روته أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «اإِذْنُوا لَهُ، فَلَبِثَسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ، أَوْ بئسَ رَجُلُ الْعَشِيرَةِ»^(٢)، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ؛ أَلَانَ لَهُ الْقَوْلَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْتَ لَهُ الَّذِي قُلْتَ، ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ الْقَوْلَ؟ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَتْهُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ وَدَّعَهُ، أَوْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ»^(٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه: «بَابُ مُدَارَاةٍ مِنْ يُتَّقَى فُحْشُهُ»: قال القاضي: هذا الرَّجُلُ هُوَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ، وَلَمْ يَكُنْ أَسْلَمَ حِينَئِذٍ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ، فَأَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُبَيِّنَ حَالَهُ، لِيَعْرِفَهُ النَّاسُ، وَلَا يَعْتَزَّ بِهِ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ حَالَهُ.

(١) «ديوان الشافعي» (ص ٣٦).

(٢) المراد بالعشيرة قبيلته، أي: بئس هذا الرجل منها.

(٣) راوه البخاري (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١)، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اتِّقَاءَ فُحْشِهِ» أي: قبيح كلامه؛ لأنه كان من جفافة الأعراب وحقائنها وسادتها، وكان يُسَمَّى: الأحمق المطاع.

قال: وكان مِنْهُ في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعده ما دَلَّ على ضعف إيمانه، وارتدَّ مع المرتدين، وجيء به أسيرًا إلى أبي بكرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ووصفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له بأنه بشس أخو العشيرة من أعلام النبوة؛ لأنه ظهرَ كما وصفَ، وإنما الآن له القول تألفاً له ولأمثاله على الإسلام^(١).

«وفي هذا الحديث: مُداراة من يُتَقَى فُحْشُهُ، وجَوَازُ غِيبةِ الفاسقِ المُعلِنِ بفسقه، ومَنْ يحتاج الناسُ إلى التَّحذِيرِ مِنْهُ.. ولم يمدحه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا ذُكِرَ أَنَّهُ أَثْنَى عليه في وجهه ولا في قَفَاهُ، وإنما تَأَلَّفَهُ بشيءٍ من الدُّنيا مع لِينِ الكلامِ لَهُ»^(٢).

وقال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفيه ندب المداراة إذا تَرَبَّبَ عليها دفعُ ضُرٍّ أو جلبُ نَفْعٍ، بخلاف المداهنة؛ فَحَرَامٌ مُطْلَقًا^(٣)؛ إذ هي بذل الدين لصلاح الدنيا، والمداراة بذل الدنيا لصلاح دينٍ أو دُنْيَا بنحو رَفَقٍ بِجَاهِلٍ في تعليم وبفاسقٍ في نهي عن منكرٍ، وتركِ إغلاظٍ وتأليفٍ»^(٤).

وما أَصْدَقَ ما قال شوقي رَحِمَهُ اللَّهُ في مدحِ رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وَتَمُدُّ حِلْمَكَ لِلْسَفْهِهِ مُدَارِيًّا حَتَّى يَضِيقَ بِعِزِّكَ السَّفْهَاءُ

(١) «منهاج المحدثين وسبيل طاليه المحققين» (٨٣/١٤)، وانظر: «إكمال المعلم» (٦٢/٨).

(٢) «منهاج المحدثين وسبيل طاليه المحققين» (٨٣/١٤)، (٨٤).

(٣) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «المداراة صفة مدح، والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما: أن المُدَارِيَّ يَتَلَطَّفُ بصاحبه حتى يستخرج منه الحقَّ، أو يردِّه عن الباطل، والمداهن يَتَلَطَّفُ به لِيُقَرَّه على باطله، ويتركه على هواه، فالمداراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق». اهـ. من «الروح» (٦٥٢/٢).

(٤) «فيض القدير» (٤٥٤/٢).

إنَّ المدارة خلق كسبي لا يُنال إلا باكتساب خبرات الحياة والتعامل مع الناس على اختلاف طباعهم، وهو خُلُق الشخصيات الناضجة لا المتهورة المبترسة الحادَّة التي تفكر بطريقة (الأبيض والأسود) فقط، ولا مكان للرمادي عندها.

إنَّ الناس مجبولون على الزلات والأخطاء، فإن اهتمَّ المرء بكل زلة يراها، وأحصى على الناس أخطاءهم؛ تَعَبَ، وأتَعَبَ غيره.

والإنسان الأخرق هو الذي لا يزال يفتش عن زلات الآخرين، ويواجههم بها، ويكيل الصاع صاعين، ويقابل السيئة بالأسوأ منها، والإنسان الذكي الناضج اجتماعيًا هو الذي يعرف متى يكون غيبًا، قال الشاعر:

لَيْسَ الْغَيْبُ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ لَكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ الْمُتَغَابِي

وقال آخر:

قَالَتْ أَرَاكَ مِنَ الذُّكَاءِ فِي غَايَةٍ جَلَّتْ عَنِ الْإِسْهَابِ وَالْإِطْنَابِ
فَعَلَامَ تُبْدِي فِي الْأُمُورِ تَغَابِيًا فَأَجِبْتُ: سَيِّدُ قَوْمِهِ الْمُتَغَابِي

فائدة:

من ثمرات التغافل رفعُ الحرج عن الآخرين وستر عيوبهم؛ كما حدث من (لقمان هذه الأمة) أبي عبد الرحمن حاتم بن عنوان بن يوسف البلخي الإمام الزاهد القدوة الملقَّب بالأصم.

قال أبو علي الدِّقَّاق: جاءت إليه امرأة، فسألته عن مسألة، فاتفق أن خرج منها صوتٌ في تلك الحالة، فخجلت، فقال حاتم: «ارفعي صوتك»، وأراها

من نفسه أنه أصم، فَسَرَّتْ المرأةُ بذلك، وقالت: «إنه لم يسمع الصوت»، فغلبَ عليه اسمُ الأصم^(١).

التَّغافل والتَّجاهل والتَّغاضي؛

إنَّ التَّغافل (المدرِّك الواعي) ذكاء ونضج ورُقِيٌّ إذا كان في موضعه، ولا يُمدَّحُ الحليمُ بِشِدَّةِ العقاب، ولكن بحسن الصَّفح والاعتذار، وشدة التَّغافل. قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «اللبيب العاقل هو الفطن المتغافل»^(٢)، وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «تسعة أعشار حسن الخلق - وفي رواية: العقل - في التَّغافل»، وقال الحَسَنُ البَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «كانوا يقولون: المُدَاراة نصفُ العقل، وأنا أقول: هي العقل كُلُّه».

فينبغي على العاقل أن يُدارِيَ أهلَ زمانِهِ مُدَاراةً السابح في الماء الجاري، وقد قيل: «كُلُّ عقلٍ لا يُدارِي به الكلُّ؛ فليس بعقلٍ تامٌّ».

التَّغافل يحميك من عواقب الغضب؛

هناك مواقف اجتماعية مؤلمة إذا أطلقت لانفعالاتك عِنانَهَا صدر عنك بسببها ردودُ أفعالٍ مندفعة ومكلَّفة، فيتحوَّل (الألم) إلى (معاناة)، والموقف العابر إلى سلسلة من التداعيات والمواجهات الممتدة التي قد تصل إلى عراقٍ وصراع، مع أنه كان من الممكن التوقُّف عند الألم، وكظم الغيظ، والتَّحليُّ بفضيلة (التَّغافل) كأنَّك لم تسمع السَّبَّ أو الشتم أو الاستهزاء.

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٤٤).

(٢) أي: إنه لتمام عقله يظن للأخطاء، ولكنه يتغافل عنها كأن لم تكن، بشرط أن تكون مما يقبل العفو والتسامح، ولا تكون مدهانة مذمومة.

يقول الشاعر:

ولقد أمرُ على اللئيمِ يسُبُّني فمضيتُ ثمَّتْ قلتُ: لا يعنيني

وقد يتعمَّدُ بعضُ اللئام^(١) استفزازَ رجلٍ شريفٍ القَدْرِ وإهانتَه؛ ليهبط به من عليائه إلى مستوى أخلاقه الدنيئة، فلو أنه حقَّق له هدفه فسيفتح بابَ شرٍّ، ويقف على قدم المساواة مع إنسانٍ سفيه، وإذا أظهر أنه لم يسمعه سَلِمَ، وصان عِرْضَه عَمَّا لا يليق به، وفوَّت عليه قصده.

قالوا سكَّت وقد خوصِمت، قلتُ لهم: إنَّ الجوابَ لبابِ الشرِّ مفتاحُ

وفي الحديث: «إنَّ من الناس مفاتيحَ للخير، مغاليقَ للشر، وإنَّ من الناس مفاتيحَ للشر، مغاليقَ للخير» الحديث^(٢).

وقال أكثم بن صيفي: «من تشددَ فَرَّقَ، ومن تراخى تألَّفَ، والسرور في التغافل».

وتغافل عن أمورٍ؛ إنه لم يَفُزْ بالحمدِ إلَّا من غُضِّلَ

قال عبد الرحمن بن أم الحكم لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا أمير المؤمنين! إنَّ فلانًا يشتمني، قال: «تطأطأ لها تمر، فتجاوزك»^(٣).

(١) وبخاصة إذا كان مصابًا باضطراب الشخصية العدوانية السلبية:

(Passive Aggressive Personality Disorder).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٣٧)، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (٢٥١)، وحسَّنه الألباني بطرقه في «الصَّحِيحة» (١٣٣٢).

(٣) «تاريخ دمشق» (١٢٦/٦٢)، وانظر كتابي «العافية» (ص ١٤٥، ١٤٦).

شعرة معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

يُعَبِّرُ بها عن الموقف الحكيم المرن غير المتصلب في سياسة الناس؛ إذ قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انْقَطَعَتْ»، قيل: وكيف ذلك؟ قال: «كنتُ إذا مَدُّوها خَلَّيْتُهَا، وإذا خَلَّوْها مَدَدْتُهَا»^(١).

استقصاء الزلات واحصاؤها أقصر طريق لخسارة الصديق:

التغاضي والتغافل عن الزلات قد تخسر به موقفاً، ولكنك تكسب به شخصاً إبقاءً على مودته، أو حرصاً على صلة رحمه.

قال موسى بن جعفر: «من لك بأخيك كله، لا تستقص عليه؛ فتبقى بلا أخ».

سامخ ولا تستوفِ حقَّك كله وأبق؛ فَلَمْ يَسْتَوْفِ قَطُّ كريمٌ

وقال سفيان الثوري: «ما زال التغافل من فعل الكرام».

لأن الكريم يتغافل ولا يستقصي، قال بعض السلف: «ما استوفى كريمٌ قطُّ»؛ لأنَّ الكريم يتغافل، ولا يستوفي الزلات بالإحصاء الدقيق.

قال الشاعر:

كأنِّي بما يأتي من الأمرِ جاهلٌ	أغمضُ عيني عن صديقي تغافلاً
تُطِيقُ احتمالَ الكُرهِ فيما يحاولُ	وما بيَ جهلٌ غير أنَّ خليقتي
بقيتُ وما لي في النهوضِ مفاصلُ	متى ما يُرَبِّني مِفْصَلٌ فقطعته

(١) «عيون الأخبار» لابن قتيبة (١/٦٢).

وقال كثير:

ومن لا يغمض عينه عن صديقه
ومن يتبع جاهداً كلَّ عثرةٍ
وعن بعض ما فيه يمتُّ وهو عاتبُ
يجذها ولا يسلم له الدهر صاحبُ
آخر:

اتسعت دارُ مَنْ يُداري
اتسعت أسبابُ مَنْ يُماري
آخر:

ولست بمُستَبقٍ أخاً لا تلمهُ
على شعثٍ أيُّ الرِّجالِ المَهْدَبُ
آخر:

وكم من أخٍ لم تحتملِ منه خلَّةً
ومَنْ لم يُرِدْ إلَّا خليلاً مُهْدَباً
قطعت ولم يُمكنك منه بديلُ
فليس له في العالمين خليلُ

ولهذا يندم الذي يفحص وينقب، ويفتش عن زلات أخيه، ولا يتغافل عنها، قال محمود الورَّاق:

ما كذتُ أفحص عن أخي ثِقَّةٍ
وقال ابن وكيع:

من لم يُدارِ الناسَ عن علمٍ بهم
انصرفوا وكلُّهم له عدا
وقال الشاعر:

أداري خيلي ما استقام بُودُه
ولست ببادٍ صاحبي بقطيعتهِ
وأمنحُه وُدِّي إذا يتجنَّبُ
ولا أنا مُبَدٍ سرُّه حينَ يغضبُ

ثانيًا: التجاهل والتغافل عند خطأ الطفل:

إنَّ موقع الوالد في التربية موقع توجيه وتهذيب وليس موقع تسلُّطٍ وقهر وتَلَصُّص، والطفل ينمو بسرعة ويتطور باستمرار، وفي خلال ذلك يحتاج إلى السلطة الضابطة لسلوكه، ويحتاج أن لا نتوقع منه تصرُّفَ الرّاشدين، بل قد يكون من المفيد أحيانًا أن نتجاهل أخطاءه، ونغض الطرف عنها، وبخاصة لأنَّ كثيرًا من مشاكله يكون الزمنُ جزءًا من علاجها، وتلاشى مع نموه.

والسلوك الذي يستحق العقاب لا يستلزم دائمًا تنفيذه، بل قد يكون هناك حالات تستحق التجاهل والتغافل وعدم إعطائه أي اهتمام.

يقول الدكتور محمد عبد الله البيلي: «أوضحت أعمال السلوكيين (Behaviorists) أنَّ باستطاعة المعلمين تحسين سلوك طلبتهم، عن طريق تجاهل مخالفتي النظام، والثناء على الطلبة متبعي النظام»^(١).

ومن أجل المحافظة على (المسافة التربوية) بين الوالد وولده قد تكون المصلحة أحيانًا في تجاهل خطأ الطفل، والتركيز على تقوية العلاقة معه الآن، أما تقويم السلوك فيأتي لاحقًا، ومن ثمَّ وصَّى الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ المربي، فقال: «ولا تكثر عليه العتاب في كل حين فإنه يُهَوِّن عليه سماع الملامة وركوب القبائح، ويُسقط وقع الكلام من قلبه، وليكن الأب حافظًا هيبة الكلام معه، لا يوبخه إلا أحيانًا».

(١) «علم النفس التربوي وتطبيقاته» (ص ٢٠٣).

إنَّ إهمال تأديب الطفل خطأ، ومحاسبته على كل هفوة خطأ أيضًا، والمربي الحكيم هو الذي يضع كلَّ شيءٍ في موضعه، ويعرف متى يتغاضى ويتغافل، ومتى يوجّه ويحاسب.

اختر معاركك بدقة؛

على المربي أن يفكر جيدًا قبل تصعيد الأمر إلى حدِّ العقاب، وأن يختار بعناية الأفعال التي تستحق المواجهة، فإذا صدر خطأ من الطفل فعلى المربي أن يقرر أولاً: هل الأمر يستحق (معركة) ومواجهة أم أنه قابل للتجاهل وغض الطرف عنه؟

اطوِّ ملفَّات الماضي؛

إذا ارتكب الابن بعض الأخطاء في مرحلة سابقة، ثم صحَّحها وأقلع عنها، فعلينا أن ننسى ذلك، ونطوي صفحة الماضي^(١)، ونتعامل مع أخطاء الحاضر فقط، فهذا نوع من (التجاهل) المطلوب، وقد قال رسول الله ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»، وهذا في المكلف، فأولى به الصغير الذي رُفِعَ عنه القلم.

احذر الأبوة المفرطة (Helicopter Parenting)؛

الأبوة المفرطة أو الأبوة المروحية (الهليكوبتر): هي أسلوب التربية الذي يتواجد فيه الآباء في حياة الابن بشكلٍ مُفرطٍ مادياً مع غيابهم عنهم نفسياً، فالمشكلة ذات شقين:

(١) انظر: (ص ١٨١، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٣٠).

الأول: التواجد الزائد عن الحد، ولذا شُبِّهوا بالطائرة الهليكوبتر التي تحوم فوق الرؤوس باستمرار لتتابع كل صغيرة وكبيرة بدقة.

الثاني: أنه نوع سيئ من التواجد؛ لأنه أبوة قسرية مكثفة.

فالأم المروحية دائماً تراقب ابنها عن كثب، وتتواصل معه حيث حل، وتغذي اعتماديته عليها، ولذلك وُصِفَتْ هذه الرابطة بأنها أطول حبل سُري (Umbilical Cord) في العالم، وجاء الهاتف المحمول ليعزز مراقبة الآباء للأبناء بطريقة مُفرطة.

وفي الأبوة المفرطة لا يتجاوز الآباء عن أي خطأ ولو كان تافهاً، ويُحصون حركات الابن وسكناته إحصاءً دقيقاً، ولا يتوقفون عن نقده وتوبيخه، وقد يجعلون من الحبّة قُبّة، ويجعلون القُبّة مزاراً.

إِنَّ تَقْصِيَّ الزَّلَّاتِ عَامَةٌ، وَزَلَّاتِ الْأَطْفَالِ خَاصَّةٌ -وهم أهل زلٍ وخطأ- وتوبيخهم ومعاقبتهم على كل صغيرة وكبيرة يجعلهم يألِفون العتاب والعقاب، فلا يتورَّعون بعد ذلك عن الخطأ والزلل، ولذا لا بُدَّ من التَّغافل عمّا يمكن التغافل عنه، والتنبيه بعد ذلك بطريق غير مباشر.

أوصى الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ مُؤَدِّبَ الْأَطْفَالِ، فقال: «وتقوم في تقويمهم وتأديبهم، واستعمل بذلك الرفق، ولا تكثر العتب، فيهنّ العذل»^(١).

(١) «مناقب الإمام الأعظم» للموفق بن أحمد المكي (ص ٣٦٧).
والعذل: اللوم.

مواقف يُفضَّل فيها التَّجاهلُ والتَّغافلُ،

١- الهفوات اليسيرة، والأخطاء البسيطة المعتادة في سلوك الطفل؛ كالشجار المعتاد بين الأشقاء، والحركة الزائدة، والصوت المرتفع والضوضاء.

٢- إذا حدث الخطأ مرة واحدة أو نادراً، وتحرَّى الابنُ أن يخفيه عن والديه، فإذا علما به فعليهما التَّجاهل، مع محاولة نصيحته بطريقة غير مباشرة؛ كحكاية قصة أو التعريض، أو استئثار مواقف مشابهة ونحو ذلك؛ لأنَّ في إخفائه إيَّاه دليلاً على أنه يُسبب لديه حرجاً، وأنه حريص على الإقلاع عنه، وما أحسن ما قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ:

اقْبَلْ مَعَاذِيرَ مَنْ يَأْتِيكَ مُعْتَذِراً إِنْ بَرَّ عِنْدَكَ فِيمَا قَالَ أَوْ فَجَرَا
لَقَدْ أَطَاعَكَ مَنْ يُرْضِيكَ ظَاهِرُهُ وَقَدْ أَجَلَكَ مَنْ يَعْصِيكَ مُسْتَتِراً

قال الإمام ابن مسكويه: «فإن خالف في بعض الأوقات ما ذكرته، فالأولى ألاَّ يُؤَبِّخَ عليه، ولا يُكاشِفَ بأنه أقدم عليه، بل يُتَغافل عنه تغافل من لا يخطر بباله أنه تجاسر على مثله، ولا همَّ به، لا سيما إن ستره الصبي، واجتهد أن يُخْفِيَهُ .. فإن عاد فليؤَبِّخ عليه سراً، وليعظم عنده ما أتاه، ويُحذِّر من معاودته، فإنك إن عوَّدته التَّؤَبِّخَ والمكاشفة، حملته على الوقاحة..، وهان عليه سماعُ الملامة في ركوب القبائح، من اللذات التي تدعو إليها نفسه».

وقال الإمام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «فإن خالف في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره.. لا سيما إذا ستره الابن، واجتهد

في إخفائه؛ فإنَّ إظهار ذلك عليه ربما يفيدَه جَسَارَةً حتى لا يبالي بالمكاشفة، فعند ذلك إذا خالف ثانياً فينبغي أن يُعاقب سِرّاً، ويعظم الأمر فيه»^(١).

٣- السلوك السلبي الذي يتعمده الطفل (وخاصّةً الصغير) بقصد جذب الاهتمام إليه؛ كالبكاء المستمر، والأنين، والعزوف عن الطعام مثلاً، أو التفتُّه بكلماتٍ بذئنة يَعْلَمُ أنها تَغِيظُكَ، فهنا يُعَدُّ الاهتمامُ به -ولو بعقابه أو توبيخه- مكافأةً في الحقيقة تعزز هذا السلوك، في حين أنَّ تجاهله يُطْفِئُ هذا السلوك تدريجياً، ويقلل إمكانية حدوثه؛ لأنه يتعلم أنَّ أفعاله المزعجة لا تجذب انتباهك، ولا تُجدي نفعا، وكأنَّه يمثل يقول بلسان حاله: «ما دام الجمهور لا يستمع، فما فائدة الصُّراخ والبكاء؟».

فالرسالة التي لا يُستجاب لها، يتم التوقُّف عن إرسالها، والسلوك الذي لا يُكافأ يختفي.

٤- السلوك السلبي الذي يريد به الطفل أن يضغط على الأم نفسياً؛ مثل نوبات الغضب، أو الاحتجاج على قرار أبوي لا يعجبه، وكأنَّه يراهن على أنها ستضجروا وتمل من بكائه في النهاية وتستسلم له وتلبّي مطلبه، فيتعوّد على استعمال هذا السلاح -أي: الخوف من بكائه وغضبه- كوسيلة لتحقيق مطالبه، فلا تضعف أو تستسلم قبل طفلك؛ لأن استسلامك يجعل تجاهلك يأتي بنتيجة عكسية.

خصائص التجاهل التربوي؛

١- أنه يستغرق مدة قصيرة.

٢- أن الوالد يبقى هادئاً مسترخياً أثناء التجاهل.

٣- أن الوالد يوجه انتباهه إلى الطفل بمجرد توقفه عن السلوك السيئ.

إنَّ التجاهل عند صدور سلوك سلبي من الطفل هو فعل متعمّد من جهة الآباء، يتحكمون من خلاله في أنفسهم، ولا يُعيرون الطفل أيَّ انتباه إلى السلوك السلبي، ويغضون عنه الطرف كأن لم يقع، فلا صراخ ولا توبيخ ولا ضرب، وإنما يظهرون اللامبالاة، ويتجنبون التواصل معه سمعياً وبصرياً، مع استخدام لغة الجسد في ذلك، مثل الاحتفاظ بتعبيرات وجه محايدة، وعدم الحوار والجدل معه وقت التجاهل^(١)، على أن يتم ذلك فور حدوث السلوك، فإذا توقّف عنه نرجع إليه، ونعود للاهتمام به، لأننا نتجاهل السلوك فقط، وليس الطفل نفسه، فإذا نبذ السلوك السلبي نكافئه ونشجعه بالعودة إلى الاهتمام به.

ويمكن أن نُهمّل سلوكه السلبي بأن نلهيه بشيءٍ آخر أو نحدثه عنه، فنسرق انتباهه بعيداً، لنغير وجهة تفكيره، كأن تقترح الأم أن يصحبها إلى المطبخ ليساعدها في إعداد الطعام، أو بأن تُقبل الأم على شقيقته وهي تلعب، وتندمج معها في محادثة، أو تتابع القراءة في كتابها، ويمكن للأم مغادرة مكان تواجد بهدوء مع عدم متابعته ببصرها.

(١) ولذلك فإنَّ مما يناقض التجاهل التربوي أي تعبير جسدي يُظهر ردّ فعل على سلوكه السلبي؛ كالضحك، أو التعجب، أو الاستغراب، أو الغضب، ومن عجز عن هذا التجاهل فليغادر المكان مؤقتاً.

تنبيهات:

الأول: ينبغي أن يتم التجاهل بصورة انتقائية:

فيلجأ إليه عند صدور سلوك سلبي قابل للتجاهل، بينما لا نلجأ إليه إزاء السلوك الخطير الذي لا يمكن تجاهله، بل يجب أن نتدخل فوراً بطريقة مناسبة كي نصححه، مثل السلوك الذي يشكل خطراً عليه أو على غيره.

الثاني: إذا رجحت أسلوب التجاهل فاثبت عليه ولا تراجع، وإلا فإن تراجعك سيدعم هذا السلوك السيئ.

وتوقع عندما تبدأ التجاهل أن يظن الطفل أنك لم تلاحظ تصرفه، ولذلك سوف يزيد من حدة سلوكه ليجذب انتباهك، ويتأكد أنك لاحظته، ومع ذلك ينبغي أن تثبت على موقف التجاهل.

الثالث: لا تدمن التجاهل:

ولكن تجاهل مرتين أو ثلاثاً على الأكثر^(١)، فإن لم يُجِدْ تَحَوُّلٌ إلى وسيلة أخرى من الوسائل المناسبة لتعديل السلوك.

الرابع: فائدة التجاهل مع الطفل الباحث عن الاهتمام:

أنه يُعَلِّمُ الطفل كيف يُنْفَسُ عن مشاعره ورغباته بطرق أخرى غير الصراخ والبكاء وضرب الأرض بقدميه، ويعلمه كيف يتخلص من تلك التصرفات التي يفتعلها لجذب الانتباه.

(١) إذا استعملته في السلوكيات السيئة التي لا تهدف إلى البحث عن الاهتمام.

الخامس: لا بُدَّ - قبل التجاهل - من وجود رابطة إيجابية بين الطفل

والديه:

بمعنى أن الوالدين يعطيان الطفل اهتمامًا إيجابيًا بالمدح والثناء والمكافأة عند السلوك الحسن، ففي مثل هذه الأجواء يُؤثّر التجاهل ثمرته، أما الوالد الذي لا يكون حاضرًا بالحساب والعقاب إلا عند السلوك السلبي فقط، فهذا سوف يشجع الطفل بطريقة سلبية على التماهي في السلوك السيء؛ لأنّ هذا هو طريقه الوحيد للحصول على الانتباه (السلبي).



الثانية عشر: مراعاة الفروق الفردية عند العقاب،

من الخطأ إهمال وجود الفروق الفردية (Individual variations) بين الأطفال، وتوهم تطابق شخصين في كل شيء -مهما بدا الأمر على خلاف ذلك- لذلك وجب أن ينظر المربي إلى كل طفل على حدة، وعلى أنه حالة خاصة، وشخصية فريدة متميزة (Unique)، بعيدًا عن الأحكام العامة.

وتلعب المؤثرات الوراثية والبيئية والاجتماعية دورًا كبيرًا في تشكيل وصياغة هذه الفروق الفردية.

ومن ثمَّ يجب أن يستحضر المربي أنّ لكل طفلٍ عالمه الخاصّ الفريد، وشخصيته المتميزة عن باقي الأفراد، وله حاجاته وقدراته وميوله، وهو يختلف

عن كل من سواه، بسبب سماته الموروثة، وخصائصه المكتسبة، ولا يوجد اثنان على وجه الأرض، صورة واحدة طبق الأصل»^(١).

والمعلم المسلم الصالح يحتاجُ إلى صفة تتمثل في الإمام بطبائع واستعدادات وخصائص وميول وقدرات وحاجات مَنْ يَعْلَمُهُمْ، حتى لا يضلَّ في تعليمهم، ولا يسير بهم بأسرع مما تسمح به استعداداتهم وقدراتهم، ولا يخاطبهم بما لا تسمح به عقولهم^(٢).



(١) «التوجيه والإرشاد النفسي» للدكتور حامد زهران (ص ٦٦).

(٢) «من أسس التربية الإسلامية» للشيباني (ص ١٧٩).

مواقف من السنة الشريفة

تعكس مراعاة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الفروق الفردية بين الناس

كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يراعي الفروق الفردية بين الناس حين كانوا يسألونه السؤال نفسه، فكانت أجوبته تختلف طبقاً لحال السائل وظروفه وقدراته وما يليق به، وما يراه أهم بالنسبة إليه من غيره.

- ففي حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِمَعَاذِ اللَّهِ عَنْهُ: «ما من عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلاَّ حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ»، قال: يا رسولَ الله، أفلا أُخْبِرُ به النَّاسَ فيستبشروا؟ قال: «لا، إِذَا يَتَكَلَّمُوا»^(١).

(١) رواه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢).

ومعنى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا، إِذَا يَتَكَلَّمُوا»: أي لا تبشرهم بذلك فإنهم يمتنعون من العمل اعتماداً على ما يتبادر من ظاهره من أن مجرد الشهادة بالوحدانية والرسالة تكفي للنجاة من النار، ولا ينتبهون إلى أن المراد الإتيان بالشهادتين مع أداء حقوقها من إطاعة الله وإطاعة رسوله في الشرائع والأحكام.

وفي الحديث بيان وجوب أن يُخَصَّ بالعلم الدقيق قومٌ فيهم الضبط وصحة الفهم، وأن لا يُبَدَّلَ لمن لا يستأهله من الطلبة، ومن يُخَافُ عليه الترخُّص والاتكال لتقصير فهمه.

وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «قال العلماء: يُؤْخَذُ مِنْ مَنْعٍ مَعَاذٍ مِنْ تَبْشِيرِ النَّاسِ لئَلَّا يَتَكَلَّمُوا أَنَّ أَحَادِيثَ الرُّخَصِ لا تُشَاعُ فِي عَمُومِ النَّاسِ، لئَلَّا يَقْصُرَ فُهُمُهُمْ عَنِ الْمُرَادِ بِهَا، وَقَدْ سَمِعَهَا مُعَاذٌ فَلَمْ يَزِدْ إِلاَّ اجْتِهَادًا فِي الْعَمَلِ وَخَشْيَةً لَهِ عَزَّجَلَّ، فَأَمَّا مَنْ لَمْ يَبْلُغْ مَرْتَلَةً فَلَا يُؤْمَنُ أَنْ يَقْصُرَ اتِّكَالًا عَلَى ظَاهِرِ هَذَا الْخَبَرِ».

وترجم له البخاري رَحِمَهُ اللهُ: «باب من خصَّ بالعلم قومًا دون قومٍ كراهيةً أن لا يفهموا».

وعن أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ»^(١)، أتحبون أن يُكَذِّبَ اللهُ ورسولُهُ»^(٢)، وفي رواية: «ودعوا ما يُنْكِرُونَ»^(٣).

(١) أي: بما يفهمون.

(٢) لأنَّ الشخص إذا سمع ما لا يفهمه وما لا يتصوَّر إمكانه يعتقد استحالة جهلاً، فلا يُصدِّق وجوده، فإذا ذكِرَ له مثل هذا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يلزم منه تكذيبه، وفي تكذيب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تكذيبُ الله عزَّ وجلَّ.

قال أبو طالب المكي رَحِمَهُ اللهُ في «قوت القلوب»: «كُلُّ لَکَل عَبدٍ بِمِعارِ عقله، وزِنُّ له بِمِيزان فهمه، حتى تسلَّم منه ويتنفع بك، وإلَّا وقع الإنكارُ لتفاوتِ المِعارِ».

وقال الإمام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «من وظائف المعلم أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يُلقِي إليه ما لا يبلغه عقله، فيَنقُرُهُ أو يُجَبِّطُ عليه عقله، اقتداءً في ذلك بسيد البشر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد كان يُراعي ذلك في تعليمه وتحديثه ووعظه، فليُثِّثْ إليه الحقيقة إذا عَلِمَ أنه يستقلُّ بفهمها.

ولا ينبغي أن يُفْشِيَ العالمُ كُلُّ ما يعلمُ إلى كُلِّ أحدٍ، هذا إذا كان يفهمه المتعلِّمُ ولم يكن أهلاً للانتفاع به، فكيف فيما لا يفهمه؟

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: ٥]، تنبيهاً على أن حفظ العلم ممن يُفسِدُهُ ويَضُرُّه أولى، وليس الظلم في إعطاء غير المُستَحَقِّ بأقلِّ من الظلم في منع المُستَحَقِّ. قال: «والمُتعلِّم القاصر ينبغي أن يُلقَى إليه الجِلِّيُّ اللَّائِقُ به، ولا يذكَرَ له أن وراء هذا تدقيقاً وهو يدخِرُه عنه، فإنَّ ذلك يُفْتَر رغبته في الجِلِّيِّ، ويُشَوِّش عليه قلبه، ويُوهِمُ إليه البُخْلَ به عنه، إذ يَظُنُّ كُلُّ أَحَدٍ أنه أهلٌ لكلِّ علمٍ دقيق.

بل لا ينبغي أن يُخَاضَ مع العوامِ في حقائق العلوم الدقيقة، بل يُقْتَصَر معهم على تعليم العبادات، وتعليم الأمانة في الصناعات التي هم بصددِها، ويملاً قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار، كما نطق به القرآن، ولا يُحرِّك عليهم شبهةً، فإنه ربما تعلَّقتِ الشبهةُ بقلبه، ويعسُرُ عليه حلُّها فيشقى ويهلك». انتهى بتصرف من «الإحياء» (١/ ٥٧، ٥٨).

(٣) أي: ما يشبه عليهم فهمه.

وروى مسلم في مقدمة «صحيحه» عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ما أنت بمحدثٍ قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم؛ إلا كان لبعضهم فتنة».

ورُوي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كُنَّا عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاء شابٌّ، فقال: يا رسول الله، أُقْبِلُ وأنا صائم؟ قال: «لا»، فجاء شيخٌ، فقال: أُقْبِلُ وأنا صائم؟ قال: «نعم»، فنظر بعضنا إلى بعض، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قد علمتُ لِمَ نَظَرَ بعضُكم إلى بعضٍ، إِنَّ الشَّيْخَ يَمْلِكُ نَفْسَهُ»^(١).

فاختلف جوابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لاختلاف حال السائلين.

ومن ذلك أنه راعي حال السائل بخصوصه حين أقبل إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجل فقال: أبايحك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله، قال: «فهل من والدَيْكَ أَحَدٌ حيٌّ؟»، قال: نعم، بل كلاهما، قال: «فتبتغي الأجر من الله؟» قال: نعم، قال: «فارجعْ إلى والدَيْكَ فأحسنْ صُحْبَتَهُمَا»^(٢).

ومن ذلك اختلاف جوابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن قال له: أوصني، أو عِظْني، فأجاب مرَّةً: «اتقِ الله حيثما كنتَ، وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالفِ الناسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ»^(٣)، وأجاب مرَّةً: «إذا قمتَ في صلاتك؛ فصلِّ صلاةَ مودِّعٍ، ولا تكلمْ بكلامٍ تعتذرُ منه غدًا، واجمع الإيَّاسَ مما في أيدي الناس»^(٤)، وأجاب مرَّةً

(١) رواه الإمام أحمد (٦٧٣٩)، وضعَّه محققو «المسند»، وانظر «صحيح البخاري» (١٩٢٨)، و«صحيح مسلم» (١١٠٦)، (١١٠٧)، (١١٠٨).

(٢) رواه مسلم (٢٥٤٩).

(٣) رواه الإمام أحمد (٢١٩٨٨)، والترمذي (١٩٨٧)، وحسَّنه، وحسَّنه محققو «المسند».

(٤) رواه الإمام أحمد (٢٣٤٩٨)، وابن ماجه (٤١٧١)، وأورده الألباني في «الصحيحه» (٤٠١).

أخرى من قال له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أوصني بشيء، ولا تُكثِر عليَّ لَعَلِّي أُعِيهِ، قال: «لا تغضب»، فردَّد ذلك مرارًا، كُلُّ ذلك يقول: «لا تغضب»^(١).

ومن هذا جوابه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن خير الأعمال أو أفضلها: فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سألتُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله؟» قال: «الصلاة لوقتها»، قال: قلتُ: «ثم أيُّ؟» قال: «برُّ الوالدين»، قال: قلتُ: «ثم أيُّ؟» قال: «الجهاد في سبيل الله»، فما تركتُ أستزيده إلا إرعاء عليه^(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا: «أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سرورًا، أو تقضي عنه دينًا، أو تطعمه خبزًا»^(٣).

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سألتُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أيُّ الجهاد أفضل؟ قال: «أن تُجاهد نفسك وهواك في ذات الله عزَّ وجلَّ»^(٤).

وعن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قلتُ: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي، ثم قال: «يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها» وفي رواية: «يا أبا ذر، إنني أراك ضعيفًا، وإنني أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسِي، لا تأمرنَّ على اثنين، ولا تولين مالَ يتيم»^(٥).

(١) انظر تحريجه (ص ١١٣).

(٢) رواه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥)، وقوله: «إرعاء عليه» أي: إبقاء عليه، ورفقًا به.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج» (ص ٩٨)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٤٩٤).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٤٩)، وأورده في «الصحيحة» رقم (١٤٩٦).

(٥) رواه مسلم (١٨٢٥).

فاختلفت أجوبته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مراعاةً منه للفروق الفردية بين السائلين، أو تبعاً لوقت السؤال وظروفه، أو طبقاً لما هو لائق بحال السائل.

أما مراعاته لعقل الطفل وحدوده:

فحينما كسا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمَّ خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص قميصاً، قال لها: «يا أمَّ خالد! هذا سنا» وسنا بلغة الحبشة يعني حسناً؛ وذلك لأنها كانت صغيرة وُلِدَتْ بأرض الحبشة لما هاجر أبوها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكلَّمها رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باللغة التي تفهمها كي تدرك قصده.

وقبض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قبل غزوة بدر على غلامٍ راعٍ لقريش، فسألوه عن عدد الجيش، فإذا به لا يحسن الإجابة، فضربوه، حتى أقبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا به يسأل الغلام: «كم ينحر القوم من الإبل؟» قال الغلام: بين التسعة والعشرة، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «القوم بين التسعمئة والألف»^(١) فعرف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ هذا الغلام لا يعرف عدد الألوف، ولكن طاقته العقلية تدرك عدد العشرات... وعشرات أي شيء؟ عشرات الإبل التي يسهل عدُّها على كل طفل؛ لما لها من الحجم الكبير.

قابل خطأ الطفل بما يليق به:

ليس في التربية مقياسٌ واحد يناسب جميع الأحجام، (One size fits all)، ولا وصفة معلبة جاهزة للتطبيق على كل طفل، ولكن المربي كالحائك الذي يَحِيكُ الثوب بقدر المقاس الذي يناسب من يلبسه.

(١) انظر: «المسند» للإمام أحمد (٩٤٨)، و«سنن أبي داود» (٢٦٦٥)، و«المستدرک» (٣/ ١٨٧، ١٨٨)، و«البداية والنهاية» (٣/ ٢٧٠-٢٧٧).

والعقاب المناسب لطفل بعينه هو العقاب الذي يراه المربي (الخبير بشخصية الطفل، واستعداداته، واهتماماته، وقدراته) مناسباً؛ لأنه يحقق الهدف التربوي بدون -أو بأقل- آثار جانبية.

والمربي الحكيم الموفق هو الذي يضع العقاب في مكانه الملائم، والصفح واللين والملاطفة في مكانها الملائم.

والمربي الأخرق هو الذي يحلّم في موضعٍ يستدعي الشدة والحزم، ويقسو في موضع الرحمة والعفو.

وما أحكم ما قال المتنبي رَحِمَهُ اللهُ:

إذا أنت أكرمت الكريمَ ملكته

وإن أنت أكرمت اللئيمَ تمردا

فوضعُ الندى في موضعِ السيفِ بالعلّا

مُضِرٌّ كوضعِ السيفِ في موضعِ الندى^(١)

ومَا قَتَلَ الأَخْرَارَ كالعفوِ عَنْهُمْ

وَمَنْ لَكَ بالحرِّ الذي يحفظُ اليدَا^(٢)

قال الإمام ابن الحاج رَحِمَهُ اللهُ في سياق ذكر تأديب المؤدب الصبيان في مكتب تحفيظ القرآن الكريم: «وينبغي أن يكون وقت كَتِبَهُم الألواح معلوماً، ووقت تصويبها معلوماً، ووقت عرضها معلوماً، وكذلك قراءة الأحزاب؛ حتى ينضبط الحال، ولا يختل النظام، ومن تخلف عن ذلك الوقت منهم لغير

(١) الندى: الجود والكرم.

(٢) «ديوان المتنبي» (١١ / ٢).

ضرورة شرعية قابله بما يليق به؛ فربَّ صبيٍّ يكفيه عُبوسَةٌ وجهه عليه، وآخر لا يرتدع إلا بالكلام الغليظ والتهديد، وآخر لا ينزجر إلا بالضرب والإهانة، كلٌّ على قدر حاله»^(١).

ولوجود هذه الفروق الفردية يجبُ على المربي عند العقاب ألاَّ يستخدم عقابًا واحدًا يعم به الجميع؛ لأنَّ الأطفال يتفاوتون.

- فمنهم من تكفيه الإشارة البعيدة والتلميح بالعقاب، فيرتجف لها قلبه، ويهتز منها وجدانه؛ لأنه حساس لين مهذب الطبع ذو حياءٍ، ووجاهةٍ، ومروءة.
- ومنهم من تردعه نظرةٌ غَضَبِيَّ عابسةٌ من المربي، ويزجره الإعراض عنه.
- ومنهم طفل عنيد لا يزره إلا تقريبُ العصا منه.
- ومنهم من يردعه التوبيخ الصريح.
- ومنهم من يكون حرمانه من اللعب أشدَّ عليه من ضربه.
- ومنهم من يكون حرمانه من أصدقائه أشدَّ عليه من حرمانه من النقود.
- فليحذر المربي أن يعاقبَ دون أن يكونَ محيطًا بطبيعة مزاج الطفل وخصائص شخصيته، فيُفسدَ بذلك أكثر مما يُصلح.

رَاعِ قَدْرَ الطِّفْلِ حِينَ تَعَاقِبُهُ:

عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثْرَاتِهِمْ إِلَّا الْحُدُودَ»^(١).

وذوو الهيئات من الناس هم ذوو الأقدار والشرف الذين لا يُعرفون بالشر، ولكن تبذر من أحدهم الزلة، فتُقال عثرته، وتُستر زلته.

ومن الأبناء والتلاميذ من يكونون -رغم صغر سنهم- ذوي قدر ووجاهة بين زملائهم وأساتذتهم؛ لتميُّزهم وذكائهم وتفوقهم وحُسن أخلاقهم، ونُدرة أخطائهم، وحُسن تربيتهم، فينبغي أن تُقال عثرائهم، ولا يُعاقبوا بما يجرح كرامتهم. وفي القصة التالية مثال يبين حجم الإساءة التي يسببها المعلم المتهور بالعقاب دون أن يفهم شخصية المعاقب.

كان تلميذ في الصَّف الأول الإعدادي متفوقاً ذا قدر ووجاهة عند جميع مدرسيه وزملائه، استعار زميله منه كراسة الرياضيات لينقل منها دروساً فاتته على أن يعيدها إليه في اليوم التالي، ونسيَ زميله أن يحضر الكراسة في اليوم التالي. وحدث أن مدرّس الرياضيات تحوّل فجأة عن المدرسة وتم استبدال مدرس جديد مكانه، دخل المدرس الجديد الفصل يحمل في يده عصاً غليظة، وكان ذا جسدٍ ضخمٍ تعلوه ملامحُ الجِدَّة والصرامة، وأراد أن يبسط هيبتَه ويُرهَبَ التلاميذ، فكان يتربص حدوث أيِّ خطأٍ من الطلاب ليُعاجِلهم

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٥٤٧٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٦٥)، وأبو داود (٣٤٧٥)، وابن حبان (١٥٢٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٦٣٨).

بالعقوبة دون رحمة، فشاء القدرُ أن يسأل هذا الطالبَ المتفوقَ عن كراسته، فأخبره أنه لم يُحْضِرْها، وقبل أن يشرحَ له السببَ جذبه أمامَ الفصل، وأمره بخلع حذائه والرقود على الأرض على ظهره، واستدعى أحدَ زملائه ليمسك له قدميه المضمومتين، وأخذ ينهال على قدميه ضربًا عنيفًا، والتلميذ يبكي بحرقة ليس من ألم الضرب، بل من ذل الإهانة وإهدار الكرامة أمامَ زملائه الذين اعتادوا على احترامه وتقديره، بل كان جميعُ المدرسين يستثنونه من (العقاب الجماعي) لسائر الفصل دائمًا.

يقول هذا التلميذ وهو الآن في السبعينات من عمره: «كانت أول وآخر مرة أُضْرِبُ فيها في حياتي، ولذلك لم أنسها أبدًا».

وبعضُ المعلمين لديهم فلسفة (شريرة) تجاه عقاب المتفوقين، وهي أن الطالبَ المتفوق يستحق عقوبة أشد من عقوبة غيره؛ لماذا؟

لأنه متفوق!!

والحق أن من كانت سقطاته نادرة، ولديه من الفضائل ما يجبرها ويغمرها، فهو أولى بإقالة عثرته، والعفو عن خطئه؛ كما يُفهم من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا^(١).



الثالثة عشرة: تناسب العقاب مع سن الطفل؛

لا بُدَّ أن يُعاملَ الطفلُ عمومًا معاملةً تتناسب مع مرحلته العمرية؛ لأنَّ سنَّ الطفل يرتبطُ بمدى إدراكه ومستوى فهمه وتمييزه، وما يُتوقَّع منه، ومن هنا تأتي أهمية إمام المربي بخصائص هذه المراحل العمرية سواء منها الجسدية والنفسية والعقلية والوجدانية والاجتماعية.

- مرحلة الرضاعة:

في خلال العامين الأولين من عمر الطفل لا يمكن عقابه بحالٍ من الأحوال؛ لأنه لا يدرك ما يقوم به، ولا عواقب أفعاله، فإذا بكى ليلاً بكاءً متواصلًا حتى أصابك الصداغ، فإنه لا يربط بين بكائه وألم الصداغ في رأسك. ولأنَّ أفعاله التي لا ترضيك لا تصدر عنه عمدًا وقصدًا، فإذا تسبب حَبْؤُه على الأرض في كسر بعض المقتنيات، فهو لا يقصدُ ذلك، وإنما يحاول اكتشاف العالم المحيط به، وهذه طريقته لإشباع فضوله الشديد، فيكون كثير الحركة، ولا يمكنه تمييز الخطأ من الصواب.

كما أنه يضع الأشياء في فمه بدون تمييز، الأمر الذي يستوجب حمايته مما قد يضره أثناء استكشاف الأشياء بضمه.

ومثل هذا المخلوق الضعيف لا يمتلك المهارات المعرفية ليميز بين الأشياء والنظر في عواقبها، ولذلك لا يكون العقاب فعلاً معه، اللهم إلا أن (يُعاقب) بتجاهل بكائه أحيانًا -إذا لم يكن له سبب عضوي-؛ لأنَّ البكاء هو لغته البدائية للتواصل مع من حوله.

وتجاهل بكائه في بعض الأحوال يفيد به ألا يربط بين البكاء وبين تلبية مطالبه دائماً، فيفهم أن البكاء وسيلة لكي تستسلم لطلبه.

ويمكن عقاب الطفل الرضيع بنظرة غاضبة وبتقطيب الوجه وإظهار عدم الرضا، أو قول: «لا»، عند صدور السلوك السلبي منه، وشرط ذلك أن يكون مدرّكاً لمعنى تعبيرات وجهك متأثراً بها.

ومع ذلك فإنه قد يكرر التصرف؛ لأنه قد ينسى سبب العقوبة خلال دقائق معدودة، وربما لا يدرك سبب العقاب من الأصل.

ولكنه يكون متعلقاً بأمه كثيراً ويتأثر بها، ولذلك فإن أفضل طريقة هي تكرار التوجيه والتذكير بالسلوك الجيد، وإظهار الفرح والضحك عند صدوره منه، وإهمال السلوك السيئ وعدم تذكيره به.

ولتحذر الأم إظهار الاشمئزاز منه إذا تقيأ، أو بال في حجرها، أو سال مخاطه على فمه.

وكذا لا تظهر غضبها من سلوكه فتصرخ في وجهه، ولكن يمكنها الابتعاد عنه لفترة إلى أن يسكن غضبها.

- مرحلة سن ٣ إلى ٥ سنوات:

هي فرصة جيدة لإكسابه السلوكيات الإيجابية، وتدريبه تدريجياً على تحمّل مسؤولية أفعاله السلبيه، حيث تنمو مهاراته الحسية والحركية واللغوية.

كما أنه يستطيع الربط بين سلوكه السلبي ونتيجته (العقاب).

ومن المهم هنا أن نتحدث الأم إليه، وتشرح له القواعد المنزلية المتعلقة به، وكيف أنه سيُحاسَب إذا خالفها.

فإذا أخطأ توضّح لها خطأه، وتحذره من تكراره مجدداً، وتشدد على أنه إذا كرره سيلقى عقاباً (كالحرمان من اللعب مثلاً).

وفي المقابل لا بُدّ من مدحه والثناء عليه إذا قام بسلوك إيجابي.

مثال تطبيقي لمراعاة السن (الطفل الذي يضرب):

يعتمد التصرف هنا على سن الطفل الذي يضرب:

- في سن (٢-٣) سنوات: يحاول الطفل استكشاف البيئة من حوله، ويختبر ردود فعل الوالدين تجاه تصرفاته، فمن ذلك سلوك الضرب، ومن الطبيعي أن يغضب الطفل، ويُحوّل غضبه إلى عنفٍ بدني، والمهم: كيف يستجيب الوالدان؟

فإذا ضرب الطفل أمه على وجهها، فاستحسن الأب ذلك مثلاً، فإنّ الرسالة التي يتلقاها الطفل: إنّ هذا سلوك مقبول.

والصحيح: أن هناك خطواتٍ محددة لا بد من اتباعها هنا:

الأولى: أن تمنعه الأم من ذلك بأن تقيّد حركة يده التي يضرب بها، فتمسكها، وتضغط عليها برفق.

الثانية: أن تعبر له عن عدم رضاها عن هذا الضرب:

(أ) بطريقة لفظية، كان تحاطبه: «لا، هذا عيب» أو «هذا غير مقبول،

فلا تفعله ثانية».

(ب) وتقرن الكلام برسالة (غير لفظية) عن طريق لغة البدن وتعبيرات الوجه، فتظهر له وجهًا جامدًا محايدًا خاليًا من التعاطف مع هدوءٍ وثبات وثقة؛ كي تؤكد سلطتها التربوية.

كل هذا يتضمن رسالة «أني غير راضية عن سلوكك هذا، فلا تكرره».
وعلى الأم أن تتجنب ردة الفعل العنيفة كالصراخ ونحوه.
الثالثة: أن تلتزم الموقف نفسه كلما تكرر منه ذلك.

- في سن الطفولة المتوسطة:

على الأم أن تستجيب بطريقة مختلفة؛ لأنه يفترض أن أطفال العمر المتوسط قادرون على إدارة غضبهم وإحباطهم، والعدوانية هنا قد تكون مؤشراً على وجع داخلي، الأمر الذي يوجب على المربي (أو المرشد النفسي) أن يُقْتَسَ عن أسباب السلوك العدواني؛ وأهمها: مشكلات أسرية، وقوع طلاق الأم، أو حصول فقدٍ ونحوه.

وهنا يُعاقب الطفل -الذي ضرب أخته مثلاً- بأن تصرفه إلى حجرته، وتغادر الأم الموقف، أو تعاقبه بالإقصاء المؤقت بضوابطه التي يأتي بيانها إن شاء الله^(١).
وبمجرد انتهاء فترة العقاب عليها أن تعود لاسترجاع العلاقة العادية معه، فتقترب منه، وتستفهم: «ما الذي حدث؟ ما الذي أغضبك إلى حدٍّ أن تضرب شخصاً ما؟».

(١) انظر: (ص ٥١٠)، وما بعدها.

فإذا قَدَّم شرحًا لسلوكه، تجيبه: «نعم فَهَمْتُ».

ثم تعود فورًا إلى تطبيق سلطتها التربوية، فتقول: «لكن لا ينبغي لك أبدًا أن تضرب؛ لأنه سلوكٌ غير مقبول».

ثم ترجع إلى ترميم العلاقة معه، وتقول: «في المرة القادمة لو حصل من أختك هذا، تعال إليّ، وسوف أساعدك وأعالج الموقف».

وبهذا ينظر إلينا أبناؤنا على أننا مصدر مساعدة لهم حين ينتابهم الغضب.

- مرحلة المراهقة:

وهي مرحلة حسّاسة تتميز بالنزوع إلى الاستقلالية، والاندفاعية، والحرص على الشعور بالتححرر من القيود.

وعند عقاب المراهق، لا بُدَّ من إعطائه مساحة حرة ليعبر عن نفسه ويشرح موقفه، على أن يمتنع المربي عن إصدار أحكام تُدينُ شخصه، وعن العنف، وكذا يضبط المربي ذاته، ويتحكم في انفعالاته.

أما أنواع العقاب للمراهق:

فيختار من بينها ما هو أنسب لطبيعته، ولنوع الخطأ وحجمه، مثل:

١ - إيقافه عن فعلٍ مُحبَّبٍ إليه؛ مثل الخروج للترفيه، على أن يُلغى العقاب عند توقُّف السلوك السلبي.

وبذلك يتحمل مسؤولية تصرفاته، ويتعلم كيف يستجيب للإحباط، ويتحكم في ذاته.

٢- الحرمان: من مكافأة مادية مثلاً.

٣- تقليل التفاعل معه لمدة معينة؛ كيوم مثلاً عن طريق الهجر، مما يُمكنه من مراجعة تصرفه.

٤- إشراكه في بعض الأعباء المنزلية؛ كالتنظيف أو إعداد الطعام.

٥- تكليفه بأعمال إضافية كتمارين الرياضة أو أعمال خِدمية.

والهدف من العقاب أن يفهم أن الاستقلالية والمسؤولية وجهان لعملية واحدة، فلكي تنال الاستقلالية أثبت أنك مسؤول، وتحمل عاقبة أفعالك.

الرابعة عشرة: لا تعاقبه على سلوك أنت قدوته فيه؛

فإن التربية بالقُدوة أعظم وأنفع طرق التربية؛ لأنَّ الطفل يكتسب ألوان السلوك من خلال تقمُّص وتقليد ومحاكاة الآخرين لا سيَّما من يحبهم ويحترمهم كالوالدين والمعلمين.

أوصى عتبة بن أبي سفيان عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدِّب أولاده، فقال: «ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك بنيَّ إصلاحك نفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت...»^(١).

فليس من المنطقي أن يعاقب المربي الطفل على سلوك سيئ يفعلُه المربي:
لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

(١) «البيان والتبيين» للجاحظ (٢/٧٣، ٧٤).

وقال الشاعر:

إِذَا كَانَ رَبُّ الْبَيْتِ بِالْذُّفِّ ضَارِبًا فَشَيْمَةً أَهْلَ الْبَيْتِ كُلَّهُمُ الرَّقْصُ

- فإذا رأى الطفل أباه إذا غضب يصرخ وَيَسُبُّ، سيقندي به إذا غضب فيصرخ في وجه من غضب منه، ويشتمه.

- وإذا رآه يدخن السجائر، فسيلتقط السيجارة التي دخنها ليرشف ما تبقى منها خلسة.

- وإذا استأذن عليه أحد فقال له: «قل له: أبي ليس في البيت»، فسيتعلم أن الكذب مخرج مقبول من مثل هذا الموقف.

- وإذا خرجت الأم متبرجة متعطرة، فلن يُجدي مع ابنتها - غالباً - محاولة إقناعها بالحجاب.

- وإذا كان المعلم يتأخر دوماً عن موعد الحصة، فسيقندي به الطلاب، وسيمحو بسلوكه آثار ما لقنهم إياه عن الانضباط واحترام المواعيد.

يقول الأستاذ محمد عبد الرحيم عدس في سياق ضرورة تعزيز ثقة الأبناء بالوالدين: «يقتضينا الواجب أن نحافظ على ثقة الطفل بنا، وأن نعمل على تعزيز هذه الثقة بشواهد سلوكية تزيده بنا يقيناً، وتنمي في نفسه الثقة والاطمئنان، ومن هنا علينا أن نحذر الوقوع في التناقض بين ما نُجيزه لأنفسنا ونحظره عليها، وبين ما نجيزه لطفلنا ونحظره عليه، وبِغَضِّ النظر عن قدرته على التعليل، والاستجابة لنداء العقل، واحتكامه للمنطق آخذين بعين الاعتبار قدرته العقلية، ووجهة نظره الخاصة في تعليله للأمور، وإصدار الأحكام؛ إذ من

المفروض أن يسود الانسجام بين ما نُصدره إليه من تعليمات، أو أوامر ونواهٍ، وبين ما نقوم به نحن من أعمال، وأقوال، بحيث يتمُّ التوافق بينهما، ولا يبقى هناك مجالٌ للخلط أو التناقض.

طفل في التاسعة من عمره علاّ صوته أثناء احتدام النقاش مع أبيه حول بعض تصرفاته، فما كان من أبيه إلا أن قال له: (اخفض صوتك؛ إذ لا يجوز أن يرفع الإنسانُ صوته وهو يناقش غيره، أو يعرض رأيه، وبخاصة أمام الناس)، وصدّع الطفل لتوجيه أبيه، ولم تمر بضعة أيام حتى حدث منه ما جعل الأب يُبدي رأيه بحِدَّة زائدة، وبصوتٍ مرتفع، وعلى ملأٍ من بعض الأقارب الذين تواجدوا آنذاك وبمحض الصدفة.

وقف الطفل مبهورًا، ثم أشار إلى أبيه أن يُهدئ من روعه، وأن يخفض من صوته قائلاً له: (لقد سبق أن قلت لي إنَّ ارتفاع الصوت أثناء النقاش يُخرج صاحبه عن حدود اللياقة والأدب، وبخاصة أمام الناس، والواجب تسوية الأمر بمعزل عن الآخرين).

إنَّ فيما قاله الطفل إشارةً واضحةً لها مغزى، وذات دلالة، فهو يُذكِّر الأب بوجوب الالتزام بما سبق وأن نصَّح به طفله، وأنَّ عليه أن يكون فعله مُصدِّقاً لقوله، وأن يلتزم بهذه القاعدة، ويطبقها على نفسه هو حتى يكون لكلمته عند الغير قيمتها، ولها احترامها، بشكلٍ يؤهله ليصبح القدوة الصالحة.

كما حدث أن طفلاً في الثالثة من عمره تناول سيجارةً من علبةٍ كانت أمام والده، وطلب منه أن يُشعلها له أسوةً به، فانتهره الأب غاضباً، وقال: (إنَّ

التدخين مُضِرٌّ بالصحة، ويُسَبِّبُ المرض)، فامتثل الطفل لقول والده، ولكن دون أن تبدو عليه أماراتُ القناعة، الأمر الذي دفعه بتذكير والده بما قال كلما همَّ هذا الأب بإشعال سيجارة في حضرة طفله الذي يبادره بقوله: (التدخين عيب، بَعْدِين تمرض).

وقد يرد الأب على طفله بأنَّ التدخين مسموحٌ به للكبار وليس للصغار، غير أنَّ الطفل عملاً بتوكيد الذات، وتقليداً منه لأبيه، قد يرد عليه بأنه أصبح كبيراً، ولم يعد طفلاً صغيراً، ولذا فمن حقه أن يتناول سيجارة يُدخِّنُها، الأمر الذي يوقع الأب في موقفٍ حرج، وقد يجدُ نفسه مضطراً لـيستخدمَ الشدة دون أن يكون لدى طفله ما يقنعه بالانصياع لما يريده الأب؛ لأنه أصبح غير واثقٍ من أقوال والده، ما دام يمارس تصرُّفاً ينهى غيره عن القيام به، فالطفل لا يدرك معنى المجاملة، والعمل بها، وليس في وُسْعِهِ أن يُدرك أنَّ ما هو مسموحٌ لغيره ممنوعٌ بالنسبة إليه، إنَّ في هذا الدليلَ القاطعَ على أنَّ ثقةَ الطفل بأبيه تهتز نتيجةً للتناقض الواضح والصريح في موقف الأب، وسيعترىها الشك في المستقبل، إذا ما توالى تصرُّفاتُ الأب على هذا النحو، بحيث لن يجِدَ أذُنًا صاغيةً من طفله، الأمر الذي يضطره لمعاقبته أحياناً، والذي لن يأتيه -غالباً- بالفائدة المرجوة من استخدامه؛ لأنَّ استجابةَ الطفل له في مثل هذه الحالة ستكون بدافع الخوف، فيُصِرُّ على عِناده ومعارضته كلما سنحت له الفرصة؛ إثباتاً منه لكيانه، وإشباعاً لرغبته في إظهار إرادته، وليس من أجل الرغبة في المخالفة، أو حُباً في خرق أوامر والده، أو نكايَةً فيه^(١).

(١) «الآباء وتربية الأبناء» (ص ٦٤، ٦٥)، وانظر: (ص ٤١٤، ٤١٥).

الخامسة عشرة لا يجتمع غضب وعقاب

نفصل هنا أولاً الكلام في انفعال (الغضب) بصفة عامة، وكيف دلّنا الوحي الشريف على الطريقة الفعّالة في (إدارة الغضب)، ثم نُشّي بالكلام على مقصود هذه القاعدة من الناحية التربوية إن شاء الله تعالى.

أولاً: فصل تمهيدي حول الغضب وعواقبه وكيفية إدارته

تعريف الغضب:

الغُضْبَةُ: الصخرة الصُّلْبَةُ، ومنه اشتقَّ الغضب؛ لأنه اشتداد السَّخَطِ.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: «الغضب: غليان دم القلب بطلب الانتقام».

وقيل: الغضب نارٌ في القلب، يغلي بها الدم، فتثور لها الجوارح؛ استجابةً لطلبها من أجل حماية الإنسان، ورد الأذى عنه.

وقيل: الغضبُ انفعالٌ مؤلِّمٌ تصحبه تغيرات فسيولوجية؛ مثل احمرار الوجه، وارتجاف الأطراف، واضطراب الحركة والكلام، وقد ترافقه سلوكيات خارجية؛ مثل: السَّب، والضرب، والقتل، والانتقام.

وقيل: الغضب تصرف انفعالي يصدر ردّاً على موقف استفزازي، يفقد فيه الغاضب تعقله واتزانه.

وللغضب أصالةٌ وظيفه حيوية للإنسان تتمثل في حفظ ذاته وتهيته للدفاع عن نفسه.

والغضب نوعان: مذموم ومحمود:

- في الغضب المذموم: يطرأ على الانفعالات الأصلية ما يجعلها تؤدي دورًا سلبيًا في الحياة النفسية والاجتماعية، ينعكس على الصحة النفسية والجسمية.

- والغضب المحمود: هو غضب يكون تحت سلطة العقل من بدايته إلى آخره، وهو «غضب ينتظر إشارة العقل والدين، فينبعث حيث تجب الحماية، وينطفئ حيث يحسن الحلم»^(١).

ومثيرات الغضب قسمان:

- داخلية: تمتلئ بها الحياة النفسية.

- وخارجية: تمتلئ بها الحياة الاجتماعية.

تفاوت الناس في انفعال الغضب:

«الناس إذن في انفعال الغضب وغيره من الانفعالات بين تفريط واعتدال وإفراط، وهذا مرتبط بالمزاج العام للشخص، فإذا كان مزاجه حادًا، فإن عتبة إثارته (Threshold) تكون واطئة، فيثور لأتفه الأسباب، ويغضب لأبسط الأمور، وإذا كان مزاجه هادئًا فإن عتبة إثارته تكون معتدلة، وإذا كان مزاجه باردًا فإن عتبة إثارته تكون عالية.

(١) «التأصيل الإسلامي للعلوم النفسية» (ص ٣٧٨).

تنحرف الانفعالات وتصير إلى حالة مرضية تتطلب العلاج عندما تُثار بشكل غير طبيعي، فإذا صارت أنواع المثيرات التي تثير هذه الانفعالات مما لا يثيرها عادة لدى الناس، أو صار حجم الإثارة أكبر بكثير من حجم المثير، نتحدث عن انحراف في الانفعالات، فأما حجم الإثارة فيتحكم فيه المزاج، وأما نوع المثير فتتحكم فيه القيم الحضارية والثقافية التي يؤمن بها الشخص، فَرُبَّ أمرٍ يُثير غضب شخص في ظل حضارة معينة، ولا يثير غضب آخر في ظل حضارة أخرى، وهذا يؤكد أن معالجة الاضطرابات النفسية لا ينفصل عن البيئة الثقافية التي يعيش فيها المريض والمعالج، ففي ظل القيم الإسلامية لا نحكم على الغضب والحمية على الأهل والزوجة والبنات بأنه انفعال منحرف، بل إن عدم الحمية لدين الله ومحارم الله هو الذي يُعدُّ انحرافاً من جهة التفريط، بينما لا نجد في ظل القيم الغربية الحالية هذا المعيار نفسه عند الحكم على الانفعالات. وهذا يعود بنا إلى نشأة الانفعالات وتمايزها، ودور كلٍّ من الوراثة والبيئة في ذلك»^(١).

«فَرُبَّ إنسانٍ هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب حتى كأن صورته في الفطرة صورة غضبان.. وأما الأسباب الاعتيادية فهو أن يخالط قومًا يتبجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب، ويسمون ذلك شجاعةً ورجولة»^(٢).

(١) «التأصيل الإسلامي» (ص ٣٧٩، ٣٨٠).

(٢) «الإحياء» (٣/ ١٧٨).

آثار الغضب وعواقبه:

الإنسان مخلوق متميز، كَرَّمَهُ اللهُ تعالى، غير أن الغضب يُشَوِّه هذا التميُّز، ويُحِلُّ باتزان أقواله وأفعاله، فيتولد عنه نتائج وخيمة:

١- الغضب مفتاح كل شر:

قال جعفر الصادق رَحِمَهُ اللهُ: «الغضب مفتاح كل شر»؛ لأنَّ الغضب المفرط يتجاوز حدَّ دفع الشر إلى إيقاع الشر بنفسه وبالأخرين، وبدل أن يحكم الإنسان طاقة الغضب تحكمه هذه الطاقة وتأخذ بناصيته بعيداً عن حدود العقل والشرع. وثمره الغضب تفريق بين القلوب، وسقم جسد، وطلاق زوجين، وتشريد أبناء، وقد يكون باباً إلى الظلم والعدوان على الخلق بضرب أجسادٍ أو بإزهاق أرواح، أو نشوب حروب.

وقد أدرك علماؤنا قديماً عواقب الغضب، وعَبَّرُوا عنها بلغة تختلف عن لغة عصرنا (العلمية الحديثة)، لكنها تتفق معها في المضمون، ومن ذلك قول الراغب الأصبهاني رَحِمَهُ اللهُ: «واعلم أنَّ نارَ الغَضَبِ متى كانت عَنيفة تَأْجَجَتْ، واضطربت، واحتدَّ منه غليان الدم في القلب، وملأت الشرايين والدماغ دخاناً مظلمًا مضطربًا، يَسْوَدُّ منه مجالُ العقل، ويضعف به فعله، فكما أن الكهف الضيق إذا مُلِئَ حريقًا اختنق فيه الدُّخَانُ، واللهب، وعلا منه الأَجِيجُ، فيصعب علاجه وإطفاءه، ويصير كل ما يدنو منه مادة تقويه؛ فكذلك النفس إذا اشتعلت غضبًا عَمِيَّتْ عن الرشد، وصمَّتْ عن الموعدة، فتصير مواعظه مادة لغضبه^(١)، ولهذا

(١) ولذلك فإن من باب سد الذريعة أن لا تقول لمن اشتد غضبه: «اتق الله» إذا كنت تتوقع منه أن =

حُكِيَ عن إبليس -لعنه الله- أنه يقول: (متى أعجزني ابنُ آدمَ، فلن يعجزني إذا غضب؛ لأنه ينقاد لي فيما أبتغيه منه، ويعمل بما أريده وأرتضيه)، وقد قيل: (الغَضَبُ جنونُ ساعةٍ)، ورُبَّما أفضى إلى تلف باختناق حرارة القلب فيه، وربما كان سبباً لأمراض صعبة مؤدية إلى التلف»^(١).

٢- الغضب وسيلة إلى غضب الله تعالى:

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سأل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ماذا يُباعدني من غضب الله عَزَّوَجَلَّ؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تغضب»^(٢).

وكان أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «أقربُ ما يكون العبدُ من غضب الله إذا غضب، واحذر أن تظلم مَنْ لا ناصرَ له إلا الله».

٣- الغضب عدو العقل:

فقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عدو العقل الغضب»، وقال أيضاً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أول الغضب جنون، وآخره ندم، ولا يقوم الغضب بِذُلِّ الاعتذار، وربما كان العطْبُ في الغضب»، وقال -أيضاً- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنما يُعرفُ الحِلْمُ ساعةَ الغضب».

وقيل لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما النبلُ؟ فقال: «الحِلْمُ عند الغضب، والعفو عند القدرة».

= يرد بسبب الله سُبحانَهُ وتعالى ونحو ذلك من الألفاظ الشنيعة التي يتفوّه بها الأوباش، ودليل هذا من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

(١) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (ص ٣٤٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٦٦٣٥)، وابن حبان (٢٩٦)، وقال محققو «المسند»: «صحيح لغيره».

ليست الأحلام في حين الرضا إنما الأحلام في وقت الغضب

وقال الكريزي:

ولم أر في الأعداء حين اختبرتهم عدواً لعقل المرء أعدى من الغضب

وقال عروة بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مكتوبٌ في الحِكم: يا داودُ! إياك وشِدَّةُ الغضب؛ فإنَّ شدةَ الغضب مَفْسَدَةٌ لفؤاد الحكيم».

وقال سهل بن هارون: «ثلاثة كالمجانين - وإن كانوا عقلاء-؛ الغضبان، والغيران، والسكران».

وقال أبو حاتم: «أحسن الناس عقلاً من لم يَحْرِد^(١)، وأحضر الناس جواباً من لم يغضب».

وقال أيضاً: «لو لم يكن في الغضب خصلةٌ تُذَمُّ إلا إجماع الحكماء قاطبةً على أنَّ الغضبان لا رأي له؛ لكان الواجبُ الاحتياَل لمفارقتِه بكل سبيل»^(٢).

إنَّ الغضب يجرّد العاقل من عقله، ويُفقدّه توازنه العقلي والنفسي، ويُغلق باب التروي والتعقل، لينفتح باب الانفعال بغير حساب ولا تَثْبُت، فينساق وراء الهوى، وتسود المشاعر السلبية، وينسى أي مشاعر إيجابية سابقة نحو من غضب عليه، وبسبب حالة التَّحَفُّز للرد والدفاع والمقاتلة تتعطل آلية الإدراك عند شدة الغضب، و«في حالة الانفعال الشديد والعصبية والغضب لا يستطيع الإنسان التفكير بشكلٍ عقلائي ومنطقي؛ لأنَّ طاقة العقل تُستنزف في طاقة الانفعال،

(١) يحرد: يغضب ويستاء.

(٢) «روضة العقلاء» (ص ١٤٠).

فهناك قاعدة نفسية تقول: إنَّ العوامل الانفعالية تؤثر سلبيًا على العوامل المعرفية والعقلية، فيقل الانتباه والتركيز والتفكير السليم والقدرة على الإبداع^(١).

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لا يقضينَّ حَكْمَ بين اثنين وهو غضبان»^(٢)؛ لأنَّ الحكم حالة الغضب قد يتجاوز بالحاكم إلى غير الحق، فمُنْع لأنَّ بالغضب يختل النظر.

٤- إحباط العمل:

فربما نطق بكلمة تحبط عمله، وتُوبِق دنياه وآخرته؛ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «كان رجُلان في بني إسرائيل مُتَوَاحِشَيْنِ، فكان أحدهما يُذْنِبُ، والآخرُ مجتهدًا في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أَقْصِرْ، فوجده يومًا على ذنب، فقال له: أَقْصِرْ، فقال: خَلْنِي وربِّي أَبْعَثَتْ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فقال: والله، لا يَغْفُرُ اللهُ لك -أو: لا يُدْخِلُكَ اللهُ الجنةَ- فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: كنتَ بي عالمًا، أو كنتَ على ما في يدي قادرًا؟ وقال للمذنب: اذهب، فادخل الجنةَ برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار»^(٣)، قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والذي نفسي بيده، لتكَلَّمَ بكلمة أُوْبَقَتْ دنياه وآخرته^(٤).

(١) «فنون التعامل مع المراهقين».

(٢) رواه البخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧)، ورواه أبو داود بلفظ: «لا يقضي الحاكم»، ولفظ النسائي وابن ماجه: «لا يقضي القاضي».

(٣) لأنه كان مغرورًا بجتهاده، محتقرًا للمذنب، آمنًا من مكر الله تعالى.

(٤) رواه أبو داود (٤٩٠١)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٤٠٩٧).

قال عطاء بن أبي رباح: «ما أبكى العلماء بكاء آخرِ العمر من غضبة يغضبها أحدهم، فتهدمُ عملَ خمسين سنة، أو ستين سنة، أو سبعين سنة، ورُبَّ غضبة قد أقحمت صاحبها مقحماً ما استقاله».

وقد يهوي به الغضب إلى دركة الكفر عياداً بالله تعالى؛ كما جرى لجلبة ابن الأيهم؛ ففي الحديث أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتب إلى جلبة بن الأيهم ملك غسان؛ يدعوهُ إلى الإسلام، فأسلم وكتب بإسلامه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأهدى له هدية، ثم لم يزل مسلماً حتى كان زمن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فبينما هو في سوق دمشق إذ وطئ رجلاً من مُزَيَّنة، فوثب المزني فلطمه، فأخذه فانطلق به إلى أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقالوا: هذا لطم جلبة، قال: فليطمه، قالوا: أو ما يُقتل؟ قال: لا، فقالوا: أفما تُقطع يده؟ قال: لا، إنما أمر الله بالقود، قال جلبة: أترون أني جاعلٌ وجهي نذاً لوجه جدي جاء من عُمُق؟ بئس الدين هذا! ثم ارتدَّ نصرانيّاً، وترحلَّ بقومه حتى دخل أرض الروم^(١).

٥- أثره على اللسان:

قد يؤدي الغضب إلى نطق الإنسان بالفاحش من القول المحرم؛ كالقذف، والسَّب، وقد يحلف أيماناً لا يجوز التزامها، أو يُطلِّق زوجته، ونحو ذلك.

ومن ثمَّ كان من دعاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي

الغضب والرضا»^(٢).

(١) «تاريخ دمشق» (١١/١٩)، والعُمُق: ما بَعُدَ من أطراف المفاوز.

(٢) قطعة من حديث رواه عن عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الإمام أحمد (١٨٣٢٥)، وابنُ أبي شيبة (٢٦٤/١٠)، والطبراني في «الدعاء» (٦٢٥)، وغيرهم، وقال محققو «المسند»: «حديث صحيح».

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ: «ثلاث من كُنَّ فيه فقد كمل؛ من إذا غضب لم يُخرجه غضبه عن الحق، وإذا رضي لم يُدخله رضاه في الباطل، وإذا قدر عفا وكَفَّ»، وقال أيضًا رَحِمَهُ اللهُ: «التَّقِيُّ مُلْجَم؛ لا يفعلُ كُلَّ ما يُريد».

وعن عبد العزيز بن الماجشون، قال: قال أبو حازم لبعض أولئك الأمراء: «والله لولا تبعة لساني، لأشفيتُ منكم اليومَ صدري».

٦- الغضب بذر الندم:

إذا غضب الإنسان قال بما لا يعلم، وعمل بما عليه يندم، قال ابن حَبَّانٍ رَحِمَهُ اللهُ: «سرعة الغضب من شيم الحمقى كما أن مجانبته من زيِّ العقلاء، والغضب بذر الندم؛ فالمرء على تركه قبل أن يغضب أقدرُ على إصلاح ما أفسد به بعد الغضب»^(١).

قال مُورِّق العجلي: «إني لقليل الغضب، وإنه ليأتي عليَّ السنة ما أغضب، ولقلَّ ما قلتُ في غضبي شيئاً أندمُ عليه إذا رضيت».

٧- الغضب يفضي إلى ذلِّ الاعتذار:

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «.. ولا تكلم بكلام تعتذر منه غداً» الحديث^(٢)، وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إياك وكل ما يُعتذرُ منه»^(٣).

وقال بعضهم: «إياك وعزَّة الغضب؛ فإنها تُفضي إلى ذلِّ الاعتذار»^(٤).
وإذا ما اعتراك في الغضب العِزُّ ة فاذكُرْ تَذُلُّ الاعتذارِ

(١) «روضة العقلاء» (ص ١٣٩).

(٢) تقدم تخريجه (ص ٨٠).

(٣) رواه الضياء في «المختارة»، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٤٥٣).

(٤) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٥١).

إدارة الغضب (Anger Management)

هل نحن مُكَلَّفون بعدم الغضب؟

الغضب انفعالٌ قسري، ولذلك لا يُتَصَوَّرُ إزالته الانفعال (الخارج عن إرادتنا)، ولكن المطلوب هو حسن إدارة الإنسانِ غضبه عن طريقين:

- الأول: إزالة أسبابه، بتقليل مثيرات الغضب في حياته.
- والآخر: التَّحَكُّمُ في نتائجه، فَإِنَّ الغضبان مكلف بكبح غضبه عن طريق الأفكار والأقوال والأفعال التي تُسَكِّنُهُ.

خطوات مهمة في علاج الغضب

١- السكوت؛

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رجلاً شتم أبا بكرٍ والنبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالسٌ، فجعل النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعجب، ويتبسم، فلما أكثر ردَّ عليه بعضُ قوله، فغضب النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقام، فلحقه أبو بكر، فقال: يا رسول الله، كان يشتمني وأنت جالسٌ، فلما رددتُ عليه بعضُ قوله غَضِبْتَ وقُمْتَ، قال: «إنه كان معك مَلَكٌ يردُّ عنك، فلما رددتَ عليه بعضُ قوله وقع الشيطان؛ فلم أكن لأقعد مع الشيطان»، ثم قال: «يا أبا بكر! ثلاثٌ كلُّهنَّ حقٌّ؛ ما من عبدٍ ظَلِمَ بِمَظْلَمَةٍ، فيُعْضِي عنها لله عَزَّوَجَلَّ إلا أعزَّ الله بها نَصْرَهُ، وما فتح رجل باب عطية يريد بها

صلته إلا زاده الله بها كثرة، وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله عزَّجَلَّ بها قلَّة»^(١).

وعن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلِّمُوا وَيَسِّرُوا وَلَا تَعَسِّرُوا، وإذا غضب أحدكم فليسنك»^(٢).

وذلك يدل على أنَّ الغضبان مُكَلَّفٌ في حال غضبه بالسكوت، فيكون -والحالة هذه- مؤاخذاً بالكلام.

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فليسكت» أي: عن النطق بغير الذكر المشروع؛ لأنَّ العبد إذا أطلق لسانه في حال الغضب يصدر عنه قبيحُ القول، فإذا سكت نجا من ذلك؛ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من صمت نجا»^(٣)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً، أو ليصمت»^(٤).

إنَّ السكوت في حال الغضب يقطع الجدل في مواقف الخصومة، ويحسم مادة الشتم والسب، وقال رجلٌ لضرار بن القعقاع: «والله لو قلت واحدة؛ لسمعتَ عشرًا»، فأجابه ضرار: «والله لو قلتَ عشرًا؛ لم تسمع واحدة».

(١) رواه الإمام أحمد (٩٦٢٤)، والبيهقي في «السنن» (٢١٠٩٦)، وقال الألباني في «الصحيحة» (٢٧١/٥): «جيد».

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢١٣٦)، والطيايسي (٢٦٠٨)، والطبراني (١٠٩٥١)، وقال محققو «المسند»: «حسن لغيره»، وصححه الشيخ شاکر (١٢/٤).

(٣) رواه الترمذي (٢٥٠١)، والإمام أحمد (١٥٩/٣)، والدارمي (٢٩٩/٢)، والطبراني في «الأوسط» (١٩٥٦)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٣٦).

(٤) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ:

قالوا سَكَتَ وَقَدْ خُوصِمْتَ قُلْتَ لَهُمْ: إِنَّ الْجَوَابَ لِبَابِ الشَّرِّ مِفْتَاحُ
فَالْعَفْوُ عَنِ جَاهِلٍ أَوْ أَحْمَقٍ أَذْبُ نَعَمْ وَفِيهِ لَصَوْنُ الْعِرْضِ إِصْلَاحُ
إِنَّ الْأَسْوَدَ لَتُخْشَى وَهِيَ صَامِتَةٌ وَالْكَلْبُ يُحْتَى وَيُزْمَى وَهُوَ نَبَاحُ^(١)

وقال الشاعر:

لَنْ يَبْلُغَ الْمَجْدَ أَقْوَامٌ إِنْ كَرُمُوا حَتَّى يَذِلُّوا وَإِنْ عَزَّوْا لِأَقْوَامٍ
وَيُشْتَمُوا فَتَرَى الْأَلْوَانَ مَشْرِقَةً لَا عَفْوَ ذُلٍّ وَلَكِنْ عَفْوَ أَحْلَامٍ

٢ - الاستعاذة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٦].

وقد رُوِيَ عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ» الحديث^(٢).

فالشیطان هو الذي يهيج الغضب ويؤججه، ويذكر الله يخنس ويفر، فمن غلبه الغضب فليبادر فوراً بأن يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم».

عن سُلَيْمَانَ بْنِ صَرْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَعَلَ أَحَدُهُمَا يَغْضِبُ وَيَحْمَرُّ وَجْهَهُ، وَتَتَفَخَّ أَوْدَاجُهُ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «إِنِّي لَا أَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَنَظَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، فَقَامَ إِلَى الرَّجُلِ مِمَّنْ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا قَالَ

(١) «ديوان الشافعي» (ص ٤٢).

(٢) انظر: (ص ١٠٩).

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنفَأ؟ قَالَ: لا، قَالَ: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ ذهب عنه ما يجد» الحديث^(١).

أو يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم».

أو يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ».

وصَحَّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَدْعُو: «اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء»^(٢).

وليحذر العبد أن يزين الشيطان له الغضب والانتقام بأنه إذا لم يفعل سيُحْمَلُ ذلك منه على الخنوع والذل^(٣) والضعف والعجز والمهانة، ودواء ذلك أن يقول للشيطان: «ما بلغ إخلاصك لي أن تنصحنني بما ينفعني، بل أنت عدوٌّ مبين، وقد أمرني الله أن أَخَذَكَ عَدُوًّا لَا نَاصِحًا»، وليستحضر هَذِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كيفية إدارة الغضب.

(١) رواه البخاري (٣٢٨٢)، ومسلم (٢٦١٠).

(٢) رواه ابن حبان (٩٦٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٣٧/٧)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٣)، وصححه الألباني، والشيخ شُعَيْبٌ رَحِمَهُمَا اللَّهُ.

(٣) الدليل يترك الانتقام عجزاً وخوفاً ومهانة نفس، وهذا مذموم، والمتقم بحق أحسن منه؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩].

أما العفو فهو أن تُسْقِطَ حَقُّكَ جَوْدًا وَكِرَمًا وَإِحْسَانًا مَعَ قُدْرَتِكَ عَلَى الْإِنْتِقَامِ، وهذا من مكارم الأخلاق التي حَضَّ عليها الشرع الشريف، ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وما زاد الله عبداً بعفوٍ إِلَّا عِزًّا» الحديث.

عن أبي رزين قال: جاء رجل إلى الفضيل بن بزوان، فقال: إن فلاناً يقعُ فيك، فقال: «لأغيظنَّ من أمره، يغفر الله لي وله»، قيل: من أمره؟ قال: «الشيطان».

٣- الوضوء:

رُوِيَ عن أبي وائل الصنعاني القاصِّ، قال: كُنَّا جُلُوسًا عند عروة بن محمد، قال: إِذْ أُدْخِلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ، فَكَلَّمَهُ بِكَلَامٍ أَغْضَبَهُ، قال: فَلَمَّا أَنْ غَضِبَ قَامَ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْنَا وَقَدْ تَوَضَّأَ، فَقَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ عَطِيَّةٍ -وَقَدْ كَانَتْ لَهُ صَحْبَةٌ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ»^(١).

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيِّ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّهُ خَطَبَ النَّاسَ وَقَدْ حُبِسَ الْعَطَاءُ شَهْرَيْنِ -أَوْ ثَلَاثَةَ-، فَقَالَ لَهُ أَبُو مُسْلِمٍ: يَا مُعَاوِيَةُ إِنَّ هَذَا الْمَالُ لَيْسَ بِمَالِكَ وَلَا مَالِ [أَبِيكَ وَلَا مَالِ] أَمِّكَ، فَأَشَارَ مُعَاوِيَةُ إِلَى النَّاسِ؛ أَنْ امْكُثُوا، وَنَزَلَ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَبَا مُسْلِمٍ ذَكَرَ أَنَّ هَذَا الْمَالُ لَيْسَ بِمَالِي وَلَا بِمَالِ أَبِي وَلَا أُمِّي وَصَدَّقَ أَبُو مُسْلِمٍ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «الْغَضَبُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَالشَّيْطَانُ مِنَ النَّارِ، وَالْمَاءُ يَطْفِئُ النَّارَ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَغْتَسِلْ»، اغْدُوا عَلَى عَطَايَاكُمْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(٢).

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٧٩٨٥)، وأبو داود (٤٧٨٤)، والبيهقي في «الشعب» (٨٢٩١)، وقال

محققو «المسند»: «إسناده ضعيف».

(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٣٠ / ٢)، وفيه ياسين بن معاذ الزيات، وهو ضعيف.

٤- الجلوس أو الاضطجاع:

رُوي عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: «إلا إن الغضب جَمْرَةٌ تُوقَدُ في جوف ابن آدم، ألا ترون إلى حُمْرة عينيه وانتفاخ أوداجه، فإذا وجد أحدكم شيئاً من ذلك فالأَرْضُ الأَرْضُ» الحديث^(١).

وقال بكر المزني رَحِمَهُ اللَّهُ: «أطفئوا نار الغضب بذكر نار جهنم».

وقال أبو الأسود الدؤلي: كان أبو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسْقِي على حوضٍ له، فجاء قومٌ، فقال -يعني أحدهم-: أَيُّكُمْ يورِدُ^(٢) على أبي ذر، ويحتسب^(٣) شعراتٍ من رأسه؟ فقال رجلٌ: أنا، فجاء الرجل فأورَدَ عليه الحوض فدَقَّه^(٤)، وكان أبو ذَرٍّ قائماً، فجلس، ثم اضطجع، فقليل له: يا أبا ذرٍّ! لِمَ جلستَ، ثم اضطجعتَ؟ قال: فقال: إِنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لنا: «إذا غضب أحدكم وهو قائمٌ فليجلس، فإن ذهبَ عنه الغضبُ وإلا فليضطجع»^(٥).

قال الإمام الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: «القائم متهمٌ للحركة والبطش، والقاعد دونه في هذا المعنى، والمضطجع ممنوعٌ منهما، فيشبه أن يكون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما

(١) قطعة من حديث رواه الإمام أحمد (١١١٤٣)، والطيالسي (٢١٥٦)، وأبو يعلى (١١٠١)، والحاكم (٥٠٥/٤)، وغيرهم، وفيه علي بن زيد بن جُدعان، وهو ضعيف، والغرض من اللصوق بالأرض تجميد كل حركة يمكن أن ينجم عنها آثار مادية للغضب؛ كالصفع، أو الضرب باليد، أو الركل بالقدم، وسائر أنواع البطش.

(٢) يُورَد: أي إبله على حوض أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) يحتسب: أي يطلب، والمراد بذلك استفزازه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وإثارة غضبه.

(٤) دَقَّه: كأنه دَقَّ على رأسه طلباً لشعره.

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٢١٣٤٨)، وأبو داود (٤٧٨٢)، وغيرهما، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٤٠٠٠).

أمره بالعود والاضطجاع؛ لئلا يدر منه في حال قيامه وعوده بادره يندم عليها فيما بعد، والله أعلم»^(١).

ولما تكلم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الفتن؛ قال: «المضطجع فيها خير من القاعد، والقاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي»^(٢).

٥- الانسحاب من الموقف؛

لأنَّ البقاء في موقف الغضب قد يفضي إلى النزاع والمراء، وقد قال عبد الله ابن الحسين: «المراء رائد الغضب، فأخزى الله عقلاً يأتيك به الغضب». وقال يزيد بن أبي حبيب: «إنما غَضَبِي فِي نَعْلِي، فإذا سمعتُ ما أكره أخذتها ومضيتُ».

وعن سهل بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: ما كان لعليٍّ اسمٌ أحبَّ إليه من أبي تراب، وإن كان ليفرَحُ به إذا دُعِيَ بها، جاء رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيتَ فاطمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فلم يَجِدْ عليّاً في البيت، فقال: «أين ابنُ عمِّك؟» فقالت: كان بيني وبينه شيء، فغاضبني، فخرج فلم يَقلْ عندي، فقال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لإنسان: «انظر أين هو؟»، فجاء، فقال: يا رسول الله، هو في المسجد راقداً، فجاء رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شِقِّهِ، فأصابه ترابٌ- فجعل رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمسحه عنه، وهو يقول: «قم أبا تراب، قم أبا تراب»^(٣).

(١) «معالم السنن» (٤/١٠٨).

(٢) رواه البخاري (٣٦٠١)، ومسلم (٢٨٨٦).

(٣) رواه البخاري (٤٤١)، ومسلم (٢٤٠٩).

٦ - استحضار وصايا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغضب:

لقد تعددت النصوص التي تنهى عن الغضب، وليس المقصود منها استئصال هذا الانفعال من النفس البشرية، فإنَّ هذا لا يُستطاع، وإنما مقصود النهي عن الغضب أمران:

- أحدهما: وقائي بتجنب الأسباب المؤدية إليه؛ كالمرء، والجدل، والتنافس على الدنيا.

- والآخر: علاجي بالتحكم في عواقب الغضب وآثاره السيئة من العدوان والإيذاء.

فإنَّ المؤمن لا يخلو من غضب، فقد امتدحت أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أمَّ المؤمنين زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بأكمل الأوصاف، فقالت: «ولم أرَ امرأةً قطُّ خيرًا في الدين من زينب، وأتقى الله، وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم صدقةً، وأشدَّ ابتذالًا لنفسها في العمل الذي تصدَّقُ به وتتقرب إلى الله تعالى»، ثم استدركت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قائلةً: «ما عدا سورة^(١) من حِدة^(٢) تُسرَّع منها الفيئة^(٣)»^(٤).

وجاء رجلٌ إلى سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا أبا عبد الله، أوصني، قال: «لا تغضب»، قال: أمرتني أن لا أغضب، وإنه ليغشاني ما لا أملك، قال: «فإن غضبت فاملك لسانك ويدك».

(١) السُّورَةُ: الثوران وعجلة الغضب.

(٢) الحدة: شدة الخلق وثورانه.

(٣) الفيئة: الرجوع، فكانت إذا غضبت رجعت عنه سريعًا، ولم تصر عليه.

(٤) رواه مسلم (١٥/٢٠٦-نووي).

وقيل لحكيم: ما أملك فلائنا لنفسه! فقال: «إذن لا تذله الشهوة، ولا يصصره الهوى، ولا يغلبه الغضب».

١ - وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما تعدون الصُّرْعَةَ فيكم؟» قال: قلنا: الذي لا يصصره الرجال، قال: «ليس بذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»

قال الحافظ ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: «في هذا الحديث من الفقه: فضل الحِلْم، وفيه دليل على أَنَّ الحِلْمَ كتمانُ الغيظ، وَأَنَّ العاقلَ مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ عند الغضب»^٢
وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: مالكُ نفسه أولى أن يُسمَّى شديدًا من الذي يصصر الرجال»^٣

وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا قوة كردُّ الغضب»^(٤).

إِنَّ أعظمَ الجهاد أن يجاهدَ العبدُ نفسه في ذات الله، ومن هذا الجهاد أن يضبطَ نفسه عن الاندفاع والتهور متأثرًا بحمية الغضب.

٢ - وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجلٌ إلى رسولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: مُرِّنِي بأمرٍ، قال: «لا تغضب»، قال: فردَّدَ مرارًا، كُلَّ ذلك يرجع، فيقول: «لا تغضب»^(٥).

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٦٢٦)، ومسلم (١٠٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٥٣)، وأبو داود (٤٧٧٩)، وغيرهم، وانظر: (ص ١٢٦).

(٢) «التمهيد» (٣٢٢/٦).

(٣) «تهذيب السنن» (٢٧١/٣).

(٤) «صفة الصفوة» (٣٨٥/٢).

(٥) رواه الإمام أحمد (١٠٠١١)، والبخاري (٦١١٦)، والترمذي (٢٠٢٠)، وقال: «حسن صحيح»

٣- وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلتُ: يا رسول الله، دلّني على عملٍ يُدخلني الجنة، قال: «لا تغضب، ولك الجنة»^(١).

٤- وعن رجلٍ من أصحابِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: قال رجل: يا رسول الله، أوصيني، قال: «لا تغضب»، قال: قال الرجل: ففكرتُ حين قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قال، فإذا الغضبُ يجمعُ الشر كله^(٢).

قال الإمام الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تغضب»: «اجتنب أسباب الغضب، ولا تتعرض لما يجلبه، وأما نفس الغضب فلا يتأتى النهي عنه؛ لأنه أمرٌ طبعي لا يزول من الجبلة»^(٣).

وقال الإمام ابن حِبَّان رَحِمَهُ اللَّهُ: «أراد: لا تعمل بعد الغضب شيئاً مما نهيت عنه؛ لا أنه نهاه عن شيءٍ جَبِلَ عليه، ولا حيلة له في دفعه»^(٤).

وقال الإمام الباقي رَحِمَهُ اللَّهُ: «يريد -والله أعلم- لا تُمَضِّ ما يبعثك عليه غضبك، وامتنع منه، وكُفَّ عنه»^(٥).

وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمقصود: لا تعمل بمقتضى الغضب إذا حصل لك، بل جاهد نفسك على ترك العمل بما يأمرُك به، فإنَّ الغضب إذا ملك

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٢٣٥٣)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٧٤٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٣١٧١)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٢٨٦)، وقال محققو «المسند»: «إسناده صحيح».

(٣) نقلة في «فتح الباري» (٥٢٠ / ١٠).

(٤) نقله عنه الحافظ في «الفتح» (٦٨٩ / ٣).

(٥) «المنتقى» (٢١٤ / ٧).

ابن آدمَ كان الأمر والنهيَ له، ولهذا المعنى قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، مع أن غضب موسى محمود؛ لأنه كان لله تعالى.

٧- استحضار فضائل العفو وكظم الغيظ؛

مما يُداوى به الغضب أن يتفكر في ثواب العفو والصفح وكظم الغيظ، حتى يستبقي توازنه الانفعالي، ويحكم عقله قبل عاطفته إلى أن تهدأ العاصفة، ويحتسب ثواب صبره وعفوه الذي وعد الله من يكظمون غيظهم.

العفو والصفح:

- العفو: التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه.
- والصفح: ترك التأنيب وإزالة أثر الذنب من النفس.

قال تعالى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ [البقرة: ١٠٩].
وقال عز وجل: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

والعفو أبلغ من كظم الغيظ؛ لأن العفو ترك المؤاخذة مع الساحة عن المسيء احتساباً للأجر من الله سبحانه؛ ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧].

أي: سجيّتهم وطبعهم وخلقهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس، ليس سجيّتهم الانتقام من الناس.

(١) بتصرف من «جامع العلوم والحكم» (١/٣٦٤).

وقد ذُكرَ الغضبُ في القرآن الكريم أربعًا وعشرين مرة (٢٤) خمس منها فقط في الغضب البشري، بينما وردت كلمتا العفو والمغفرة فيه أكثر من أربع وثلاثين ومئتي مرة (٢٣٤)، مما يؤكد فضيلة العفو والصفح والتسامح والغفران. وقد اشتهر أمير المؤمنين معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالحلم، وهو القائل: «إِنِّي لَأَنْفُ أَنْ يَكُونَ فِي الْأَرْضِ جَهْلٌ لَا يَسَعُهُ حِلْمِي، وَذَنْبٌ لَا يَسَعُهُ عَفْوِي، وَحَاجَةٌ لَا يَسَعُهَا جُودِي».

ومن قَرَّرَ أَنْ لَا يَعْفُوَ وَلَا يَتَسَامَحَ، فَقَدْ قَرَّرَ أَنْ يَعايَ؛ قال الفضيل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «صاحب العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يُقَلِّبُ الْأُمُورَ»^(١).

وقال الإمام الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لَمَّا عَفَوْتُ وَلَمْ أَحْقِذْ عَلَى أَحَدٍ أُرِحْتُ نَفْسِي مِنْ هَمِّ الْعِدَاوَاتِ

إِنَّ الْعَفْوَ قَرَارٌ شعوري واعٍ يقدم عليه الغاضب باقتناع كامل، وليس صورةً مُصْطَنَعَةً في الظاهر، يُثَبَّتُ فيها الغاضبُ قَنَاعَ (التسامح اللطيف) على وجهه؛ لِيُخَفِّيَ غضبه العارم.

استخرج جروحك النفسية الدفينة، وَضَعْهَا أَمَامَكَ عَلَى الطَّائِلَةِ، وَتَمَعَّنْ فيها بوعيك الكامل، ثم قَرَّرْ أَنْ تَعْفُوَ وَتَسَامَحَ، واستأصل من قلبك شعورك بالرضا والترحيب بأن يؤذَى من آذاك، وبدون ذلك سيبقى غضبك الدفين في أعماقك حيًّا وناميًا يتمنى الأذى لمن آذاك.

(١) «حلية الأولياء» (٨/١١٢).

والاستجابة الصحيحة تجاه مشاعر التجريح والإهانة هي العفو احتساباً لوجه الله:

- بأن تطرح جانباً الرغبة في أن ترى خصمك يُجرح كما جَرَحَكَ.
- وتدعه يعرف سلوكه الجارح، ويأسف عليه.
- وينوي أن يكون أكثر احتراماً في المستقبل.

أما كظم الغيظ:

- فالغيظ: أشد الغضب، والغيظ فعلٌ نفسي داخلي (Mood) لا يظهر على الجوارح، أما الغضب فهو حال نفسي يظهر في الجوارح (Affect).
- وكظم الغيظ: تجرعه، واحتمال سببه، والصبر عليه، والإمساك عن إبدائه.
- قال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، معناه: الحاسبين الغيظ، أي: لا يُجازون عليه.

وقال ابن عطية: «كظم الغيظ: رده في الجوف إذا كاد أن يخرج من كثرته، فضبطه ومنعه»^(١).

وقال القرطبي: «كظم الغيظ: رُدُّه في الجوف، والسكوت عليه، وعدم إظهاره مع قدرة الكاظم على الإيقاع بعدوّه»^(٢).

إنَّ الغضب طاقة ينبغي أن لا تُصرف إلا في موضعها البناء؛ قال العرجي:
وإذا غضبت فكن وقوراً كاظماً للغيظ تبصراً ما تقول وتسمع

(١) «المحرر الوجيز» (٣/٢٣٣).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/١٣٣).

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «... وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَهُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظًا، وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمَضِّيَهُ أَمْضَاهُ؛ مَلَأَ اللَّهُ قَلْبَهُ رَجَاءَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» الْحَدِيثُ (١).

وعن معاذ بن أنس عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الْحُورِ مَا شَاءَ» (٢).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ جُزْعَةٍ أَعْظَمَ أَجْرًا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ جُزْعَةٍ غِيظٍ كَظَمَهَا عَبْدٌ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ» (٣).

وَتَقَدَّمَ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ» (٤).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فِيهِ كَظْمُ الْغِيظِ، وَإِمْسَاكُ النَّفْسِ عِنْدَ الْغَضَبِ عَنِ الْإِنتِصَارِ وَالْمُخَاصَمَةِ وَالْمُنَازَعَةِ» (٥).

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٤٥٣/١٢)، وصححه الألباني كما في «الصحيحة» (٦٠٨/٢)، (٦٠٩).

(٢) رواه أبو داود (٤٧٧٧)، والترمذي (٢٠٢١)، وابن ماجه (٤١٨٦)، وحسنه الشيخ شعيب في «تحقيق جامع الأصول» (٤٤٣/٨).

(٣) رواه الإمام أحمد (٦١١٤)، وابن ماجه (٣٣٩٦)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه».

(٤) انظر: (ص ١١٣، ١٢٦).

(٥) «شرح النووي» (١٦/١٦٢).

الحِلْمُ بِالْحِلْمِ:

لقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعْلُمِ، وَالْحِلْمُ بِالتَّحْلُمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يَغْطَهُ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَهُ»^(١).

وَالْحِلْمُ: الأناة، والسكون، والوقار، والرزانة، والصبر، والتَّثَبُّتُ في الأمور، والعقل (نقيض السَّفَه).

قال الشاعر:

تَحْلُمُ عَنِ الْأَذْنَيْنِ وَاسْتَبَقِ وَدُهُمُ وَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْحِلْمَ حَتَّى تَحَلِّمًا

إِنَّ الْأَخْلَاقَ لَوْ كَانَتْ صِفَاتٍ لازِمَةً يُطَبِّعُ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ بَحِثْ لَا يُمْكِنُهُ تَغْيِيرُهَا وَلَا تَعْدِيلُهَا كَسَائِرِ صِفَاتِهِ الْجَسَدِيَّةِ مِنْ طَوِيلٍ وَقَصِيرٍ وَلَوْنٍ؛ لَمَّا أَمَرَ الشَّرْعُ بِالتَّخَلِّيِّ عَنِ الصِّفَاتِ الْقَبِيحَةِ، وَالتَّحَلِّيِ بِالصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَوْ لَمْ يَكُنْ مَقْدُورًا لِلْإِنْسَانِ لَمَّا وَرَدَ بِهِ الشَّرْعُ الشَّرِيفُ؛ لِأَنَّهُ (لَا تَكْلِيفَ إِلَّا بِمَقْدُورٍ)، وَ(لَا تَكْلِيفَ بِمُسْتَحِيلٍ)، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿[الشمس: ٩، ١٠].

وَإِذَا كَانَتْ الْوُحُوشُ الْمَفْتَرَسَةُ تَقْبَلُ التَّرْوِيسَ، فَكَيْفَ بِالْبَشَرِ الْعُقْلَاءُ؟! وَالغَضَبُ شَعُورٌ يُتَبَّعُ سُلُوكًا، فَهُوَ قَدْ يُكْتَسَبُ مِنَ الْبَيْئَةِ، وَالْحِلْمُ أَيْضًا يُمْكِنُ اكْتِسَابُهُ بِالتَّدْرِبِ عَلَيْهِ، وَتَكْلُفُهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ.

تقول العرب: «السيد: الذي لا يغلبه الغضب».

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٩/ ١٢٧)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٣٤٢).

وقال عنتره:

لا يحمل الحقد من تعلوبه الرتب ولا ينال العلا من طبعه الغضب

وقيل لابن المبارك: اجمع لنا حُسنَ الخُلُق في كلمة، فقال: «ترك الغضب»،
وقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ومن يتصبر يصبره الله»^(١)، كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
«والحلمُ بالتَّحَلُّم».

ومما يدل أيضًا على إمكانية التدرُّب على كظم الغيظ والحلم وإطفاء الغضب
أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كرر الجواب لرجلٍ استوصاه، فقال له: «لا تغضب»، وهذا
تكليف شرعي، والقاعدة أنه: «لا تكليف إلا بمقدور».

قال الإمام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كَظْمُ الغيظ عبارة عن التَّحَلُّم،
أي: تكلُّف الحلم، ولا يحتاج إلى كَظْمِ الغيظ إلا من هاج غيظُه، ويحتاج فيه إلى
مجاهدةٍ شديدة، ولكن إذا تَعَوَّدَ ذلك مُدَّةً، صارَ ذلك اعتيادًا، فلا يهيجُ الغيظُ،
وإن هاجَ فلا يكون في كظمه تعبٌ، وهو الحِلْمُ الطَّبِيعِي، وهو دلالة كمال العقل
واستيلائه، وانكسار قوَّة الغَضَب، وخضوعها للعقل»^(٢).

نماذج في كظم الغيظ:

- لما بلغ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولَ القائل: «هذه
قسمة ما أريد بها وجهُ الله»، شقَّ عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتغيَّر وجهه، وغضب،
ولم يزد على أن قال: «يرحمُ الله موسى، قد أودى بأكثر من هذا فصبر»^(٣).

(١) جزء من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أخرجه البخاري (١٤٦٩)، والنسائي (٢٥٨٧).

(٢) «الإحياء» (٣/ ١٧٦).

(٣) رواه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢).

- وعن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحرّ بن قيس، وكان من نفر الذين يُدنيه عمر، وكان القُرَاءُ أصحابَ مجالسِ عمرَ ومشاورته، كهولاً كانوا، أو شُبَّانًا، فقال عيينة لابن أخيه: يا بُنْ أَخِي، هل لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه؟ قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحرّ لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه، قال: «هي يا بُنْ الخطّاب، فوالله، ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل»، فغضب عمر، حتّى همّ أن يوقع به، فقال له الحرّ: «يا أمير المؤمنين! إنّ الله تعالى قال لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإنّ هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله»^٣.

- وقال أبو ذرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لغلّامه: «لِمَ أرسلت الشاة على علف الفرس؟»، قال: أردتُ أن أغيظك، قال: «لأجمعنَّ مع الغيظِ أجراً، أنت حرٌّ لوجه الله تعالى».

- وأسمعَ رجلٌ أبا الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلامًا، فقال: «يا هذا، لا تغرقن في سبِّنا، ودعْ للصُّلحِ مَوْضِعًا، فإنّا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثرَ من أن نطيع الله فيه».

- وسبَّ رجلٌ ابنَ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فلمّا فرغ قال: يا عكرمة، هل للرجل حاجة فنقضها؟ فنكّس الرجلُ رأسه واستحى.

(١) كلمة تُقال في الاستزادة، وقد يُعنى بها التهديد.

(٢) الخطب اليابس، أو الغليظ.

(٣) رواه البخاري (٤٦٤٢).

- وَحُكِّي أَنَّ جَارِيَةً كَانَتْ تَصُبُّ الْمَاءَ لِعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، فَسَقَطَ الْإِبْرِيْقُ مِنْ يَدِهَا عَلَى وَجْهِهِ فَشَجَّهَ، أَي: جرحه، فرفع رأسه إليها، فقالت له: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾، فقال لها: «قد كظمتُ غيظي»، قالت: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، قال لها: «قد عفوت عنك»، قالت: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، قال: «اذهبي، فأنتِ حُرَّةٌ لوجه الله».

- ودخل عمر بن عبد العزيز المسجد ليلةً في الظُّلْمَةِ، فمرَّ بِرَجُلٍ نَائِمٍ، فعثر به، فرفع رأسه، وقال: أَمْجَنُونَ أَنْتَ؟ فقال عمر: «لا»، فهمَّ به الحرس، فقال عمر: «مه، إنما سألتني أَمْجَنُونَ؟ فقلت: لا».

- وأسمعه رجلٌ كلامًا، فقال له: «أردتَ أن يستفزني الشيطانُ بعزِّ السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله مني غدًا، انصرف رحمك الله».

- وقال القعنبى: كان ابنُ عَوْنٍ لا يغضب، فإذا أغضبه رجلٌ، قال: «بارك الله فيك».

- وكان لابن عَوْنٍ ناقة، يغزو عليها ويحجُّ، وكان بها مُعْجَبًا. قال: فأمر غلامًا له أن يستقي عليها، فجاء بها وقد ضربها على وجهها، فسالت عَيْنُهَا عَلَى خَدِّهَا، فقلنا: إن كان من ابن عَوْنٍ شيء، فاليوم! قال: فلم يلبث أن نزل، فلما نظر إلى الناقة، قال: «سبحان الله، أفلا غيرَ الوجه، بارك الله فيك، اخرج عني، اشهدوا أنه حرٌّ».

- وقال الحسن: «المؤمن حليم، لا يجهل، وإن جهل عليه»، وتلا قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

٨- ذكر الله تعالى؛

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

قال سعيد بن جبير: «هو الرجل يغضب الغضب، فيذكر الله تعالى، فيكظم الغيظ».

وصحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أن يحيى عليه السلام قال لبني إسرائيل: «إن الله أمركم بذكر الله كثيراً، ومثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره حتى أتى حصناً حصيناً، فأحرز نفسه فيه، وكذلك العبد لا ينجو من الشيطان إلا بذكر الله»^(١).

وليستحضر العبد كم عصى ربه! وقد تواتر حلم الله تعالى عنه، وكذلك فليفعل مع من أغضبه.

٩- التعزي بالقدر؛

فيستحضر أن ما أغضبه جرى بمقدور الله تعالى، فيرضى بقضائه، ويسكن غضبه.

(١) رواه من حديث الحارث بن الحارث الأشعري رَحِمَهُ اللهُ عَنْهُ الترمذي (٢٨٦٣)، وقال: «حسن صحيح غريب»، وابن حبان (٦٢٣٣)، والإمام أحمد (١٣٠/٤)، وصححه الشيخان الألباني، وشعيب الأرنؤوط.

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَدَمْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا أَمَرَنِي بِأَمْرٍ فَتَوَانَيْتُ عَنْهُ أَوْ ضَيَّعْتُهُ فَلَا مَنِي، فَإِنْ لَا مَنِي أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، إِلَّا قَالَ: «دَعُوهُ؛ فَلَوْ قَدَّرَ - أَوْ قَالَ: لَوْ قُضِيَ - أَنْ يَكُونَ كَانَ»^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا: «إِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ» الحديث^(٢).

١٠- أن يستحضر قُبْحَ صورته عند الغضب؛

ويتفكر في أنَّ الغضبان يقرب من شَبِّهِ الحيوانات المفترسة، ويتبعد عن سَمِِّ الأنبياء وأتباعهم.

قال الإمام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «عليه أن يتفكر في قُبْحِ صورته عند الغضب بأن يتذكر صورةَ غيره في حالة الغضب، ويتفكر في قُبْحِ الغضب في نفسه، ومُشَابَهَةِ صاحبه للكلب الضاري والسبع العادي، ومُشَابَهَةِ الحليم الهادي التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء، ويخيِّرُ نفسه بين أن يتشَبَّه بالكلاب والسباع وأراذل الناس، وبين أن يتشَبه بالأنبياء والعلماء في عاداتهم لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء، إن كان قد بقي معه مُسْكَةٌ مِنْ عَقْلٍ»^(٣).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو رأى الغضبان نفسه في حال غضبه لكان غضبه حياءً من قُبْحِ صورته واستحالة خِلْقَتِهِ، هذا كله في الظاهر، وأما

(١) أخرجه البخاري (٦٠٣٨)، ومسلم (٢٣٠٩)، والإمام أحمد (١٣٤١٨)، وغيرهم.

(٢) رواه مسلم (٢٦٦٤).

(٣) «الإحياء» (٦٠/٥).

الباطن فقبضه أشد من الظاهر؛ لأنه يُؤلِّدُ الحقدَ في القلب، والحسد، وإضرار
السوء على اختلاف أنواعه»^(١).

١١ - استحضار عواقب الغضب وتوابعه؛
وقد تقدّم بيّانها^(٢).

ثانياً: لماذا لا يجتمع الغضب مع العقاب التربوي؟

الأطفال ضيوف جدد، حديث عهدُهم بالحياة، وأثناء تطوّرهم النفسي
يحتاجون إلى وقتٍ طويلٍ وصبرٍ دائمٍ؛ حتّى يكتسبوا أنماطَ السلوك الاجتماعي
السليم، فهم في احتياج دائم إلى الرفق والرحمة بدل العنف والقسوة، وقد «كان
رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرحمَ الناس بالعيال والصبيان»^(٣).

إنَّ الغضب من أكبر أسباب الفشل التربوي في البيت والمدرسة، وأكثر
العقوبات الظالمة التي يوقعها الآباء على الأبناء سببها الغضب الخارج عن
السيطرة.

وإذا كان الإنسان لا يُمكن من استخراج رخصة قيادة السيارة حتى
يتدرب على القيادة ويتقنها، فكيف يباشر الوالد والمعلم مهمة التربية والتهديب
إذا لم يكن مؤهلاً لها؟

(١) «فتح الباري» (١٣/٦٨٩).

(٢) تقدّم (ص ٩٩-١٠٤).

(٣) هو عند مسلم بدون «الصبيان»، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٠٨٩).

وإذا كان من يحدد عن قوانين المرور وقواعده يُعاقب بالغرامة أو بسحب الرخصة، فكيف لا تُسحب رخصة (القيادة التربوية) من الوالد الذي يُدمّر أطفاله جسدياً أو نفسياً بدعوى (تربيتهم)، كالأب الذي ينهال ضرباً على أطفاله - لا بقصد تربيتهم كما يزعم - ولكن بقصد شفاء غيظه، والتنفيس عن غضبه على حساب أطفاله الضحايا.

إنّ المربي الذي يشرع في العقوبة القاسية العنيفة كالضرب المبرح يعلن بذلك عن عجزه، بل (أُمِّيَّتُهُ التربوية) التي جعلته يختزل كل أنواع العقاب التربوي في هذا الضرب المهين.

وهو أيضاً (ضعيف)، (هزيل الإرادة) ينهزم أمام غضبه الجارف فيترك زمامه بيد غضبه، ويستسلم لنزغات شيطانه، قال رسول الله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(١).

ما الغضب الذي نقصده هنا؟

المقصود هنا الغضب العنيف الذي يُحوّل العقاب (التأديبي) انتقاماً، ويحرفه عن المقصد التربوي، ويُعميه عن تقدير الألم الذي يسببه للطفل؛ لأنه ما من مُربٍّ يزعجه سلوكٌ سيئٌ من ابنه إلا وهو يغضب، لكن إذا كانت درجة الغضب معتادة، ولا تُخرج صاحبها إلى التهور والمبالغة في العقاب، فلا بأس من العقاب (التربوي) المباشر عقب السلوك السيئ.

(١) أخرجه البخاري (٥٦٤٩)، ومسلم (٤٧٢٤)، وانظر: (ص ١١٣).

فإذا شعرت بغضب وانفعال (خاضع لتحكُّمك) فترجمه على أنه تعبير عن شدة اهتمامك بمصلحة طفلك، ومفتاح للبحث عن حل أو إجراء مناسبٍ من أجل تعديل سلوكه.

الغضب يفسد العقاب:

كي يبقى العقاب محصوراً في إطار التأديب والتهديب وتعديل السلوك، يُحظر على المربي أن يعاقب وهو غضبان؛ لأن الغضب ينحرف بالمربي عن هدف التأديب إلى الانتقام والتشفي من طفلٍ غير مُكلَّفٍ أصلاً.

وانفعال الغضب أمرٌ عادي، فلا تشعر تجاهه بالذنب، ولكن الشيء المرفوض هو أن تترك غضبك يسيطر عليك ويتحكم فيك.

تريث وتمهل إلى أن ينطفئ غضبك:

لقد أدرك التربويون أن المشاعر العميقة التي تعتمل في نفوس كل من الآباء والأطفال لا ينبغي تجاهلها عند العقاب.

فمن عاقب ابنه وهو غضبان فعليه أن يُحسِّن إدارة غضبه، ويفصل بين غضبه وبين استصلاح الطفل بالعقاب، وإلا فعليه أن يترَوَّى ولا يباشر العقاب إلا بعد أن يسكن غضبه ويهدأ.

وإذا شككت أن غضبك قد يقودك إلى إجراء عقابي متعسِّف، لا يتوافق مع طبيعة خطئه ولا مع حجمه، فهذِّئ من روعك، وقل له: «سيكون لك عقابٌ على هذا»، وبعد أن تهدأ قدِّر العقابَ التربويَّ المناسب.

بل يمكن أن تقولَ له^(١): «أنا حزين؛ لأنك ضربت أخاك، ولن أعاقبك الآن؛ لأنني غضبان، وحين أهدأ وأفكر سأقرر عقابك المناسب».

ويمكن أن تنسحب من الموقف لمدة عشر دقائق مثلاً، أو تأمره بالذهاب إلى غرفته، قبل توقيع العقاب عليه.

ولهذا الإجراء (المُسْكَن للغضب) أصلٌ في شريعتنا:

فقد كتب أبو بكره رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى ابنه عُيَيْد الله بن أبي بكره، وهو قاضي بسجستان: بأن لا تحكم بين اثنين وأنت غضبان؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لا يحكم أحدٌ بين اثنين وهو غضبان»

وقال الأوزاعي: كان عمر بن عبد العزيز إذا أراد أن يعاقب رجلاً، حبسه ثلاثاً، ثم عاقبه؛ كراهية أن يعجل في أول غضبه^(٢).

(١) إن تحويل المشاعر الانفعالية إلى كلام منطوقٍ ومسموع (Verbalization) من شأنه أن يجعل غضبنا وألمنا وحزننا أخفَّ شدةً، وهذا يحدثُ في الموقف التربوي، كما يحدث في (العلاج بالكلام) (Psychotherapy) مع المعالج النفسي أو الصديق. وقد أثبتت دراسات نفسية حديثة أن وضع المشاعر في كلمات منطوقة ومسموعة أو مكتوبة (Labelling Emotions) له أثر إيجابي على المخ.

انظر مقالة: Putting feelings into words produces therapeutic effects in the brain.

www.Sciencedaily.com.

في موقع:

إن (وسم المشاعر) بعد فهمها خطوة أساسية للتصرف بطريقة ملائمة؛ كي يتحسن مزاجك (داخلياً) وينضبط سلوكك (خارجياً) فتتحكم في انفعالاتك بطريقة بناءة بدل أن تتحكم هي فيك.

(٢) أخرجه البخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٣٣/٥).

وكتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ إلى عامله: «أَلَّا تَعَاقِبَ عِنْدَ غَضَبِكَ، وَإِذَا غَضِبْتَ عَلَى رَجُلٍ فَاحِسِهِ، فَإِذَا سَكَنَ غَضَبُكَ فَأَخْرِجْهُ فَعَاقِبْهُ عَلَى قَدْرِ ذَنْبِهِ».

المربي الغاضب يداوي نفسه ولا يقوم سلوك الطفل؛

المربي الذي يُفْرِط في العقاب يداوي نفسه بالتنفيس عن غضبه في جسد الطفل المسكين، ولا يداوي سلوك الطفل.

وما العقاب العنيف الذي يوقعه بالطفل حال غضبه إلا وسيلة لينفس عَمَّا يعتَمِل في دخيلة نفسه من السخط والحقق دون تتبع موضوعي لظروف الطفل الحيوية والنفسية التي قد تكمن وراء سلوكه^(١)، وهذا يجعل موقفه (ذاتياً) وليس (موضوعياً)؛ لأنه خاضع لتوتر عصبي شديد - بسبب سلوك الطفل -، وهذا التوتر يقترن بطاقة ضاغطة تبحث عن مصرفٍ لها، فينطلق من منطلق شخصي كي يستعيد هدوء أعصابه، ويتخلص من تلك الطاقة الغضبية المتأججة في داخله.

(١) ورد الفعل الغاضب هنا يشبه رد فعل شخص شككته بدبوس وهو يغط في نوم عميق، فإنه ينتفض ليتجنب شعوره بالألم (النتيجة)، ولا يعطي نفسه فرصة ليتفهم (السبب) وهو الموقف الذي أثار حفيظته.

وأفضل وسيلة لنزع فتيل الغضب هي التواصل الجيد بين المربي والطفل، لأجل اكتشاف الدوافع التي تغذي سلوكه السلبي، لتحديد العلاج على أساس معرفة الدوافع. يَبْدُ أن التواصل لا يقتصر على الحديث، وإنما يمتد ليشمل فهم واقع الآخر ووجهة نظره. إذا دهس أحدهم قدمك في موضع مزدحم فاستشاط غضبك منه، وصرخت فيه، لكن إذا تواصلت معه، وعلمت أنه أعمى، فستحول غضبك فوراً إلى إعداٍرٍ وتسامح وعفو.

وقد يكون توتره ناشئاً عن أمرٍ آخر لا شأن للطفل به، لكنه يزيح معاناته في اتجاه الطفل، فيشتتم ويضرب لأنفه الأسباب، مما ينافي العدل.

سلبيات العقاب في حالة الغضب:

- ١- أنه يولّد عواقب سيئة، ولا يعالج المشكلة السلوكية عند الطفل.
- ٢- يتسبب في انسداد قنوات الحوار والتواصل بين المربي والطفل؛ بسبب النفور الحاصل بينهما، مما يعزز السلوك السيئ.
- ٣- يعمل الغضب أحياناً كمنظار مكبرّ فيضخم الخطأ اليسير من الطفل.
- ٤- قد يعمم الطفل خبرته مع المربي الغاضب على سائر المربين، مما قد ينفره من سلطة الوالدين والمعلمين عامةً.
- ٥- يُعلّم الطفل القسوة في معاملة من هم أضعف منه حين يغضب.
- ٦- أن الطفل إذا تخلّى عن سلوكه السيئ بسبب خوفه من غضبك العنيف، فهذا مكسب ظاهري مؤقت لا يدفعه نحو السلوك الإيجابي وبخاصة في حال تحرره من مجال مراقبتك.
- ٧- شعور المربي بخيبة الأمل بسبب فشله في مهمته التربوية^(١).
- ٨- شعور المربي بالذنب والأسف على أنه ليس أباً كاملاً، وربما وصل به ذلك إلى محاولة تعويض الطفل عن طريق الاستسلام لرغباته والاعتذار له.

(١) لأنّ المواجهة بين المربي الغاضب والطفل تبدأ بمعركة كلامية يتخللها إهانة لفظية، ثم يتبعها إهانة بدنية، وكل ذلك إعلان عن إفلاس المربي ونفاد رصيده التربوي.

٩- قد يكون غضب المربي مكافأة يقدمها المربي للطفل لا سيما الطفل العنيد أو الباحث عن الاهتمام.

كيف يتصرف المربي الغضبان؟

عليه أن يدرك أن للغضب عواقب وخيمة؛ لأنَّ الشيطان يزِنُّ له حالَّ غضبه التَّلَفُّظَ بقيق الكلام، وارتكاب أعمال عدوانية شائنة؛ كالضرب، والسَّبِّ من أجل أن يتطهر من غضبه، وينفَسَ عنه، وقد بيَّنَّا في فصل «إدارة الغضب»^(١) الخطوات التي ينبغي اتباعها للتحكم في غضبه، والسلامة من عواقبه.

وبدلاً من تأكيد الصورة الذهنية التي يرسمها المربي لنفسه، ويعتذر عن غضبه بقوله مراراً وتكراراً: «إني عصبي غضوب»، عليه أن يُعَدِّلَ هذه الصورة مع العزم الأكيد على اتباع استراتيجيات التعامل السليم مع الغضب.

الْحُبُّ يُطْفِئُ الْغَضَبَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ؛

يقول أحدُ الآباء: «كثيراً ما كان ابني يغضبني، وكان من السهل عليَّ تشويبه بلطمة ٠ على جبينه أو صرخة في وجهه، ولكن كان حلمي يمنعني، وكان حُبِّي له يوقفني، وكان أُملي بأن أراه رجلاً سويّاً غيرَ مُشَوَّهٍ يرادني، وترسم صورته أمامي، وكنتُ أتساءلُ دائماً: وماذا بعد الصراخ والضرب؟ هل سوف يحبني بذلك؟ هل سينفذ ما أطلبه بحب مما يجعله يستقر في وجدانه فيفعله في غيابي كما في حضوري؟ هل تعلَّم شيئاً جديداً بهذا الغضب والصراخ أم أنه تنفيس عمَّا بداخلي فقط وضحيتي هذا المخلوق البريء؟ وكنتُ أتساءلُ: هل عندما يكبر

(١) انظر: (ص ١٠٥-١٢٥).

هذا الصغير سيظل هكذا أم أنه سينضج ويرتقي بسلوكياته التي تضايقنا الآن ونضجر منها؟ من المؤكد أنه سيتغير بعد نضج^(١).

إنَّ العصبية لا تصحح سلوكًا، وبدائلها الصحية سهلة ومتاحة وغير مكلفة، وهناك أخيرًا (خبرٌ جيّد) هو أنه: إذا صدر منك ردُّ فعلٍ مفاجئٍ عشوائي وغير مدروس ومنذفع إزاء سلوكٍ سلبي من الطفل، لكنه كان (عابرًا) ولم يتكرر؛ فإنَّ هذا لا يشكل صدمةً تضرُّ بالطفل، ويمكن مداوئته ونسيائه طالما أتبعته بالأساليب التربوية الصحيحة والمعتدلة، من باب: «وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا».

وأخيرًا:

فإنَّ أفضل وسيلة لتعليم الانضباط عند الغضب -بالإضافة إلى ما تقدّم- هي الوسيلة التي نقدمها في هدوءٍ واسترخاء، ومن هنا تأتي أهمية وسائل الاسترخاء لتخفيف التوتر؛ كاللَّحْدُثِ مع شخصٍ قريبٍ إلى قلبك، وممارسة تدريبات الاسترخاء والتنفس العميق، والاسترخاء العضلي، والخيالات الإيجابية؛ كمناظر الطبيعة الخلابة، واسترجاع ذكريات جميلة، والانتقال إلى هوايةٍ مُحبَّبةٍ إلى نفسك.



(١) «تشويه الأطفال» (ص ٣، ٤).

السادسة عشرة: يجب توحيد السياسة التربوية بين الأبوين؛

مما يؤثر على الصحة النفسية للطفل إيجابياً أن يقتنع بوجود تناغم وتوافق وانسجام بين أبويه، مما ييسر عليه انضباطه وانقياده لتوجيهاتهما.

وعلى الجهة الأخرى فإنَّ ازدواجية الموقف التربوي وتناقض موقف أحد الأبوين مع موقف الآخر، واختلافهما في أساليب تقويم سلوك الطفل، ومعايير الحكم على تصرُّفاته، واختلاف الحكم على سلوكٍ واحدٍ بين وقتٍ وآخر له آثارٌ سلبية على الطفل؛ منها:

- أنه يُفقد العقابَ أثره في تعديل السلوك، وقد يشجع الطفل على التماهي في خطئه.

- أن هذا التعارض يربكه ويشوشه ويحيره حتى لا يدري أين الصواب وأين الخطأ؟

- قد يجعله شخصيةً مترددةً مشتتةً متذبذبةً غير ناضجة انفعالياً.

- يُعلِّم الطفل أن بإمكانه الإفلات من العقاب المستحق عن طريق توسُّط الطرف الآخر، مما يُكسبه براعةً في التوسُّل واستجداء الصفح بدلاً من تحمُّل المسؤولية مقابل سلوكه.

- يعزز الانقسام في الأسرة على المدى البعيد، ويصنف أحد الأبوين (المُعاقب) بأنه شرير، والآخر (المحامي عنه) بأنه الطرف الطيب المتسامح، فينجذب إليه الطفل، وينفر من الأول.

كما أنَّ الصراعات والمشاكل المستمرة بين الزوجين إذا كانت تنشب أمام الأولاد فإنها تُخلُّ بإحساسهم بالأمان، وتستنفد طاقة الزوجين وتنتهي بإيهامهما مراقبة سلوك الأبناء، في حين أنَّ واجب الأبوين أن يُقدِّما للأطفال نموذجًا يُحتذى في إدارة الخلاف، وبذلك تتم التربية بالقدوة.

أمثلة لازدواجية الموقف التربوي:

١- تشاجر الشقيقان وهما يلعبان أمام الوالدين، فصفع أحدهما الآخر، فطلبت الأم من الأب أن يُعاقبه (طبقًا للقواعد الأسرية)، فيرد عليها الأب بأنهم أطفال يتشاجرون، ثم لا يلبثون أن يعودوا أحبابًا، وهذا الموقف يشجع الطفل على تكرار الاعتداء على أخيه مستقبلًا، ويشعر الطفل المصفوع بالظلم والقهر.

٢- قرر الأب معاقبة الطفل بحرمانه من شيء، فتقوم الأم بمنحه إياه في الخفاء، وتكسر العقاب في غياب الأب، مما يُذهب فائدة العقاب، ولا يُحسِّنُ سلوكه.

٣- قرر الأب في حسم معاقبة الطفل، فاعترضت الأم بشدة، وأخذت تدلل الطفل وتضمه إليها وتحامي عنه، وهذا يهز مكانة الأب، ويقلل من احترامه، ويشجع الطفل على التهادي في سلوكه.

من أجل ذلك: لا بُدَّ أن يتَّفَقَ الوالدان معًا على أهدافهما التربوية، وكذا الوسائل التي يسلكانها من خلال سياسة تربوية ثابتة وموحدة، بحيث يتعاضدان ولا يتعارضان عند معاقبة الطفل.

وإن حدث اختلافٌ بينهما حول الجزاء التربوي فإنَّ هذا الخلاف يجب أن يُحسَمَ بينهما وليس أمام الأبناء.

- والذي يتولى العقاب هو الوالد المتاح عند صدور الخطأ، بحيث يتبادل الأبوان ممارسة دور العقاب؛ كي لا ينفر الطفل من الوالد (المتخصص) في العقاب.

- ولا مانع أحياناً أن تتوسط الأم لدى الأب وتشفع للطفل شفاعة حسنة، وتعلن للأب أنه ضامنة بأنه لن يكرر هذا الخطأ، بشرط أن تكون سياسة (توزيع الأدوار) هذه قد سبق التخطيط لها والاتفاق عليها بين الأبوين مقدماً إن كان ذلك محققاً لمصلحة تربية.

السابعة عشرة: سَلْ نَفْسَكَ قَبْلَ الْعِقَابِ؛

لا بُدَّ أن يسأل المربي نفسه قبل مباشرة العقاب^(١):

١- هل سبق أن تعرّضتُ لمثل هذا العقاب وأنا طفل؟ وكيف كان أثره في نفسي؟

٢- هل أنا غضبان أم في حالة هدوء واتزان انفعالي؟ لأنَّ غضبه مانع من مباشرة العقاب، وقد يكون معالِجاً لغضبه وليس لخطأ الطفل.

٣- هل أستحضر الفرق بين خطأ الطفل وخطأ الكبير؟

٤- هل سبق أن خططت للعقاب أم أنه عقاب مفاجئ لم يسبق الاتفاق عليه مع الطفل؟

(١) انظر: (ص ١٦٩)، وما بعدها.

٥- هل العقاب عادل ومنطقي ومناسب لسن الطفل وشخصيته ونوعه وسيُكسبه مهارة في صنع القرار؟

٦- هل استفرغتُ وُسعي في تعليم الطفل وتدريبه قبل العقاب؟

٧- هل استعملت العلاج بالأساليب الإيجابية والناعمة والرفق واللين قبل اللجوء إلى العقاب؟

٨- هل أنا -كقدوة- السبب وراء سلوكه السيئ؟

٩- هل هذا النوع من العقاب يحقق فائدته التربوية (الكف عن السلوك السلبي) أم يزيد هذا السلوك ويضطر الطفل إلى العناد والتحدّي؟

تأكّد أن المشكلة في الطفل وليست فيك،

- قد يكون المربي جاهلاً ولم يؤهل للتربية السوية.

- قد يكون الدافع الخفي وراء العقاب -عند ندرة من المربين- الحسد، كمدرس عانى الفقر والحرمان، فيحسد تلميذه الذي يرفل في أثواب النعيم، أو مُدرّسة دميمة بدينة تغار من تلميذتها التي تتمتع بالجمال والرشاقة إلخ.

- وقد يكون المربي عُمِلَ بعنف وإساءة في طفولته فيتوحّد مع مربيه المعتدي ويمارس مع تلاميذه (ضحايه) الأسلوب نفسه.

- قد يمارس المربي (الإزاحة) بدون شعور منه، حين يعاني من معاملة مديره، فيزيح الانتقام منه إلى الطفل؛ لأنه أضعف منه.

- هل يمكن أن يكون الطفل معذورًا؛ لجهله أو مرضه أو فقره أو ظروفه

الأسرية؟

الثامنة عشرة

لا عقاب قبل الاتفاق على القواعد الأسرية

في عالم التربية لا عقاب على سلوكٍ سلبي بدون تحذير مُسبق، ويُحظر تمامًا العقاب المفاجئ، ولهذا كان لا بُدَّ من وجود قانون واضح يُشرح للطفل مُقدِّمًا، ويُدرَّب على تطبيقه، ويُحذَّر من عاقبة مخالفته، وهو ما يُسمَّى بالقواعد الأسرية.

معنى القواعد الأسرية:

- القواعد الأسرية هي دستور العائلة الذي يضعه الأبوان، ويشارك في صنعه الأبناء، ويحدد السلوكيات الإيجابية التي يُكافأ عليها، والسلبية التي يتحمَّل عاقبتها.

- وهذه القواعد يتم فرضها وإلزام الجميع بها.

- وتهدف إلى بناء القيم، وترسيخ المعتقدات، وتحديد المعايير، وتنمية الانضباط، وتقليل المشاكل والصراعات.

خصائص القواعد الأسرية:

- ١- أنها نوعية ومحددة، وليست اقتراحات ولا إرشادات عامة.
- ٢- أنها متوافقة مع الإطار المرجعي للأسرة، ومنظومة قيمها، واحتياجاتها.
- ٣- أنها مُلزمة لجميع أفراد الأسرة بغير استثناء.

٤- أنها ثابتة في كل موقف، فلا تقبل النقاش والتفاوض والمساومة، لكونها نظامًا غير قابلٍ للتغيير ولا التعطيل ولا التأجيل، ولا يُجدي معها الرفض أو الإلحاح.

القواعد الأسرية ملزمة للجميع؛

- جميع من في المنزل مُطالبون بالالتزام الصارم بالقواعد الأسرية بمن فيهم الوالدان والأبناء الكبار، وهذه القواعد تُطبَّق على الجميع بالتساوي وبدون استثناء.

- لا يستأثر الوالد بامتيازات نتيجة موقعه - كوالد - تتيح له كسر القواعد، بل كونه موضع القدوة يوجب عليه أن يلتزم بها؛ كي يحتذي به الأبناء.

- على الوالد أن لا يُضمِّن قائمة القواعد الأسرية القواعد التي لا يعزم على التزامها شخصيًا، وإلا وصلت للأبناء رسالة مُربكة تضعف احترامهم للقواعد.

- اعلم أن الأطفال يُراقبونك ليختبروا مدى التزامك بالقواعد، وكسر الوالد قاعدةً ما يجعل الأمر يختلط على الصغار، فيتساءلون: أهذا السلوك حسنٌ أم سيئٌ؟ ولو كان سيئًا فكيف فعله الأب؟! وهذا يزعزع مفهوم (النظام والانضباط) في أذهانهم إذا رأوك تهمل أحيانًا تطبيق القاعدة، أو إذا رأوا أحد الأبوين يلتزم بها والآخر يكسرها.

إنَّ التزام الكبار بالقواعد يدعمها ويرسخ السلوكَ الحسنَ عند الأطفال، ويؤكد لديهم أنها (ثابتة) وأن احترامها مطلوبٌ من كلِّ أحدٍ، وفي كلِّ حالٍ، ويُشعر الأبناء بالعدل والمساواة بين الجميع أمام القوانين المنزلية.

- ينبغي للطفل أن يعلم أنه -في حال كسر قاعدة- لا يمكنه أن يحتمي بالجدّة أو بمن يدير المنزل من عاقبة سلوكه؛ لأن جميع من في البيت يلتزمون بالقواعد، بدون تعارض.

أمثلة:

١- إذا كانت إحدى القواعد المنزلية: «بر الوالدين دينٌ ودَيْنٌ» مثلاً، فإنَّ مما يعين الأبناء على احترامها أن يروا أباهم وأمَّهم يبران والديهم، ويتأدبان معهم، ومع من يكبرهما في السن.

٢- إذا كانت إحدى القواعد المنزلية: «التزم الصدق، وقل الحقيقة»؛ فلن يتتفع بها أولادك -مهما حدثتهم عن فضائل الصدق وقبائح الكذب- إلا إذا كنت قدوةً لهم في تحرّي الصدق، وتجنُّب الكذب، ولن يشفع لك أن تُسوِّغَ تورطك في الكذب بزعمك أنها (كذبة بيضاء).

فلا تزعم أن طفلك البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة عمره هو تسع سنوات؛ فتكذب على مُحصِّل التذاكر من أجل الحصول على تذكرة أرخص مثلاً، فيظن الطفل أن الكذب يمكن أن يكون وراءه ما يبرره.

٣- إذا كانت إحدى القواعد المنزلية تقول: «لا تصرخ»، فلا تصرخ في وجوههم أو في زوجتك إذا غَضِبْتَ.

٤- إذا كانت إحدى القواعد: «لا تجلس على المائدة ومعك هاتفك المحمول»، فالتزم هذه القاعدة، ولا تخالفها.

ماذا يفعل الوالد إذا كسر قاعدة؟

إذا كسرت قاعدة فاعترف بخطئك، وتحمل مسؤوليته، ولا تحاول تخفيفه أو تبريره، بل اعتذر عنه.

فلو تلفظت مثلاً بسب أو شتم أو غيبة، فقل لولدك: «عفواً يا بُني، كان يجب عليّ أن لا أتلظظ بهذه الكلمة، أستغفر الله»، ويمكن أن تزيد: صدق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين قال: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»، وقال: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ».

وفائدة هذا التصرف:

- أنه لن يزعزع قيمة الانضباط في سلوكهم بل يعززها.
- أنه يشعرهم بعدالة القواعد وشمولها للجميع.
- أنه يؤكد له أنه ليس وحده المطالب بضبط النفس والتَّحَكُّم في سلوكه، بل طبيعة البشر أنهم يخطئون، والمهم إصلاح الخطأ.
- أنهم لن ينتحلوا الأعذار لأنفسهم حين يخالفون القواعد، بل يقتدون بك فيعتذرون ويصححون.

قواعد خاصة لبعض الأبناء دون البعض:

أحياناً توضع للطفل قواعده الخاصة التي لا تنسحب على سائر أفراد الأسرة، فمن ثم لا تُدرج ضمن القواعد الأسرية الشاملة، وتحتوي على قواعد تضبط موعد نومه^(١)، وروتينه اليومي، وإدارته لغرفته وأغراضه، وقواعد نوعية ترمي إلى ضبط سلوكيات تخصه وتحتاج إلى تعديل وتصحيح.

هناك ظروف قد تطرأ فتستلزم استثناءً من القاعدة:

يُن لأبنائك أن قائمة القواعد المنزلية ليست متصلبة، بل هي واقعية ومرنة، فقد تطرأ أحياناً ظروف استثنائية تستلزم تعطيل بعض القواعد؛ كإلي الإجازات، وكيوم رحلة، أو زيارة أحد الأقارب للمنزل، أو أيام الامتحانات، ونحو ذلك، ومن المهم إخبارهم بذلك مقدماً، وشرح سبب الاستثناء.

ما يراعى عند تحديد القواعد:

١- إذا كنت لم تنتبه لأهمية القواعد الأسرية فيما مضى، وشاع عدم الانضباط والفوضى في حياة أبنائك، فتأكد أن الفرصة سانحة، والتغيير نحو الأفضل متاح، وقرر أن تسعى لتحسين الوضع من الآن وتفاءل بالخير، واستعن بالله ولا تعجز، فهذا خير وأحسن عاقبة من التماادي في الفوضى.

٢- ابدأ بشرح أهمية القواعد الأسرية لزوجتك، وخططاً معاً لتحديد لها، وإذا اختلفتما حول شيء من القواعد المقترحة فعالج الاختلاف قبل أن يتطور ويفشل المشروع التربوي.

(١) مثال: قاعدة خلوده إلى النوم في الساعة السابعة مساءً مثلاً، هذه قاعدة خاصة للطفل، ولا يمكن تطبيقها على الوالدين أو شقيقه المراهق لتفاوت ظروفهم ومسؤوليتهم بالنسبة إليه.

٣- اعقد اجتماعاً أسرياً لكل أفراد الأسرة، وأعلن لهم عزمك على تحديد القواعد الأسرية، وبيّن لهم أننا أسرة واحدة نعيش معاً في بيت واحد، ورغم أنّ السلطة التربوية يملكها الأب، ثم الأم، غير أننا نحتاج للتعاون ليكون بيتنا بيئة سعيدة يسودها الحب والاحترام، والهدوء والنظافة والنظام بدون مشاكل أو بأقل قدرٍ منها، والطريق إلى تحقيق هذا الهدف هو الاتفاق على منظومة القواعد الأسرية وفرضها كنظام مستقر مُلزم للجميع.

ويُنَبِّه الوالد أبناءه على المعاني التالية:

١. الحياة لا تتمحور حولك، فتذكر دائماً أنّ حولك آخرين يعيشون معك، ولكلّ حقوقٍ وعليه واجبات.
٢. لا نتوقع منك أن تكون مثاليّاً، وكذلك الآخرون ليسوا مثاليين.
٣. الحصول على امتيازات يقابله تحمل المسؤوليات.
٤. لا يعنينا ما يحدث في بيوت الآخرين، فهذه حياتك وأنت تعيش معنا هنا.

٤- ينبغي أن تراعي القواعد خصوصية الأسرة وظروفها التي تختلف فيها عن غيرها، ولذلك لا توجد قوالب جامدة للقواعد تكون مناسبة لكل أسرة، وإنما ترتبط القواعد بشخصية الوالدين، والمناخ الأسري السائد، وأعمار الأولاد، ونوعية سلوكهم، وقناعات الأبوين ومواقفهما في الحياة.

٥- يحدد الأب بدقة المجال الذي يديره بنفسه حصراً، والذي يتمحور حوله كَرَبٍّ للأسرة وقائِدٍ لها، بحيث لا يفوض فيه أحد أبنائه للنيابة عنه في غيابه، مثل: مباشرة عقاب الأبناء الذين يكسرون القواعد.

كما يمكن رسم حدود المجال الذي يحقُّ للابن أن يُبْدِيَ فيه وجهة نظره، ويتخذ قراراً بشأنه.

٦- ضع في اعتبارك المرحلة العمرية لأبنائك:

كلما ابتدأنا في فرض القواعد في سنٍّ مبكرة، كُلِّمًا قلَّت مقاومة الطفل لها، وزادت سرعة استجابته لها، ومع ذلك يجب على الآباء أن يُراعوا أنَّ القواعد المناسبة لسن الأولاد يسهل عليهم الاستجابة لها، وأن تكون القواعد قابلةً للتغيير كُلِّمًا كبر الأولاد.

- مرحلة بداية تعلم المشي إلى سن الخامسة:

هي مرحلة تهيئة وتدريب، ويبدأ تدريب الطفل على القواعد حين يكتمل وعيُه بحيث يصبح قادراً على الوعي والفهم حين نشرح له القاعدة، وحين يصبح قادراً على التواصل مع الوالدين بأن يكون قد اكتسب مهارات لغوية، وتمكَّن من فهم دلالات نبرة صوتك وتعبيرات وجهك.

وفي هذه السن لا يكون الصغار مهئين لاتباع القواعد بصرامة؛ إذ ليس لديهم تحكُّم في الذات، ويميل مزاجهم إلى اللعب، وينسون القواعد، فيتبعها مرة وينساها أخرى، فيحتاجون إلى تكرار تذكيرهم بها.

ولأنَّ الطفل يكون حديث عهد بالقواعد، فعليك أن لا تبالغ في توقعاتك منه، وتقبل منه إذا أساء التصرف، وإلا صَعَبَت الأمور عليه.

- يمكن للطفل في هذه السن أن يتبع عددًا قليلًا من القواعد، وبصورة غير دائمة، بل متقطعة، فابدأ معه بواحدة، وزِد بالتدريج كلما كبر.

والجيد في الأمر أن الطفل في هذه السن يسعى جاهدًا لكسب الحب والقبول من المحيطين به، مما يبعثه على التزام القاعدة.

- تعطى الأولوية في هذه السن لقواعد الأمان من الأخطار كالبعد عن النار ومصادر الكهرباء والآلات الحادة.

- كافئ الطفل على اتباع القاعدة، ولا تستعمل وسائل عقابية إذا كسر القاعدة، لكن يمكن حرمانه من بعض الامتيازات كعاقبة لفعله.

- تنبيه:

يحتاج الأطفال ذوو الاحتياجات الخاصة إلى تدعيم إضافي ومساعدة لفهم القواعد وتذكرها.

- أمَّا المراهقون:

- فيحتاجون إلى قواعد أشد صرامة في المناطق والأنشطة التي لا يزالون يحتاجون فيها إلى توجيه وإرشاد.

- ضع قواعد تحترم رغبته في الاستقلال إذا تأكدت أنه يتصرف بمسؤولية.

٧- استعمل التوجيه الإيجابي:

بأن تُبيّن لهم ما ينبغي فعله، وليس ما تنهاهم عنه، فبدلاً من: «لا تكذب»،
 قل: «التزم الصدق»، وبدلاً من: «لا ترمِ ملابسك على الأرض»، قل: «ضع
 ملابسك المستعملة في كيس الغسيل».

٨- حدد السلوك الذي تستهدف غرضه فيهم:

إنّ السلوكيات المطلوب تعزيزها أو تعديلها لا تكاد تنحصر، فلذلك
 ركّز على المشاكل السلوكية حسب أهميتها وأولويتها، والقاعدة يجب أن تكون
 منتجة للسلوك الإيجابي الذي تستهدف بناءه، أو مبعدة للسلوك السلبي الذي
 تستهدف اجتنابه.

٩- تأكد أنّ كلّ أفراد الأسرة فهموا القواعد، وأنّهم موافقون عليها،

وملتزمون بها.

وأخيراً اعلم أنّ القواعد لن تُحوّل بيتك إلى واحة سلام وادعة، ولكنها
 تساعد على إدارة البيت والعلاقات الأسرية وحلّ المشكلات بأقل قدر ممكن
 من الصراع والمناكفة.

مواصفات قائمة القواعد الأسرية:

الأول: أن تكون مختصرة:

تتضمن أقل عدد ممكن من القواعد، وأن تكون بسيطة غير معقدة، وتقتصر
 على ما يمكن أن تقنعهم به، وما يمكن للجميع أن يلتزموا به، والقاعدة تكون
 مثل مواد القانون لا تحتاج أن تقترن بشرح لها وتبرير.

إنَّ القائمة الطويلة معقدة ومربكة ومرهقة، ومع أنَّ الأطفال يحتاجون إلى القواعد من أجل أمنهم وسلامتهم، غير أنَّ فرض قواعد كثيرة يخلق تطورهم ونموهم النفسي ويُشعرهم بالقهر.

الثاني: أن تكون منطقية وواقعية وقابلة للتطبيق:

لأنها ستكون جزءًا من الحياة اليومية لكل فرد، فيجب أن تكون منطقية، وفي حدود إمكانياتهم وطاقاتهم؛ كي تصبح قابلةً للتنفيذ؛ فمثلاً: لا تنص القاعدة على: «منع اللعب أو نشر الفوضى في الغرفة»، ولكن تقول: «بعد الفراغ من اللعب أعِدْ كُلَّ شيءٍ إلى مكانه، ورتّب الغرفة».

إنَّ القواعد المبالغ فيها التي لا يمكن تنفيذها أو تشك في قدرتك على فرضها تفقد قوّتها، وقد تُضطرُّ إلى التراجع عنها.

الثالث: أن تكون واضحةً محددةً لا لبس فيها ولا غموض:

كي يفهمها الجميع على وجهها، وكلما كانت القواعد واضحةً بينة، كلما تضاعف احتمال تورطك في صراع القوى.

فبدلاً من أن تقول: «يُحظر اللعبُ في أيّام الدراسة»، قل: «في أشهر الدراسة يكون اللعب بعد الفراغ من المذاكرة، وأداء الواجبات المدرسية».

أشرك أبناءك في وضع بعض القواعد:

في نهاية المطاف، فإنَّ تحديد الممنوع والمسموح في المنزل من خلال القواعد الأسرية أمرٌ متروكٌ للوالدين، لكنك لو أشركت أبناءك في وضعها فستجني من وراء ذلك ثماراً جيّدة:

- ١- سيكون ولدك أكثر تحمُّسًا لاتباع القواعد واحترامها؛ لأنه شارك في صنعها واقتراح مُدْخَلاتها، كما أنه سيفهم الغرض من وجود القواعد.
- ٢- ستأمن من شعوره بالظلم؛ إذ قد تم تحكيمه (بصورة غير مباشرة) فيما يخصه من واجبات والتزامات، وكذا إقراره بالعواقب التي يستحقها من يكسر القواعد.

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ (٧٤) ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٤، ٧٥].

- ٣- قد يكون لدى ولدك فكرة جيدة لم تخطر ببالك.
- ٤- إشراك الأولاد (لا سيما المراهقون)^(١) يشعرهم بأنهم تطوَّروا نحو الاستقلالية الذاتية؛ حيث يُبدون آراءهم، ويُسمع لهم، ويُقدَّرون.



(١) لأن المراهقين يريدون الحرية والاستقلالية في كل ما يفعلونه، فإذا ما قُيدت حريتهم يتمردون ويكسرون القواعد، علاوة على ذلك يكونون مثل (السندويتش) محاصرين بين القواعد الأسرية وضغط شلة الرفاق، مما يشكل تحدّيًا حقيقيًا للوالدين، وإشراكهم في وضع القواعد وعواقبها يشبع حاجتهم إلى الاعتراف بنموهم واحترام آرائهم، وتقديرهم.

أمثلة لقائمة القواعد الأسرية

هاك بعض القواعد الأسرية المفترضة على سبيل المثال لا الحصر:

قواعد الصلاة:

- نحن نقيم الصلوات الخمس في أوقاتها، ولا نقدّم عليها شيئاً.

أذكار الصباح والمساء:

- حافظ على ثلاثة أذكار على الأقل يومياً من أذكار الصباح والمساء، بطريقة دورية بالتناوب بحيث تأتي ببعضها في يوم، وبالبعض الآخر في الأيام التالية.

الأخلاق:

- تمسك بالصدق مهما كلفك.
- احترم كلمتك، وأوف بوعدك.
- لا مكان في أسرتنا للغش والكذب.
- تكلم بأدب واحترام مع الآخرين داخل البيت وخارجه.

داخل المنزل:

- ليس بيننا خادم، وكلّ يتحمل مسؤولية نفسه.
- لا تغلق الأبواب بعنف.
- من استعمل شيئاً فليُعيده إلى مكانه.
- من غادر غرفة، فليُطفئ الأنوار.
- من أحدث فوضى فليرتب المكان.

- ممنوع الجري داخل البيت.
- ممنوع الرسم على الجدران.
- ممنوع القفز فوق السرير والأثاث.
- قم بالوظائف التالية إمّا بالتناوب مع غيرك، أو إحداها وحدك: التنظيف والكنس لغرفة معينة، غسل الأطباق، غسل الملابس، رعاية الصغير، التخلص من القمامة.
- تأكد من تنظيف مكان الخلاء لمن يأتي بعدك.

الواجبات المدرسية والمذاكرة؛

- تؤدي بعد تناول الغداء، وقبل اللعب.

النوم؛

- توضعاً قبل النوم، واختتم يومك بثلاثة من أذكار النوم.
- موعد نوم الصغار الثامنة مساءً.
- فور الاستيقاظ من النوم قل أذكار الاستيقاظ، ورتب سريرك.

الطعام؛

- ساهم في إعداد الطعام، أو وضعه على المائدة، أو غسل الأطباق.
- التزم بأذكار الطعام قبل الأكل وبعده.
- أبعد الهاتف الجوّال وقت الأكل.
- لا تتكلم وأنت تمضغ الطعام، ولا تتحدث بشيء مقزز.

الملابس:

- لا تدخل البيت بحذاءٍ قذر.
- اخلع الحذاء وضعه في المكان المخصص.
- علّق ملابسك في مكانها.
- ضع ملابسك المستعملة في سلة الغسيل.

اللعب:

- ممنوع اللعب بالكرة داخل البيت.
- شارك أخاك أو أختك في اللعب أو بالتناوب.
- أعد اللعب بعد الفراغ إلى مكانها مرتبة.
- ممنوع الضرب والدفع والركل والعض.
- احتفظ بيديك ورجليك لنفسك.
- ممنوع الصراخ والتلقب والتحقير والتنمر.

قواعد السلامة والأمان:

- أخبر أحد الوالدين قبل خروجك من المنزل.
- إذا خرجت فتأكد أن معك أرقام هواتف الوالدين.
- لا تمزح مع الأغراب الكبار، واصرخ في حالة الإحساس بالخطر.
- لا تفتح باب الشقة، ولا تجب على الهاتف إذا لم تكن أمك معك.
- للبيت نوافذ معينة تغلق في كل وقت.
- تأكد من إغلاق باب البيت إذا خرجت.

- ابقَ قريبًا من موقد الغاز إذا وضعت عليه اللبن ليغلي.

قواعد العلاقات الاجتماعية:

- بر الوالدين دينٌ ودينٌ، فأطعهما واحرص على رضاهما.
- نحن نقدر آراءك وإضافتك، ولكن لا تجادل، والجدل هو أن تعرض آراءك أكثر من مرة.
- عبّر عن رأيك وشعورك ما دمت تفعل ذلك بأدب واحترام.
- أنصت إلى المتكلم إلى أن يأتي دورك، ولا تقاطعه.
- قدّم الأكبر سنًا.
- خاطب الآخر بالاسم أو اللقب الذي يُحبّه، واستعمل دائمًا: «شكرًا لك»، و«من فضلك»، و«أنا آسف»، كلًّا في مناسبته.
- تحكّم في غضبك، ونظّم انفعالاتك.
- اختر أصدقاءك بعناية؛ لأنّك ستصبح مثلهم.
- لا تأخذ ما يخصّ غيرك إلا بعد استئذانه.
- احترم خصوصية الآخرين، وأوقات هدوئهم وراحتهم وخلوتهم.
- لا تفتح غرفةً مغلقةً قبل الاستئذان.
- إذا أسأت إلى أحدٍ أو أذيتَه فاعتذر، ورُدِّ إليه حقّه أو عوّضه (Restitution).
- لكل مكان قواعده، فاحترمها عند زيارة الآخرين، وكذا في السوق والمطعم والمتنزهات... إلخ.

قواعد التعامل مع الشاشات:

- الأجهزة الكهربائية والشاشات امتياز وليست حقاً.
- توقّف عن استخدام الشاشات قبل النوم بساعة.
- لا تزيد مدة التعامل مع الشاشات؛ (كالألعاب الإلكترونية، وتصفّح المواقع، والحوارات) على ساعة واحدة يومياً.
- مائدة الطعام وحجرة النوم منطقتان خاليتان من الهواتف الذكية.
- يُكافأ من طالع كتاباً بدلاً من مشاهدة الشاشات.
- استشر أحد الوالدين في المواقع التي تتصفحها، والأصدقاء الذين تضيفهم.

- إذا شعرت بعدم الارتياح لشخص، أخبر أحد الوالدين أو الراشدين من حولك، وتعلّم كيف تتصرف إذا تعرضت لتمر أو إساءة.
- اذكر سنّك بدقة عند إعدادك لملفك الشخصي؛ لأنّ الشبكات تقترح عليك المواد على أساسه، وتحجب عنك ما لا يناسبك.
- قدّم التواصل الاجتماعي الحقيقي مع الأسرة والأصدقاء (بالأنشطة والألعاب) على التواصل عبر الشاشات في العالم الافتراضي.

لكل سلوك عاقبة:

- تبقى القواعد الأسرية مؤثرة ما دمت تدعمها، ولذلك لا بُدّ أن يقترن تحديد القواعد بتقرير عواقب احترام أو كسر كل قاعدة، لكي يترسخ عند الطفل علاقة السبب بالنتيجة القريبة المدى.

- حدد عواقب إيجابية في حال تم الالتزام بالقواعد، مع ربط الامتياز الذي سيحصل عليه مباشرةً باتباعه للقواعد:

مثال: «أشكرُ لك أنك حافظت على حجرتك نظيفةً ومرتبة، لقد أنجزت شيئاً جيّداً حين التزمت هذه القاعدة».

مثال آخر: طفل التزم بجميع القواعد منذ أن عاد من المدرسة، يمكن مكافأته بأن يجلس على الكمبيوتر لمدة نصف ساعة -مثلاً- بعد تناول الغداء.

- حدد عواقب سلبية إذا كسر قاعدةً منزلية:

وذلك لتردعه عن كسر القاعدة فيها بعد، كطفل بعثرَ أشياءه في كل مكان في البيت، فإنه يكلف بالتفتيش عنها بنفسه، وإعادة كل شيء إلى مكانه، على أن يُحسَب الوقت الذي يستغرقه ذلك، وإعلامه أنَّ هذا الوقت الضائع في التفتيش والترتيب سيُخصَم من وقت اللعب المخصص له، وليس من وقت المذاكرة.

وفائدة ذلك أن يكتشف الطفل بنفسه مساوئ عدم الالتزام بالقواعد.

- يمكن تعليق لوحة في غرفة المعيشة تتضمن قائمتين متقابلتين تضم إحداهما القاعدة في جانب، وفي مقابلها توضع عواقب كسرها، ويمكن لصق رسومات أو صور توضيحية تيسر لهم فهم المطلوب بوضوح وسهولة، لا سيما مع صغار السن.

- حذّر الطفل كلما أمكنك من العواقب مقدّمًا، وإذا انتهك قاعدةً، وضح له أن بإمكانه اتخاذ خيار أفضل في المرة القادمة.

- قد تتضمن العواقب المناسبة للقاعدة التي خرقتها:

- إبعادًا مؤقتًا (Time-Out) لمدة خمس دقائق مثلاً.

- الحرمان من جزء من مصروفه لمدة يومين.

- التعويض عن شيء كسره.

- المتابعة الثابتة مع تحمّل عواقب كسر قاعدة تساعد الطفل على أن يفهم بوضوح أهمية القواعد، وهي وسيلة ليتعلم كيف تسير الحياة.

- من الطبيعي أن يكسر الطفل قاعدةً ليختبر جديتك في فرض القواعد، وتقديم شرح العواقب مُقدّمًا من شأنه أن يقلل احتمال محاولته أن يختبر جديتك ليعرف ماذا ستفعل إن كسر قاعدة؟

- وقد يكسر الطفل قاعدةً؛ لأنه -ببساطة- نسي، ومع ذلك يجب أن نستجيب بطريقة ثابتة، ولا تُعطيه فرصةً أخرى، ولكن دعه يواجه عاقبة كسرها بغض النظر عن السبب.

لا تتراجع ولا تتردد في فرض النظام؛

لأنّ الطفل يميل إلى الفوضى والعشوائية إذا خلا البيت من قواعد محددة تحكم سلوكه، وعليه يجب أن يتم تحديد قواعد خاصة بالأسرة في صورة (دستور عائلي) يُنصّ فيه على قواعد واضحة يجب اتباعها، وسلوكيات سلبية يجب تجنبها، مع النص على العواقب الإيجابية والسلبية التي تترتب على كلا النوعين.

ويجب على الوالدين أن لا يتذبذبا ولا يتهاونا في فرض بنود هذا الدستور كي يترسخ عند الطفل مهارات الانضباط والالتزام والوفاء بالعهود.

يقول أحد التربويين: «ليس تطبيق النظام مما يحبُّه الأطفال، فهم لا يحبُّون القيود والحدود، ولكنهم يتفهمون أن فرض النظام من عمل الأبوين والمعلمين، إنَّ كل تلك الساعات التي ينفقها الكبار في التعليم والاهتمام والمراجعة لا تذهب سُدى عند الأطفال.

لذلك لا تتردد في فرض النظام، ولا تبحث عن الشعبية في هذا الخصوص، فالأطفال يدركون في أعماقهم ماذا تعني كل تلك الساعات التي تكرسها لتعليمهم النظام، والشيء الوحيد الذي يجعل الأطفال مترددين فيما يخص تطبيق النظام هو حينما يكون الكبار مترددين في تطبيقه».

اشرح لأولادك القواعد مقدما ببساطة ووضوح؛

- الطفل قادر على فهم القوانين والقواعد المنزلية - ولو كان صغيراً - إذا قُدِّمَتْ له بالشكل الذي يراعي سنه وإدراكه.

- ومن ثَمَّ فإنه ينبغي على المربي - بمجرد تحديد القواعد الأسرية - أن يشرحها لأبنائه، ويتأكد من أنهم فهموها واستوعبوها؛ لأنَّ شرح التصرف وعاقبته قبل العقاب قد يوفر على الوالد مشقة إيقاع العقاب أصلاً.

- وهذا الشرح يعينهم على فهم الأسباب من وراء فرض القاعدة، ويقنعهم بضرورة التزامها، والثمرة التي تعود على الأسرة من جراء ذلك،

كتهدة المناخ الأسري، وشيوع الاحترام المتبادل، وبهذا يدركون أنَّ القواعد الأسرية ليست أوامر عسكرية تطبق بالطاعة العمياء، ولكن بالطاعة المستبصرة بثمرة هذه القواعد؛ لأن الأولاد إذا شعروا أنَّ القواعد تخنقهم قد يتمردون على الاتفاق العائلي، ويعودوا من جديد إلى الفوضى.

إنَّ فهم القواعد يوضح الحكمة من ورائها، ويعينهم على التمييز بين السلوك المقبول والسلوك المرفوض قبل أن يُعاقبوا.

مثال: قاعدة «حظر لعب الكرة داخل المنزل» تُشرح كالتالي: نحن نعيش في بيت محدود المساحة، وليس بداخله مساحة مناسبة للعب بالكرة، فإذا لعبت بالكرة فقد تصيب أحدهم، أو تحطّم شاشة الكمبيوتر، أو تكسر الأشياء الزجاجية.

- استعمل أسلوباً إيجابياً عند تذكيره بالقاعدة:

فبدلاً من: «اجمع ألعابك المتناثرة»، قل له: «يجب أن تعيد ألعابك إلى صندوق اللعب، وإلا ستضيع أجزاؤها، وتعرض للتلف».

وبدلاً من: «أحسن سلوكك ولا ترمِ الكتب»، قل له: «الكتب مكانها الرف».

وبدلاً من: «ممنوع السب والشتم»، قل له: «استعمل لغة مهذبة ومحترمة»، وعليك أن تشرح له مكونات اللغة المحترمة حتى يفهم قصدك.

- اجتهد أن تصوغ القاعدة على هيئة آية قرآنية، مثل: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، أو حديث شريف، مثل: «الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك، وإلا فارجع»، أو على الأقل طَعَّم شرحك بنصوص الوحيين الشريفين المتعلقة بالقاعدة، باعتبار أنَّ الوحي أهمُّ مصدرٍ مرجعي لكل مسلم ومسلمة.

فكرة تعينك من أجل تحفيز الأطفال على التزام القواعد الأسرية:

وهي أن تقص عليهم قصة القرد ميمون، يقول القاصُّ: «كان القرد (ميمون) يعيش مع أخته وأمه وأبيه فوق واحدة من أشجار الغابة، وكان في الغابة قوانين اسمها قوانين الغابة، فهل تعرفون ما تلك القوانين؟ (الأعمال التي يجب أن تنجزوها على نحوٍ صحيح، وإلا فإنكم ستُعاقبون)، وهل تعرفون شيئاً عن العقوبة؟ (يحدث لكم شيء ما محزن إذا انتهكتم القانون).

كان في الغابة قانونان؛ يقضي أولهما بالتشبث بالشجرة بواسطة اليد، أو القدم، أو الذيل، وما عقوبة انتهاك هذا القانون؟ (السقوط!).

ويقضي القانون الآخر بأنك إذا رأيت أسداً قادمًا، فعليك أن تتسلق الشجرة بسرعة، وما عقوبة انتهاك هذا القانون؟ (احتمال التعرض للافتراس!).

وكان هناك قانونان في الشجرة الخاصة بأسرة ميمون؛ يقضي أحدهما بعدم مغادرة الشجرة بدون إذن، فما سبب وضع هذا القانون؟ (لكي لا يضيع ميمون).

ولماذا لا تريد له أمه وأبوه أن يضيع؟ (لأنهما يحبانه).

وما عقوبة مغادرة الشجرة بدون إذن؟ (ضربةٌ بذيل الأم).

ولماذا تفعل الأم ذلك؟ (لكي لا يغادر الشجرة مرةً أخرى بدون إذن).

ولماذا لا تريد لصغيرها أن يكرر ذلك ثانية؟ (لأنها تحبه، ولا تريد أن تفقده).

وكان القانون الآخر في أسرة القردة هذه يقضي بعدم إلقاء قشور الموز على أغصان شجرة الأسرة، فما سبب وضع هذا القانون؟ (لكي لا ينزلق أحدها ويسقط عن الشجرة).

ولماذا قررت أسرة القردة أن يكون لها مثل هذا القانون؟ (لأن أعضاءها يحبون بعضهم، ولا يريدون لأحدهم أن يُصاب بأذى).

وما العقوبة التي يتلقها من ينتهك هذا القانون؟ (ضربة بالذيل).

ولماذا تفعل الأم ذلك؟ (لأنها تحب طفلها، ولا تريد له أن يكرر ذلك التصرف).

وأحياناً كانت هناك قوانين يمكن لميمون أن يتصرف بموجبها، وأحياناً لم تكن تلك القوانين موجودةً، فكان يمكنه أن يقرر بنفسه.

استيقظ ميمون في الصباح، فتمطط وتثاءب، وسُمح له بمغادرة الغصن، فهل كان هناك قانون يعمل بموجبه؟ (نعم، عليه أن يتشبث، وإلا فإنه سيسقط).

وينظر إلى قبعته؛ الحمراء والخضراء، فهل كان هناك قانون حول القبعة التي يجب أن يرتديها؟ (لا، يمكنه أن يختار أيَّ قبعة يشاء)، ويختار القبعة الحمراء.

وبعد ذلك، أراد أن يهبط من الشجرة لبحث عن موزة لطعام الفطور، فهل كان هناك قانون يعمل بموجبه؟ (نعم، يسأل أمه لكي تعرف مكانه، وبذلك لن يضيع).

ووجد موزة كبيرة وأخرى صغيرة، فهل كان هناك قانون يفرض عليه الاختيار بينهما؟ (لا، يمكنه أن يختار الموزة التي يريد).

ويختار ميمون الموزة الكبيرة؛ لأنه كان يشعر بجوع شديد.

وبينما هو في طريقه إلى شجرته، رأى أسدًا، فهل كان هناك قانون يعمل بموجبه؟ (نعم، يتسلق إحدى الأشجار بسرعة لكي لا يفترسه الأسد).

ويتسلق ميمون إحدى الأشجار، وبعد ابتعاد الأسد، يعود إلى شجرته الخاصة، ولكن على أي غصن يجب أن يجلس لكي يأكل الموزة؟ هل كان هناك قانون خاص بذلك؟ (لا، يمكنه أن يختار الغصن الذي يريده).

ويقشر ميمون الموزة، فهل كان هناك قانون يتعلق بالقشر؟ (نعم، يجب ألا يتركه على أحد الأغصان).

وهكذا قضى ميمون يومًا مفرحًا وآمنًا، فمعرفة القوانين والعمل بموجبها مسألة ممتعة وآمنة، ومن الممتع أيضًا أن يقوم أحدنا بحسم الأمور عندما لا يجد قانونًا يحكمها^(١).

(١) «موسوعة التربية العملية للطفل» للأستاذة هداية الله أحمد الشاش، (ص ٣٠١، ٣٠٢)، نقلًا عن: «كيف تعلمون أطفالكم تحمل المسؤولية؟» تأليف: ليندا وريتشارد آير (ص ٢٦) وما بعدها.

إعلان القواعد الأسرية؛

بعد الاستقرار على تحديد القواعد الأسرية بمشاركة الأبناء وشرحها لهم:

١ - اكتب كل قاعدة بخط واضح، أو اطبعها بتصميم جميل وألوان جذابة.

٢ - علّق قائمة القواعد في مكانٍ بارزٍ يراها الجميع.

ويمكن تقسيم القواعد حسب موضوعها، وتعليق كل قسم في المكان المخصص به، (مثلاً: آداب المائدة في غرفة الطعام).

والهدف من تعليقها دوام التذكير بها، بحيث لا يقدر أحدٌ على أن يتعلل بأنه لم يكن يعرف القاعدة.

- ولا بأس من عدم تدوين القائمة وتعليقها؛ لأنّ ذلك وسيلة أما الغاية فهي التزام القواعد واحترامها، لكن الأفضل من ذلك ما ذكرنا من كتابتها وتعليقها^(١)، وبخاصة القواعد المتعلقة بالأمان والسلامة ومواعيد العودة، ومواعيد حظر الخروج من البيت.

(١) بل ذهب البعض إلى كتابتها في صورة (عقد سلوكي) بين الطفل (ذي السبعة أو الثمانية الأعوام) ووالديه، يوقع عليه ثلاثتهم في حالة وجود مشكلة سلوكية (مثل: التهاون في الصلاة، أو عدم طاعة الوالدين، أو العدوان على إخوته، أو إهمال الدراسة)، ويتفاوض الوالدان مع الطفل لحلّها وتحديد شروط العقد ونظام المكافأة أو العقاب، وهاك نموذجًا للعقد السلوكي:

«أقر أنا -فلانا- بأنني ملتزمٌ بعدم الاعتداء على إخواني الصغار طوال الستة أشهر التالية من تاريخ هذا العقد، وفي حال خالفْتُ هذا العقد يُخصَم من مصروفي (كذا) عن كل مرة أرتكب المخالفة»، ثم يُوقع عليه الوالدان والطفل.

لا بد من فترة تدريب كافية على القواعد قبل إيقاع العقوبة؛

- لا يتم تغيير السلوك السيئ دفعةً واحدة، بل على مراحل.
- والتدريب على المهارات يحمي الأبناء من الإخفاق والتهرب من المهام.
- ويتم التدريب بالتدرج خطوةً خطوةً إلى أن تُصبح المهارة عادةً.
- ولا بُدَّ من تلقينه قواعد السلوك مقدّمًا، وشرحها له وتذكيره بها باستمرار قبل بداية تطبيقها.
- وإذا أخطأ درّبناه على السلوك الصحيح، ثم طلبنا منه إعادته.

مثلاً: إذا كانت القاعدة تلزمه بترتيب غرفته بعد استيقاظه قبل أي شيء، فعلينا أن نساعدهم في أول مرة، ونفصّل لهم كيف يتم ذلك؟ وأين يضعون أشياءهم؟ ونكرر ذلك إلى أن يتمكنوا من الاستقلال بأداء المهمة.

ماذا لو كسر الطفل قاعدةً أسرية؟

- ١- لا تصرخ، ولا تغضب، وإذا غضبت اكظم غيظك.
- ٢- اخل به وحده بعيداً عن إخوته.
- ٣- ذكّرهُ بهدوء بالقاعدة المتفق عليها سابقاً، وعاقبه مخالفتها.
- ٤- حدد له بدقة المخالفة التي ارتكبها وركّز عليها فقط دون غيرها.
- ٥- اطلب منه أن لا يتجاوز القاعدة فيما يأتي.
- ٦- عاقبه بالعقاب المناسب؛ مثل الإقصاء المؤقت، أو الحرمان... إلخ.

دَعْمُ التزامهم بالقواعد عن طريق جدول التحفيز؛

تصمم الأم جدول التحفيز الخاص بكل طفل (Rewarding System)، وتنفذه بمشاركة أطفالها، ويُراعى فيه مراحلهم العمرية، وتُستعمل فيه ألوانٌ زاهية جذابة، ويُفضَّل تعليق صور ملوّنة ترمز إلى السلوك المطلوب عند كل وظيفة:

مثلاً: ترتيب غرفة النوم عند الاستيقاظ، تلمصق أمامه صورة سرير مرتّب، غسل الأسنان: فرشاة ومعجون... وهكذا.

لأنّ هذه الصورة تُذكّر الطفل الذي يصعب عليه القراءة.

- يحتوي جدول التحفيز على قائمة السلوكيات اليومية والوظائف المراد من الطفل التعلُّد عليها يوميّاً (Chores) طبقاً للقواعد الأسرية.

- كما يحتوي على خانة فارغة أمام السلوك، يُعلّم عليه الطفل نفسه بعلامة (✓) باللون الأخضر إذا أداها، أو (تُلصق نجمة ذهبية)، وتُعلّم الأمُّ باللون الأحمر (x) إذا لم يؤدّها.

- يمكن أن يصمم الجدول بحيث يشمل كلّ أيّام الأسبوع، أو يوميّاً، وفي نهاية الأسبوع (أو اليوم) يتم جمع النجوم، فمن حصل على أكبر عدد منها يكافأ مكافأة سخية (لعبة أو نزهة خاصة له)، ومن حصل على أقلّ يُكافأ بحسبه.

- طريقة أخرى:

يُصبح كل طفل وهو يملك رصيدَ مئة نقطة، فإذا أدَّى وظائفه أضيفت الدرجات المقابلة لكل وظيفة إلى رصيده، وإذا أخفق أو كسل يُخَصَم من رصيده بقدر كل وظيفة، وفي نهاية الأسبوع -مثلاً- يُكافأ مكافأةً مجزية صاحبُ أكبر رصيد.

راجع القواعد. وعدّها عند الحاجة:

- القواعد الأسرية غير جامدة، بل هي مرنة قابلة لإعادة النظر والمراجعة كلما اقتضى الأمر ذلك، بحيث يمكن تعديلها بالحذف أو الإضافة طبقاً لمستجدات الواقع، وتطوّر المراحل العمرية، وظروف المعيشة التي ينبغي مسايرتها، فالقواعد الضابطة لسلوكِ طفلٍ ما قبل المدرسة تختلف عن قواعد ضبط سلوكه إذا صار مرافقاً مثلاً.

- إذا اكتشفت أن قاعدةً معيّنة تكلفهم فوق طاقتهم، فإمّا أن تعاوّنهم على أدائها، أو تعدل القاعدة بما يناسب قدرتهم.

- إذا كنت قد وضعت قائمةً محددةً بالقواعد المنزلية، واستهدفت من خلال بعضها سلوكاً معيّناً؛ مثل الكذب، أو الفوضى، ولم يتم معالجتها بعد مرور وقتٍ كافٍ؛ فلا تضيف إلى قائمتك قاعدةً جديدةً إلا بعد أن تتأكد من معالجة السلوك المستهدف في الأصل^(١).

لأنّ الزيادة في القواعد -والحالة هذه- يُرسلُ إلى الطفل رسالةً مفادها: «أنها مجرد مقترحات، وليست قواعد منزلية».

(١) ويمكنك هنا أن تناقش معهم هذا الإخفاق، وتقوم بتعديل العواقب التي تساعدك في فرض النظام.

أهمية الاجتماع الأسري الدوري:

يحدد موعد دوري لاجتماع الأسرة كلها كل أسبوع، أو كل شهر، حسب ظروف الأسرة، من أجل تقويم التزام كل فرد بالقواعد، وتعزيز ذلك، وشحذ الهمم، ومراجعة القواعد، وعمل التغييرات اللازمة.

- الاجتماع الأسري يتيح للأبناء فرصة للتعبير عن آرائهم واقتراحاتهم لحل ما قد يطرأ من مشاكل أسرية، ويجل لهم دوراً في إدارة أمور الأسرة.

- يُستعرض فيه أيضاً الإنجازات الإيجابية، ويُشجّع عليها.

- يمكن أن يتضمن الاجتماع الأسري درساً مبسطاً ومختصراً في التوحيد أو الفقه أو التفسير أو الأخلاق والآداب الشرعية.

ثمرات وفوائد دستور القواعد الأسرية:

النَّصْل يدل على الأصل، والأطفال يمثلون الأسرة حيثما ذهبوا، وهم مرآة تعكس ما يجري داخل بيوتهم، فإذا سمعتَ طفلاً يُثنى عليه بأنه من أسرة جيّدة، فتوقع أنها أسرة ذات منظومة من القواعد الأسرية الناجحة - حتى ولو لم تكن مُدَوّنة رسمياً على الجدران -، وهالك بعضاً من فوائد القواعد الأسرية:

١ - القواعد الأسرية تدم مؤسسة الأسرة ببنية هيكلية (Structure) متماسكة:

تجعل الأبناء يستحضرون عواقب أفعالهم، مما يُسهّل التنبؤ بسلوكهم، كما أنها تكسبهم القدرة على تمييز السلوك المقبول من السلوك المفروض.

٢- القواعد الأسرية ترسخ أسلوب «التربية بالعادة»:

والعادة: مُشتَقَّة من العَوْد إلى الشيء مرَّةً بعدَ أخرى.

والعادة: استعداد مكتسب دائم لأداء عمل من الأعمال بطريقة آلية سريعة ودقيقة، لا تتطلب مشقة ولا بذل جهد كبير.

وفي (التربية بالعادة) يتم التركيز على تكرار أفعال ومواقف إيجابية لمدة زمنية طويلة نسبياً إلى أن يتعوّد الطفل عليها، وتصبح عادةً راسخةً لديه في النهاية بسبب كثرة تكرارها بانتظام.

و(التربية بالعادة) توفر الجهد والطاقة، وتحوّل دون تباطؤ الطفل أو مماطلته في أداء وظائفه، بل يمارسها بسلاسة وانقياد دون أن يبذل جهداً في التفكير النشط: هل أنفذها أم لا؟ وما جدواها ونتائجها؟

وذلك لأنّ القواعد الأسرية قوانين مستقرة متفق عليها مسبقاً، وليست قابلة للتفكير أو النقاش.

وقد ثبتَ عن أمير المؤمنين معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الخيرُ عادة، والشرُّ لَجاجة» الحديث^(١).

لأنّ الخير من أصل الفطرة، والنفوس تعود إليه، وتشرح لملازمته، وتكلفه حتى يصير عادة، وأمّا الشر فلا يدخل قلبه إلا بلجاجة الشيطان، والنفوس الأمّارة بالسوء.

(١) رواه ابن ماجه (٢٢١)، وابن حبان (٣١٠)، والطبراني (٩٠٤)، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه».

واللجاجة: التهادي في الخصومة والإلحاح، ولجّ في الأمر: لازمه وأبى أن ينصرف عنه.

٣- القواعد الأسرية تخدم المعتقدات والقيم والمعايير التي تؤمن بها الأسرة، وتحرص على توريثها لأبنائها.

٤- القواعد الأسرية تُحسِّنُ العلاقات داخل الأسرة، فتحيا حياةً متناغمةً مُنسجمةً؛ لأنَّ كلَّ فردٍ يلتزمُ حدوده، ويراعي مسؤوليته تجاه الآخرين، وينفذ ما تمَّ الاتفاق عليه من قبل، دون الحاجة إلى التفاوض من جديد.

٥- القواعد الأسرية تم تحديدُها بوعيٍّ وبصيرةٍ كي تُتجنَّب الأخطاء، وتخف الضغوط، ويقل الجدل والصراع، من خلال نظام العواقب.

٦- القواعد الأسرية المستقرة الثابتة تحمي الطفل من الإساءة اللفظية أو الجسدية أو العاطفية، التي قد يتلقاها من المربي إذا كان عصبيًا غضوبًا متقلِّب المزاج، وبالتالي يرتجل العقاب المفاجئ بعيدًا عن القواعد، أو يعاقب مرَّةً على سلوكٍ، ويثيب مرَّةً أخرى على السلوك نفسه، أو يُعرض عنه.

٧- القواعد الأسرية تهَيِّ الأبناء لمواجهة العالم الخارجي الواقعي حين يغادرون المنزل ويستقلون بحياتهم، وتُدَرِّبهم على مهارات الحياة، ومواجهة المسؤولية، والانضباط في أي مكان يتواجدون فيه.



التاسعة عشرة: مراعاة التناسب بين الخطأ والعقاب:

لا بُدَّ أن يراعي المربي التناسب بين الخطأ (من حيث نوعه وحجمه وهل هو عارض أم متكرر؟) وبين العقاب الذي يتبعه؛ لأنَّ عدم التوازن بينهما يُعدم الفائدة التربوية المرجوة، فلا يهمل محاسبته على خطأ جسيم، ولا يعاقب عقاباً صارماً غليظاً على خطأ بسيط، ولكل خطأ عقاب يناسبه، ومن الإفراط في ذلك أن يُعطِيَ السلوك السلبي أكبر من حجمه.

سُئِلَ الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ عَنْ عقاب الصبيان، فقال: «على قدر ذنوبهم»^(١).

إنَّ العقاب الذي يتناسب مع خطأ بعينه لا يصلح استخدامه مع خطأ آخر، والمربي الحكيم لا يكون لديه عقوبة واحدة جاهزة (مُعَلَّبة) يستخدمها في كل حالات العقاب وكل أنواع الخطأ؛ لأنَّ الطفل إذا عوقِبَ على الصغيرة كما يُعاقب على الكبيرة، فإنَّ هذا يغريه بتكرار الكبيرة ما دام العقاب واحداً.

إنَّ الهدف من العقاب تعليمه المسؤولية عن أفعاله، وإشعاره بخطئه، وهذا الهدف إنما يتحقق بالقدر الذي يُحدث لديه استجابةً إيجابية تنم عن عزمه على تعديل سلوكه في المستقبل.

لا تعاقب الصغير على ما هو طبيعي؛

فالطفل الخائف لسببٍ ما يجعله يبكي، لا يستوجب عقاباً؛ لأنَّ هذا عادي، والطفل الصغير الذي يصدر أصواتاً مزعجةً وحركةً كثيرةً في وجود الضيوف،

(١) «المغني» (٦/ ١٣٣).

لا يُعاقب؛ لأنه سلوكٌ طبيعي متوقع منه، وينبغي أن يُتجاوزَ عنه، ويُغْتَفَرَ له، والطفل الذي لا يأكل الخضروات لا يستحق أن يُعاقب بالخصام والهجر مثلاً، والطفل الذي لم يؤدِّ واجباته المنزلية لا يُعاقب بالحرمان من اصطحاب الأسرة للنزهة طوال العطلة الصيفية.

مناسبة العقاب للجرم منطقياً:

- الطفل الذي بعثر حاجياته وأدواته في الحجرة، يلزم بإعادة ترتيبها.
- والابن الذي عاد متأخراً؛ يُحرم من الخروج في اليوم التالي.
- والطفل الذي كذب متعمداً، يمكن الإعراض عنه إلى أن يُحدث توبةً.
- إنَّ التسامحَ في غير موضعه يُنتجُ إنساناً متسهلاً لا يُبالي بعواقبِ أعماله.
- والعقاب الخفيف على خطأٍ جسيم يُفقد العقاب معناه، فيتهدى في ارتكاب الخطأ، ويتجرأ على تجاوز الحدود المرسومة.

أما العقاب المبالغ فيه: فإنه يردعه فوراً خوفاً من العقاب المترتب على العصيان، لكنه حين يأمن العقاب لن يتردد في ارتكاب المخالفة ما دام بعيداً عن عينك، ويُحرم من فائدة العقاب.

إنَّ العقوبة الغليظة المبالغ فيها تُشعرُ الطفلَ بالنقمة والاضطهاد والظلم، وتخلق النفور والتمرد والعناد والتحدي والتهادي في الخطأ، وتُحدثُ شرخاً في علاقته بأهله، وتجعله حريصاً على الانتقام عن طريق تكرار السلوك الذي يغيظك.

إنَّ الفارق كبير بين أن يخوضَ الطفل تجربة غير سارة -وهي العقاب المناسب- (لكن يمكنه تحملها، والتعلم منها، مع الاحتفاظ بعلاقة إيجابية مع المربي)، وبين عقاب غليظٍ قاسٍ مفرطٍ يثيرُ لديه ردَّ فعلٍ عنيفًا، ويدمر علاقته بالمربي.

إنَّ العقاب التربوي كالدواء يجب أن يُضبط بدقة على أقل جرعة تُحدثُ الأثرَ العلاجيَّ الفعَّال مع أقلَّ قدر من الآثار الجانبية المحتملة، وهو ما يسمى بالنافذة العلاجية (Therapeutic window)، فإذا قلَّت عنها الجرعة؛ لم تحدث أثرًا علاجيًّا، وإذا زادت؛ زادت الآثار الجانبية.

العشرون: فتش عن سبب الخطأ. وتريث قبل العقاب حتى لا تظلمه؛

يُعذِّرُ الطفل بالجهل والخطأ والنسيان:

قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

وعَلَّمَنَا اللَّهُ عَزَّجَلَّ أَنْ نَدْعُوهُ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾

[البقرة: ٢٨٦].

وقال عَزَّجَلَّ: «قد فعلت»^(١).

ورُوي عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنَّا أَمْتِي الْخَطَا، والنسيان، وما استكبرها عليه»^(٢).

فإذا كان هذا في حق المكلَّفين؛ فالأطفال أولى بالإعذار.

(١) رواه مسلم (٢٠٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٥)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه»، و«الإرواء» (٨٥).

فقد يكون خطؤه ناتجاً عن جهله بالفرق بين السلوك المقبول والسلوك المرفوض، فالواجب هنا أن تعلمه كيف يميز بينهما، وتصحيح له إذا أخطأ. وكما تُدرأُ الحدود بالشبهات في عالم الكبار فإنَّ عقابَ الأطفال أولى بأن يُدرأ إن كان هناك احتمال لبراءته وسلامة قصده أو عذره.



كثيراً ما نعاقب الأطفال بسبب سلوكهم المزعج في حين أنَّ عقابنا إيَّاهم يكون سببه الحقيقي هو عدم قدرتنا على فهم سلوكهم ودوافعه.

ولذلك يجب على المربي أن يفتش عن دوافع السلوك وأسبابه قبل العقاب؛ لأنَّ العلاج الحقيقي فرعٌ عن التحديد الصائب للسبب.

إنَّ الطفلَ يتصرَّفُ بتلقائية وفطرية، وقد لا يحسن التعبير عن دوافعه الكامنة وراء سلوكه المزعج، فالواجب على المربي أن يستقبل سلوك الطفل السلبيَّ بهدوء، وأن يقترب من الطفل، وينظر في عينيه، ويطرح عليه الأسئلة التي تسهل عليه التعبير عن الأسباب التي تفسر سلوكه، على أن يستمع إليه باهتمام، ولا يقاطعه، ثم يناقشه ويتحاور معه ليحدد بدقة سبب السلوك السلبي.

وقد يتعجل المربي عقاب الطفل ثم يتبين له بعد ذلك أنه كان مظلوماً، أو أنه أنزل به عقاباً جسيماً على فعلٍ هينٍ يسير.

تَأْنٍ وَلَا تَعْجَلْ بِلَوْمِكَ صَاحِبًا لَعَلَّ لَهُ عُذْرًا وَأَنْتَ تَلُومُ

مثال:

طفلة قصيرة القامة، تجلس في الفصل على كرسي مرتفع، فكانت إذا (تسلّقت) الكرسي لتجلس عليه تتدلى ساقاها في الهواء، فتمتلآن بالدم بحيث إذا (هبطت) إلى الأرض تؤلّجها قدماها، فكانت تتكيف مع الموقف بأن تقف على قدميها أحياناً، فإذا تعبت صعدت فوق الكرسي لتجلس القرفصاء متربعة عليه، وكانت بعض المدرسات إذا رأيتها على تلك الحال يفسرن وقوفها أو جلوسها فوق الكرسي متربعة على أنه استهتار منها وعدم احترام، فكنّ يعاقبها دائماً بالطرد خارج الفصل، فتُحرّم من حضور بعض الحصص عقاباً على أمرٍ هي معذورة فيه، ولكنها غير قادرة على شرح تصرفها، ولو كلّفت إحدى المدرسات نفسها بأن تتحاور معها وتعطيها فرصة لتتحرى عن سبب سلوكها؛ لأمكنها أن تفهم أنّ الأمر لا علاقة له بالاستهتار وعدم الاحترام، وإنما وراءه عذر وجيه، إذاً لا يمكن حل المشكلة بتقصير الكرسي أو السماح لها بالوقوف أو التربع فوق الكرسي، بدلاً من حرمانها من حقها في حضور الحصص ونبذها خارج الفصل.

مثال آخر:

طفل يبكي ويتصرف بعصبية؛ وسبب ذلك أنّ الحذاء الذي يلبسه ضيق يضغط على قدميه، وأقل من مقاسهما، لكنه لا يحسن التعبير عن هذا السبب.



إنَّ العقاب يحتاج إلى قدرٍ كبيرٍ من التروّي والتمحيص؛ لأنَّ الخطأ فيه ولو لمرة واحدة قد يطبع في نفس الطفل أثرًا عميقًا يصعب محوه.

قد يكمن وراء السلوك السلبي للطفل احتياجات لديه لم يتم إشباعها:

- مثل الحاجات الفسيولوجية حين يشعر بالجوع أو العطش.
- أو الاحتياج إلى الاهتمام إذ يرانا نهمله ونُعْرِض عنه فيسلك السلوك السلبي لينتزع منا أيَّ اهتمام ولو كان سلبياً.

وقد يُعزى السلوك العدواني عند الطفل إلى القسوة الزائدة أو التدليل الزائد من الآباء، والتَّحكُّم المفرط والسيطرة الخانقة عليه، أو الحرمان المادي والعاطفي، أو الصراع الدائم بين الزوجين أمامه، أو الطلاق النفسي، أو الطلاق الفعلي وانفصال الأبوين، وغير ذلك من العوامل.

وقد نكلفه فوق طاقته حين نطلب منه الهدوء والسكون وعدم الحركة مع أنه يحتاج إلى النشاط والمرح، كما يدفعه الفضول وحب الاستطلاع إلى استكشاف البيئة من حوله، وهي رغبات مشروعة تحتاج إلى تنفيس، ومن حقه أن يطلق طاقته ونشاطه لا أن يكبتها، ودورنا أن نحوله (Redirect) من النشاط التخريبي إلى نشاطٍ بناءٍ عن طريق ممارسة الهوايات أو الرياضات أو التلوين والرسم، أو اللعب بالصلصال، أو اللعب مع أترابه ورفقائه.

ومن السلوكيات التي نراها سلبية لكنها بالنسبة إلى الطفل جزء من نموه الطبيعي:

١- التخريب الذي يحدث في طفولته المبكرة، فإنه يمكننا اعتباره مؤشراً على نمو عقله، وتطور ذكائه:

لأنَّ الطفل في سنواته الأولى يرى - لحدثة عهده بالبيئة حوله - كلَّ شيء غريباً وغير مفهوم، ولذلك يحاول التعرفَ على الأشياء عن طريق اللمس الحسي، وقد يفكك الأشياء إلى أجزاء مبعثرة فيكسرها أو يتلفها، كل ذلك يتم بدافع حب المعرفة والاستطلاع والاستكشاف، ومن خلال ذلك يكتسب خبرات عن العالم من حوله، ويوسّع مداركه، وهذا كله أساسي لنموه المعرفي والعقلي، وهو لا يفعله بهدف التخريب، ولكن لأنه لا يعرف كيفية التعامل الصحيح معها، ولذلك يستغرب إذا عاقبته على هذا (التخريب)، وربما تحرّى بعد ذلك أن يخفيه عنك.

والصحيح هنا أن نمكنه من استكشاف الأشياء تحت إشرافنا، كي لا يضر نفسه، ونضحي بما يمكن التضحية به من هذه الأشياء، أما الأشياء الثمينة أو الخطيرة عليه (كالأدوية)؛ فعلينا أن نبعداها عن متناول يده أو نخفيها^(١).

٢- والطفل الذي يبلى نفسه ليلاً قبل إتمامه السنة الرابعة ودخوله في الخامسة لا يُشخّص على أنه يعاني من (التبول اللاإرادي)؛ لأنَّ التبول اللاإرادي

(١) انظر: «الأمراض النفسية والعقلية والاضطرابات السلوكية عند الأطفال» للدكتور عبد المجيد الخليدي، والدكتور كمال وهبي، (ص ١٨٠-١٨٥).

هو: عدم قدرة الطفل على التحكم بالتبول ليلاً، في سن يُفترض فيه أن يكون لديه القدرة على ذلك.

وذلك لأن جهازه العصبي لم يكتمل نموه بعد.

فلا يعد التبول اللاإرادي مشكلة إلا إذا تكرر بعد سن الرابعة أو الخامسة على الأكثر.

ولا يصح أن تحاول الأم تدريب الطفل على التحكم في إخراج البول قبل سن سنة ونصف إلى سنتين؛ لأنَّ جهازه العصبي لم يكتمل نموه، ومحاولة تدريبه هنا تؤثر العلاقة بينه وبين أمه، ولا تجدي شيئاً.

٣- والطفل الذي يقوم بحركات حسية تزيد (جداً) عن الحد الطبيعي المعتاد، ويعاني من نقص الانتباه، وقلة التركيز، والاندفاعية المفرطة بحيث لا يفكر في عواقب حركته وقفزه، ولا يستطيع أن يجلس ويستقر بهدوء بل يتململ ولا يتحمل السكون طويلاً، وبالتالي يعاني صعوبات في التعلم، ولا يقدر على التأقلم مع الحياة في المنزل والشارع والمدرسة.

هذا الطفل مغلوبٌ على أمره، أي مريض وليس سويّاً؛ لأنه يعاني من حالةٍ نهائية تظهر بوضوح عند دخوله المدرسة، وهي حالة فرط الحركة مع نقص الانتباه (ADHD)، وليست مجرد (مشاغبة أطفال) أو (قلة أدب)، بل اضطراب نفسي يحتاج إلى العرض على المختصين لتشخيصه وعلاجه، عن طريق التدخل العلاجي المتعدد الأشكال بالأدوية، والعلاج السلوكي، والسلوكي المعرفي،

والعلاج الأسري، والتدخلات التربوية، أما العنف فلا يجدي معه، وقد يضاعف مشكلته.

٤- والطفل الذي يكذب في مرحلة الطفولة المبكرة (إلى ما قبل سن الخامسة) يكون واسع الخيال، فيحكي أحداثاً خيالية، وهذا الكذب مرتبط بعدم نموه الذهني والمعرفي، ولا تزال قدراته المعرفية تتكون، ولذلك يعجز عن التفريق بين الحقيقة والخيال، فيأتي بما يشبه أحلام اليقظة التي تبرز فيها طموحاته ورغباته التي لا يقدر على الإفصاح عنها مباشرة^(١)، وهذا قد ينشأ عن سماعه القصص الخيالية والأسطورية التي تُحكى قبل النوم، أو يراها في ألعاب الكمبيوتر وأفلام الأطفال.

فمثل هذا الطفل لا يُوصَفُ بأنه (كذاب)، وكل ما علينا أن نربطه بعالم الواقع بين وقتٍ وآخر.

وذلك لأن الكذب (الذي هو عملية متعمدة يقصد فيها الكاذب تزييف الواقع بقصد الغش والخداع أو الانتقام أو تجنب العقاب) لا ينطبق على هذا الكذب (الخيالي).

بخلاف طفل ما فوق السنة الخامسة من العمر.

٥- والطفل ذو الأربعة الأعوام الذي (يسرق) لا يُعاقب؛ لأنَّ هذه في الحقيقة ليست سرقة، ولكنها سلوك ناشئ عن قصور ذهني بسبب سنه الصغير؛

(١) مثال ذلك: طفل يتمنى أن يشتري له أبوه دراجة، فيخبر أخاه أن أباه اشترى له دراجة جميلة وسريعة، وأنها موجودة فعلاً فوق السطح.

إذ لم يَنْمُ لديه معنى ملكية الأشياء، ولم تتميز عنده حدود الملكية بوضوح، فهو يريد أن يملك كلَّ شيء يعجبه، ولا يستطيع التفرقة بين ما يخصه وما يخص الآخرين، فمثل هذا الطفل لا يعاقب ولا يُضْرَب ولا يُعَيَّر بأنه لصُّ سارقٌ، ولكن نعلمه مفهوم (الملكية الخاصة) بأن نخصص له أدواته الخاصة كفرشاة الأسنان، والسرير، والطبق، والملابس، واللعب، ونعلمه أن لكل فرد ملكية خاصة لا يصح أن تؤخذ منه بدون استئذان، ونشرح له ببساطة معنى الأمانة واحترام ملكية الآخرين، وكيف أنه يغضب إذا أخذ أخوه لعبته، ونقيس عليها أن أخاه أيضًا «يغضب إذا أخذت لعبته بدون إذنه».

٦- وقد يكون رفض الطفل لمذاكرة دروسه بسبب وجود مشكلة في نظره تستدعي إحالته على طبيب العيون، وذلك لأنه يشعر بإجهادٍ شديدٍ عند القراءة، ولا يهتدي لسبب ذلك، أو لا يستطيع التعبير عنه.

٧- وقد تكمن أسباب سلوكه السيئ وراء سوء معاملته في البيت أو المدرسة مما يعرضه للإحباط، والإهانات، والتعسف في استعمال السلطة التأديبية.

نفتش عن الأسباب للتفسير وليس للتبرير:

على أن البحث عن أسباب السلوك السلبي المتعمد إنما هو وسيلة لتفسيره، وليس لتبريره، فإن السلوك السيئ سيظل سيئًا ولكن حينما نتفهم أسبابه نكون أقدر على تخفيف منابعه واستئصال جذوره، وهذا لا يمنع من عقابه بسبب السلوك السيئ إذا كان عن قصدٍ وتعمُدٍ.

فإذا ضرب الطفل أخاه لأنه شتمه، نقول له: «أنت مُحَقٌّ في أن تغضبَ لأنه شتمك، وأنا أتفهّم موقفك، ولكنك عبّرتَ عن غضبك بطريقةٍ غير سليمة، فنحن لا نضرب، ولذلك ستُعاقب بالإقصاء المؤقت لمدة كذا، وإذا تكرّر منه هذا في مرة قادمة فعليك أن تشكوّه إليّ لأقوم بتأديبه».

الحادية والعشرون: ركز على سلوك سيئ واحد:

على المربي أن يُراقِبَ سلوكَ الطفل، ويحصر أهم السلوكيات المطلوب تعديلها، ثم يرتبها على حسب الأولوية، ويركز على عدد معين منها، ويبدأ بأهمها؛ لأنّ تحديد السلوك المستهدَفِ تقيّله، والتركيز عليه يزيد فعالية الإجراء العقابي، ويجعل الطفل أكثر محاسبة لنفسه.

ولا بُدَّ من اشتراك الوالدين معاً في تحديد السلوكيات المطلوب تعديلها، ففي السن بين (٣ : ٨ سنوات) يُختارُ (٣ : ٥) سلوكيات تُدَوَّنُ في ورقة، وتُرتَّب حسب الأولوية.

وفي السن بين (٨ : ١٣ سنة) يُختار (١٠ سلوكيات) تدوّن مُرتَّبَةً حسب أولويتها.

الثانية والعشرون: اربط العقاب بالسلوك السلبي:

لا بُدَّ أن تبينَ للطفل سبب العقوبة قبل مباشرتها وإيقاعها، ولماذا كان سلوكه خطأ؟ مع بيان آثاره الضارة، وتبيين السلوك الصحيح الذي ينجيه منها، وذلك بلغة واضحة سهلة تناسب عقلية.

وفائدة ذلك:

١- أن يُدرِكَ الطفل الارتباط بين السبب (سلوكه السلبي)، والنتيجة (العقاب)، فيفهم أنه يعاقب بسبب سلوكه، وليس لأن والده يكرهه، أو يتعسف معه.

٢- أن الطفل إذا لم يربط بين السبب والنتيجة التي تترتب عليه لن يفهم خطأه، وسوف يكرره.

وإن إقناعه بالطريقة التي ذكرنا يضمن لنا أنه لن يكرر السلوك السيئ بعيداً عن أعيننا، وكأن كل همّه أن لا يرى مُتلبساً به، وليس أن يتجنب الخطأ أصلاً.

٣- أن هذا الأسلوب ينمي عنده (ملكة الانضباط الذاتي) التي يميز بها بين العمل الحسن والعمل السيئ، وبهذا يستفيد الطفل من العقاب، وتحقق فائدته التربوية المرجوة.

مثال:

- أثناء تناوله الطعام أخذ الطفل الذي لم يتجاوز الثالثة ينثره حوله ويعبثُ به، فقررت الأم عقابه بأن حرمته من لعبته المفضلة.

لم يفهم الطفل هنا لماذا حرمته أمه من اللعبة، ولذلك كرر السلوك نفسه في اليوم التالي.

- أمّا الطفل ذو السنوات الخمس فقد تَمَادَى في اللعب بدراجه رغم أن أمّه نادته مرارًا كي يوقِفَ اللعب ويأتي لتناول طعامه، فلم يستجب لها. عاقبته الأم قائلة: «لن تركب دراجتك سائر اليوم؛ لأنّك لم تستجب لندائي مباشرة عندما ناديتك لتناول الغداء».

ولأنّ هذا الطفل استطاع أن يربط العقاب (الحرمان من الدراجة) بسببه (عدم استجابته لأمّه حين نادته)، استفاد من ذلك حيث طوّر سلوكه في المستقبل، وتعوّد على أن يستجيب لأمّه بمجرد مناداته لأول مرة؛ لأنه علم أنه إذا عاد لسلوكه السابق سيحصل على النتيجة المؤلمة.

الثالثة والعشرون: وَجّه النقد إلى سلوكه وليس إلى شخصه؛

يمكنك توصيف السلوك السلبي، لكن تجنّب المساس بشخصه، وإصدار أحكام عامة عليه، وذلك كي تفصل بين سلوك الطفل المزعج وبين ذاته وشخصيته، وأتبع التقويم السلبي لسلوكه ببيان السلوك الإيجابي المطلوب وتوجيه الطفل نحوه.

الرابعة والعشرون: وقت العقاب؛

تجنّب العقاب الطويل الأمد؛

لا بُدَّ أن تكون مدة العقاب محددة ابتداءً وانتهاءً، يحددها المربي، وهو الذي يعلن انتهاءها مهما تَمرّد الطفل أو تعجّل إنهاء فترة العقاب، ولا بُدَّ أن تُوقَّت بفترة زمنية محددة.

فإن عاقبته بالحرمان من اللعب فلا بُدَّ من تحديد وقت الحرمان (ساعة مثلاً)، وإن عاقبته بالإقصاء المؤقت فلا تسمح له بالانصراف قبل انقضاء المدة. أمّا العقاب الطويل الذي يمتد أمدّه ويصحبه التجهُّم والإعراض والهجر، وربما العتاب المستمر، فلا مكان له في التربية الصحيحة.

لا تعاقبه على مائدة الطعام:

لأنَّ هذا يُضعف شهيتَه، وقد يسبب ارتباطاً بين الطعام والألم.

لا تعاقبه وهو يدرس أو يذاكر:

لأنَّ هذا موقف تعلم ويحتاج تركيزاً وصفاء ذهنٍ، والعقاب هنا قد يسبب ربط التعلُّم بالألم.

لا تعاقبه قبل النوم:

فبعض الأمهات تصرخ في طفلها كي ينام، بل هناك من تقص على أطفالها قصصاً مرعبةً ظناً منها أن ذلك يساعدهم على النوم، وهذا من أسوأ الأساليب التربوية؛ حيث يسبب لهم الخوف والفزع الليلي والتبول غير الإرادي والكوابيس.

وربما أصدرت الأم الأمر بالنوم كنوعٍ من العقاب والإبعاد.

إنَّ وقت خلود الطفل إلى النوم يجب أن يكون هادئاً خالياً من الأجواء السلبية التي تربط النوم بالخوف والألم، بل يكون مفعماً بالحنان، والتعبير عن

الحب، وحكاية قصة مناسبة، وتربيت على صدره، وقبله على جبينه، ورقية شرعية، ومساعدته على الإتيان بأذكار النوم كي يَحْتَمَ بها يومه.

الخامسة والعشرون: لا تضاعف عليه العقوبة؛

فإذا أخطأ الطفل واستحقَّ العقاب فلا تجمع عليه نوعين من العقاب؛ كالحرمان من ميزة، والتوبيخ مثلاً، بل عاقبه عقاباً واحداً للخطأ الواحد. بل إذا أخطأ خطأً أحدث له بالفعل ألماً، فلا تعاقبه عليه، ويكفي الألم الذي وجده.

السادسة والعشرون: احذر أن تعاقبه بأثر رجعي؛

ركز وأنت تعاقب الطفل على: (هنا) و(الآن)، ولا تَقُل: ما دُمنّا في حالة عقاب؛ فلنستثمرها (بالمرة) بأن نستدعي الأخطاء السابقة، ونذكره بها، ونُعيّره بالقديم والجديد.

إنَّ أخطاء الماضي صارت تاريخاً، والتاريخ لا يعود إلى الوراء، فلا مصلحة في السفر إلى الماضي؛ لأنَّ كلَّ يومٍ تشرق شمسُه هو صفحة بيضاء جديدة متحررة من أثقال الماضي وأخطائه.

السابعة والعشرون: لا تستفزّه أثناء العقاب؛

بأن:

- تداعب وتضاحك غيره من إخوته أثناء عقابه.
- تقارنه بغيره: «انظر إلى أخيك كم هو هادئ ومؤدب!».
- التبكيت: «لو كنت سمعت كلامي؛ لم تكن الآن في هذا الوضع المزري».

الثامنة والعشرون: اضبط لغة جسدك وأنت تعاقبه:

الاتصال غير اللفظي (Non-Verbal) يشكل (٩٣٪) من الاتصال، في حين يشكل الاتصال اللفظي (Verbal) (٧٪) فقط، ولذلك عليك أن تنتبه إلى تعبيرات وجهك، وحركة جسمك ويديك، وسرعة كلامك، وجبينك المقطب، ووجهك العابس، وعينك المحمرة، إلى غير ذلك مما قد ينفر الطفل ويخوِّفه منك، ويشل القدرة على الحوار بينكما.

التاسعة والعشرون: لا تقتصر على التهديد دون التنفيذ:

إذا أخطأ الطفل فعلته، وشرحت له السلوك الصحيح، وأعطيته مهلةً ليصحح سلوكه، لكنه أصرَّ على الخطأ وكرره، هنا نلجأ إلى تهديده بالعقاب، لكن بشروط:

الأول: لا تهدد الطفل بعقاب لا يمكنك تنفيذه:

لا بُدَّ أن يكون العقاب الذي تهدد بإيقاعه به واقعياً، مستطاعاً بالنسبة لك وله، وقابلاً للتنفيذ.

فإذا قلت للطفل: «سأحرُّمك من اللعب لمدة شهر كامل»، فإنَّ هذا العقاب غير واقعي، ولن تستطيع تطبيقه، بخلاف ما لو قلت له: «أنت محروم من هذه اللعبة لمدة ساعة».

وإذا كنت تقود سيارتك بصحبة أسرتك، فأخذ أحد الأطفال يثير جلبه ويشاغب، فلا تهدده بأنه إن لم يهدأ فسوف توقف السيارة وتخرجه إلى الطريق، وتتركه وحده، ثم تكملون رحلتكم بدونه.

الثاني: إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع؛

تأكد دائماً أنَّ الفعل أو الكف الذي تكلف الطفل به في حدود قدراته الخاصة ولا يتجاوز إمكاناته، واجعل طموحاتك وآمالك فيه واقعية؛ لأنَّ تكليف الطفل بشيءٍ فوق قدراته مع التهديد بمعاقبته إن لم ينجزه، يشكل ضغطاً عليه، كما أنَّ الأطفال يملكهم القلق والخوف من الأخطاء إذا توقع منهم آباؤهم أن يكونوا مثاليين.

نعم من الجيد أن تعلق على طفلك آمالاً عريضة، وهذا يحفزّه ويشجعه، لكن بشرط ألا تتعدى النقطة التي عندها تصبح تلك الآمال غير واقعية.

الثالث: أن لا تهدده بشيء يضره؛

كالحبس في مكان مظلم، أو الحرمان الكامل من المصروف، بل تهدده بعقاب مقبول كالحرمان من ميزة أو شيء يحبه لفترة معقولة.

الرابع: أن لا تهدده بأمور وهمية؛

مثل الحبس في غرفة الفئران، أو استدعاء «أبي رجل مسلوخة»، أو «الغول»، ونحو ذلك، فإنَّ الطفل إذا صدّقك يتتابه الخوف والرعب، ويصبحُ جباناً، وإذا تحدّأك وعاند فسرعان ما يكتشف أنها مجرد خيال كاذب، وقد يسخر من المربي ويستهزئ به.

الخامس: نفذ العقاب مباشرة ودون تردد:

إذا تهاون الطفل، ولم يرتدع عن السلوك السيئ رغم تهديده بالعقاب، فعلى المربي أن يطبق العقاب فعلياً حتى يُثَبَّتَ للطفل مصداقية موقفه، وجديته في التهديد، كي يَأْبَهُ الطفل ويعتدَّ به، فيستجيب بالكف عن السلوك السلبي.

إنَّ المربي إذا أكثر من التهديد بالعقاب دون أن ينفذه يسيئ إلى النمو النفسي للطفل، ويغريه باستبقاء السلوك السيئ؛ لأنه لن يقتنع بجدية المربي في وعيده، فتترسخ فيه خصلة الاستهتار وعدم المبالاة بهذا التهديد العابر (العابث)، الذي سيمر بدون تنفيذ، مما يدفعه إلى الاستمرار في الإساءة.

تنبيه:

التهديد بالعقاب لا يستلزم تنفيذه دائماً، ولكن يمكن إخلافه أحياناً لمصلحة ترجُّح ذلك، بشرط أن لا نواظب على إلغاء العقاب مع تهديدنا فقط بإيقاعه، فيستجيب الطفل بأن يتهادى في خطئه معتقداً أنَّ التهديد مجرد كلام فارغ، فيستخف به.

الثلاثون: فورية العقاب بعد السلوك السيئ بدون تأجيل:

يجب على المربي إيقاع العقاب على الطفل بعد ارتكابه الخطأ مباشرة دون تأجيل مع بيان سبب العقاب، وإفهام الطفل أنَّ العقاب نتيجة السلوك السيئ حتى يتأكَّد أنَّ الطفل يربط بين السبب والنتيجة، وإلا فلو مرَّ وقتٌ بدون عقاب، فإنَّ الطفل قد ينسى الخطأ، فإذا عوقب لاحقاً ظنَّ أنَّ عقابه ظلمٌ ينافي العدل، وسيكون العقاب صدمةً له.

إنَّ هدفَ العقاب هو عدم تكرار الطفل سلوكه السلبيَّ في المستقبل، فهو يعدل سلوكه؛ لأنه يتوقع أن تتكرر العقوبة إذا كرر السلوك السلبي، فيتجنب السبب حتى لا يستقبل النتيجة، وكلما كانت العقوبة مؤثرة وقريبة من ارتكابه السلوك السيئ كلما ازدادت الاستجابة الجيدة من الطفل، وكلما تأخرت كلما فقدت تأثيرها في كف السلوك السلبي.

مثال: ضرب الطفل أخته، فتأخر رد فعل الأم، وأجَلَّت العقاب، فاندمج الطفل في سلوكٍ عارضٍ كاللعب مثلاً، فأقبلت عليه الأم توبخه، وهي بهذا ترسل له رسالةً مشوشةً ومختلطة، وسوف يتوقف عن اللعب، مع أنها كانت تقصد توبيخه على الضرب، وليس توقفه عن اللعب.

تنبيهان؛

الأول: من المواقف التي تستلزم تدخلاً مباشراً وسريعاً بدون أدنى تأجيل: تصرُّف الطفل بطريقة تُشكِّل خطراً عليه؛ كأن يباشر إشعال النار، أو يفلت من يد الأم في الشارع ويهرول مسرعاً إلى بحر الطريق، أو يضع مسامراً داخل أذنه أو عملة معدنية في فمه، أو يتسلق سور الشرفة.

فهنا يجب الإسراعُ لكفِّه فوراً عن هذا السلوك حفظاً لسلامته، ثم يعقب ذلك عقاب فوري مناسب إذا لزم الأمر.

الثاني: إذا كان المربي في حالة غضب شديد بحيث يمكن أن يتحول (التأديب) إلى (انتقام لنفسه وشفاء لغيظه)، فهنا لا يعجل العقاب، ولكن يتروى ويتمهل، ولو بأن يغادر المكان مؤقتاً إلى أن يهدأ غضبه، ثم يعاقبه تأديباً وتهذيباً مع إعلام الطفل بسبب عقابه.

الواحدة والثلاثون: من الخطأ تخصص أحد الوالدين في العقاب؛

الأصل أن المربي الموجود وقت وقوع السلوك السلبي هو الذي يتولى العقاب، سواء أكان الأب أم الأم.

والغالب أن الأب يكون في العمل خارج البيت، والأم هي التي تتولى التأديب أو العقاب بحكم وجودها في البيت مع الأطفال.

تأجيل عقاب الطفل إلى أن يعود أبوه؛

إن من الأخطاء التربوية الفادحة أن تقول الأم لطفلها الذي ارتكب خطأ سلوكياً: «حين يعود أبوك إلى البيت سأخبره بما فعلت، وسأجعله يعاقبك».

تشمل العواقب السيئة لتصرف الأم هنا الأطراف الثلاثة: الطفل والأب والأم.

أما الطفل:

١ - فإنه سيظل يعاني الخوف والقلق النفسي لساعات طويلة، خوفاً من العقاب الذي ينتظره، وفي هذا إطالة لأمر الألم الذي هو - في حد ذاته - عقاب نفسي طويل وممتد.

٢ - ذكرنا آنفاً أن تأخير العقاب إلى أن يعود الأب يقلل فاعلية العقاب في تعديل السلوك إذا باشره الأب بعد هذا الفاصل الزمني الطويل؛ لأنه بدلاً من الربط بين السلوك السيئ والعقاب (الفوري بعده) سوف يربط العقاب بحضور الأب، وليس بسلوكه السلبي.

٣- سيتعرض الطفل للتحقيق والاستجواب من قِبَلِ الأب حين عودته، بالإضافة إلى استجواب الأم، عقب حدوث السلوك السيئ، وفي هذا ضغط نفسي إضافي عليه.

٤- وقد تَسَبَّبَ عودة الأب مرهقاً نفسياً وبدنياً في إعراضه عن عقاب الطفل، فنكون هددنا بالعقاب، ولم ننفذه.

٥- وعند عودة الأب قد تشغل الأم وقد تنسى -بفعل التأجيل- أن تحبر أباه، وبالتالي لن يعاقب الطفل على سلوكه، وربما أغراه هذا بالتمادي فيه والاستهانة بالتهديد.

٦- وقد تحبر الأم الأب بخطأ الطفل، ولكن الأب يأبى عقابه، بل يُدَلِّلُه.

٧- تخصيص الأب بالعقاب مع تأجيله قد يُغري الطفل بتكرار الخطأ، وكأنه يفهم من هذا: أنه لا بأس من ارتكاب السلوك السيئ بشرط أن أخفيه عن الجميع، لا سيما الأب (المعاقب).

٨- قد يتسبب التخويف بحضور الأب بصورة مستمرة في إحداث فجوة نفسية بين الطفل وأبيه، وقد يدفعه إلى تجنُّب الاقتراب من الأب ما أمكنه ذلك؛ لأنَّ الأب ارتبط عنده بمشاعر الخوف والنفور، وربما الكراهية إذا كان العقاب قاسياً أو مهيناً، فيختل دور الأب التدعيمي للطفل، ويفقد التأثير بمواقف الأب الإيجابية.

أما الأم:

فإنَّ تصرُّفها يلغي شخصيتها أمام الطفل، فتبدو كأنها لا تقدر على إدارة المواقف في غياب الأب، وليس لديها سلطة ضابطة مما قد يتسبب في استهانة الطفل بتعليماتها، مع أنَّ المفروض أنه يطيع أمه كما يطيع أباه.

أما الأب:

فإنه بمجرد عودته إلى البيت منهكاً من العمل وأعباء التعامل مع الناس، متشوّفاً إلى الاسترخاء والراحة في بيته، سعيداً باجتماعه مع أسرته؛ إذا به مُكَلَّفُ بأن يُضغِي لشكاوى الأم من الطفل على مدار اليوم، ومكلف بأن يعقد محكمة منزلية، ويمارس دور القاضي الذي يوقع الجزاءات والعقابات على المخالفين، ثم دور (عسكري الشرطة) السيئ المتجهم العابس الذي قد تخصص في تنفيذ العقاب المؤجل.

والأنكى من ذلك أنَّ الأب إذا بدأ في مباشرة عقاب الطفل قد يُفاجأ بشفقة الأم وضعفها أمام دموع الطفل (المسكين) فتتدخل لحمايته من العقوبة، وهذا يدعم صورتها الحامية المدافعة الحنونة، أمام ذلك الأب القاسي المعتدي.

الثانية والثلاثون: حدد العقوبات الممكنة وخيِّره بينها؛

يمكنك أحياناً أن تشرك الطفل في تقرير نوع العقاب، فتخاطبه كما لو كان ناضجاً: ما نوع العقاب الذي تستحقه وقد ارتكبت هذا الخطأ؟

إنَّ هذا العرض يفتح فرصة للحوار بينكما والتفاوض حول عاقبة الخطأ، وبهذه المشاركة لن يشعر أنه ضحية، ويتحمل مسؤولية تصرفه، كما أنَّ هذا

الأسلوب يجعله يراقب تصرفاته جيّدًا فلا يكرر الخطأ نفسه، وينمي قدرته على الاختيار الذكي حتى في حال غيابنا عنه.

مثال: طلب الطفل كوبًا من الماء، فتقول له الأم: فإذا سكبتَه على الأرض؟ يجيبها: «خذي مني الكوب، ولا تُعطيني غيره» فهنا تدرّب الطفل على اختيار عقوبة منطقية تترتب على خطئه.

مثال آخر: أخطأ الطفل فأخبرته الأم أنه لا بُدَّ أن يعاقب، فتقول له: لديك خياران؛ إمّا أن تدفع غرامةً من مدخراتك، أو تغسل الأطباق بعد الغداء لمدة ثلاثة أيام.

الثالثة والثلاثون: الثبات على الموقف عند تطبيق العقاب (Consistency):

على المربي أن يحذر ازدواجية المعايير، وتغييرها من وقتٍ إلى آخر، ولا بُدَّ أن يُثبَّت موقفه التربوي تجاه السلوك الصحيح والسلوك السيئ في كل مرة، وأن يكون واضحًا ومحددًا، ويسأل نفسه: علام أعاقب؟ وعلام أكافئ؟ ومتى أتجاهل؟ فيتصرّف طبقًا لقواعد ثابتة، وليس طبقًا لحالته المزاجية.

إنَّ التذبذب والتردد بين الشدة واللين، والحزم والتجاهل، وعدم الثبات في التعامل مع السلوكات غير المرغوبة يشتت الطفل بين الصواب والخطأ، ويُحد من جدوى عملية ضبط السلوك، وتهتز مصداقية الوالدين في نظره، ويُفقد (القواعد المنزلية) هيبتها وتأثيرها في ضبط سلوك الطفل.

وتشير الأبحاث التي قام بها (كوبر سميث) ١٩٦٧م إلى أنَّ الأطفال الذين ينشؤون في بيئة ذات حدود واضحة يشعرون بشكلٍ أفضل نحو أنفسهم مقارنةً

مع الأطفال الذين ينشؤون في بيئات متساهلة أو بيئات أكثر سلطوية وعقابية وذات قوانين صارمة.

أصدر الأمر مرة واحدة، ولا تكررّه؛

- عوّد الطفل على أنك تصدر الأمر مرة واحدة بحزم وبدون تكرار؛ لأنّ تكرار الأمر يفقد الأمر جديته، فيماطل لأنه يشعر أنك غير جادّ فيه، بل قد يميل الطفل إلى اختبار مدى جديتك، فلا يتمثل الأمر لينظر ماذا ستفعل؟

كلما تكرر السلوك كرر العقاب؛

متى ما شرعت - لأول مرة -^{١١} في العقاب على سلوك ما، فإياك أن تتجاهل عقابه على السلوك نفسه إذا كرره مراتٍ تالية، لأنّ الطفل إذا أحسّ أنّ العقاب غير ثابت، فإنّ هذا العقاب يفقد مصداقيته ومفعوله.

ولا بدّ أن يتبع العقاب السلوك السيئ دائماً، ولا شيء أسوأ من أن تعاقب الطفل على سلوك سيئ في وقت ما، ثم تكافئه، أو تسامحه أو تتجاهله عند تكرار السلوك نفسه في وقتٍ آخر؛ لأنّ هذا التناقض يشوش على الطفل، فلا يدري أيّ السلوكين سليم ومقبول؟

فعلى المربي أن ينفذ وعيده إذا كسر الطفل قانوناً منزلياً تم الاتفاق عليه مسبقاً؛ مثل تحديد مدة اللعب باللعبة الإلكترونية بنصف ساعة فقط، فإذا تمادى وتجاوز الوقت؛ طبّق عليه العقاب المتفق عليه، ولا تتردد، ولا تخضع لإلحاحه كي لا يشك في جديتك، ويتوهم أنّ تحذيراتك مجرد كلام في كلام لا يعقبه تنفيذ.

(١١) أي أنك حاولت من قبل بالأساليب الناعمة، والتصحيح، والتجاهل، فلم تُجدِ شيئاً.

إنَّ عقاب الطفل بحرمانه من الأجهزة الإلكترونية لمدة يوم كامل، أو عقابه بسحب الهاتف الجوال منه لمدة يومين، أو تكليف بأعمال إضافية سيجعله يتحرى أن يحترم القواعد ولا يكسر القوانين المنزلية.

والمفترض أن احترام القانون أو القاعدة هو الأصل، أما الاستثناء فإنه يهدم القاعدة ولا يؤيدها، ويدعم السلوك السيئ إذا مر بدون تطبيق قاعدة العقاب.
من مواقف «عدم الثبات التربوي»:

١- عاقبت الأم طفلها؛ لأنه تعمّد سَكَبَ اللبن على الأرض، وفي اليوم التالي كرّرَ هذا الفعل، فلم تعاقبه.

٢- قررت الأم معاقبة الطفل؛ لأنه تَمَادى في مشاهدة التلفاز، وبسبب ذلك لم يؤدِّ واجباته الدراسية، فقررت أن تحرمه من مشاهدة التلفاز لمدة يومين، فأخذ الطفل يلح عليها بشدة، ويكرر الوعود بأنه لن يفعل ذلك ثانية، وأمام إلحاحه و(مسكنته) رضخت الأم، وتراجعت عن عقابه.

٣- بعد العقاب يعزز بعض الآباء السلوك السلبي دون أن ينتبهوا لذلك، حيث يتعاطفون مع الطفل المعاقب، ويُظهرون الندم على العقاب، ويتجهون إلى الطفل لاسترضائه وضمه وتقيله، والاعتذار له.

وهؤلاء نقول لهم: ما دام تصرّفك مدروسًا ومخططًا؛ فإيّاكَ أن تندم أو تتراجع أو تعتذر؛ لأنك بهذا تهدم ما بنيت بالعقاب التربوي.

وبدلاً من تعزيز السلوك السيئ بالتراجع والاعتذار؛ احرص على تعزيز السلوك المرغوب المقبول؛ لأنَّ هذا يحدُّ من النتائج السلبية للعقاب من جهة، ويساعد الطفل على التمييز الفارق بين ما هو مقبول وما هو مرفوض من جهة أخرى.

٤- شتم الطفل أخاه بلفظٍ بذيء، فعاقبته الأم، ولما كرر التصرف نفسه تجاهل الأب سلوكه.

أو: ضرب الطفل أخته وهي تلعب، فعاقبه الأب، وفي اليوم التالي كرر ضرب أخته في حضور الأم فتجاهلت ذلك.

هنا تعارض موقف الأبوين؛ حيث تعاملوا مع سلوكٍ سيئٍ واحد بأكثر من طريقة، فكيف يتسنَّى للطفل أن يميز بين السلوك السيئ، والسلوك المقبول؟ وأتى له أن يفهم جديتنا ويدرك مصداقيتنا فيما نقول؟

ومن هنا نقول: إنه يجب على الوالدين أن يتفقا فيما بينهما على أساليب الثواب والعقاب، وتحديد أسس (ثابتة) محددة في تربية الطفل وتوجيهه، دون تعارضٍ بينهما.

٥- ومن مظاهر عدم الثبات التربوي: أن يقع التناقض في الأسلوب التربوي بين البيت والمدرسة، كأن تمنع المدرسة من سلوكيات معينة، بينما يسمح بها البيت.

وهذا يؤكد أهمية وجود تعاون حقيقي بين البيت والمدرس للاتفاق على الأسلوب الأمثل في معاملة الطفل، واتباع سياسة واحدة لا تصادم فيها بين البيت والمدرسة.

المربي المثالي: طيبٌ محبٌ، ولكن حازمٌ وجادٌ؛

من الجيد للمربي - في موقف التأديب - أن يجمع بين إحساسه بمشاعر الطفل (= مشاركة وجدانية)، وتفهمه لموقفه، لكن مع الثبات على الإجراء التربوي والاستمرار في تنفيذه بدون تردد.

أمثلة:

- أعرف أنك لا تريد أن ترتب حجرتك، ولكني أسألك: علامَ اتفقنا من قبل بشأن هذا الالتزام؟

- أعرف أنك لا تريد النوم الآن، ولكنه وقت نومك، فهل تفضل قراءة قصة واحدة (Bed-Time Story) أم اثنتين؟

- أنا أعرفُ أنَّ مشاهدة الكرتون ألد من كتابة الواجب المدرسي، لكن أداء الواجب لا بُدَّ منه.

الرابعة والثلاثون: دع الطفل يُعبّر عن مشاعره؛

الطفل ككائن بشري تتنابه مشاعر كثيرة، بل انفعالات طبيعية؛ كالخوف والغيرة والغضب والحزن والقلق والإحباط، ولأنها طبيعية فلا بُدَّ أن نتركه - بل نشجعه - على التنفيس عنها، وفهمها، والتعامل الصحيح معها، ومجرد البوح بها يعينه على السيطرة عليها وعلى سلوكه.

و حين يبوح بمشاعره أصغ له في هدوء، واحترم مشاعره، وتقبلها، حتى لو كنتَ معترضاً أو رافضاً لسلوكه الناتج عنها.

- احرص على أن توجهه كي يتحدث عن المشاعر والموقف الذي أنتجها كليهما، سَمِّ المشاعر، وساعِده على التعرف على سببها.

مثال: «يبدو أنك قلق ومتوتر؛ لأن امتحانك غداً، وأنت لم تستعد له».

- قدِّم له الدعم المناسب؛ كالطمأنينة والنصيحة والاقتراحات:

فإذا كان يغار من زميله لأنه يملك حقبة أفضل من حقيقته، أو يحصل على مصروف أكبر مما يأخذ، سلِّه: «ما الذي تقترحه لحل هذه المشكلة؟»، فإن طلب اقتناء حقبة مثل حقبة صديقه أو رفع مصروفه، فهنا حالتان:

الأولى: إن كان بإمكانك منحه ما يريد؛ فطمئنه، ونفذ له ما يريد.

الثانية: إن كان هذا فوق طاقتك؛ فبين له ذلك، واشرح له أنَّ الحياة لا تعطيك دائماً كل ما تريد، وأنَّ على الإنسان أن يكون قنوعاً راضياً بما قسم الله له، ولا يتطلع إلى ما في يد غيره.

- دَرِّبه على ألا ينساق وراء مشاعره، وألا يبادر إلى تحويلها إلى سلوك أو رد فعل، ولكن يُتَّبِعْها توقُّفاً (Pause) من أجل التفكير بروية (Think)، ثم يقرر السلوك الذي يسلكه (Decide)، وبخاصة في (مشاعر الغضب) التي تحتاج إدارتها إلى تعلُّم وتدريب.

لا تجبره على الشعور بالسعادة؛

ليس من مهمة الآباء جعلُ الطفل يشعرُ بالسعادة، ولا إجباره على ذلك، بل عليه وحده أن يتعلَّم كيف يكون سعيدًا، لذلك دع الطفل يشعر بما في داخله بحُرِّية.

إنَّ الاعتراف بمشاعر الطفل -أيًا كانت- وإظهار أننا نُقدِّر هذه المشاعر، ونشعر بما يشعر به، يلبي حاجة إنسانية مهمة وهي «التعاطف» و«المواجدة»^(١)،

(١) المواجدة السليمة (Empathic Accuracy) أو المشاركة الوجدانية والفكرية (Mentalizing & Affect Sharing): هي مدى دقة شخص ما في استنتاج أفكار شخص آخر ومشاعره.

والمواجدة: من الوجد، وهو المعاناة الشعورية، بمعنى الولوج إلى وجدان إنسان آخر ومشاركته حياته معه من داخله، مع تمثّل وجداناته فأضع نفسي مكانه الآن، وأرى العالم من وجهة نظره، وأفهم حاجاته التي سببت مشاعره، كأني هو، دون أن أفقد إطارِي المرجعي (My own frame of reference) ودون أن أفقد ذاتي بأن أذوب فيه، فلست أنا هو، بل (كأني هو). والمواجدة هي الحضور (Presence) بكل ما فيك (الآن) فقط، مع استحضار أنني لستُ سببُ ألمه، ولا أنا المسؤول عن إصلاح هذا الألم.

ومن صور المواجدة أن ترى قومًا يبكون لأمرٍ ورَدَ عليهم، فتبكي معهم وأنت لا تدري لأي شيء يبكون.

يقول المثل العربي: «لك ما أبكي، ولا عِبرَة بي»، أي: أبكي من أجلك، ولا حزن لي في خاصّة نفسي، يُضربُ المثلُ للرجل يشدّ اهتمامه بشأن أخيه وإيثاره، ونحوه قول الراجز:

كانها نائحة تفجعُ تبكي بشجو وسواها المَوْجَعُ

ولمَّا زار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبرَ أمِّه؛ «بكى، وأبكى من حوله» رواه مسلم (٩٩٧).

وقال بريدة: «فما رأيتُ ساعةً أكثرَ باكيًا من تلك الساعة».

وفي قصة الإفك قالت أم المؤمنين عائشة الصديقة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «فبينا أبواي جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنتُ عليَّ امرأةٌ من الأنصار، فأذنتُ لها، فجلست تبكي معي»، و«لما دخل بلال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليؤذنه بصلاة الصبح فرآه يبكي، بكى» الحديث.

كما أنه يخفف وضعية «المقاومة» لديه، بل إنه خطوة فعالة في سبيل حل المشكلات، وتعديل السلوكيات، حيث إنَّ المواجهة يصاحبها الاهتمام المسؤول، والحب، والعناية الدافئة.

دعه يبكي!

بعض الأمهات يمنعن الطفل من البكاء وإظهار الاحتجاج على بعض الأمور، وهذا غير صحيح، فالتعبير عن الغضب ينهيه، وكنتم الانفعالات يسيء إلى العلاقة الطيبة بين الطفل وأمه، ولا سيما إذا أسكتته الأم عن طريق الضرب والتهديد.

ومن الآباء من يزجر الطفل عن البكاء قائلاً: «الرجل لا يبكي»، وهذا قولٌ زائف، فما أكثر ما بكى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(١) وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وعند إيقاع العقاب بالطفل أو بعده يجب أن لا نمنعه من البكاء، وفي الوقت نفسه لا نرضخ لبكائه إذا استحقَّ العقوبة فلنغلبها خوفاً من بكائه، لأنَّ عدم تنفيذ العقوبة يغريه بالتهادي في السلوك السلبي.

(١) وقد كان بكاءه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تارةً من خشية الله، وتارةً من سماع القرآن، وتارةً رحمة للميت، وتارةً شفقة لأُمته وخوفاً عليها، وقد جمع أخي في الله الأستاذ وائل حافظ خلف -حفظه الله- أخبار بكائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في «بكاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحزنه» طبعة دار الكتب العلمية -بيروت- ١٤٣٩هـ.

طفلي يضحك وأنا أعاقبه،

يضع هذا السلوك المربي في حيرة ومأزق؛ لأن رد فعل الطفل غير منطقي في نظره، بل هو عكس المتوقع من أنه يبكي مثلاً^(١)، فما الأسباب المحتملة لهذا السلوك الغريب؟

- ١ - لأنه متوتر وغاضب ولما يتعلم كيف يتحكم في عواطفه بطريقة ملائمة؛ بسبب صغر سنّه، كما أنه لم يفهم العالم من حوله، ولم يكتسب خبرات ومهارات اجتماعية كافية، فيلجأ إلى الضحك كوسيلة للتعامل مع موقفٍ صعبٍ، ولهذا ينبغي أن يتذكر المربي دائماً أن رد فعل الصغير يختلف عن رد فعل الكبير الناضج.
- ٢ - وربما حدث الضحك لأنه تفاجأ بشكلك وأنت غاضب، فلصداجته رآك شخصاً مضحكاً.

- ٣ - وقد يضحك بسبب شعوره بالعجز، فيحاول بذلك أن يتحكم في الموقف بطريقة.

(١) مما يجدر التنبيه إليه أن هذا النوع من الضحك يختلف عن حالة مشابهة تُدعى (Pseudobulbar Affect) أي (متلازمة التعبير العاطفي البصلي الكاذب)، وهي نوبات قهرية، غير إرادية، لا يمكن كبحها، انفجارية مفاجئة وغير متوقعة، شديدة ومبالغ فيها من الضحك أو البكاء أو هما معاً، وهذا السُّلْسُ -في التعبير الوجداني الظاهر- لا يتناسب مع الحالة الوجدانية الداخلية للشخص (mood)، وهذه الحالة تصيب الأطفال البالغين المصابين بمرض عصبي عضوي يتسبب في انقطاع أو ارتباك المسارات العصبية في المخ المسؤولة عن تنظيم التعبير الوجداني الظاهر (Affect) كما في حالات صدمة المخ، أو ألزهايمر، أو اضطراب نقص الانتباه المصحوب بفقرط الحركة، وغيرها.

٤- وقد يتخذ الضحك وسيلة للتعامل مع القلق والخوف من الأذى المحتمل الذي يغمره حين تلومه أو تشرع في عقابه.

٥- وربما يكتشف أَنَّ الضَّحْكَ يغيظ الأم فيلجأ إليه كوسيلة للانتقام منها واستفزازها، وكأنه يضغط على زناد الجنون لديها؛ ليشعرها بأنه لا يبالي بها ولا بعقابها، فأولى بها أن تتوقَّفَ عن العقاب؛ لأنه لا يُجِدِي معي.

٦- وقد يكون المربي مسرفاً في العقاب، ومع تكرره كثيراً يصبح الطفل غير آبه له، ولا مكترث به، فيواجهه بالضحك إعلاناً عن عدم المبالاة بالعقاب.

٧- وقد يكون الضحك إعلاناً (غير لفظيًّا) عن الثبات والصمود أمام العقاب وبخاصة إذا تمَّ أمام الآخرين.

فهذه طفلة قصّرت في واجبها المدرسي فأحالتها المدرسة -مع زميلات لها قصّرن أيضاً- إلى مديرة المدرسة، التي عاقبتها -بدورها- أمام زميلاتها وأمام مسؤولات في إدارة المدرسة، ومدرسات وعاملات، فعمدت إلى عصا غليظة مهيأة للعقاب، فبمجرد أن بدأت تضربها على كفيها بالتبادل ضحكت الطفلة -وسوّغت ذلك فيما بعد بأنها أرادت ألا يراها (المشاهدون) قد جزعت، وانهزمت، ولم تثبت أمام العقاب- فأقسمت المديرة على أن تظل تضربها بشدة إلى أن تبكي، فتحدّثها الطفلة، وصمدت رغم تألُّمها الشديد، ولم يتوقف الضرب العنيف المتتابع إلا حين أشفقت المديرة من تعرّضها للمساءلة لما رأت كَفِّي الطفلة وقد احمرّت، وتورّمتا بصورة أفزعت المديرة.

٨- وقد يلجأ الطفل إلى الضحك والمرح (Humor) أثناء العقاب بطريقة لا شعورية من أجل أن يحمي احترامه لذاته، كأنه لا يهتم ولا يبال بالعقاب، ولا يريد أن يُرى خجولاً أو مُحرجاً.

وربما كانت الحيلة الدفاعية هي الإنكار (Denial) فكأنه يشعر من داخله أنَّ الضرب لا يحدث له، وأنه لا يصدق أن هذا يحدث، بدليل أني أضحك.

٩- وربما استعمل الضحك على أمه وهي غاضبة كمخدر، ويقول في نفسه: «أنا لا أريد أن أحس بهذه المشاعر السيئة، ولا أستطيع تحملها»، وكأنه يُخدِّر نفسه بالضحك كي لا يشعر بالعار أو الألم من سلوكه، مع أنه يُحسُّ بالألم.

ماذا تفعل الأم في هذا الموقف؟

أولاً: أن تستحضر أن هدف التربية بالعقاب هو تعليمه الانضباط وتعديل سلوكه، وليس الهدف أن يبكي، ولا أن نعطي الأولوية لرصد رد فعله.

ثانياً: أن لا تقفز الأم مباشرة إلى تفسير ضحكه -وهي تعلمه الانضباط- بأنه لا يحترمها، أو أنه يسخر منها، خصوصاً وأن بعض الأطفال لا يعرفون أصلاً لماذا جاء رد فعلهم بهذه الطريقة.

ثالثاً: يمكن في بداية حصول هذا الضحك أثناء التأديب أن تتجاهله الأم وتعرض عنه؛ لأن مواجهته بالأمر بالكف عنه أو تحري سببه قد يعزز هذا السلوك.

أما إذا تكرر، ولم يكن سلوكًا عابرًا:

فلا بُدَّ من مواجهته والتعامل معه؛ لأنَّ الاستمرار في تجاهله يعني لديه السماح باستمراره، وبالتالي يتحوَّل إلى عادة لا يدرك أنها سيئة، واستمراره سيسبب له إخفاقًا في التواصل ليس فقط مع والديه، ولكن مع الآخرين من المدرسين وغيرهم.

رابعًا: إذا كان الطفل غضبان فلن يمكنه أن يفكر ويستخدم المنطق، وهنا تربيته حتى يهدأ، ثم اتَّبعي الخطوات التالية:

١- أعيدي سرد الموقف الذي حدث، بدون إصدار أحكام، ثم توقَّفي لتتظري استجابته، وهذا الأسلوب يقلل من احتمالية تَبَنِيهِ للموقف الدفاعي.

٢- اشرحي له كيف أنَّ الناس في بعض الأحيان يفسرون تصرُّفَكَ بطريقةٍ لا تقصدها، فضحكك أثناء العقاب قد يفسره الآخرون بأنَّك لا تحترم والدتك، ويرونه سلوكًا غير مقبول.

٣- عبري له عن مشاعرك بصراحة ووضوح، كأن تقولي: «حينما تقابل عقابي إياك بالضحك؛ فإنَّ ذلك يُغضبني ويحزُنني؛ لأنَّ هذا معناه أنَّك لا تبالي بي، ولا تهتم بمشاعري، حيث أكون غاضبةً وحزينةً وأنت سعيدٌ تضحك، وهذا يؤلمني ويؤذيني».

٤- ثم تعمِّمِ الدرس وتقول: «وهذا ليس شعوري وحدي، ولكنه شعور مؤلم لأي شخصٍ تسلك معه هذا السلوك، وقد يستدعي العقوبة».

٥- «وإذا كررت هذا الفعل فسوف تُعاقب على سلوكك الأصلي، مضافاً إليه عقابٌ على الضحك أثناء العقاب، والقرار بيدك، فإن تماديت في سلوك الضحك فأنت مسؤول عن العقاب الذي ينالك بسببه، لكن يمكنك النجاة من العقاب بأن تتوقف عن الضحك، فالقرار بيدك، وأنت مسؤول عنه».

٦- وبمرور الوقت سيتعلم كيف يأتي برد الفعل المناسب لكل موقف، وبخاصة إذا كررت عليه أن الضحك ليس هو التصرف الملائم عند تأديب الأبوين إيّاه، وشرحت له الطريقة الملائمة للتعبير عن مشاعره.

تنبيهان:

الأول: أثناء شرحك للقواعد المنزلية لا تقتصر على بيان ما يجب فعله، بل اقرن ذلك بما ينبغي له أن يتجنبه، مثل تصرف يعني عدم احترام المربي (كالضحك أثناء العقاب).

الثاني: من المهم المواظبة على إظهار حبك للطفل والتعبير عنه لفظياً وجسدياً، حتى لو أنكرت عليه سلوكه السلبي، وعاقبته عليه.



قواعد ما بعد العقاب

إنَّ عقاب الأطفال لا يُقصدُ لذاته، ولا يُقصدُ منه الانتقامُ أو القصاص كما هو الحال مع المكلفين، وإنما هو وسيلة إلى نتائج مَرَجوة في الإصلاح والتهذيب. والمنهج التربوي السليم يقتضي التزامَ شروطٍ وضوابطٍ مسبقة تتقدم عملية العقاب، لا بُدَّ من استيفائها، ويقتضي أيضًا ضوابط لاحقة تتلو عملية العقاب، وتمتد بعده لتشمل المتابعة، وإعادة التقويم، وتعزيز النتائج الإيجابية، وتجنب الآثار السلبية، في إطار من المرونة المنافية للجمود. ونعرض فيما يلي ما ينبغي على المربي ملاحظته عقب إيقاع العقوبة التربوية.



الخامسة والثلاثون: علِّمه أن يعتذر بعد العقاب؛

من واجبنا أن نُعلِّمَ الطفل أن يعتذر، وعلينا أن نشجعه على ذلك؛ لأن الاعتذار أمرٌ مهم جدًا في منظومة العقاب، ولكن بعد توقيع العقوبة، وليس قبله؛ بمعنى أن جزءاً مهماً في توصيل رسالة العقاب التربوية هو الاعتذار؛ حتى يترسَّخ في ذهن الطفل سبب العقاب، ويكون الاعتذار هو التعبير العملي عن وصول رسالة العقاب إليه؛ أي أنه عرف خطأه ولذلك يعتذر عنه، وقد دفع ثمن هذا الخطأ، وهذا ما لا يحدث في حالة الاعتذار قبل وقوع العقاب، وبالتالي لا يصبح لهذا التهديد بالعقاب أو عدم الاستمرار في إنفاذه أي أثر تربوي، فيعود الطفل للسلوك السيئ نفسه.

السادسة والثلاثون: شجّعهُ على استبقاء الحب والأمان؛

وبعد تجربة العقاب يشعر الطفل عادة برغبة في التسلل إلى أحضان من أنزل به العقاب من والديه؛ حتى يستشعر استرداد الحب والأمان، ويجب تشجيعه على ذلك والترحيب به، والتأكيد على أن الغضب كان من سلوكه الخاطيء، وليس من شخصه، ونشرح له كيف يمكن أن يتفادى الوقوع في الخطأ مرة أخرى، وبعد الاعتذار نبدأ بتلقيه السلوك السليم المناسب؛ فهذا أفضل وقتٍ لذلك بعد أن هدأ الوضع بيننا، وعاد كلٌّ منّا لنشاطه العادي.

السابعة والثلاثون: كافئه على أول سلوك إيجابي يفعله؛

العقاب لا يُعلّم الأطفال استجاباتٍ إيجابيةً بديلةً، وإنما يساعده على الكف عن السلوك غير المرغوب الذي عُوقب عليه، والثواب يُستخدم لإثباته على هذا الكف، فينبغي الجمعُ بينهما تعزيزًا للعقوبة، بأن يُكافأَ الطفلُ مباشرةً -بعد العقوبة- على أولِ سلوكٍ إيجابي يصدر عنه، ومن ثمرة هذا أن يُجَمَّلَ صورةُ المُربّي في نفس الطفل، بعد أن كان مصدرَ ألمٍ ومعاناة، ويؤكد للطفل أن المربي ما أراد من عقابه إلا خيره وإصلاحه.

الثامنة والثلاثون: عامله -بعد العقاب- معاملةً طبيعية؛

إنَّ العقاب محدود، ويجب أن تكون آثاره محدودةً كذلك بأن ينتهي العقاب بانتهاء الموقف الذي أدى إليه، وما دام العقاب قد انتهى، فيجب أن تعودَ الأمور لطبيعتها، ويعاملُ الطفلُ معاملةً طبيعيةً، ولا ينبغي أن يستمرَّ العقاب متّصلاً ساعاتٍ طويلاً أو أياماً متوالية في صورة جفاء وبرود عاطفي، أو غضب

أو توبيخ وعتاب، أو تعيير من طرف الوالدين؛ لأنَّ هذا قد يؤدِّي بالطفل إلى أن يعافَ البقاءَ معها، وإلى الميل إلى اعتزالهما، وتجاهلها، والهرب منها.

إنَّ التهادي في العقاب النفسي بالتوبيخ واللوم والعتاب، وتكرار ملاحظته بذنبه بعد إيقاع العقاب البدني - وكأنَّ ما اقترافه من خطأ عارٌ سيظل ملتصقاً به، ولن تزيله عنه عقوبة، ولن تطهره توبة - سوف يشبطه عن تعديل سلوكه، ويشكل عبئاً نفسياً ضاعطاً عليه، ويضاعف الإرهاق النفسي والضغط الاجتماعي الناتج عن العقاب.

وإذا كان الشرع الإسلامي الحنيف قد رَسَّخَ - في باب إقامة الحدود على ارتكاب كبائر الذنوب - مفهوم: «أنَّ من عُوقِبَ يعودُ مُطَهَّرًا من ذنبه، ولا يجوز لأحد أن يُعَيِّرَهُ به، وأنَّ الباب مفتوحٌ له على مصراعيه كي يبدأ صفحةً جديدةً، متحرراً من «عقدة الذنب»، مؤملاً أن يستقيم فيما يأتي، ويصحح سلوكه، فما بالك بالطفل الذي رُفِعَ عنه قلمُ التكليف، فلا تُكتب عليه سيئةٌ، وإنما يعاقب عقاباً تربوياً يصب فقط في مصلحته؟!»

لقد قال رسول الله ﷺ في حقِّ الرجل الذي كان يُؤْتَى به كثيراً وقد شرب الخمر: «لا تلعنوه؛ فوالله ما علمتُ إلا أنه يحب الله ورسوله»^(١)، وصلى بنفسه ﷺ على المرأة الغامدية بعد إقامة الحد عليها، ونهى عن لعنها، وقال في الأمة الزانية: «إذا زنت أمةٌ أحدكم فتبينَ زناها، فليجلدها الحد، ولا يثرَبَ عليها» الحديث.

(١) انظر تخرجه (ص؟؟؟).

وحينما أخطأ أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا واشتدَّ عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العتاب على قتله ذاك الرجل، لم يمنعه ذلك أن يعينه قائدًا على الجيش، ولم يستدله بخطأ وقع فيما مضى، أو يحاصره به فيما يأتي.

وتأمل هذه القصة التي تحكيها ابنةٌ تبلغُ الرابعةَ عشرةَ من عمرها: «أذكرُ في إحدى المرات أنَّ والدي عاقبني لعدم استخدام وقتي استخدامًا سديدًا ولإضاعتي للوقت، وقد كان عقابي هو عدم مشاهدة التلفزيون لمدة أسبوعين، وأحسست في ذلك الوقت أنَّ هذا عقاب غير عادل، ولكنني الآن عَرَفْتُ أنه كان درسًا عظيمًا لي.

لقد كنتُ أشاهد التلفزيون أنا وأختي الصغرى لمدة تقرب من ساعتين، ولم نُصَلِّ المغرب، وعندما عَرَفْتُ أُمِّي بذلك طَلَبْتُ مِنَّا أداء صلاة المغرب، ثم منعتنا من مشاهدة التلفزيون لمدة أسبوعين عقابًا لنا.

خلال هذه الفترة كان والداي يتعاملان معي بطريقةٍ طيبةٍ جدًّا، ويمنحاني العناية والرعاية والدعم وكلَّ احتياجاتي الأخرى، ولم يكررا تذكيري بذنبي وخطئي الذي ارتكبته.

أعتقد أنَّ هذا العقاب قد نجح كثيرًا في إعطائي درسًا مفيدًا وقيمًا، إنه لم يكن عقابًا شديدًا وقاسيًا، ولكنه كان عقابًا مناسبًا للذنب الذي ارتكبته، وفي الوقت نفسه لم أفقد حب وعطف والداي أثناء فترة العقاب، مما جعلني أقتنع تمامًا أنَّ العقاب ليس انتقامًا مني أو كرهًا لي، ولكنه تقويمٌ للخطأ الذي ارتكبته، وأعطاني درسًا لن أنساه؛ أنَّ لكل عملٍ عواقبَ تترتب عليه في الحياة».

التاسعة والثلاثون: لا تشعر بالذنب بعد العقاب، ولا تعتذر للطفل عنه ما دام موقفك مخطئاً ومدروساً؛

ما دام العقاب التربوي قد تمَّ بالشكل المناسب، وفي الوقت المناسب وفقاً لضوابطه، فلا ينبغي للمربي أن يطارده الشعور بالذنب ويهزَّ أعماقه الندم؛ لأنه عاقب الطفل، بل يكون واثقاً من قراره، وأنه أتى في الموعد الصحيح، وبالطريقة التربوية الملائمة بهدف إصلاح سلوك الطفل، فلا يليق أن تصل هذه الصورة المهتزة المترددة إلى الطفل حتى يبدو له كأنَّ أباه هو الذي أخطأ، وأنه الذي يستحق العقاب لأنه عاقبه، وهذا الموقف الحازم مطلوبٌ من كلا الأبوين، وإلا فإنَّ ثمرة العقاب تتلاشى إذا أبدت الأمُّ مثلاً ندمها أو اعتذارها عن العقاب الذي أوقعه به الأب.

أمَّا من يحتاج إلى الاعتذار لأبنائه حقاً فهو الأب الظالم الذي درج على عقاب أبنائه بأساليب عنيفة قاسية مهينة لا تُقرُّها الشريعة الحنيفة، ثمَّ هداه الله إلى تعلُّم أساليب العقاب التربوي المنضبط، فجديرٌ بمثل هذا أن يُصارح أولاده بشفافية^(١) بأنه كان مخطئاً، وأنه قد عزم من الآن على أن يصحح طريقة تعامله مع أخطائهم، ويحثهم على مشاركته والتعاون معه من أجل استئناف أسلوب جديد لتصحيح ما مضى، وتحقيق انضباط الأبناء من خلال بناء التزام جديد من الطرفين.

(١) وإذا وجدَ في الاعتذار المباشر لولده مشقةً فيمكنه إرسال رسالة مقرونة بهدية، أو يستعين بالأم كي توصِّل اعتذاره.

وفي هذا منفعة للأب؛ إذ تستريح نفسه، ويتحرر من الذنب، ويتحسن مزاجه، ويشعر بالرضا، كما أنه يقدم لأبنائه أسوة حسنة؛ حيث يتبنون الأسلوب نفسه إذا أخطؤوا.

الأربعون: تكرار العقاب واعتياده يسلبه قيمته التربوية؛

العقاب لا يقع إلا عند الضرورة، فأخِر الدواء الكي، ولا يصح أن نفرغ إليه كإجراءٍ أوَّلٍ كُلِّما أخطأ الطفل، ولا بُدَّ من تباعدٍ زمنيٍّ بين «جُرعات» العقاب. وبعضُ الآباء والأمهات يحسبون أن عليهم معاقبة أطفالهم على كل هنة وكل هفوة كما يعاقبونهم على عظام الأمور، فتراهم في يومهم كله ينتقلون من عقابٍ إلى عقاب؛ من زجرٍ إلى تهديدٍ إلى ضرب... فلا تكادُ تمرُّ ساعةٌ من اليوم بغيرِ عقابٍ أو تهديد بعقاب!

وإذا تعودَ الطفلُ على تَلَقِّي العقاب بصفةٍ مستمرة، فإنه لن يُحدثَ تغييرًا إيجابيًا في سلوكه، بل يحدث «تطبيع» مع العقاب، فيتقبله، ويتحمل آلامه، ويتكيف معه، ويعجز عن الربط بين السلوك الممنوع وبين العقاب، فتتكرر أخطاؤه، ويفقد العقاب قيمته، بل قد يؤدي اعتياده إلى التماهي والجرأة وفساد الحال، ويقول المثل الشامي: «كثرة الدَّقْ تُفْكُ اللحم»^(١).

(١) ومن ثَمَّ فإنَّ التهديد بالعقاب مُقدَّمٌ على إيقاعه فعليًّا؛ لأنَّ الأول يبقى الرهبة منه في نفس الطفل، فالتهديد بالمقاطعة يُرَوِّع الطفل، أما المقاطعة الفعلية فسيُتعوَّدها إن تكررت، والتهديد بالحرمان موجه، والحرمان الفعلي موجه كذلك في مبدأ الأمر، ولكنه إن طالَ تعوُّدُته النفسُ، وفقدَ تأثيره، والتهديد بالضرب مفرع، أمَّا الضرب الفعلي فهو موجهٌ في البدء، عديم التأثير في النهاية، ولذلك جاء في الحديث: «عَلِّقُوا السُّوطَ حَيْثُ يَرَاهُ أَهْلُ الْبَيْتِ؛ فَإِنَّهُ لَهُمْ أَدَبٌ» انظر تحريجه: (ص ٤٩٧). =

إنَّ العقاب الرادع حقاً هو الذي يُستعملُ نادراً؛ لأنه إذا تكرر كثيراً يفقد تأثيره في النهاية، وكلما ازدادت حكمة المربي كلما قلَّ احتياجه إلى العقاب.

الواحدة والأربعون: لا تكرر العقاب نفسه في كل موقف؛

إنَّ التزام نوع واحدٍ من العقوبة والاقتصار عليه، يُفقدُه قوَّته وتأثيره بسبب تكراره؛ لأنَّ الطفل يعتادُ عليه، ولكي نتجنبَّ التكرار لا بُدَّ من تغيير نوع العقوبة من وقتٍ إلى آخر، ومن ظَرْفٍ إلى آخر.

الثانية والأربعون: إعادة تقويم العقاب طبقاً لمدى تأثر الطفل به؛

لا ينبغي للمربي أن يجمد على نوع العقاب وحجمه، بل لا بُدَّ -بعد أن يتم عقاب الطفل- من إعادة تقويم موقفه طبقاً لدرجة تأثر الطفل به.

ينبغي قياس درجة السلوك السلبي؛

قبل العقاب وبعده للتأكد من فاعلية العقاب وجدواه، فإذا تبَيَّنَ المربي أنَّ وسيلة عقابية ما لم تحقق الغرض منها، وهو تقويم السلوك والانضباط، فعليه أن يَعِدَلَ عنها إلى غيرها إذا غلب على ظنه أنها تفي بهذا الغرض؛ لأنَّ الوسائل منوطة بالمقاصد شرعاً وعقلاً وعرفاً.

ومن أسباب تغيير العقوبة ردُّ فعل الطفل تجاهها؛

إنَّ هدف العقوبة التربوية هو التأديب والإصلاح، وبين الأطفال فروق فردية عضوية ونفسية يتفاوت بسببها ردُّ فعل الطفل المعاقب.

= إنَّ أمد التربية طويل ممتد، ومن حكمة المربي أن يتدرج في العقاب، وسلَّم العقاب ينتهي بسرعة إذا قفرت إلى آخر درجة فيه، فإذا استنفدت لم يبق أمامك غيرها، وقد ركبت «أكبر ما في خيلك».

فإذا وجد -المدرس مثلاً- طفلاً تسبَّب العقابُ له في حالةٍ من عدم الاتزان، فأصابه هلعٌ وفزعٌ، ورعبٌ وذعرٌ وخوفٌ، ربما يدفعه إلى الهروب من المدرسة؛ فهنا يجب تغيير استراتيجية التأديب، وقد نُحِلُّ هذه الحالة بقدرته -مثلاً- على ضبط إخراجِه، فيبول على ثيابه أو يتغوّط، وهذا إذلال يعارض كرامته الإنسانية، وما أروَعَ الشريعة الإسلامية التي لم تتهاوَن في مثل هذا! بل ربَّتْ عليه عقوبةً رادعة؛ يقول الدكتور عدنان حسن باحارث -حفظه الله-:

«والشارع الحكيم لم يأذن للمعلم، ولا للإدارة المدرسية أن تصلَّ بالعقوبة البدنية إلى حدِّ الفزع المرعب، الذي يُفقدُ التلميذَ مشاعره، ويُحِلُّ بقدرته على ضبط إفرائزِه؛ فإنَّ المعلم إذا أَرهَبَ التلميذَ بالعقوبة وأفرعه بها حتى أحدث في ملابسه: فإنه يُغرِّم ثلث الدية، وفي مثل هذا يقول ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ: «من ضرب إنساناً حتَّى أحدث؛ فإنَّ عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قضى فيه بثلث الدية... سواء كان الحدث ريحاً، أو غائطاً، أو بولاً، وكذلك الحكم فيما إذا أفرعه حتى أحدث»^(١)، ونُقِلَ أَنَّ عُمَرَ ابْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَرْسَلَ إِلَى امْرَأَةٍ قَدْ اشْتَبَهَ فِي سَلُوكِهَا، فَلَمَّا بَلَغَهَا رَسُولُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ارْتَعَدَتْ، وَأَلْقَتْ جَنِينَهَا مِنْ بَطْنِهَا فَرْعًا، فَدَفَعَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دِيَةَ الْجَنِينِ^(٢).

وأعجبُ من هذا في خبر عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رجلاً كان يَقْصُصُ له شاربِه، فأفرعه عمر عن غير قصد، فصرط الرجل، فقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أما إنَّا لم نُردْ هذا، ولكن سنعقلها -يعني ندفع ديتها-»^(٣) فأعطاه أربعين درهماً...^(٤)، فإذا كان هذا

(١) «المغني» (٩/ ٥٨٢).

(٢) «فقه عمر بن الخطاب» (٢/ ٧٨-٨٠).

(٣) «النهاية» لابن الأثير (٣/ ٢٧٨).

(٤) «المحلى» (١١/ ٩٥).

شأن التشريع الإسلامي في التلطف بالكبار البالغين، والحزم مع المتجاوزين، ولو كان ذلك منهم في حالات عَفْوِيَّةٍ غير مُتَعَمِّدَةٍ، فكيف تراه يكونُ حزمه في حال الصغر غير المكلفين، مع قصد الإساءة، وتعمُّد الإرهاب؟!^(١) اهـ.



(١) «عقوبة التلاميذ البدنية» (ص ١٧٣).

الباب الثالث

العقاب المرفوض

يمارس بعض المربين أنواعًا من العقاب تندرج تحت مصطلح الإساءة إلى الأطفال (Child Abuse) أو العنف المنزلي (Domestic Violence)، وهذا وجه من العملة، أما الوجه الآخر منها السلبي فهو الإهمال (Neglect).

ونعرض فيما يلي صورًا من العقاب المسيء المرفوض التي يمارسها بعض الآباء أو المعلمين، والتي تطبع آثارًا سيئة على الأطفال والتلاميذ.

النوع الأول

عقاب الطفل بحرمانه من الاحتياجات الأساسية

- لا يصح أن يُعاقب الطفل بحرمانه من الاحتياجات الأساسية^(١) مهما كان الخطأ الذي ارتكبه، وفي مقدمتها الاحتياجات الفسيولوجية كشرب الماء، والطعام، والنوم، وذهابه إلى دورة المياه متى ما احتاج إلى الإخراج.
- في ولاية أمريكية عاقبت الزوجة ابن زوجها ذا العشر السّنات بحرمانه من شرب الماء لمدة خمسة أيام متواصلة في طقسٍ مرتفع الحرارة جدًّا، وكان يستغيث بتوأمه كي يسقيه، لكنّه خشي عقوبتها إن هو أغاثه، حتّى مات الطفل من العطش، وقد حُكِمَ عليها بالسجن لمدة (٨٥ سنة)^(٢).
- ولا يصح أن يعاقب بالحرمان الكلي^(٣) من مصروفه الذي اعتاد عليه، والذي يُشبع من خلاله احتياجاته الأساسية؛ لأن حرمانه منه كلّ قد يُلجئه إلى السرقة أو التسوّل من زملائه.



(١) لكن يمكن معاقبة الطفل بحرمانه من الامتيازات، كترهه مع أصدقائه، أو ألبابه التي يلعبها، أو تقليل وقت لعبه بها.

(٢) 10 Parents who took punishment way too far (Youtube.com).

(٣) لكن يمكن معاقبته بخصم جزء من مصروفه كعقاب، وبخاصة إذا أفسد شيئًا أو كسره، ليسدد ثمن شراء بديله على شكل أفساط من مصروفه ليتحمّل عاقبة فعله.

النوع الثاني

عقابه بطرده من المنزل

الطرد من البيت أقبح صورة من صور (الإهمال)؛

يشترط في العقاب التربوي أن يكون متوازنًا مع المرحلة العمرية للطفل، ومستوى وعيه، كما يشترط أن يكون تأثير العقاب إيجابيًا، وألا يترك أثرًا سلبيًا في نفس الصغير.

والهدف من العقاب التربوي إشعارُ الطفل بأن سلوكه الخاطئ مرفوض، والعملُ على الحدّ من هذا السلوك وإيقافه.

وعقوبة (الطرد من البيت) أو التهديد بذلك من العقوبات الجسيمة التي لا تستوفي أيًا من الشروط المؤمى إليها، ولا تحقق هدفًا تربويًا؛ لأنها تطبع أثرًا عميقًا في نفس الابن، وتضر بثقته في والده، وتسبب تداعياتٍ سلبية على سائر أطراف الأسرة.

ولذلك لا يوجد في قاموس علوم التربية ما يدعيه بعضُ السفهاء من أنه إنما يطرد الطفل؛ كي يجبره على أن يتحمل مسؤولية نفسه، ويواجه صعوبات الحياة وتحدياتها؛ حتى يصير رجلاً!!

وإنما الذي يوجد في قاموس علوم التربية هو اصطلاح الإهمال (Neglect) وهو تعبير يصف جريمة طرد الطفل من المنزل بدقة، حيث يوجد الطفل خارج البيئة المنزلية دون تلبية حاجاته الأساسية التالية:

١ - حراسة فطرته الإسلامية من التغيير، وتربيته وفق المنهج الإسلامي، وتنشئته كمسلم وعبد لله صالح.

٢ - ضمان توفر المأوى الآمن.

٣ - توفير الغذاء.

٤ - الالتحاق بالدراسة من أجل التعليم وتنمية قدراته.

٥ - الحماية من العنف والإساءة والاستغلال.

٦ - توفير الرعاية الطبية والوقاية من الأمراض.

والأصل أن البيت هو الحاضنة التي تضم الأبناء وترعاهم إلى أن يشبوا ناضجين قادرين على رعاية أنفسهم بصورة مستقلة، والأصل أن يلزم الأبناء بيتهم ويحبوه ويأووا إليه، لا أن يفروا منه أو يُطردوا عنه.

من احتياجات الطفل: الشعور بالأمن والأمان؛

فلا بد أن يستقر في وجدانه أن البيت بيته ومستقره، وهو جزء من الأسرة، وهذا أمر غير قابل للاهتزاز أو التهديد، ويُمنع بتأتا ربط بقائه في (بيته) بنوع سلوكه مهما كان سيئاً.

أمور تهدد شعور الأبناء بالأمان؛

١ - تهديده بالطرد خارج البيت، أو طرده بالفعل.

٢ - تهديده بأن يُلحق بمدرسة داخلية للتخلص من (شقاوته).

٣ - هروب الطفل من المنزل.

٤ - أن يهدده أحد والديه بأنه سترك المنزل ويغادره بلا عودة.

٥- أن يُهدّد بطلاق أمه.

٦- أن تهدده الأم مثلاً بأنها ستتركه وحده في السوق، إذا لم يكف عن الصراخ^(١).

ترك أبوان يابانيان طفلهما ذا السنوات السبع في غابة مليئة بالدببة؛ عقاباً له على ضرب السيارات بالحجارة، ولما عادا وجداه قد اختفى، فاستعاننا بالشرطة التي جنّدت خمسين ومئة شخص لمحاولة العثور عليه، إلى أن عثروا عليه بعد اختفائه بستة أيام في معسكر للجيش يبعد ستة كيلو مترات عن المكان الذي ترك فيه وحيداً.

وزر الأب الجاني على ولده بالطرد؛

إن طرد الابن من البيت إعلان من الوالد أنه فشل تربوياً، بل أفلس من خيارات الضبط والتهديب المتعددة، والتي تكون تكلفتها أقل بكثير من الخسائر الفادحة التي تعقب الطرد، وها هو ذا يهرب من مواجهة مسؤولياته التربوية، ويقذف بفلذة كبده إلى الشارع.

وحاجة الطفل إلى التهذيب وحسن التربية أشد من حاجته إلى الطعام والشراب، وبطرده من البيت يُحرّم من الأمرين كليهما.

إن الأب الذي يطرد ابنه من البيت يأثم؛ لأنه يخذله أحوج ما كان إليه، ويُضَيِّعُه وهو بعدُ صغير لا يقوى على كسب ولا مال له، وقد أوجبت الشريعة

(١) والسلوك الصحيح هنا أن تهدده بأنه إذا لم يكف عن الصراخ، فسنقطع الجولة، ونعود إلى البيت.

الحنيفية على الأب أن يُنفق على صغاره^(١)، وقال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الْوَلَدِ لَهُ﴾ وهو الأب ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، والآية توجب على الأب رزق النساء لأجل الأولاد، فلأن تجب عليه نفقة الأولاد بالطريق الأولى^(٢).

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع، وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله، وهو مسؤول عن رعيته» الحديث^(٣).

وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله تعالى سائل كل راع عما استرعاه، أحفظ ذلك أم ضيعه؟ حتى يسأل الرجل عن أهل بيته»^(٤).

وعن معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما من عبد يسترعيه الله رعيته، فلم يحطها بنضح، إلا لم يجد رائحة الجنة»^(٥).

وروي عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت»^(٦).

(١) يوجب الحنابلة على الأب أن ينفق على ابنه الفقير الذي لا يجد ما ينفق به على نفسه، ولو كان صحيحاً قوياً، قاله المرداوي في «الإنصاف»، وهو من مفردات المذهب الحنبلي.

(٢) «مُغْنِي الْمَحْتَاJ» (٣/٦٢).

(٣) رواه البخاري (٢٥٥٤)، ومسلم (١٨٢٩)، والترمذي (١٧٠٥)، وأبو داود (٢٩٢٨).

(٤) رواه ابن حبان (١٥٦٢)، وابن عدي في «الكامل» (٣٠٧/١)، وأبو نعيم في «الحلية»

(٦/٢٨١)، وصححه الحافظ في «الفتح» (١٣/١١٣-سلفية)، وانظر: «السلسلة الصحيحة»

(١٦٣٦).

(٥) أخرجه البخاري (٧١٥٠)، ومسلم (١٤٢)، والإمام أحمد (٢٥/٢٧).

(٦) رواه أبو داود (١٦٩٢)، والإمام أحمد (١٦٠/٢)، والبيهقي (٤٦٧/٧)، والطبراني في

«الكبير» (٣٨٢/١٢)، وحسنه الألباني في «الإرواء» (٤٠٧/٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «... وابدأ بمن تعول»^(١)، ف قيل: «من أعول يا رسول الله؟» قال: «أمرأتك ممن تعول»^(٢)، تقول^(٣): «أطعمني، وإلا فارقني، وجاريته تقول: أطعمني واستعملني، وولدك يقول: إلى من تتركني؟».

ما يجنيه الأب الذي طرد ابنه من البيت،

- الطرد ليس حلاً للمشكلة، بل سيؤدّي إلى تفاقمها وحصول مشاكل أخرى.

- خسارة فلذة كبده الذي هو امتداد له، وجزء من كيانه، وقطع رحمه.

- أنه -بطرده- قد يضعه بنفسه في أول طريق الضياع والهلاك، ويدفعه إلى عالمٍ مجهول، وقد تلتقطه صُحبةٌ فاسدة وتؤويه، فيكتسب عاداتهم، ويتشرب ثقافتهم، ويتماهى مع انحرافهم، ويتنازل عن قيمه وأخلاقه التي اكتسبها من البيت.

- كان ابنك يستحق مصيراً أفضل إذا صبرت عليه وأحسنّت علاج سلوكه، ولكن بعد أن قذفته في طريق الضياع، وجمعكم القدرُ يوماً ما، فستكتشف أنه صار إنساناً مختلفاً يصعب إعادة التواصل معه.

(١) أخرجه البخاري (٥٣٥٥)، ومسلم (١٠٦)، وغيرهما.

(٢) انظر: «إرواء الغليل» (٣/٣١٧).

(٣) هذا من كلام أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، انظر: «فتح الباري» (٩/٥٠٠، ٥٠١) ط. السلفية.

أثر الطرد من المنزل على الطفل المطرود:

- يشعر الطفل أنه ليس مطرودًا من البيت فحسب، بل هو مطرودٌ من قلوب أقرب الناس إليه، ومرفوض منهم، وغير مرغوبٍ فيه، فيكره نفسه، ويكتئب، ويعاني من الشعور بالاغتراب والانعزال والوحدة، ويتملكه القلق والخوف من مصيره ومستقبله.

- الطرد من المنزل يعني قطع حبال التواصل والحوار والإقناع، والوصول إلى حائطٍ مسدود.

- يُضعِف شعوره بالانتماء للبيت والأسرة، وأنه لم يعد جزءًا منها، وتتمزق الروابط بين الطرفين، كأنهم قالوا له: «لست مِنَّا، ولسنا مِنكَ».

- يُحرِّم المطرود من توجيه الوالدين والإفادة من خبرتهما في الحياة، كما يُحرِّم من حُبِّ الأب وحنان الأم، وشفقة الإخوة.

- إذا طُرِدَ المراهق، فإنَّ حالته قد تزداد سوءًا؛ إذ تشتدُّ حاجة المراهق في هذه السن إلى الأمن والانتماء؛ لأنه يدخل عالمًا جديدًا عليه -أي عالم الكبار-، وقد يُعاني من أزمة الهوية، كما أن قدرته على الانضباط الذاتي واتخاذ القرارات السديدة والتفكير العقلاني لا تكون قد اكتملت.

- قد يسهل سقوطه في وَحْلِ الإدمان؛ هروبًا من شعوره بالذنب.

- قد يجد بيئةً توافقه على سلوكياته التي أغضبت والده، بل تُشجِّعُه عليها،

فتتفاقم مشكلته.

- وما دام سيعيش خارج البيئة المنزلية دون قدرة على تلبية احتياجاته الأساسية، فإنه:

١- قد يُضطرَّ إلى العمل وهو طفل، فينخرط في بيئة غير آمنة، ويُعامل معاملة مُهينة.

٢- قد يتعرض -ممن يدركون أنه لا أهل له يحمونه- لأنواع من الإساءة، والانتهاكات، والاستغلال الجنسي.

٣- قد يتعرض لخطرٍ استغلاله في ترويع المُخدَّرات وأعمال السرقة.

٤- قد يتعرض لحوادث السير، والأمراض المعدية، وأمراض سوء التغذية. ومن هنا فإنَّ أهل الخير من الأقارب أو الجيران عليهم أن يتدخلوا عند أبيه، ويشرحوا له هذه المخاطر، ويشفعوا للابن لديه؛ كي يعودَ إلى كَنَفِ الأسرة مع الالتزام والانضباط بقواعدها، فإنَّ لم ينجح ذلك، فليوجِّهوا الطفلَ المطرودَ إلى بيتِ عمِّه أو جدِّه أو أحدٍ من أقربائه.

إنَّ الأسرةَ الصالحة القائمة على طاعة الله -سبحانه- ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الزمان هي كسفينة نوح التي تجري بهم في أمواج الفتن، ومهما بدا من الابن من سوء السلوك، فعلى الأب أن يبذل قصارى جهده لإعادة وَلَدِهِ إلى جَادَةِ الصواب: ﴿يَبْتَئِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢].

فإن لم ينجح الأب في احتواء وَلَدِهِ، فقد يفقده إلى الأبد: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ [هود: ٤٣]، وعلى الآباء أن يدركوا المتغيَّرات التي طرأت وأثَّرت على

الأبناء في هذا الزمان، وأن يراجعوا المختصين في حل مشاكلهم، وأن يعطوا الأمور حجمها، وأن يتحلَّوا بقدرٍ وافرٍ من المرونة؛ إعمالاً لقاعدة: «إذا تعارضت مفسدتان رُوعي أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما»، فترتكب الأخف في سبيل دفع الأشد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فإنَّ الأمر والنَّهي وإن كان مُتَضَمِّناً لتحقيقِ مصلحةٍ ودَفْعِ مَفْسَدَةٍ، فَيُنْظَرُ في المَعَارِضِ له، فإنَّ كان الذي يَفُوتُ من المَصَالِحِ أو يَحْصُلُ من المَفاسِدِ أكثر، لم يَكُنْ مأموراً به، بل يكون مُحَرَّماً إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته»^(١).

ونقل عنه تلميذه الإمام المحقق ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ قوله: «مررتُ أنا وبعضُ أصحابي في زَمَنِ التَّارِ بقومٍ منهم يشربون الخمر، فَأَنكَرَ عليهم من كان معي، فَأَنكَرْتُ عليه، وقلتُ له: إِنَّمَا حَرَّمَ اللهُ الخمر؛ لِأَنَّهَا تَصُدُّ عن ذكرِ اللهِ والصلاة، وهؤلاء يصدُّهم الخمرُ عن قتلِ النفوس، وسَبْيِ الذَّرِّيَّةِ، وأخذِ الأموال، فَدَعَّاهُمْ»^(٢).

فإن كان الابن مثلاً يُقَصِّرُ في المحافظة على الصلوات في أوَّلِ وقتها، وطُرِدَ من البيت لأجلِ ذلك، فهل تتوقع أنه سيحافظ عليها أم سيزدادُ تفريطاً فيها؟ وقد يتركها رأساً إذا تحرر من رقابة البيت.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٢٩/٢٨).

(٢) «إعلام الموقعين» (٥/٣).

وإذا كان الأب قد طرد ابنه من المنزل لاعتراضه على طريقة قصّ شعره مثلاً، فماذا سيفعل فيما هو أخطر من (قصة الشعر؟) ^(١).

ومما يفيد في هذا الباب تقبُّل سلوك الابن إن أمكن إدخاله في دائرة المباح من الأمور التي تتغير بتغير الأعراف، أو دائرة المختلف فيه اختلافًا سائغًا.

وقد يُضطرُّ الأب إلى التَّغافلِ عن بعض منكرات وَلَدِهِ التي عجز عن تغييرها؛ اتقاءً لشرِّ أكبر يغلبُ على ظنِّه حصوله إذا تصلَّب في مواجهته والصدام معه.

وقد سُئل علماء «اللجنة الدائمة» عن كيفية التعامل مع الأبناء المقصرين في الطاعات، فأجابوا: «نوصيك بالاستمرار في مناصحة أبنائك، وعدم اليأس، وأن تستعمل الطرق النافعة في تربيتهم وتوجيههم، فتارة بالترغيب، وتارة بالترهيب، وغرس محبة الله ورسوله في قلوبهم، وإبعادهم عن جلساء السوء، وترغيبهم في مجالسة الصالحين، وتحذيرهم من وسائل الإعلام المفسدة، وقبل ذلك وبعده كثرة اللجوء إلى الله سبحانه بالدعاء بصلاحهم واستقامتهم، وهذا مما مدح الله به عباده الصالحين، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]».

(١) وقد حكى أحد علماء الحديث رَحِمَهُ اللهُ عن والده رَحِمَهُ اللهُ الذي كان يتعصَّب للمذهب الحنفي: أنه كان يرى أن كلَّ حشوٍّ للضُّرس أو السن يمنع زوال الحدث الأكبر، فمن حشا هذا أو ذاك لم يَطْهُرْ من جنابةٍ قط، وبالتالي لا تصحُّ له صلاةٌ.. وحدث أن كبير بنيهِ قد حشا ضرْسًا له، وانتهى خبرُهُ إلى والده، فسأله، (فاعترف) له، فخبرَهُ بين أمرين: إمَّا أن يقطع ضرْسَهُ، أو يفارق منزله.. فأثر الثانية.

وفي جواب سؤال عن طرد الأبناء جاء في موقع «الإسلام سؤال وجواب»: «ما يفعله الأولاد من منكراتٍ في البيت لا يُسَكَّت عليه، بل يُنصح فاعله، ويُوَجَّهُ لفعل الخير، ولا ينبغي للوالدين أن يعينا فاعل ذلك المنكر على فعله، كأن يعطوه من المال ما يشتري به ذلك المُحَرَّم، ولا أن يُمَكِّنَاه من فعله، ولهما السكوتُ عنه وعدم التصرُّف العملي حيال فاعله بالطرد، في حال أن يكون تصرفهما يسبب مفسد أكثر وأكبر من تلك المعصية، فقد يسكت الوالدان على سماع الابن للموسيقى، أو النظر المُحَرَّم، ويكون ذلك خشية التصرف العملي بالطرد والضرب الذي يؤدي إلى الإكثار من تلك المعاصي خارج نطاق البيت والأسرة، ومن المعلوم أنه من يُطْرَد من بيته فإنه سَيَمَكَّنُ من فعلٍ ما لا يستطيع فعله في البيت، فتزداد المفسدات والمشكلات التي يسببها ذلك الولد العاصي العاق.

بل لو لم يصل الأمر إلى الطرد والقطيعة أو الهجر، فإن كثيراً من الأبناء، إذا حُرِّم من مشاهدة التلفاز، أو سماع الأغاني في البيت، ولم يكن قد هدى الله قلبه، وشرح صدره للالتزام بذلك، فإنه يتحيل إلى قضاء شهوته، وإشباع رغبته مع رفقة السوء، أو في أي مكانٍ خارج البيت، وهنا يخلو له الجو بلا رقيبٍ على تصرُّفاته، وهو أمرٌ يوشك أن يفتح عليه أبواباً مُضاعفة من الفساد.

فحينئذٍ، إذا عجز الوالد عن تقويم ولده، ومنعه من هذه المنكرات المعتادة في التلفاز وغيره، فإن المصلحة تقتضي أن يتغافل عن بعض ذلك من ولده؛ اتقاءً لِشَرِّ أكبر منه، يتوقع حصوله متى مُنِعَ من ذلك»^(١).

(١) «الإسلام سؤال وجواب» فتوى رقم (١٠٦٤٤٣).

النوع الثالث

عقاب الطفل بحبسه في غرفة مغلقة

يعاقب بعض الناس^(١) طفلهم بحبسه في غرفة، ويغلقونها عليه لفترة من الزمن^(٢)؛ توهّمًا منهم أن ذلك يحسّن سلوكهم.

والحق أن هذا النوع من العقاب غير أخلاقي وغير تربوي وغير مقبول، لما يترتب عليه من أضرار ومخاطر تزداد إذا كان الحبس لمدة طويلة، ويتكرر كثيرًا، والغرفة مظلمة.

أضرار هذا العقاب:

- يُشكّل صدمة نفسية عنيفة، قد تؤدّي إلى رهاب الأماكن المغلقة (claustrophobia)، وهو خوف غير عقلاني من التواجد في مكان مقفل بحيث لا يستطيع الخروج منه إذا طرأ طارئٌ كالمصاعد، والأنفاق، والقطار الأنبوبي، والحمامات العامة، والسيارات ذات القفل المركزي، والطائرات.

والسبب الأول لهذا الرهاب هو حَدَث صادم مرَّ به الطفل في طفولته الباكّة كحبسه في مكان مغلق.

(١) وقد يقع هذا في دور رعاية الأطفال.

(٢) وحتى ثمانينيات القرن العشرين كانت دور رعاية الأطفال في ستافورد شاير بإنكلترا تخصص غرفًا لحبس الأطفال انفراديًا لمدة أسابيع أو أشهر بسبب الهروب من دور الرعاية أو السرقة أو التنمر، وفي سنة (١٩٩٢م) صدر تقرير من (٣٠٠) صفحة يدين هذا الأسلوب ويرفضه أخلاقيًا وقانونيًا وتربويًا.

وفي هذا الاضطراب:

- يخاف الشخص من التواجد وحده، ويحتاج دائماً إلى من يرافقه.
- ينفر من الوالدين؛ لأنه يفسر تصرفهما بأنها (لا يريدانه، ويسعيان إلى التخلص منه) مما يحدث فجوة نفسية بينه وبين الوالدين، وتضعف ثقته بهما.
- إذا اعتاد على فكرة الوحدة قد ينشأ انعزالياً انطوائياً يهاب الخروج إلى العالم الخارجي.
- قد يسيطر عليه الشعور بالذنب ولوم نفسه؛ لأنهم تحلّوا عنه بسبب خطئه.

مثال (١):

حبس أبوان طفلهما التوحدي أو الذاتوي (Autistic) ذا الإحدى عشرة سنة في قفصٍ مُخصَّص للحيوانات لمدة (١٢) ساعة بسبب سوء سلوكه.

مثال (٢):

حبس الأب طفله داخل حقيبة كان يسميها (حقيبة العلاج) (Therapy bag).

مثال (٣):

حبس أبوان ابنتهما المراهقة في حجرة مظلمة شديدة البرد، وليس فيها حمام، حتى قضت حاجتها في الحجرة.



النوع الرابع

عقابه بالتهديد والترهيب والتخويف

الشعور بالأمن شرطٌ ضروري من شروط الصحة النفسية، كما أنَّ الخوف مصدر كثير من الاضطرابات والمعاناة النفسية.

وإذا كانت الاحتياجات الفسيولوجية ضرورية للمحافظة على بقاء الفرد ونوعه، فإنَّ الاحتياجات النفسية ضرورية لسعادته وطمأنينته، وإحباطها يثير في النفس القلق، وقد يؤدي إلى اضطرابات في الشخصية وهي حاجات تنشأ في أحضان الأسرة، ولا تُشبع إلا في إطار اجتماعي.

وأول هذه الحاجات: الحاجة إلى الأمن النفسي، والأمن يعني التحرر من الخوف أيًا كان مصدره.

وإذا كان الراشد الكبير في حاجة إلى الأمن، فالطفل في حاجة إليه أشد؛ نظرًا لضعفه وجهله، وقلة حيلته، ومما يُرضي هذه الحاجة عنده إرضاء حاجاته الفسيولوجية، وأن يكون موضع عطف ومودة من والديه وذويه، وأن يلقى تجاوبًا انفعاليًا منهم؛ إذ يهتمون بأمره، ويتحدثون معه، ويحيون أسئلته، ويشاطرونه أعباءه، ويوضحون له الحدود بين ما يجب وما لا يجب عمله.. فإن أُحبطت هذه الحاجة لديه، وفقد الطفل شعوره بالأمن، كان هذا فقدان من أقوى العوامل وأكثرها شيوعًا في التمهيد للإصابة بمرض نفسي أو لظهور الأعراض الآتية لديه: النوم المضطرب، أحلام الكابوس، التبول اللاإرادي،

الجلجلة في الكلام، الانطواء على النفس، الفشل الدراسي، أو سرعة الغضب، أو العناد والتخريب، أو الخضوع للظفر بالأمن، أو الرثاء للذات لاسترداد الأمن والعطف.

كذلك مما يثير الخوف عند الطفل: الإسراف في تهديده أو نقده أو عقابه أو شعوره بأنه غير مرغوب فيه، أو الإسراف في تحذيره من الحياة، وكذلك الشجار بين الوالدين أو تلهفهما الزائد عليه، أو استخدامهما الخوف لمنعه من اللعب أو إحداث الضوضاء أو تركيز انتباهه في المذاكرة أو دفعه إلى عملٍ مُعَيَّن، أو تخويفه بقصص مزعجة للضحك عليه، أو مجيء مولودٍ جديد في الأسرة، أو أن يكون أحد الوالدين في مَرَضٍ شديد، أو أن تسوء الحال الاقتصادية للأسرة، أو إعطاء الطفل حرية مطلقة تجعله حائرًا بين ما يجب عليه عمله، وما لا يجب^(١).

تعريف الخوف لغة:

هو الإحساس بالترقب والحذر والخشية والرغبة والجزع والفرع والرعب والهلع.

اصطلاحاً:

حالة انفعالية داخلية طبيعية يشعرها الإنسان في بعض المواقف التي يهدده فيها نوعٌ من الخطر، ويسلك فيها سلوكاً يُبَعِّده عادةً عن مصادر الضرر.

(١) انظر: «أصول علم النفس» للدكتور أحمد عزّت راجح رَحْمَةُ اللَّهِ (ص ١١٢ - ١١٤).

إنَّ الخوف انفعال أساسي عند الإنسان، وهو أكثر الحالات الانفعالية شيوعاً، فلا تخلو حياة إنسان من الإحساس بالخوف (Fear) أو القلق (Worry) أو التَّوَجُّس^(١) (Apprehension).

والخوف أهم المؤثرات التي تترك أبعاداً غائرة في النفس يصعب اقتلاعها.

الخوف فطري ومكتسب:

فهو فطري غريزي جِبِلِّي، حيث يُولَدُ الإنسان مُحَمَّلًا بِغَرِيزَةِ الخوف التي تجعل منه كائنًا خائفًا، حتى قبل أن يتلقَّى آيَةً خِبرَةٍ مُخِيفَةٍ من البيئة المحيطة به.

ومن العلماء من يرى أن الخوف انفعال مكتسب يتعلمه الإنسان منذ نعومة أظفاره، والإحساس بالخوف شعور ناتج عن عدم ارتياح الطفل، وكلما نما تعلَّم أن يخافَ المواقفَ التي تسبب له الضيق، وتهدد سلامته.

ويكتسب الإنسانُ المخاوفَ عبرَ التنشئة الاجتماعية، فتؤثر على سلوكه واستمتاعه بالحياة.

ويتعلم الطفل خبرة الخوف مُبَكَّرًا، فيخضع لكثير من الضغوط الاجتماعية التي تُخِيفُه، وتشيع الهلع في أنحائه مما يستغله المربون في تربيته وتشكيل شخصيته، فكل تعليم أو توجيه يكون مصحوبًا بنوعٍ ما من أنواع التخويف.

(١) كما تفعل الأم القلوة حين يتأخر رجوع طفلها عن المدرسة، فتظل تتخوف من احتمالات أن يكونَ تعرَّضَ لحادثٍ وهو يعبر الطريق، أو أنه خُطِفَ، أو كذا أو كذا.

الخوف قد يكون انفعالاً مفيداً للإنسان؛

بالرغم من أن الخوف يؤدّي إلى تغييرات فسيولوجية جسدية في الإنسان، إلّا إنه يؤدّي أيضًا إلى حماية الفرد من الضرر، فالإنسان إذا واجهته سيارةٌ مُسرّعةٌ في طريقه فإنّه يشعر بالخوف ويتبعد، ومن لا يخاف النار فإنّها قد تُحرقه، وهناك الخوف من الزلزل، والخوف على السُمتّة، والخوف من الرسوب في الاختبارات، وأعلى من ذلك كله الخوف من عذاب الآخرة، وهذه الأنواع من المخاوف تُسمّى (الخوف الوقائي) أو الحذر والحيطّة، حيث يشحذ الإنسان انتباهه ويُدرّك الخطر، ويسعى في تداركه بإطلاق الطاقة اللازمة لمواجهة المواقف، واتّخاذ الاحتياطات الحذرة، مما يُكسبه الشجاعة والإقدام والبّت في اتّخاذ القرار، والقدرة على ضبط النفس.

لكن هذا الخوف كلّهُ خوف طبيعي (معتدل) يساعد الإنسان على حُسن الإنجاز، ومواجهة مواقف الشدة بكفاءة.

بخلاف الخوف المرضي (Pathological) الشديد الدرجة، أو الذي يستمر ارتباطه بمسبباته حتى بعد زوالها، فإنّه يعوقه عن التّذكر والتركيز، ويؤثر عكسيّاً على سلوكه، ومنه الإفراط في الخوف من الله تعالى، أو من عذاب جهنم إلى حدّ يُصيبه بالذهول والقنوط من رحمة الله، واليأس من النجاة، فيُشَل عن العبادة، ويتوقف عن العمل الصالح، والحاصل: أننا نميز الخوف (الطبيعي) من الخوف المرضي بثمره كلّ منهما، وتأثيرها في سلوكه وإنتاجيّته.

الخوف العادي خوفٌ موضوعي (من خطرٍ حقيقي)؛

يُولدُ الطفلُ -كما تقدم- ولديه مستوى طبيعي من الخوف الانفعالي، وهي حالة خاصة بغريزة حب الذات، تتبع ردود فعله تجاه الأشياء والأحداث التي تُكوِّنُ عالمه، هذا الخوف عند الطفل أمرٌ وارد ومتكرر الحدوث في كل الأوقات، وهو لا يمثل أيَّ خللٍ في سلوكه طالما ظهر في إطاره المعقول والطبيعي، خاصة إذا كان هذا الخوف إحدى الوسائل النفسية الدفاعية التي يستخدمها الطفل للوقاية من الأذى، والحرص والحذر من الخطر.

أمَّا الخوف الذي يحدث عند ترهيب الآباء أطفالهم لإثارة الرعب في قلوبهم من أجل كفهم عن سلوكٍ سيئ يرتكبونه أو بهدف عقابهم أو حمايتهم من الخطر بصورة مبالغ فيها، فإنه يضر بصحتهم النفسية، ويتطور لاحقًا إلى أنواعٍ من (الرهاب) أو (الخوف المرضي) (Phobia) الذي يؤثر على نموهم النفسي، وعلى علاقاتهم مع الآخرين، وأدائهم الوظيفي في المستقبل.

ويُعدُّ (الرَّهَاب) (Phobias) بأنواعه الكثير أكثر الاضطرابات النفسية شيوعًا وتشخيصًا على مستوى العالم^(١).

بل إنَّ المخاوف المرضية (Phobias) تمثل نقطة البداية في كثير من الاضطرابات العصائية والذهانية، بل يمكن اعتبارها أحيانًا قاسمًا مشتركًا بينها.

(١) يليه في الترتيب الاضطرابات النفسية بسبب الاعتماد على مادة (Substance Dependence)، ثم الاكتئاب الجسيم، ثم الوسواس القهري.

تعريف الخوف المرضي (أو الخواف أو الرهاب):

هو خوفٌ شاذٌّ غيرٌ منطقي، دائم ومتكرر ومُتَصَخِّمٌ، من شيء أو موقف لا يُخيف الناس في العادة، ولا يعرف له المريض سببًا، ولا يستند إلى أساسٍ واقعي، ولا يمكن السيطرة عليه وضبطه، أو التخلص منه، وينتج عنه تغيرات جسمية (فسيولوجية)، ومعرفية، ووجدانية.

ويُشَخَّص الخوف المرضي في الطفولة: بأن يُظْهَرَ الطفلُ خوفًا مستمرًا ومتكررًا يناسب مرحلة نموه، ولكن درجته غير عادية، وتُربط بوضوح بضعف اجتماعي.

التخويف رادع مؤقت:

إنَّ التخويف والترهيب قد يردع الطفل عن السلوك السيئ بصورة مؤقتة^(١)، لكنه -تحت مظلة الخوف- لا يتمكن من فحص سلوكه وتقويمه؛ لأنَّ الخوف يُشغِل المستويات الدنيا من المخ، فلا يكون الطفل عندها قادرًا على التفكير في سلوكه، ومع مرور الوقت سيزداد الأطفال خوفًا؛ لأنَّ أدمغتهم تعلَّمت أن تخاف بسرعة.

إلى جانب ذلك هناك احتمال آخر، هو أنَّ الطفل لا يُبالي بالتهديد (بالغولة، وأبي رجل مسلوخة، وحجرة الفئران) إلخ، وحينئذٍ ينكشف له عدم صدق المُربِّي، وبالتالي عدم مصداقيته.

(١) لأن الطفل -وإن توقَّف عن السلوك المزعج ظاهريًا- فإنَّ هذا يتمُّ بشكلٍ مؤقتٍ، وبدافع الخوف من التهديد فقط، وليس من خلال قناعات ومعتقدات ودوافع داخلية.

وقد لا يقلع عن السلوك السيئ مهما تلقى من تهديدات؛ لأنه متأكد أن أهله (أضعف من أن ينفذوها) فيزداد عناداً، ويبقى هو الفائز؛ لأن العقوبة لن توقع عليه، ولن يجدي معه التهديد بها فيما بعد، ما دام الآباء يضعفون أمامه، ولا ينفذون وعيدهم.

أسباب الخوف عند الأطفال^(١) :

- ١- تعرّض الطفل لمواقف ومثيرات غريبة، وليست مألوفة لديه، ولهذا تؤلمه، ويخاف منها، مثل الأصوات المرتفعة المفاجئة أو المناظر غير المألوفة لديه وخوف الطفل من الأمور المجهولة لديه (كالغول، والموت، وجهنم) يكون عادةً أعمق أثراً في حياته من خوفه من المحسّات.
- ٢- تقليد الكبار في خوفهم؛ وذلك لأن الخوف سلوك مُتعلَّم (يُعدي)، فإذا كانت الأم مثلاً تخاف من الوحدة أو الظلام أو الحشرات (كالصراصير)، أو حيوانات معينة (كالقثران)، فسوف ينتقل هذا الخوف منها إليه بفعل التأثير أو المشاركة الوجدانية.

- ٣- الاقتران الشرطي: ويُقصدُ به انتقال الخوف بالمجاورة والاقتران بين شيء يخاف منه الطفل إلى شيء لم يكن يخاف منه لارتباطهما معاً:
- كخوف الطفل من الظلام لوقوع حدث مُفزع أو مُروّع له في أثنائه.
- وكخوف التلميذ من صوت الجرس لارتباطه بضرب المدرس له بالحصة.

(١) انظر: «الاضطرابات النفسية في الطفولة والمراهقة» (ص ٢٩٩ - ٣٠٣).

(٢) كمشهد المسجد الواسع الفسيح المزدحم بالمصلين عند أوّل مرّة يصطحب الوالد ابنه إلى المسجد.

- وكخوف الطفل من المعطف الأبيض لارتداء الطبيب إيَّاه أثناء حقنه بالإبرة.

٤- التهديد بأشخاص معينين يعاقبون الطفل إذا أساء: فينتج عنه (رهاب)، فإذا اعتادت الأم أن تخيف طفلها بأنَّها ستذهب به إلى الطبيب (كعقاب له وتأديب) فهذا يرشحه لإصابته برهاب الأطباء (Iatrophobia).

أو إذا هددته بإحضار الشرطي، أو مدرس المدرسة كي يعاقبها، فيصبح كل منهما مصدرَ خوفٍ ورعبٍ بالنسبة إليه.

- ويُقال الشيءُ نفسُه عند عقابه بالدواء المر، أو قطرة العين (الحارة) حين يُستخدمان للتخويف والعقاب وليس العلاج.

٥- تخويف الطفل من أجل الضحك عليه والتسلي بفزعه:

«من العوامل المؤدِّية لحدوث الخوف لدى الطفل أن يكتشف الكبار خوفَ الطفل من أمرٍ مُعَيَّن، فيستغلونه لتخويف الطفل لدفعه للقيام بعملٍ مُعَيَّن أو الإحجام عن عملٍ آخر، أو قيام الكبار بتخويف الطفل من حيوانٍ أليفٍ مثلاً يخاف منه الطفل، وذلك من أجل اللهو والتسلية والضحك من خوف الطفل، فيقصُّون على زُوارِهِم ما حدثَ للطفل حينما رأى قطَّةً -مثلاً- من خوفٍ، فيقدمون للطفل قطَّة (لعبة) أمام الزوار بشكلٍ يستثير الطفل فيصرخ، وهنا يضحك الكبار، ويستمرون في لهوهم وضحكهم على حساب تألُّم الصغير وانزعاجه، وليس هناك أقسى من أن يجلسَ الوالد أمام ابنه ويثير خوفه والطفل

يصرخ، والوالد يضحك! ومن المحتمل جدًا أن يكون لتكرار مثل هذه المواقف نتائجها السيئة على تكوين شخصية الطفل وعلى سلوكه بوجه عام^(١).

٦- ضرب الطفل بقسوة ليقْلَع عن سلوكٍ مُعَيَّن^(٢).

٧- ومن أسباب تَكُونِ المخاوف تشاَجُرُ الأبوين أَمَامَ الأطفال، فتزعزع ثقته فيهما، ويختلُّ إحساسه بالأمان، ويُحرم من القدوة الحسنة والمناخ الأسري الدافئ.

٨- تكرر سماع الطفل للقصص المرعبة ذات أحداث القتل والذبح والنار والإحراق، والدماء والتعذيب، وأشنع من سماع ذلك رؤية الأفلام التي تحتوي على هذه المشاهد، وكذا نشرات أخبار الحروب والمذابح.

٩- المبالغة في إظهار الخوف والقلق من الآباء على الأبناء، فإذا رأى الصغير على وجه أمّه الارتباك وشحوب اللون إذا جُرِحَ جُرْحًا صغيرًا، أو وقع على الأرض، فإنه سيُصاب بالذُّعْر والخوف، وبهذا ينشأ الطفل شديد الخوف على نفسه.

١٠- سوء معاملة المدرسين مما يُؤلِّد لديه خبراتٍ مؤلِّمة عن المدرسة والتعليم، ومما يُؤكِّد ذلك استعمالُ الآباءِ المدرسين كأداة سُلْطوية كي تعاقِبَهُم.

(١) انظر: «الاضطرابات النفسية في الطفولة والمراهقة» للدكتور حسن عبد المعطي (ص ٣٠١).

(٢) انظر: «عواقب الضرب الجسدية والنفسية» (ص ٤٣٥)، وما بعدها.

ومن أهم أسباب زرع الخوف في الأطفال الأساليب التربوية الخاطئة؛
 - اعتادت أمُّ الطفل ذي الخمسة الأعوام على أن تُهدِّده إذا لم يتوقَّف عن
 المُشاغَبَة بأنها ستذهب به إلى (الطبيب) كي يحقِّنه بالإبرة، وبمجرد سماعه كلمة
 (الطبيب، والإبرة) تتابه حالةً من الخوف والهلع ويهرع إلى سريره، وقد كان
 يصاحب ذلك انهماكُه في قضم أظفاره.

ازرع الخوف تحصد الخَوَاف (Phobia)؛

مثل هذا الطفل يُرشد بجدارة أن يُصاب برُّهابٍ نَوْعي يُسمَّى (رُّهاب
 الإبرة) (Trypanophobia)، وهو قلقٌ وخوفٌ شديد من الحقن ينبعث بمجرد
 رؤيتها أو حتى مجرد التفكير في أيِّ إجراءٍ طِبِّي يتضمن الحقن بها^(١)، وقد يشتد
 حتى يسبب نوبة هلع (Panic Attack)، وذلك بسبب ذكرياتٍ سلبية أو صادمة
 تُستثار لديه بمجرد رؤية الإبرة، فيبدأ الألم ويتضخم الإحساس به قبل وقوعه
 بفعل الإيحاء الذاتي بعدم قدرته على تحمله.

ونتيجة لهذا الرهاب يتجنَّب الطفل -أو بعد ذلك حين يكبر- بل يفِرُّ
 فرارًا من التطعيمات الوقائية، وسحبِ عَيِّنة من الدَّم لإجراء فحوصاتٍ مُهمَّةٍ،
 أو حقنِ السوائل عن طريق الوريد، مما يضر صحته، وقد يهدد حياته.

(١) ومما يؤسف عليه أنَّ الإعلام قد يُدعِّم هذا النوع من الرُّهاب، فقد تربَّى جيلُ الستينيات من
 القرن الماضي على كلماتٍ كان يرددها أحدُ المغنين، ويحتفي بها الإعلام المسموع والمرئي، حتى
 صارت عابرةً للأجيال، كانت هذه الكلمات تُخاطبُ طفلًا صغيرًا، وتقول له: «هل تدري
 ماذا فعل الطبيب بالولد الذي يُدعى (عادلًا) حين حضر إليه؟ لقد حقنه بحقنة كبيرة؛ لأنه
 لا يشرب اللبن في الصباح...» إلى آخره.

- وقد يكون التخويف من طبيب الأسنان «الذي سيقطع أسنانك بالكماشة، فتتألم، وتنزف منك الدماء».

ومما يدعم ذلك تجربة له سلبية في عيادة طب الأسنان، فهذا الطفل الذي يُخَوِّف من طبيب الأسنان أو من علاج الأسنان يُرشح في أثناء طفولته، وحين يكبر لأن يُصاب بـ(رُهاب الخوف من طبيب الأسنان) (Dentophobia) أو (Odontophobia) فينتابه الرعب والفرع من مجرد التفكير في الذهاب إلى طبيب الأسنان أو زيارته بالفعل، ويشعر بقلقٍ مُفرطٍ لا يتناسب مع الموقف.

- اعتادت الأم أن تهدد طفلها التلميذ في الصف الثاني الابتدائي إذا ارتكب خطأً أو شاعَبَ في المنزل: «سأذهب بك إلى طبيب الأسنان»، وبمجرد ذكر طبيب الأسنان فإنه من شِدَّةِ الخوف يتبول لا إرادياً في ثيابه، وقد طافت بالعيادات النفسية لعلاج هذه المشكلة، ولكنها لا تزال مستمرّة، تقول الأم: «ارتكبتُ خطأً فادحاً بحقّ ابني، وعليّ تصحيحه مهما كَلَّفَ الأمرُ، فلجؤني لهذا الأسلوب كان من باب الرَّدْع والتأديب، لكن لم أتصوّر أن يصلَ به الموضوع إلى ذلك الحد!».

- أو بالتخويف من (الشرطي) الذي سيقبض عليه ويودعه الحبس.

- أو بأنها ستحبسه في حجرة الفئران المظلمة.

- أو إنّه إذا لم يَكُفَّ عن كذا، فسوف يأتيه الشبح أو (أبو رجل مسلوخة) ليلاً، ويأخذه معه.

- أو التهديد بأنّها ستقطع لسانه إذا لم يكفّ عن شتم أخته.
- وفي إحدى دُور ما قبل الحضانة حُبِسَ أطفالٌ (أعمارهم من ٣ - ٤ سنوات) في دورة مياه مظلمة لمدة ساعة؛ لأنهم ضحكوا في الفصل، بل أخبروهم قبل الحبس أنّ دورة المياه يعيش فيها وحوشٌ مُرعبة.
- عاقبت الأمُّ أولادها الذين كسروا القاعدة المنزلية، وتأخروا عن موعد عودتهم بأن ثبتت في دهليز البيت وجوهاً مُرعبة كي تُخيفهم عند عودتهم، وكأنها تقول لهم: «لقد ارتعبتُ لقلقي عليكم، فذوقوا بدوركم طعمَ الرعب».
- وفي عصرنا -عصر ثورة المعلومات والاتصالات- يلجأ بعضُ الآباء إلى تطبيق متوفر في الهاتف الجوّال يُسمّى (شرطة الأطفال) وهذا التطبيق يستعين أولياء الأمور به بهدف تخويف الأطفال، وبمجرد الكلام معه والشكوى من تصرّفات الطفل، فإنّه يُقدّم الحلول السريعة والاقتراحات المخيفة للطفل الذي ينصت لذلك الحوار، ويسمع صوت رجل الشرطة الصارم مصحوباً بخلفية صوتية مزعجة من أصوات سيارات البوليس المعهودة، التي توهمه أنّ البوليس قريبٌ من المنزل وعلى وشك الحضور إليه ليأخذه.
- وقد تفنّن بعضُ الناس بدورهم في تسخير أجهزة التواصل الاجتماعي كالهاتف الجوّال، وتطوّعوا بتسجيل أو بث مقاطع مرعبة تُخيف الأطفال (الذين لا يسمعون الكلام)، وتحتوي بعضُ الأصوات المُرعبة كالساحرة الشريرة أو الذئاب أو العفاريت.. إلخ، كي توفّر للآباء مادة جاهزة للاستعمال عندما يريدون إخافة أطفالهم وبثّ الرعب في قلوبهم!

عواقب العقاب بالتخويف:

إن تخويف الطفل خطأ فادح؛ نظرًا إلى آثاره النفسية السلبية التي قد تصحبه مدى الحياة، مثل:

١- أنواع الرهاب (الخَوَاف المرضي)، كما تقدّم آنفًا.

يقول بعضُ التربويين: «أسلوب التخويف الذي يتبعه بعضُ الآباء هو من أكثر العوامل تأثيرًا في شخصية الطفل فيما يتعلّق بالخوف المرضي، خاصّةً إذا كانت هذه المخاوف تخاطب مُخيّلتَه في سنوات طفولته المبكرة.

وفي هذه السنوات المبكرة غالبًا ما يختلط لديه الخيال بالواقع، فتختلط الأشياء في ذهنه، ولا يعرف كيف يفسرها، لذلك نراه يخاف من أشياء لا تُخيف بطبيعتها، وعند إقباله على أي عمل فإنه يفترض بأنه سيتعرّض إلى عقابٍ شديد لا يعرفه، وتبدأ مُخيّلتَه في العمل بتضخيم الخوف، ويصبح جزءًا من تكوينه النفسي، وسيفقد ثقته بنفسه تدريجيًّا نتيجة وقوعه فريسةً لأوهامه الخاطئة، تلك الأوهام التي زرعتها في نفسه أقربُ الناسِ إليه، وهم والداه».

٢- شعوره بالخوف الدائم.

٣- انعدام ثقته بنفسه، وتردده في تصرفاته.

٤- الثأثة والجلجلة في الكلام.

٥- اهتزاز ثقته بوالديه؛ إذ يتحوّل مصدر الأمان بالنسبة إليه إلى مصدر تهديد وتخويف.

- ٦- قد يزداد سلوكه سوءاً، وقد يتورط في الكذب كي يضمن عدم وقوع التهديد، وقد لا يُبالي به ويتمادي في سلوكه عناداً وتحدياً لو لديه.
- ٧- الأحلام المزعجة، والفرع الليلي، والكوابيس.
- ٨- التبول غير الإرادي.
- ٩- الميل إلى العزلة والانطواء، والخجل (Social phobia).

أخيراً:

- فإنَّ العقاب التربوي السَّليم عقابٌ منضبطٌ له قواعد وأصول تُعدِّل سلوكَ الطفل، ولا تشوِّهه نفسياً، ويتم بالتدريج، ويتنزَّه عن التخويف والترهيب، ويُحَلُّ التشجيع كمُحفِّزٍ محلَّ التخويف^(١).
- وهناك أساليبُ تربويَّةٌ حديثة ومتنوعة وناجعة تنجح في تعديل سلوك الأطفال بدونِ آثار التخويف السلبية.
- وستبقى (الوقاية خيرًا من العلاج) و(الدَّفْع أسهلُّ من الرَّفْع).



(١) فبدلاً من أن تهدد الطفل بأن الوحش سيلتهمك إن لم تشرب اللبن أو تأكل الخضراوات، بيِّنْ له فوائدها الصحية واحتياج جسمه إليها، ومدى تضرر صحته إن لم يتناولها.

النوع الخامس

تخويف الطفل من الله عز وجل

ومن عذاب القبر وعذاب النار

خاضبوا الناس على قدر عقولهم؛

من قواعد الدعوة والتربية والتعليم في الإسلام: أن يقتصر -أي المُعَلِّمُ- بالمتعلم على قدر فهمه، فلا يُلقِي إليه ما لا يبلغه عقله فينفر، أو يخبط عليه عقله، ولذلك قيل: «كُلُّ لَکْلِ عَبْدٍ بِمَعْيَارِ عَقْلِهِ، وَزِنُّ لَهُ بِمِيزَانِ فَهْمِهِ، حَتَّى تَسْلَمَ مِنْهُ وَيَنْتَفِعَ بِكَ، وَإِلَّا وَقَعَ الْإِنْكَارُ لَتَفَاوُتِ الْمَعْيَارِ»

«ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام -أي الذي لا تطيقه عقول من مخاطبهم- إِلَّا إِنَّهُ يَشَوِّشُ الْقُلُوبَ، وَيُدْهِشُ الْعُقُولَ، وَيُخَيِّرُ الْأَذْهَانَ»^(١).

فلا تُخَاطِبِ المتعلمين أو المدعوين بكلام لا تفهمه عقولهم، كالكلام الصعب الغريب الذي لا تدركه أفهامهم، ولكن ابذل لهم العلم بالأمور التي يسهل عليهم قبولها، دون ما يمكن أن ينفرهم بسبب غرابته عندهم، هذا مع أنَّ بعض هذه القضايا قد تكون من حقائق الدين، لكنها إذا عُرِضَتْ على عقولهم الضعيفة فقد يبادرون إلى تكذيبها، أو يسيئون فهمها.

عن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِمَعَاذٍ -وهو رديفه على الرَّحْلِ-: «يَا مَعَاذٍ»، قَالَ: لَبِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدِيكَ، قَالَهَا ثَلَاثًا، قَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ

(١) «الإحياء» للغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ٥٧).

(٢) «نفسه» (١/ ٣٧).

أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ -صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ- إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ -تَعَالَى- عَلَى النَّارِ»، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا أَخْبَرْتَهُ بِالنَّاسِ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قَالَ: «إِذَنْ يَتَّكِلُوا» ، فَأَخْبَرَهَا بِمَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأْتِيًا^(١)

وعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهَا: «يَا عَائِشَةُ! لَوْلَا أَنْ قَوْمَكَ حَدِيثُو عَهْدٍ بِشْرِكٍ [وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ النِّفَقَةِ مَا يُقْوِي عَلَى بِنَائِهِ]؛ [لَأَنْفَقْتُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَ] لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ، فَأَلْزَقْتُهَا بِالْأَرْضِ، ثُمَّ بَنَيْتُهَا عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ]، وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ [مَوْضُوعَيْنِ فِي الْأَرْضِ]؛ بَابًا شَرْقِيًّا [يَدْخُلُ النَّاسُ مِنْهُ]، وَبَابًا غَرْبِيًّا [يَخْرُجُونَ مِنْهُ]، وَزِدْتُ فِيهِ سِتَّةَ أَذْرَعٍ مِنَ الْحِجْرِ -وَفِي رِوَايَةٍ: وَلَدْخَلْتُ فِيهَا الْحِجْرَ-؛ فَإِنَّ قَرِيشًا اقْتَصَرَتْهَا حَيْثُ بَنَتْ الْكَعْبَةَ، (فَإِنْ بَدَأَ لِقَوْمِكَ مِنْ بَعْدِي أَنْ يَبْنُوهُ، فَهَلُمِّي لِأَرِيكَ مَا تَرَكُوا مِنْهُ، فَأَرَاهَا قَرِيبًا مِنْ سَبْعَةِ أَذْرَعٍ) وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهَا: «وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمَكَ حَدِيثُ عَهْدِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَخَافُ أَنْ تُنْكِرَ قُلُوبُهُمْ، لَنَظَرْتُ أَنْ أَدْخَلَ الْجَذَرَ فِي الْبَيْتِ، وَأَنْ أُلْزَقَ بَابَهُ بِالْأَرْضِ»^(٢).

وقد روى البخاري تعليقًا عن أمير المؤمنين عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «حَدَّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟»^(٣).

وروى مسلمٌ عن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عَقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ»^(٤).

(١) إِذَنْ يَتَّكِلُوا: لِأَنَّ فَهْمَهُمُ الْقَاصِرُ قَدْ يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْقَعُودِ عَنِ الْعَمَلِ بِفَهْمِ خَاطِئِهِ اتِّكَالًا عَلَى إِيْتَانِهِمُ بِالشَّهَادَتَيْنِ.

(٢) «صحيح البخاري» (١٢٨)، ومسلم (٣٢).

(٣) انظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم (٤٣).

(٤) «صحيح البخاري» (١٢٤).

(٥) مقدمة «صحيح مسلم» (١١/١)، وصححه الحافظ في «الفتح» (٢٢٥/١).

وفسّر ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قولَ الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ عَلِيمِينَ﴾ [آل عمران: ٧٩]، فقال: «كونوا حلما فقهاء».

وقال البخاري: ويُقال: «الرَّبَّانِي الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره»، وذلك مراعاة للعقول كي لا تنفر.

قال ابن حجر: «والمراد بصغار العلم ما وضع من مسائله، وبكباره ما دقَّ منها»^(١).

قال وهب بن منبه: «ينبغي للعالم أن يكون بمنزلة الطَّبَّاحِ الحاذق، يعمل لكلِّ قومٍ ما يشتهون من الطعام، وكذلك ينبغي للعالم أن يُحدِّثَ كلَّ قومٍ بما تحتمله قلوبهم وعقولهم من العلم»^(٢).

وقال أيوب السَّخْتِيَّانِي: «لا تحدِّثوا النَّاسَ بما لا يعلمون فتضروهم». وترجم البخاري: (باب من تركَ بعضَ الاختيار مخافة أن يقصر فهمُ بعضِ الناس فيقعوا في أشدَّ منه)^(٣).

وترجم أيضًا: (باب من خصَّ بالعلم قومًا دون قومٍ كراهية ألا يفهموا)^(٤).

(١) «فتح الباري» (١/١٦٢).

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي» للخطيب البغدادي.

(٣) «فتح الباري» (١/٢٢٤).

(٤) «نفسه».

مراعاة مقتضى الحال:

من بلاغة الكلام أن يكون -مع فصاحته- مناسباً لطبيعة المخاطب وحظه من العقل والفطنة واللغة والعلم.

وقديماً قال الحطيئة لأmir المؤمنين عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

تَحَنَّنْ عَلَيَّ هَذَاكَ الْمَلِيكَ فَإِنَّ لَكَ مَقَامَ مَقَالَا

وهذه إشارة لرعاية مقتضى حال المخاطب، إفهام كل قوم بطاقتهم، وأقدار قدرتهم.

وقال رجلٌ للشاعرِ بشار بن بُرد: «إنَّكَ لتجيء بالشيء الهجين المتفاوت»،

قال: «وما ذاك؟»، قال: «بينما تثير النقع، وتخلع القلوب بقولك:

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضِبْتَ مُضْرِيَةً^(١) هَتَكُنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ^(٢) دَمَا

إِذَا مَا أَعْرَنَّا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا

نراك تقول:

رَبَابَةٌ رُبُّهُ الْبَيْتِ تَصَبُّ الْخَلِّ فِي الزَّيْتِ

لَهَا عَشْرُ دَجَاجَاتٍ وَدِيكَ حَسَنُ الصَّوْتِ

(١) الشاعر هنا -مع أنه فارسي الأصل- وكان مولى لبني عُقيل، لكن تبعيته لهم كانت وثيقة متينة، وهم من قبيلة مُضَر، وهم موضعُ الفخر، بل لقد ألح في البيت التالي إلى أن مُضَر من أجداد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبالتالي فله هذه الأواصر التي يعتزُّ بها المسلمون، فهو يفخر بنفسه من وراء فخره بالعرب.

(٢) أي: سيوفنا، وإن لم يجر لها ذكر.

فقال: إنما القدرة على الشعر أن يوضع كل شيء في محله، فلا يوضع الهزل محل الجد، ولا الجد محل الهزل، وربابة هذه جارية لي، تنفعني بما تبعث لي من بيض دجاجها، وهذا الشعر الذي لا يُعجبك هو عندها أحسن من: «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل»^(١).

ومن مراعاة مقتضى حال المخاطب: أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «أوصني»، فقال: «لا تغضب»، فكرر سؤاله مراراً، وكان صلى الله عليه وسلم يجيبه في كل مرة: «لا تغضب»، مع أن كلمة (أوصني) تحتل الوصاية بأمور كثيرة أوامر كانت أو نواهي، وإنما راعى حال هذا الرجل؛ لأنه كان غَضُوباً، فاقصر على نهيهِ عن الغضب.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم للشباب: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج» الحديث.

فهنا راعى صلى الله عليه وسلم حاجة الشباب إلى الزواج، فخصَّهم بالخطاب دون الشيوخ؛ لقوة داعيهم إليه، وشدة حاجتهم إليه.

ومن مراعاة مقتضى حال المخاطب إذا كان طفلاً: ما رواه أنس رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقاً، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير، فكان إذا جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآه قال: «أبا عمير! ما فعل النُّغَيْرُ؟» نَعْرُ - وهو طائر - كان يلعبُ به.

(١) ومراعاة مقتضى الحال عند مخاطبة الأطفال واضح كل الوضوح في «الشوقيات الصغيرة»، وهي القصائد الرائدة التي قدَّمها للأطفال أمير الشعراء أحمد شوقي رحمه الله، وفيها امتزجت الحكمة والأدب الفكاهة والمرح والمرونة والبساطة والحوار الرمزي، بالمضمون التربوي من أجل إرساء قيم وأخلاق حميدة من خلال النص الشعري ذي البحور والقوافي السهلة.

فموت النغير لا يعني شيئاً للكبار، أمّا بالنسبة لهذا الطفل الصغير فقد كان لعبه به جزءاً من حياته، ولذا أحزنه، فقدّر النبي ﷺ مشاعر هذا الصغير، وشاركه وجدانياً، وداعبه بتصغير اسمه مع السَّجْع، مع إيجاز في تركيب الكلام، ووضوح في الألفاظ، ولهذا نظائر كثيرة في السنة الشريفة لا نطيل بذكرها.

رَفَعَ الْقَلَمُ عَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ؛

كلُّ تكليف مُنَاطٌ بأمرين: العقل، والقدرة.

والعقل الذي يُعتبر هو عقل البالغ، فصار التكليف من جهة العقل يعتبر فيه البلوغ بأماراته المعروفة.

فإن كان الشخص صبيّاً دون البلوغ لم يُكَلَّف، لقول رسول الله ﷺ:

«رَفَعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ»^(١).

العقلُ مناطُ التكليف؛

إنَّ العقل هو الجواز الذي يلجُّ به الإنسانُ إلى دائرة التَّكليف في الإسلام، وينتمي إليها، وغيبة العقل ترفع التكليف، ونقصانه - كحال السَّفَه - يُحِلُّ بمؤهَّلات التكليف.

والتكليف هو استدعاء حصول الفعل على قصد الامتثال، فيُشترط فيه:

فهم المكلف لما كُلفَ به، بحيث يقدر على تصور ذلك الأمر، وفهم مراد الله عَزَّوَجَلَّ بقدرٍ يتوقف عليه الامتثال.

(١) رواه الإمام أحمد (٢٤٦٩٤)، والدارمي (٢٢٩٦)، وابن حبان (١٤٢)، وغيرهم، وقال محققو

«المسند»: «إسناده جيد».

ومن المُحال عادةً وشرعاً الامتثالُ ممن لا شعور له بالأمر، وبعبارةٍ أخرى: يقتضي التكليف الامتثال والاستجابة، ومن كان عاجزاً عن الفهم كان عاجزاً عن الاستجابة، فيكون تكليفه عبثاً، والشارع مُنزه عن العبث.

وأهلية الأداء: هي صلاحية الإنسان لصدور الفعل منه على وجهٍ يُعْتَدُّ به شرعاً، وهي لا توجد عند الشخص إلا إذا بلغ سنَّ التمييز أي (سبع سنوات) لقدرته حينئذٍ على فهم الخطاب ولو على سبيل الإجمال، ولقدرته في هذه السن على القيام ببعض الأعباء، فتثبت له أهلية أداءٍ (قاصرة)، فإذا اكتمل بلوغه ورشده ثبتت له أهلية الأداء (كاملة) ويكون أهلاً للتحمل والأداء.

ومن هنا فإنَّ الطفل ممیزاً كان أو غير مُمیزٍ لا يجبُ عليه شيءٌ من العبادات، لكن الطفل المميز الذي يفرق بين الصلاة - مثلاً - واللعب تصحُّ صلاته وإن كانت غير واجبةٍ عليه، والأعمال الصالحة التي يعملها كالصلاة والصيام لا تقع عنه فريضةً لكونه غير مُكَلَّفٍ، ولكنه يُثاب عليها وتصح منه.

وهكذا يُثاب الأطفال على العمل الصالح كالصلاة والصيام والحج والعمرة والذكر، وإن لم تكن واجبةً عليه، على حين لا يُكتب عليه وزرٌ إذا ارتكب شيئاً من المحظورات.

ولعلَّ الحكمةَ من ذلك تعويدهم على الأعمال الصالحة وتدريبهم عليها، حتى يصير أداؤها عادةً مستمرة، وليسهل عليهم أداؤها إذا صاروا مكلفين، وهذا من باب (التدرُّج) في التربية مع مراعاة المرحلة العمرية كما في حديث: «مروا أولادكم بالصلاة تسبع ...» الحديث.

ومبدأ (التدرج) في التربية - خلال تنشئة الطفل - يستلزم مخاطبته بما يتناسب مع سنه وإدراكه وتمييزه.

لم يثبت أبداً في الوحي الشريف أَنَّ الطفل يُعاقب بالنار إذا ارتكب مُحَرَّمًا؛

لم يرد أي نص في القرآن الكريم ولا في السنة الشريفة يدل على أَنَّ الطفل يُعاقب إذا ارتكب ما يُعَدُّ في حقِّ البالغين ذنباً إذا عملوه.

إنما ثبت التوجيه والتعليم والنصح والإرشاد بلطف ورفق، كما في قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يا غلام، إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ: احفظ الله يحفظك» الحديث.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَخَذَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَيْفَ كَيْفٌ، أَرِمَ بِهَا، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟» وفي رواية: «أَنَا لَا تَحُلْ لَنَا الصَّدَقَةَ؟»^(١).

مع أَنَّهُ كَانَ صَغِيرًا لَمْ يُكَلَّفْ، بَلْ أَدَّبَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَبَّاهُ بِلُغَةٍ تُنَاسِبُهُ، وَلَمْ يَتَوَعَّدْهُ بِعَذَابِ النَّارِ، أَوْ يُثَبِّتَ لَهُ اسْتِحْقَاقَ الْوَعِيدِ فِي الْآخِرَةِ.

وَبَعْضُ الْآبَاءِ يُخَوِّفُونَ أَبْنَاءَهُمْ بِعَذَابِ النَّارِ، وَهُمْ يَقْصِدُونَ رَدْعَهُمْ وَزَجْرَهُمْ، كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ لَطْفَلِهِ: «إِذَا كَذَبْتَ يَسْوَدُّ وَجْهُكَ، وَيُعَذِّبُكَ اللَّهُ بِالنَّارِ».

وهذه النية الحسنة لا تشفع لك في هذا السلوك السيئ - أعني وقوعك أنت في الكذب - مع أَنَّك تنهاه عن الكذب!

(١) تقدّم تخريجه (ص ٤٣).

لأن الواقع أنَّ الذي يكذب لا يَسْوَدُّ وجهه ولون بَشْرته سوادًا حَسِيًّا في الدنيا، وأنَّ الطفلَ إذا كذب لا يعذبه الله بالنار؛ لأنه غيرُ مُكَلَّفٍ، ولا عذاب عليه في الآخرة.

فإن قلت: فكيف أنفره من الكذب؟

فالجواب: بأن تحبيه في الصدق، وتكافئه عليه، وليس بأن تخالفه إلى ما تنهاه عنه من الكذب، وبأن تنفّرهُ من الكذب وتُبَيِّنُ له قبحه، وقصدك الحسن لا يُسَوِّغُ لك أن تُشَوِّه عقل الطفل بما تَنَزَّهَ الله عنه من معاقبة الطفل الكاذب بالنار.

فإذا سألك طفلك: هل إذا كذبتُ أدخل النار؟

فأجبه: لا يا بني؛ لأنَّ الله رحيمٌ ورحمته واسعة، ولا يُعاقِبُ الأطفال، ولكن من شَبَّ على شيءٍ شابَّ عليه، فإذا تَعَوَّدْتَ على الكذب في صغرك صار عادةً مُسْتَمِرَّةً حين تكبر، وحينئذٍ تُكْتَبُ عليك سيئة، ومن غلبت سيئاته حسناته فإنه مُهَدَّدٌ بعذاب النار، أما إذا التزمتَ الصدق وتحريته وأنت صغير فستُكْتَبَ لك حسناتٌ تُوضَعُ في ميزانِ حسناتك مع أنَّك صغير.

هذا المُكَلَّفُ فكيف بالطفل؟

لقد حرَّم الشرع الشريف على المسلم أن يجزِمَ بأنَّ فلانًا سيدخل الجنة، أو بأنَّ يقطع بأنَّ فلانًا -بعينه- سيدخل النار^(١)، لكننا نرجو للمحسن الجنة، ونخاف على المسيئ النار.

(١) إلا من جَزَمَ الوحي بدخوله الجنة أو النار على سبيل التعيين.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلُكُم» ^(١) ^(٢)

وعن جُنْدُب بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: «مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى ^(٣) عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لِفُلَانٍ، وَأَحْبَبْتُ عَمَلَكَ» ^(٤).

وعن ضَمْصَم بن جَوْسٍ قَالَ: دَخَلْتُ مَسْجِدَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا أَنَا بِشَيْخٍ مُصَفَّرٍ رَأْسَهُ بَرَّاقٍ الشَّيْخُ: يَا يَمَامِيُّ تَعَالَ لَا تَقُولَنَّ لِرَجُلٍ أَبَدًا: لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ، وَاللَّهُ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَبَدًا، قُلْتُ: وَمَنْ أَنْتَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ؟ قَالَ: أَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ، قُلْتُ: إِنَّ هَذِهِ لَكَلِمَةٌ يَقُولُهَا أَحَدُنَا لِبَعْضِ أَهْلِهِ أَوْ لَخَادِمِهِ إِذَا غَضِبَ عَلَيْهَا، قَالَ: فَلَا تَقُلْهَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «كَانَ رَجُلَانِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَوَاحِشَيْنِ أَحَدُهُمَا مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ وَالْآخَرُ مُذْنِبٌ، فَأَبْصَرَ الْمُجْتَهِدُ الْمُذْنِبَ عَلَى ذَنْبٍ، فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ لَهُ: خَلْنِي وَرَبِّي، قَالَ: وَكَانَ يُعِيدُ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَيَقُولُ: خَلْنِي وَرَبِّي، حَتَّى وَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَاسْتَعْظَمَهُ، فَقَالَ: وَنَحَكَ أَقْصِرْ، قَالَ: خَلْنِي وَرَبِّي، أُبْعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ أَبَدًا أَوْ قَالَ: لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَبَدًا، فَبُعِثَ إِلَيْهِمَا

(١) برفع الكاف: أشدهم هلاكًا، وبفتحها: هو جعلهم هالكين، لا أنهم هلكوا في الحقيقة.

(٢) رواه مسلم (٢٦٢٣)، وأبو داود (٤٩٨٣).

(٣) يتألى: يُقسم، فهو لم يقتصر على القول على الله بغير علم، لكنه أقسم بالله تأكيدًا لدعواه.

(٤) رواه مسلم (٢٦٢١)، وابن حبان (٥٧١١)، والطبراني (١٦٧٩).

(٥) مُصَفَّرٌ: صبغ رأسه بصفرة.

(٦) هو شدة سواد العين في شدة بياضها.

مَلَكٌ فَقَبِضَ أَرْوَاحَهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَهُ جُلٌّ وَعَلَا، فَقَالَ رَبُّنَا لِلْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ عَالِمًا أَمْ كُنْتَ قَادِرًا عَلَى مَا فِي يَدَيَّ أَمْ تَحْظَرُ رَحْمَتِي عَلَى عَبْدِي؟ أَذْهَبَ إِلَى الْجَنَّةِ، يُرِيدُ الْمُنْذَبَ، وَقَالَ لِلْآخَرِ: أَذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلِّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَأَخَّرَتْهُ»^(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عَنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهِمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ، لَمْ يَنْتَسِ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ، لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ»^(٢).

وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبِيًّا، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبِيِّ قَدْ تَحَلَّبَ ثَدْيُهَا تَسْعَى، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبِيِّ أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اتْرُكُوا هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟ قُلْنَا: لَا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَلَّا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: اللَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا»^(٣).

وقال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا أَحَبُّ أَنْ حِسَابِي جُعِلَ إِلَى وَالِدِيَّ، رَبِّي خَيْرٌ لِي مِنْ وَالِدِيَّ»^(٤).

(١) انظر تحريجه (ص ١٠٢)

(٢) رواه البخاري (٦٤٦٩).

(٣) رواه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في «حُسن الظَّنِّ بِاللَّهِ» رقم (٣٧).

فترغب الناس (المُكَلَّفِينَ) في رحمة الله التي وَسَّعَتْ كُلَّ شَيْءٍ يَحْمِيهِمْ من اليأس من رحمة الله بسبب ما ارتكبوا من الذنوب.

ولنا عِبْرَةٌ في حديث الرجل الذي قتل تسعةً وتسعين نفسًا وأراد التوبة، فسأل عابدًا جاهلًا، فاستعظم ذنبه، وقال: ليس لك توبة، فقتله، فكمَّلَ به المئة؛ لأنه قَنَطَه من رحمة الله تعالى.

وقال رسول الله ﷺ: «الكبائر: الشرك بالله، والإياس من رَوْحِ الله، والقنوط من رحمة الله»^(١).

وعن أمير المؤمنين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «الفقيه كل الفقيه: من لم يُقْنَطِ النَّاسَ من رحمة الله، ولم يُؤَيِّسْهُمْ من رَوْحِ الله، ولم يُؤْمَنْهُمْ من مكر الله، ولا يدعُ القرآنَ رغبةً عنه إلى ما سواه»^(٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا والله لا يُلقِي اللهُ حَبِيْبَهُ فِي النَّارِ»^(٣).

ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: ١٨].

فما تقدم من النصوص يدل على أَنَّ المُكَلَّفَ نَفْسَهُ لا يقال له: «أنت في النار»، مع أَنَّهُ قد يرتكب من المخالفات ما يستحق به أن يُعَاقَبَ بالنار، ولأنَّ في

(١) رواه البزار في «مسنده» (١٨)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٢٠٥١).

(٢) «سنن الدارمي» (١٠١/١).

(٣) أخرجه الحاكم (١٧٧/٤)، والإمام أحمد (١٠٤/٣)، وصححه الحاكم، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، والألباني في «الصحيحة» (٢٤٠٧).

ذلك تقنيط الناس من رحمة الله الواسعة، فكيف يُقال لطفلٍ لم يجرِ عليه القلم: «ستدخل النار؛ لأنك لم تطع أمك».

في حوار بين طفلين سأل أحدهما صاحبه: «هل أمك تقول لك: إن الله سيدخلك النار؟»، فأجابه الثاني: «نعم، فماذا عن أمك؟»، قال: «تقول لي الشيء نفسه، ولكن هل سندخل النار حقاً؟» فأجابه: «نعم، فكلهم يقول ذلك»، قال: «إن كُنَّا سندخل النار حقاً، فلماذا نسمع كلامهم إذن؟».

أكثر من عبارة «الله يحب» و«الله لا يحب»:

قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال سبحانه: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُوصٍ﴾ [الصف: ٤]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

[المائدة: ٦٤]، وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ، لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [الروم: ٤٥].

بَشُرُوا الْأَطْفَالَ وَلَا تَنْفُرُوهُمْ؛

هكذا نرى أَنَّ الفعلين (يحب) و(لا يحب) قد تكررا عشرات المرات في القرآن الكريم، وهذا من أفضل ما يُوجَّه به المُرَبِّي الأطفال لتعليمهم وتوجيههم، لكن بشرط أن تصف فعل كذا بأنَّ الله لا يحبه، دون أن تُعيَّنه كشخص، فلا تُقلِّ له: «الله لا يحبك إذا فعلت كذا»، وقل: «الله لا يحب هذا الفعل».

وإذا أردت أن تُنمِّي فيه بغض الكذب، وتحري الصدق، تقول له: «ألست يا بُنَيَّ تحب الله، وتحب ما يحبه الله؟ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الصَّدْقَ، وَلَا يُحِبُّ الْكُذْبَ».

إِنَّ المطلوب هو أن نغرس في وجدان الطفل محبة الله عَزَّجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بحيث يشاق إلى الصلاة، وينزع إلى الفضائل، ومما يتنافى مع هذا حشو عقله -وهو في سن الطفولة الباكرة- بأننا نفعل الطاعات كي لا يعذبنا الله في النار.

أمّا قصص الإهلاك، وعذاب القبر، وعذاب جهنّم فيمكن الحديث عنها في مرحلة لاحقة بإجمال، إلى أن يبدأ تكوّن الوازع الديني والضمير الخلقي والضمير الاجتماعي عنده، وحين يتأثر بالكبار، ويكون أكثر استجابة لتوجيهاتهم.

إنّ الترغيب والترهيب معاً يُجديان مع الكبار؛ لأنهم مكلفون محاسبون على أعمالهم، قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿[الحجر: ٤٩، ٥٠]، ولأنهم إن عصوا الله تعالى فإنهم يستحقون العذاب على عكس حال الأطفال.

عَلَّمَهُ كَيْفَ يَحِبُّ اللَّهُ تَعَالَى؟

١- عن طريق تعريفه بأسماء الله الحسنى، وصفات جماله وعظمته وجلاله، وأن يرتبط ذكرُ الله في قلبه بالحب والرحمة والإحسان والعفو والجمال.

٢- أن نُعرفه بآثار هذه الأسماء الحُسنى على الوجود كلّ، وعلى الإنسان بوجهٍ خاص.

٣- عن طريق تعديد نعم الله عليه الظاهرة والباطنة مع نسبتها إلى الله سُبحانَهُ وتعالى، وأنّ علينا أن نشكرَ له نعمه سبحانه.

٤- أن نعلمه أن يسأل الله تعالى حوائجه، ويتوكل عليه، كما في حديث ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «احفظ الله يحفظك».

٥- أن نروي له قصص الأنبياء والصحابة والصالحين، بحيث ترسخُ عنده من خلالها محبته لله عزَّ وجلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ركز على الترغيب دون الترهيب:

يحتاج الطفل إلى ترسيخ شعوره بالأمان والحنان والثقة، والتعلق برحمة الله الواسعة، وأن نعلمه أن الدين نظام إلهي يهديننا في حياتنا إلى ما يُرضي الله تعالى، ويسعدنا في الدنيا، ويهديننا في الآخرة إلى جنة الرضوان دار النعيم ودار السلام، ودار الخلد، حيث السعادة والسرور، بغير صخب ولا نصب ولا حزن ولا ألم. ويحتاج إلى أن ينظر إلى الحياة على أنها رحلة ممتعة، ولو حدث فيها بلاء وشر وألم، فإن الصبر عليه احتساباً ستكون عاقبته الأجر الجزيل ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وقال النبي ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١).

ولأن دخول الجنة هو الغاية العظمى، فإن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَوْحَى إلى رسوله ﷺ القرآن الكريم والسنة الشريفة؛ كي يعلمنا من خلالهما الأعمال التي تُدْخِلُنَا الْجَنَّةَ؛ فنعملها، والأعمال التي تحرمننا من دخول الجنة؛ لتجنبها، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿[المائدة: ١٥، ١٦].

وقد يرد ذكر النار بصورة عابرة، فلنمرّه بإجمال دون تفصيل؛ لأن الطفل الصغير يعجز عن استيعاب المعنى الحقيقي لجهنم -أعاذنا الله منها برحمته

(١) رواه مسلم (٢٩٩٩).

وكرمه-، ولأن تفكيره متحجّر (Concrete) يدرك الأمور المحسوسة فقط دون الغيبية المجردة (Abstract) وإذا ذُكِرت أمامه النارُ فإنَّ ذهنه ينصرف إلى موقد الغاز في المطبخ، وعليه فإنَّ مخاطبته بشيءٍ لا يدركه لا يُجدي له نفعًا.

وقد يؤدي تخويفه بعذاب النار إلى الكوابيس والأحلام المزعجة والتبول غير الإرادي.

وإذا فصلنا قصص التعذيب فربما يفهمها بطريقة مُحطّئة، إن لم نحكِها له بطريقة حَذِرة، وواعية بكيفية إدراكه ما نقول.

ولأنَّ الطفل يُثاب بالفعل إذا عمل الأعمال الصالحة، فلنستعمل ذلك من أجل ترغيبه فيها وتشجيعه عليها، مثل أن نقول له: «إذا تركت هذا لوجه الله، فإنَّ الله سيكتب لك حسناتٍ»، «إذا صدقتَ في حديثك، فإنَّ الله يحب الصادقين، وسيكافئك على صدقك»... وهكذا.

ولكي ندرك أهمية مخاطبة الأطفال على قدر عقولهم نسرّد هذه القصة على لسان فتاة تحكي عن ذكريات طفولتها، فتقول: «حدّثنا المعلمة عن أهوال يوم القيامة، وأنا يجب أن تنتظره في يومٍ من أيام الجمعة، وشرحت لنا كيف أننا حينها سنُفاجأ بصوت النفخ في الصور، وهو بوق كبير سيسمعه كلُّ الناس، وكُنّا نسكن في مواجهة قطار السكة الحديدية، وكُنّا لا أفقه شيئاً عن العبادات، لكن كُنّا نعلم أن من برّ الوالدين أن أُرَتَّب المكان لأمي كي ترضى عني، فمن ثَمَّ كُنّا أترقّب ليلة الجمعة كلّ أسبوعٍ، وأستيقظ قبل الفجر مترقّباً صوت النفخ في الصور، وكان القطار إذا مرّ أمام بيتنا يُصدر صوتاً عاليًا بصورة مفاجئة

مما كان يرعيني لأول وهلة حيث كنتُ أظنه صوت نفخة الصور، فكنت أهب من نومي فِرْعَةً، وأظُلُّ أجتهد في ترتيب البيت وتنظيفه كي أضع حسناتٍ في ميزان حسناتي حين تقومُ القيامة التي أتوقعها في ذلك اليوم.

بعد ذلك أفهمتني جدتي رَحِمَها اللهُ أَنَّ هناكَ علاماتٍ للقيامة صُغْرَى وكُبْرَى، وَأَنَّ النَّفْخَ في الصور من العلامات الكُبْرَى، لكن لا بُدَّ أن يسبق ذلك طلوعُ الشمس من مغربها.

وَبَيَّنَتْ لي أَنَّ اللهَ عَزَّجَلَّ حليمٌ ورحيمٌ بالمؤمنين، ولا يعذب سوى الكفار العصاة، وهو سبحانه غفور رحيم، وحين نستغفره يُثَقِّلُ ميزانَ حسناتنا في حين يخف ميزان سيئاتنا.

وسألتُ والدتي أيضًا: ما الذي يمكنني عمله كي أنجو من العذاب؟ فأجابتنني بآني (غير مُكَلَّفة بعد، ولك لو أتيت بعباداتٍ كثيرةٍ يثقل ميزان حسناتك).

مرَّت عليَّ بعد ذلك فترة أفعل ما أريد، وأتكل على أَنَّ ميزان سيئاتي معطل إلى أن أكبر، (فيشتغل)، ولما لاحظتُ جدتي رَحِمَها اللهُ ذلك مني، قالت لي: (إنك حقًا غير مُكَلَّفة، لكن ميزان حسناتك يعمل، وكلما أكثرِ من الأعمال الصالحة ثقل ميزان حسناتك وتكونين قد سبقتِ إلى تثقيله، وتعودُكِ على فعل الصالحات يُسهِّلُها عليك، ويحوها إلى عادة مما يعينك على أدائها بسلاسة حين تصبحين مكلفة).

بدائل التخويف بالعذاب:

- الأجدى عند إرادة صرف الطفل عن سلوكٍ غير حميد هو أسلوب «التحفيز الإيجابي»^(١)، والترغيب لا الترهيب.
- حب إليه السلوك المرغوب عن طريق ذكر الفوائد الإيجابية التي ستعود عليه إذا هو فعله، مثل أن تقول له: «إنَّ الله يحبُّك، وسيحبُّك أكثر إذا أطعتَ والديك».
- اربط الأمور المحببة إلى الطفل بأنها من عند الله، كالرزق، والصحة، والعافية، وحُسن الخَلقة، وهكذا.
- يمكن عقاب الطفل عقاباً تربوياً لكفِّه عن السلوك السيئ على نحو ما فصَّلناه في «قواعد وضوابط العقاب التربوي» كالحرمان من الامتيازات التي يُحبُّها، وتحمل عواقب سلوكه.



(١) انظر: (ص ١٦٢).

النوع السادس

عقاب الطفل بالصراخ في وجهه

يخاف الطفل من الأشياء الجديدة عليه، فصوت الأم -على الرغم من اطمئنان الطفل إليه- إلا إنه عندما تصرخ الأم في وجه طفلها لأول مرة، فإنه يصير صريعاً للخوف، ولن يكون لصوتها حينئذ أثرٌ مهدئٌ ومُطمئن لقلبه كما تعود، فخوف الطفل يُستثار من خلال أي صوت لا يكون على ألفة سابقة به، كالأصوات المرتفعة المفاجئة.

الأصل في المربي أن يتحلى دائماً بالهدوء وخفضِ الصوت وتجنُّبِ الانفعال مهما كانت درجة الخطأ الذي ارتكبه الطفل، فإذا خشيت الأم أن يفلت زمامها فعليها أن تبتعد عن الطفل إلى أن تهدأ، وهذا مما يساعدها على التفكير بحكمةٍ وهدوء، كما أن ابتعادها المفاجئ عن الطفل ينبهه إلى أنه أخطأ.

الحياة كثيراً ما تحبط الكبار، وكذلك الأطفال يُحبطونهم، وهذا الإحباط يدفعهم إلى الانفعال والانفجار في وجه الطفل بالصراخ، وقد يجد المربي في ذلك أسلوباً فعالاً وفورياً وسريعاً يُنَفِّس من غليان الغضب داخل صدره، فكأنه (يعالج نفسه) بهذا الصراخ، والسؤال: هل هذا يصحح سلوك الطفل ويعالجه؟ الحقيقة أن الصراخ يوتر الطفل ويؤذي مشاعره باعتباره هجوماً عليه وعدواناً موجَّهاً إليه.

والصراخ يغرسُ العصبية في نفس الطفل، وقد يجعله مشاغبًا عنيدًا كثيرَ الحركة عدوانيًا مع أقرانه وحتى أهله.

وهو (حلُّ) فاشل للمشكلات، يعكس ضعف موقف من يصرخ، وإفلاسه من الوسائل الأخرى للإقناع.

والصراخ في وجه الطفل هو (ردُّ فعلٍ) بسبب حدوث شيء وقع، ولا نستطيع تغييره، أو بسبب عدم انصياع الطفل لأمره بالكف عن الضوضاء مرات ومرات، وغير ذلك من الأسباب.

والمطلوب هنا (الاستجابة) المتأنية وليس (رد الفعل) الطائش المتعجل، وتتم (الاستجابة) عبر مراحل ثلاث:

١- قِف:

إذا انتبأتك نزعة (Impulse) الصراخ، فقم بإيقافها مؤقتًا (Pause) وكأنك تضغط على (مكابح) السيارة المسرعة.

٢- فَكَّر:

أَجْرِ حوارًا داخلَ نفسك مع نفسك:

أنا الآن تتابني نزعتان متصارعتان:

- فجاء مني يؤزني أزا كي أصرخ في وجه الطفل.

- وجزء آخر في داخلي يحبه، ولا يريد أن يؤذيه.

وصراخي يصيبه بالرعب والفرع، وقد يدفعه إلى الكذب والمراوغة كي ينجو من غضبي، فالصراخ ضرر محض ولا نفع فيه، ولن يجدي البكاء على اللبن المسكوب.

وأنا قدوة لابني، فإذا انسقت وراء نزعة الصراخ فكأنّي أعلمه أن هذه هي طريقة التعامل مع الآخرين حين يُحبط أو يغضب^(١).

٣- قرّر:

قررت أن أكظم غيظي رحمةً بنفسي وبطفلي.

مثال عملي:

تحتفظ الأم (بمزهريّة) زجاجة ثمينة أهدتها إليها أمّها، وقد تعرّس ابنها فاصطدم بها، فوقعت وتحطّمت.

التصرف السليم هنا: أن تكبح الأم نزعة العدوان على ابنها بالصراخ، وتقول لنفسها: «لا تنحازي إلى ردّ الفعل الأسهل، فالصراخ أسهل بكثير من الجهد المبذول في الحوار والتعليم والتوجيه».

- عند أول غضبها تقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، ثم: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبي، وأخلف لي خيراً منها».

- ثم تستحضر: كما أن لكل شيء أجلاً، فكذلك هذه (المزهريّة) حان أجلها، وتقول: «قدّر الله وما شاء فعل».

- لا بدّ أن يرى الطفل أنّ كل ما يهتما هو سلامته، وأنه لم يتأذّ بالزجاج المكسور، وتقول له: «أنت عندي أئمن وأعز من مجرد (مزهريّة) يمكن تعويضها لاحقاً».

- تعلمه كيف يتحاط عند التعامل مع الأشياء الزجاجية، وتحتاط هي بوضعها في أماكن آمنة لا تتعرض فيها للكسر.

(١) وكذلك إذا كانت لغة الصراخ والصياح هي السائدة حين يتنازع الأبوان أمام أطفالهما، فإنها تعلمهم أن هذا هو الملجأ إذا اختلفوا مع بعضهم أو زملائهم أو حتى والديهم.

النوع السابع

عقاب الطفل بالدعاء عليه

الأبوة حماية وليست جنائية:

نحن - كما أمرنا الله تعالى - نأخذ بالأسباب لنبلغ ما نريد، ومع ذلك قد تقصر عن بلوغه الأسباب، فيأتي الدعاء والاستغاثة والابتهاال إلى من لا يلجأ المضطر إلا إليه، ولا يكشف ضرَّ المضرورين سواه، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

إنَّ الدعاء سببٌ يُبَلِّغُنَا رجاءنا، ويحقق آمالنا، ولذلك قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ^(١) [غافر: ٦٠].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس شيءٌ أكرمَ على الله تعالى من الدعاء» ^(٢).

وروي عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «إنَّ الدعاء ينفع مما نزل، ومما لم ينزل،

فعليكم عباد الله بالدعاء» ^(٣).

(١) رواه الترمذي رقم (٣٢٤٧)، والإمام أحمد (٢٦٧/٤)، وهو في «صحيح الأدب المفرد» رقم (١٧٥٧).

(٢) رواه الترمذي رقم (٣٣٧٠)، وابن ماجه (٣٨٢٩)، وهو في «صحيح الأدب المفرد» رقم (٥٤٩).

(٣) رواه الترمذي رقم (٣٥٤٨)، وقال: «غريب»، وانظر: «هداية الرواة» (٢/٤١٠) رقم (٢١٧٥).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يردُّ القدرُ إلَّا الدعاء»^(١).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من لم يسألِ اللهَ يَغْضَبِ عليه»^(٢).

ومن أحسن ما قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يا مَنْ أَحَبَّ عِبَادِهِ إِلَيْهِ مَنْ سَأَلَهُ، فَأَكْثَرَ سَوْأَلَهُ، وَيَا مَنْ أَبْغَضَ عِبَادَهُ إِلَيْهِ مَنْ لَمْ يَسْأَلْهُ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ غَيْرُكَ يَا رَبُّ!»^(٣).

لَا تَسْأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً وَسَلِ الَّذِي أَبَوَاهُ لَا تُحْجَبُ
اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤْأَلَهُ وَبُنَيَّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا»^(٤) أي خاليتين.

ومع أَنَّ الدعاء وسيلة لتحصيل أعظم خيرات وبركات الدُّنيا والآخرة، إِلَّا أَنَّهُ عِبَادَةٌ سَهْلَةٌ يَسِيرَةٌ لَا تُكَلِّفُ جَهْدًا، وَلَا تُلْحِقُ بِالِدَاعِي مُشَقَّةً، وَمَنْ ثَمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعْجَزَ النَّاسُ مَنْ عَجَزَ عَنِ الدَّعَاءِ، وَأَبْخَلَ النَّاسُ مَنْ بَخَلَ بِالسَّلَامِ»^(٥)، وَلِذَلِكَ كَانَ التَّوَانِي فِيهِ أَشَدَّ الْعَجْزِ، وَمَنْ عَجَزَ عَنْهُ -مَعَ سَهُولَتِهِ- فَهُوَ أَعْجَزَ عَنْ غَيْرِهِ.

(١) رواه الإمام أحمد (٢٨٠/٥)، وابن ماجه (٩٠)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٥٤).
(٢) رواه الإمام أحمد (٤٤٣/٢)، والترمذي رقم (٣٣٧٣)، وابن ماجه (٣٨٢٩)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (٢٦٥٤).

(٣) رواه ابن أبي حاتم وغيره.

(٤) رواه أبو داود رقم (١٤٨٨)، والترمذي رقم (٣٥٥٦)، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٨٧٦)، وجوّد إسناده الحافظ في «الفتح» (١٤٣/١١).

(٥) رواه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (١٠٤٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٤٤٩٨)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيحة» رقم (٦٠١).

وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ يُسْتَجَابُ لِهِنَّ، لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد لولده»^(١).

إِنَّ الْإِحْسَانَ إِلَى الذَّرِيَةِ بِالِدُّعَاءِ لَهُمْ مِنْ سِنَنِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمْ وَعَلَى خَاتَمِهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - فَهَذَا خَلِيلُ الرَّحْمَنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعُو اللَّهَ عَزَّجَلَّ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَمْنًا وَاجْتَنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

ودعا أيضًا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءً﴾ [إبراهيم: ٤٠]، ودعا هو وإسماعيل، فقالا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨]، ودعا نبيُّ الله ذكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨]، وأثنى الله تعالى على عباد الرحمن بأنهم يدعونهُ: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وأثنى على عبده الذي يدعوه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

أَمَّا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَسَيِّدُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ إِلَى الْعَالَمِينَ - صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ وَبَارَكَ عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ - : «فَقَدْ كَانَ يُؤْتَى بِالصَّبِيَّانِ، فَيُبْرَكُ عَلَيْهِمْ»^(٢)،

(١) رواه أبو داود رقم (١٥٣٦)، والترمذي رقم (١٩٠٥)، وابن ماجه رقم (٣٨٦٢)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (٥٩٦).

(٢) أي: يدعو لهم بالبركة، ويقرأ عليهم الدعاء بالبركة، وقيل: يقول: بارك الله عليكم، (ويجنحهم) بنحو تمرٍ من تمر المدينة المشهود له بالبركة ومزيد الفضل.

وَيُحَنِّكُهُمْ، وَيَدْعُو^(١) لَهُمْ^(٢).

وكان ربما خَصَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذريته الشريفة وآل بيته بالدعاء: فعن
أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِي بَيْتِهَا، فَأَتَتْهُ فَاطِمَةُ بِبُرْمَةٍ، فِيهَا
خَزِيرَةٌ^(٣)، فَدَخَلَتْ بِهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهَا: «ادْعِي زَوْجَكَ وَابْنَيْكَ». قَالَتْ: فَجَاءَ عَلِيُّ
وَالْحُسَيْنُ وَالْحَسَنُ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ، فَجَلَسُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تِلْكَ الْخَزِيرَةِ، وَهُوَ عَلَى
مَنَامَةٍ لَهُ^(٤) عَلَى دُكَّانٍ تَحْتَهُ كِسَاءٌ خَيْرِيٌّ. قَالَتْ: وَأَنَا أَصْلِي فِي الْحَجَرَةِ، فَأَنْزَلَ
اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، قَالَتْ: فَأَخَذَ فَضْلَ الْكِسَاءِ، فَغَسَّاهُمْ بِهِ، ثُمَّ
أَخْرَجَ يَدَهُ، فَأَلَوَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخَاصَّتِي، فَأَذْهِبْ
عَنْهُمْ الرِّجْسَ، وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا، اللَّهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي وَخَاصَّتِي، فَأَذْهِبْ عَنْهُمْ
الرِّجْسَ، وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا». قَالَتْ: فَأَدْخَلْتُ رَأْسِي الْبَيْتَ، فَقُلْتُ: وَأَنَا مَعَكُمْ يَا
رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ^(٥)، إِنَّكَ إِلَى خَيْرٍ^(٦)».

(١) بالإمداد والإسعاد والهداية إلى طرق الرشاد، كما في «فيض القدير» (١٩٢/٥).

(٢) رواه من حديث أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَبُو دَاوُدَ (٥١٠٦)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٤٢٥٩)، وغيره.

(٣) الخزيرة: كالعصيدة، إلا أنها تُطْبَخُ بِلَحْمٍ يُقَطَّعُ صَغَارًا.

(٤) على منامة له: قيل: المراد بها القטיפعة.

(٥) ظاهره عدم دخولها فيهم، وظاهر القرآن الدخول، فيحتمل أن المراد بكونها إلى خير أنها داخلة البتة، كما هو ظاهر سوق القرآن، فلي تأمل.

(٦) رواه الإمام أحمد (٢٦٥٠٨)، وقال محققو «المسند»: «حديث صحيح» (١١٩/٤٤).

وعن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: ضَمَّنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ عَلِّمْنِي الْحِكْمَةَ»^(١)، وَفِي رَوَايَةٍ: «عَلِّمْنِي الْكِتَابَ».. وَبِفَضْلِ دَعْوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْبَحَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي كِبَرِهِ حَبْرَ الْأُمَّةِ وَتَرْجَمَانَ الْقُرْآنِ.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَتْ بِي أُمُّ سُلَيْمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَرْزَرْتَنِي بِنَصْفِ خِمَارِهَا، وَرَدَّتْنِي بِبَعْضِهِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَذَا أَنَيْسُ ابْنِي أَتَيْتُكَ بِهِ يَخْدُمُكَ، فَادْعِ اللَّهَ لَهُ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ». فَوَاللَّهِ إِنَّ مَالِي لَكَثِيرٌ، وَإِنْ وَلَدِي وَوَلَدُ وَلَدِي يَتَعَادُونَ عَلَى نَحْوِ مِنْ مِئَةِ الْيَوْمِ^(٢).
وَعَنْ أُمِّ سُلَيْمٍ أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَسُ خَادِمُكَ، ادْعُ اللَّهَ لَهُ، قَالَ: فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ». قَالَ حَبَّاجٌ فِي حَدِيثِهِ: قَالَ: فَقَالَ أَنَسُ: أَخْبَرَنِي بَعْضُ وَلَدِي، أَنَّهُ قَدْ دُفِنَ مِنْ وَلَدِي وَوَلَدِ وَلَدِي أَكْثَرُ مِنْ مِئَةٍ^(٣).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سُلَيْمٍ، فَأَتَتْهُ بِتَمْرٍ وَسَمْنٍ، فَقَالَ: «أَعِيدُوا تَمْرَكُمْ فِي وَعَائِكُمْ، وَسَمْنَكُمْ فِي سِقَائِكُمْ، فَإِنِّي صَائِمٌ» ثُمَّ قَامَ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، فَصَلَّى بِنَا صَلَاةً غَيْرَ مَكْتُوبَةٍ، فَدَعَا لِأُمِّ سُلَيْمٍ وَأَهْلِ بَيْتِهَا، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ لِي خُوَيْصَةً. قَالَ: «وَمَا هِيَ؟» قَالَتْ: خَادِمُكَ أَنَسُ. فَمَا تَرَكَ خَيْرَ آخِرَةٍ وَلَا دُنْيَا إِلَّا دَعَا لِي بِهِ، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ مَالًا وَوَلَدًا، وَبَارِكْ لَهُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٣٣٤)، وَمُسْلِمٌ (٢٤٨٠)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٨٢٤)، وَابْنُ مَاجَةَ (١٦٦)، وَالطَّبْرَانِيُّ (١٠٥٨٨).

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٤٨١).

(٣) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ (٢٧٤٢٦)، وَابْنُ الْبُخَارِيِّ (٦٣٧٨)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٦٣٧٩)، وَمُسْلِمٌ (٢٤٨٠)، وَغَيْرُهُمْ.

فيه». قال: فإني لمن أكثر الأنصار مالا، وحدثني أمينة ابنتي: أنه دُفِن من صُلبي إلى مَقْدَم الحَجَّاج البصرةَ تسعةً وعشرون ومئة^(١).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: دعا لي رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «اللهم اكْثِرْ مَالَهُ وولده، وأَظِلْ حَيَاتَهُ»، فالله أَكْثَرَ مَالِي حَتَّى إِنَّ كَرَمًا لِي لَتَحْمِلُ فِي السَّنَةِ مَرَّتَيْنِ، وَوُلِدَ لِصُلْبِي مِئَةٌ وَسِتَّةً^(٢).

وروى الترمذي عن أبي العالية، قال: «دعا له -أي لأنس- النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان له بُسْتَانٌ يَحْمِلُ فِي السَّنَةِ الْفَاكْهَةَ مَرَّتَيْنِ، وكان فيها ريحانٌ يجيء منه رِيحُ الْمِسْكِ»^(٣).

وعن عبد الحميد الأنصاري عن أبيه عن جده: أَنَّ جَدَّهُ أَسْلَمَ وَأَبَتْ امْرَأَتُهُ أَنَّ تُسْلِمَ، فَجَاءَ بَابِنِ صَغِيرٍ لَهُ لَمْ يَبْلُغْ، قَالَ: فَأَجْلَسَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَبَ هَا هُنَا، وَالْأُمَّ هَا هُنَا، ثُمَّ خَيَّرَهُ، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِهِ» فَذَهَبَ إِلَى أَبِيهِ^(٤).

والأخبار في هذا كثيرة ليس هذا موضع استقصائها، ولكن تكفي الإشارة.

وعن ثابتِ البُناني، وقتادة، وابن عطية، وغيرهم: أَنَّ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان إذا ختم القرآن الكريم جمع أهله وولده، فدعا لهم.

(١) أخرجه البخاري (١٩٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٥٣)، وابنُ سعد (١٩/٧)، وحسنه الشيخ شعيب في تحقيق «سير أعلام النبلاء» (٣/٣٩٩).

(٣) رواه الترمذي (٣٨٣٣)، وحسنه، وقال الشيخ شعيب: «رجاله ثقات».

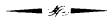
(٤) رواه أبو داود (٢٢٤٤)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود».

إِنَّ الْقَلْبَ الْمُفْعَمَ بِالْحَبِّ يُظْهِرُ حُبَّهُ وَوَفَاءَهُ مِنْ خِلَالِ كَثْرَةِ اللَّهْجِ بِالْدُّعَاءِ
لِمَنْ يُحِبُّهُ، وَكُلَّمَا أَزْدَادَ التَّعَلُّقُ الْوَجْدَانِي بَيْنَ الْآبَاءِ وَالْأَوْلَادِ كُلَّمَا كَثُرَ الدُّعَاءُ بَيْنَهُمْ
لِبَعْضٍ، وَلَأنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَنْ عَبْدَهُ أَنْ يَدْعُوَ لَوَالِدِيهِ أَمْرَهُ رَبُّهُ عَزَّوَجَلَّ، فَقَالَ: ﴿وَقُلْ
رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].

ولأنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَنْ الْوَالِدُ أَنْ يَدْعُوَ لِأَوْلَادِهِ أَخْبَرَنَا رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بأنَّ دُعَاةَ الْوَالِدِ لَوْلَدِهِ مُسْتَجَابَةٌ لَا شَكَّ فِيهَا.

عَنْ أَبِي مُرَّةٍ: أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ كَانَ يَسْتَخْلِفُهُ مِرْوَانَ، وَكَانَ يَكُونُ بِذِي الْحُلَيْفَةِ،
فَكَانَتْ أُمُّهُ فِي بَيْتٍ، وَهُوَ فِي آخِرٍ، قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ وَقَفَ عَلَى بَابِهَا، فَقَالَ:
«السَّلَامُ عَلَيْكَ - يَا أُمَّتَاهُ - وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ»، فَتَقُولُ: «وَعَلَيْكَ يَا بُنَيَّ وَرَحْمَةُ
اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ»، فَيَقُولُ: «رَحِمَكَ اللَّهُ كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا»، فَتَقُولُ: «رَحِمَكَ اللَّهُ كَمَا
بَرَرْتَنِي كَبِيرًا»، ثُمَّ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ صَنَعَ مِثْلَهُ^(١).

إِنَّ حَيَاةَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، وَكَذَا مَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ الْخَلْفِ لِحَافِلَةٍ بِأَعْلَامٍ وَعِظْمَاءِ
مَا بَلَّغُوا مَا بَلَّغُوا مِنَ الْمَجْدِ وَالْعِظْمَةِ إِلَّا بِدُعَاةٍ صَالِحَةٍ مِنْ أَبٍ أَوْ أُمٍّ.



(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٤)، وقال الألباني في «صحيح الأدب المفرد» رقم (١١):
«حسن الإسناد»، وروى بعضه الإمام أحمد في «المسند» (٤/٤٠٩، ٤٢٩، ٤٣٠، ٥٢٧).

استطراد: في تفسير آيتين كريمتين:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُمْ
بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ [يونس: ١١].

قال السلف في تفسيرها: «هو الرجل يدعو على نفسه وأهله في وقت الغضب من غير إرادة منه لذلك، فلو استجاب الله دعاءه لأهلكه، وأهلك من دعا عليه، ولكن لرحمته لما عَلِمَ أن الحامل له على ذلك سُكْرُ الغضب لا يجب دعاءه»^(١).

إنَّ الله لا يستجيب دعاءه عليهم؛ لأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك -لطفًا منه ورحمة- كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأولادهم وأموالهم بالخير والبركة والنماء.

الآية الثانية: قول الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

قال مجاهد في تفسير هذه الآية: «وهو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليه: (اللهم لا تبارك فيه والعنه)، فلو يُعجل لهم الاستجابة في ذلك، كما يُستجاب لهم في الخير، لأهلكهم»^(٢).

ورَجَّحَ العلامة القرآني محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ تفسير آية الإسراء هذه بما ذكره مجاهد، فقال رَحِمَهُ اللهُ: «معنى الآية ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ﴾ كأن يدعو

(١) انظر: «روضة المحيين» ص (١٥٤).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٢٦٧).

على نفسه أو وَلَدِهِ بالهلاك عند الضَّجَرِ من أمرٍ، فيقول: اللهم أَهْلِكْنِي، أو أَهْلِكْ وَلَدِي، فيدعو بالشر دعاءً لَا يُحِبُّ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ. وقوله ﴿دُعَاءُهُ بِالْخَيْرِ﴾ أي يدعو بالشر كما يدعو بالخير، فيقول عند الضجر: اللهم أَهْلِكْ وَلَدِي، كما يقول في غير وقت الضَّجَرِ: اللهم عَافِهِ، ونحو ذلك من الدعاء.

ولو استجاب الله دعاءه بالشر لهلك، ويدل لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَصَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ﴾ [يونس: ١١] أي لو عَجَّلَ لهم الإجابة بالشر كما يُعَجِّلُ لهم الإجابة بالخير لقضى إليهم أَجْلَهُمْ، أي هلكوا وماتوا؛ فالاستعجال بمعنى التَّعْجِيل. ويدخل في دعاء الإنسان بالشر قول النضر بن الحارث العبدي: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

ومن فَسَّرَ الآية الكريمة بما ذكرنا: ابنُ عَبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وقتادةٌ، وهو أَصَحُّ التفسيرين لدلالة آية يونس عليه^(١).

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٤١٧)، ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «الوجه الثاني في تفسير الآية أَنَّ الإنسان كما يدعو بالخير فيسأل الله الجنة، والسلامة من النار، ومن عذاب القبر، كذلك قد يدعو بالشر، فيسأل الله أَنْ ييسِّرَ لَهُ الزَّيْنَى بِمَعشوقته، أو قتل مسلم هو عدو له، ونحو ذلك، ومن هذا القبيل قول ابن جامع:

وارفَعُ مِنْ مِثْزَرِي الْمَسْبِلِ
وَاتْلُو مِنْ الْمُحْكَمِ الْمُنْزَلِ
يُسَخِّرُ لِي رَبِّيَ الْمُحْمِلِ

اطوف بالبيت فيمن يطوف
واسجد بالليل حتَّى الصباح
عسى فارُجَ اللَّهُ عَنْ يَوْسُفَ

اهـ. من «أضواء البيان».

إنَّ الدعاء على الأولاد من صور الاعتداء في الدعاء الذي نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه في قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وما لا يحب الله فاعله، فأَيُّ خيرٍ ينال، وأَيُّ فضلٍ يؤمِّلُ؟!

قال بعضُ السَّلَفِ في معنى ﴿الْمُعْتَدِينَ﴾: «هم الذين يدعون على المؤمنين فيما لا يحل، فيقولون: «اللهم اخزهم، اللهم العنهم»^(١).

وعن سعيد بن جبير في معنى الآية، قال: «لا تدعوا على المؤمن والمؤمنة بالشر: اللهم اخزِه والعنه ونحو ذلك، فإنَّ ذلك عدوان»^(٢).

فعلى الإنسان أن يتجنَّب الدُّعَاءَ على أولادِه، رغم أنَّ الغالب أنَّ الله لا يستجيب له؛ لما يعلم من أنه لا يقصد ذلك ولا يريده، كالرجل الذي قال: «اللهم أنت عبدي، وأنا ربُّك» لأنَّ الله أعذره؛ لأنه أخطأ من شِدَّةِ الفرح، كذلك الوالد الدَّاعي أخطأ من شدة الغضب، ومع ذلك فإنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن هذا الدُّعَاء؛ لاحتمال أن يوافق ساعة إجابة فيشقى به الوالد وما ولد، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على خَدَمِكُمْ، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعةً يُنِيلُ، فيها عطاءٌ، فيستجيب لكم»^(٣).

(١) «تفسير البغوي» (١٦٦/٢).

(٢) «الدر المشور» للسيوطي (٤٧٥/٣).

(٣) قطعة من حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر رواه مسلم (٣٠٠٩)، وأبو داود (١٥٣٢)، وابنُ حبان (٥٧٤٢).

تنبيه خطير:

قد تبين لك من تفسير الآيتين الكريمتين بقاء الخطر أن يتضرر الولد بدعاء والده عليه - وهو لا يقصد حقيقة الدعاء - لاحتمال موافقة ساعة إجابة، فما بالك بمدى الخطر الذي يلحق بالولد إذا دعا عليه والده عن قصد وعزم ونية، دعوة بين النبي ﷺ أنها مستجابة في قوله ﷺ: «ثلاث دَعَوَاتٍ مستجابات، لا شك فيهن : دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده»^(٢)، وعند ابن ماجه: «دعاء الوالد يُفْضَى إلى الحجاب»^(٣).

ومن عَجَزَ عن الإحسان إلى أولاده بالدعاء لهم، فإنَّ أضعفَ الإيمان أن يَكُفَّ شرَّه عنهم، فلا يدعو عليهم، ولو أغضبوه.

أتى رجلُ الإمام عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ فشكا إليه عقوق ولده، فسأله إن كان قد دعا عليه أم لا؟ فأجاب بأنه قد دعا عليه، فقال له حيثُذٍ: «أنت أفسدته»^(٤).

إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَتَحَ باب الدعاء للذرية كسببٍ من أسباب حلول بركات الله وأنعامه وأفضاله عليهم؛ ليكونوا قُرَّةَ عَيْنٍ لوالديهم، فإذا استعمل الوالد هذا السلاح في الإضرار بأولاده وإيقاع الشرور والمصائب بهم، فقد حوَّلَ النعمة إلى نقمة، والبركة إلى مُحْقٍ، والنفع إلى أذى، وآثر البلاء على العافية، وفي هذا من الحُمُقِ ما فيه.

(١) أي: لا شك في استجابتهن.

(٢) على ولده: فيه زجر للولد عن العقوق، وللوالد عن الدعاء عليه.

(٣) رواه الإمام أحمد (٧٥٠١)، وأبو داود (١٥٣٦)، والترمذي (١٩٠٥)، وابن ماجه (٣٨٦٢)، وحسَّنه الألباني.

(٤) رواه ابن ماجه (٧٧٧)، وضعَّفه الألباني في «ضعيف ابن ماجه».

(٥) ذكره في «الإحياء» (٢/٢١٧).

رُوِيَ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الَّذِي يَسْمَعُ الْحِكْمَةَ وَيَتَّبِعُ شَرًّا مَا يَسْمَعُ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى رَاعِيًا، فَقَالَ لَهُ: أَجْزِرْنِي^(١) شَاةً مِنْ غَنَمِكَ، فَقَالَ: اذْهَبْ فَخُذْ بِأُذُنِ خَيْرِهَا شَاةً. فَذَهَبَ فَأَخَذَ بِأُذُنِ كَلْبِ الْغَنَمِ^(٢)».

يتبين لنا مما تقدّم أنّ من ضوابط العقاب التربوي: أن لا يقتَرَنَ بالدُّعاء على الطِّفْلِ المَعاقِب؛ لما ينطوي عليه ذلك من إضرار به:

- إن كان الوالد قد أسكره الغضب، ولم يقصد حقيقة الدعاء لاحتمال أن يصادف ساعة إجابة، فيُستجاب دعاؤه.

- وإن كان الوالد يقصد الدعاء عليه عمدًا، وهو طفلٌ بريءٌ غيرُ مُكَلَّفٍ، وقد رُفِعَ عنه القلم.

ولما ينطوي عليه ذلك من الإيحاء إلى الطفل أنه مكروه وغير مرغوب فيه. يعي الأولاد -وبخاصة المراهقون- ما معنى أن يدعو أبوه أو أمّه عليه؛ لأنه صار قادرًا على أن يفكر بشكلٍ تجريدي (Abstract)، ولذا يُحدث دعاؤهما عليه فجوةً عميقةً بين القلوب، نعم إنّ الآباء في الغالب لا يقصدون حقيقة الدعاء، ولكن أتى يمكنُ للولد أن يُتَقَبَّ في قلب والده؛ ليعلم هل قصد حقيقة الدعاء عليه أم لا؟

(١) من أجزرتَه: إذا أعطيته شاةً تذبح، أو تصلح للذبح.

(٢) رواه الإمام أحمد (٩٢٦٠)، (٨٦٣٩)، (١٠٦٠٦)، وابن ماجه (٤١٧٢)، والطيالسي (٢٥٦٣)، وأبو يعلى (٦٣٨٨)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٨٨)، وغيرهم، وفيه علي بن زيد ابن جدعان، وهو ضعيف، وأوس بن خالد وهو مجهول، وضعّفه الشيخ شعيب، والألباني في «الضعيفة» (١٧٦١).

إن دعائك على ولدك فحواه رسالةً شنيعةً المحتوى، هي أنه غيرُ مرغوبٍ في بقاءه أو عافيته من أقرب الناس إليه، وأنك تكرهه ولا تطيقه، وتتمنى له الشرَّ والهلاك، وبالتالي يكره نفسه ولا يطيقها، وتُظلم صفحة الحياة أمامه.

يقول العلامة الدكتور محمد بن لطفي الصباغ رَحِمَهُ اللهُ: «وقد تفننت نساء بعض البلاد في اللعن تفننًا غريبًا، فتسمع الدعاء الفظيع ينهال على الولد البري الذي تصرَّفَ تصرُّفًا صبيانيًّا لم يوافق هوى أمِّه ورضاها، إنها تدعو عليه أحيانًا بأن يُرْسَلَ اللهُ عليه الحُمَّى والأوجاع المتعددة، وتدعو عليه أحيانًا أن يُقتَلَ بالرَّصاص، أو أن تذهبَ به داهيةُ الدَّهْسِ، أو أن يُصيبَه العمى، وتدعو عليه بذلك وغيره^(١)، وهو ابنُها وفِلْدَةٌ كَبِدِها، وهي لا تدري أنه قد توافق دعواتها ساعةَ الإجابة، فتندم ولات ساعة مندم، وقد قيل إنَّ الدعوات كالحجارة التي يرمى بها هدفٌ، فمنها ما يصيب، ومنها ما يُخطئ^(٢)» اهـ.

وتأمل هذا الموقف: أثناء تشييع جنازة ابنه المتوفى أخذ الأب يسأل أصدقاء ولده الميت: «هل كان يعرف ويحسُّ أنني أحبه؟»، فأراد أحدهم أن يهدئ من روعه، فأجابه: «نعم كان يُحسُّ بذلك ويعرفه»، فأجابه الأب: «من أين وقد كنتُ أواجهه دومًا بالدعاء عليه؟!».

(١) مثل: «نَعَصَّ اللهُ عليك عيشك»، «ربنا يَهْدُك»، «لن ترى نجاتًا ما حييت»، «نَكَّدَ اللهُ عليك عيشتك»... إلخ.

(٢) «نظرات في الأسرة المسلمة» (ص ١٦١، ١٦٢).

من أشهر مواقف دعاء الأم على ولدها دعاء أم جريج العابد عليه؛

فقد روى حميد بن هلال عن أبي رافع، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه قال: كَانَ جُرَيْجٌ يَتَعَبَّدُ فِي صَوْمَعَةٍ، فَجَاءَتْ أُمُّهُ.

قَالَ حُمَيْدٌ: فَوَصَفَ لَنَا أَبُو رَافِعٍ صِفَةَ أَبِي هُرَيْرَةَ لِصِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمُّهُ حِينَ دَعَتْهُ، كَيْفَ جَعَلَتْ كَفَّهَا فَوْقَ حَاجِبِهَا، ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا إِلَيْهِ تَدْعُوهُ، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ أَنَا أُمُّكَ! كَلِّمْنِي. فَصَادَفَتْهُ يُصَلِّي.

فَقَالَ: اللَّهُمَّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَاخْتَارَ صَلَاتَهُ، فَرَجَعَتْ، ثُمَّ عَادَتْ فِي الثَّانِيَةِ، فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ أَنَا أُمُّكَ فَكَلِّمْنِي، قَالَ: اللَّهُمَّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَاخْتَارَ صَلَاتَهُ، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا جُرَيْجٌ وَهُوَ ابْنِي وَإِنِّي كَلَّمْتُهُ، فَأَبَى أَنْ يُكَلِّمَنِي، اللَّهُمَّ فَلَا تُمِتَّهُ حَتَّى تُرِيَهُ الْمَوَسَاتِ.

قَالَ: وَلَوْ دَعَتْ عَلَيْهِ أَنْ يُفْتَنَ لَفُتِنَ.

قَالَ: وَكَانَ رَاعِي ضَانٍ يَأْوِي إِلَى دَيْرِهِ، قَالَ: فَخَرَجَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْقَرْيَةِ فَوَقَعَ عَلَيْهَا الرَّاعِي، فَحَمَلَتْ فَوَلَدَتْ غُلَامًا، فَقِيلَ لَهَا: مَا هَذَا؟ قَالَتْ: مِنْ صَاحِبِ هَذَا الدَّيْرِ، قَالَ فَجَاءُوا بِقُتُوسِهِمْ وَمَسَاحِيهِمْ، فَنَادَوْهُ فَصَادَفُوهُ يُصَلِّي، فَلَمْ يُكَلِّمَهُمْ، قَالَ: فَآخِذُوا يَهْدُمُونَ دَيْرَهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ نَزَلَ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا لَهُ: سَلْ هَذِهِ، قَالَ فَتَبَسَّسَ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَ الصَّبِيِّ فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ؟ قَالَ: أَبِي رَاعِي الضَّانِ، فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْهُ قَالُوا: نَبْنِي مَا هَدَمْنَا مِنْ دَيْرِكَ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، قَالَ: لَا، وَلَكِنْ أَعِيدُوهُ تُرَابًا كَمَا كَانَ، ثُمَّ عَلَا^(١).

(١) رواه البخاري (١٢٠٦)، (٢٤٨٢)، ومسلم (٢٥٥٠).

وقال الزمخشري:

كنتُ أَلْعَبُ بعصفور وأنا طفل، فقطعتُ رجله بخيط، فقال أُمِّي غيظًا:
«قطع الله رِجْلَكَ»، فلمَّا كبرت أصاب رجلي داءً فَقُطِعَتْ.

وهناك العديد من الوقائع في القديم والحديث يتفطر لها القلب:

- فهذه أُمٌّ دَعَتْ على ابنها أن تضربه سيّارة، وذهب إلى عمله، وفي طريق عودته صدمته سيارة، ثم عاد إلى أمه -أو أُعيدَ- ولكن ميّتًا. أخذتِ الأمُّ تبكي وهي تصرخ وتقول: «أنا السبب»^(١).

- أبٌ دعا على ابنه ذي السبعة عشر ربيعًا وهو خارجٌ من البيت:
«لا أرجعك الله أبدًا».. وبالفعل لم يَعُدْ.

- كان المدرب يجتهد في تدريب شاب؛ لِيُتَقَنَّ وظيفةً مُعَيَّنَةً قد تَعَسَّرَتْ عليه، وفي إحدى المرات أراد أن يُؤَيِّسَهُ من المحاولة معه، فقال له: «لا تحاول، ولن يُجِدِي جُهدُكَ معي نفعًا؛ لأنه لا أمل في إصلاحِي؛ لأنَّ أُمِّي دعت عليّ، وكانت امرأةً صالحةً، فمن المؤكَّد أن الله استجاب دعاءها عليّ».

- وحضرت امرأةٌ إلى المسجد تسأل عن كفّارة دعائها، ولما استوضحوا منها عمّا تُعْنِيهِ، قالت: لقد دعوتُ على ابنتي الشابة بوقف الحال، وبالفعل لم يُقدَّرْ لها الزواج، فعاتبتهَا ابنتُها يومًا قائلة: «ماذا جنيتُ حتى تحرميني من الزواج والأمومة؟».

(١) وقد يبلغُ الندمُ على «جريمة القتل بالدعاء» الذي وافق ساعة إجابة مبلغًا عظيمًا إلى حدِّ تفكير الوالد «المتسبب في قتل ولده بالدعاء عليه» في الانتحار أو محاولة ذلك.

حلفت الأم أنها لم تكن تقصد حقيقة الدعاء، وجاءت تبحث عما أسمته «كفارة الدعاء» على ابتتها العانس.

إنَّ اللسان نفسه الذي يدعو على فِلْدَةٍ الكَيْدِ بالهلاك والثبور هو نفسه يمكن أن يكون وسيلةً إصلاحه إذا دعا له بالعافية والسلامة، تقول إحدى الفتيات:

تكاسلتُ عن الصلاة فترة من الزمن، فكانت أُمِّي تدعو عليَّ قائلة: ربنا يريحني منك لأنكِ عاصيةٌ لربِّكِ... وظلَّتُ على هذا الحال لفترة حتى أصابني نوعٌ نادرٌ من الحُمَّى، رقدتُ بسببه في المستشفى شهرًا كاملاً، ويبدو أن مرضي الشديد جعل أُمِّي تفيقُ من غفلتها، وتشعر أنها على وشك أن تفقدني بسبب دعائها عليَّ، فبدأتُ تدعو لي بإلحاح، ونذرتُ لله تعالى إن هو شفاني ألاَّ تدعو عليَّ أبداً، وقد كان، فقد شفاني الله تعالى من الحُمَّى، وشفى أُمِّي من الدعاء عليَّ، ورجعتُ إلى الصلاة بفضل الله تعالى، ولكن بعد تجربةٍ صعبةٍ جداً.

وتقول فتاة أخرى:

في فترة المراهقة تركتُ الصلاة وتكاسلتُ عنها، وحاولت أُمِّي تشجيعي على الصلاة دون فائدة، فَلَجَّأتُ إلى الدعاء، وكانت مع كلِّ أذانٍ تأتي إلى غرفتي فقط لتدعو لي، فتقول بكل حنان: «ربنا يهديك يا حبيبتِي، اللهم اجعلها ممن يقيمون الصلاة، اللهم لا تحرِّمها من السجود بين يديك»... ثم تنصرف في صمت. وظلَّت أُمِّي على هذه الحال فترة طويلة، تتحلَّى بالصبر، وتزيد من الدعاء، إلى أن هداني الله تعالى، واستحييتُ من ربي، وأشفقتُ على أُمِّي، وبدأتُ أصلي وأستمعُ بصلاتي.

- وهذه أمّ دأبت على الدعاء على طفلها ذي الثمانية الأعوام قائلة: «إلهي ربنا ينتقم منك»، فسمعها قريب لها، فسألها: «على أيّ صورة تريد أن يتمّ هذا الانتقام الإلهي من ابنك؟»، فجزعت واضطربت، وقالت في هلع: «هذا ابني، وأنا لا أقصد حقيقة الدعاء عليه»، فبيّن لها أنه قد يُستجاب دعاؤها عليه إذا وافق ساعة إجابة مع أنها لا تقصد، ونصحها بأنها إذا غضبت منه تدعو له بدل أن تدعو عليه، ومرّت الأيام، فلقيت قريبها هذا وشكرته على نصيحته القيّمة، وقالت: حينما كنت أقول: «ربنا ينتقم منك» كان يقف مشدوهاً شاخصاً ببصره إليها، ثم يبكي ويقول عناداً: «آمين، يارب خذني»، فتقابل عناده بعنادٍ، وتقول هي أيضاً: «آمين».

واستطردت قائلة: الآن حين أقول: «ربنا يهديك» أقولها بصوتٍ عالٍ صارخ، فإنه يقف ضاحكاً، ويرفع يديه إلى السماء، ويقول: «اهدني يارب؛ كي تهدأ أُمّي وتسكّت»، وربما جرى نحوها بعد ذلك واحتضنها. ثم علّقت: هل تصدق أن الطفل كان يُحسُّ بدعائي عليه، ودعائي له؟



النوع الثامن وَسْمُ الطِّفْلِ

(I Am Whom You Say I Am)

نظرية الوسم^(١) (Labelling Theory):

هي من نظريات (علم الاجتماع) و(علم الجريمة)، وتفترض أنَّ الهوية الذاتية (Identity) وسلوك الأفراد (Behavior) يمكن تحديدهما أو تأثرهما بالمصطلحات المستخدمة لوصفهم أو تصنيفهم.

وفي سبيل شرح ذلك تُربط النظرية بمفهوم «النبوءة التي تحقق ذاتها» (Self- fulfilling prophecy).

بمعنى أنَّ الوسم الذي يُلصق بشخصٍ ما يؤثر على سلوكه، ويعزز السلوك المنحرف لديه، لا سيَّما الوسمُ السلبيُّ (الوصمة)، لتصبح نبوءة تحقق نفسها بنفسها، فلا يبقى للفرد (الذي تمَّ إلصاق الوسم به) خيار سوى التوافق لا شعوريًا مع المعنى الذي يتضمنه ذلك الحكم، فالملصق السلبي يساهم غالبًا في مزيد من الانخراط في الأنشطة الجانحة، لأن «الوسم» يترتب عليه توقعات (تنبؤات) معينة تلصق بالأفراد، ومع مرور الوقت وتكرر هذا الوسم يتبنَّاه الفرد ويجعله جزءًا من هويته، فيتغير سلوكه -دون وعي- حتَّى يحقق هذه

(١) أو: نظرية وضع الملصقات، أو التوسيم الوصفي، أو لصق العلامات، وأصل التسمية من (Label)، وهي البطاقة التي تُلصق على علب المواد الغذائية لتصنيفها وتحديد خواصها، فمن ثم قيل: «إنَّ الوسم من شأن الأطعمة وليس البشر».

النبوءة بنفسه، وكأنه يقول: «أفعلُ هذه الأشياء؛ لأنني على هذا النحو»، فيؤكد الصورة التي يرسمها الوسم، ويبرهن بسلوكه العملي أنَّ التسمية السيئة كانت في محلها.

يقول (Johan Wolfgang Goethe): «إذا كنت تعاملُ شخصًا ما كما هو، سيبقى كما هو، ولكن إذا تعاملتَ معه كما ينبغي أن يكون وكما يمكن أن يكون، فسيصبحُ كما يجبُ أن يكون، وكما يمكنُ أن يكون»^(١).

— —

لا تعلقْ مُلصقًا على ولدِكَ (Do Not Label The Child)،

حينما تزعجنا بعض صفات طفلنا ونريد تغييرها، فإننا نقول له: «لماذا أنت عنيد؟»، «لماذا أنت خجول؟»، نحن نريدُ بذلك مساعدته كي يتحسنَ، ولكن ما الذي يحدثُ للطفل حين نُثبت عليه مثل هذا «الملصق» أو «الوسم» (Label)، وكيف يستقبل هذا التوسيم؟

فلنضرب هذا المثل:

نثر طفلٌ ملابسه وأدواته في أرجاء المنزل، مع أنَّ أمه نصحته أن لا يفعلَ، فيكون ردُّ فعلها أن تصرخَ فيه قائلةً: «يا لك من ولدٍ كسولٍ فوضويٍّ!!».

تُرى أين الخطأ التربوي في تصرُّف الأم هنا؟

إنه الوسم، بمعنى أنها ألصقت به صفتي الكسول الفوضوي.

(١) «مقابلة الدافعية» (ص ٦٩).

ومن أمثلة الوسم السلبي:

خجول، غبي، لئيم، بخيل، ماكر، عدواني، خارج عن السيطرة، كذاب، لص، مجرم، شرير، فاشل، جاحد، مغفل ...

ليس في الأطفال شخص (لئيم)، ولا شخص (لطيف)، ولا شخص (جميل)، وآخر (قبيح)، وإنما هم جميعهم براعم وليدة، وكائنات بريئة صغيرة ناشئة لا تتسم بالكمال، ولكنها مبرأة من تلك السمات التي نطلقها عليهم.

يستغرق بناء وتنمية الشعور السوي الذاتي بالقيمة والجدارة الذاتية (Self - worth) فترة الطفولة كلها، أما التأثير السلبي عليها فقد يبدأ في أي سن.

وحين نسّم الأطفال فإننا نحبسهم في (صندوق الوسم) الضيق، ونحصرهم في ركن السلوكيات والشخصيات التي سوف يشعرون أنهم لا بدّ أن يسكنوها.

والطفل الذي لا يستقبل (الآراء المستفادة) أو (ردود الفعل التصحيحية) (Feedback)^(١) الإيجابية، ويتم وصفه دائماً بالفشل والغباء فإنّ هذا سيزيده

(١) أما ترجمتها (بال تغذية المرتجة) أو (تغذية راجعة) فلغو وخطأ؛ لأن هذه الترجمة وصف دقيق لعملية (التقيؤ)، أما (الآراء المستفادة) فتعني مجموعة معلومات يتلقاها الفرد عن أدائه ونتائجه، بحيث توضح له بعض الأخطاء التي وقع فيها، ومقدار تقدمه، ومقدار ما تعلمه، ومدى ملاءمة أدائه للهدف الذي ينبغي الوصول إليه.

أو هي: كل ما يستقبله الطالب من سلوكيات وتعبيرات (غير مباشرة) أو تعليقات (مباشرة) ناتجة عما قام به من فعل أو إجابة.

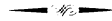
وانظر: «التغذية الراجعة في التعليم» موقع: (annajah.net).

فشلاً وغباءً؛ لأنه يُكوّن عن نفسه صورةً سلبيةً انهماجيةً، فينسى إيجابياته بسبب التركيز الدائم على السلبيات والفشل.

ومن وِسَم (باللص) يقول بلسان حاله: «أنا أسرق؛ لأنني بالفعل لص». إنَّ الذات تُبنى اجتماعياً، ويُعادُ بناؤها من خلال التفاعلات الاجتماعية، ولذلك فإنَّ صورة الذات (Self - image) التي تعني: كيف يرى المرء نفسه؟ تنبني على ما يعتقدّه الآخرون فيه، وكيف يرونه من خلال (الملصقات) التي يَسمُوْنَه بها؟

فالوسمُ أو الوصم هو زيادة تعقيد وتسريع لعملية التحوّل إلى هذا الوصف الذي يتضمّنه (المُلصَق).

وعلى الجهة الأخرى يمكن منع الانحراف الاجتماعي وقايةً من خلال التوعية بضرر (إصاق الوسم)، وعلاجاً بعدم الاستجابة للتشهير الاجتماعي الذي يمارسه (واضعو العلامات)، ثم (إعادة التأهيل) من خلال تغيير الملصقات^(١)، وتعديل سلوك الشخص الذي تم توسيمه.



(١) ويرتبط التلوث اللغوي -البادي في (الملصقات السلبية) وألفاظها الكريهة- بالتلوث الفكري المعرفي، ويُتّجان -معاً- اضطراباً سلوكياً لدى الأبناء، وهذا هو السبب وراء محاولة المعالجين النفسيين محو آثار تلك الوسّات السلبية عن طريق طلبهم من العميل ترديد عباراتٍ إيجابيةٍ لتحل محل الوسّات في الذهن والتصور والسلوك كعبارة: «أنا ناجح، أنا متفائل، أنا شجاع» وهكذا.

من يقوم بالوسم؟

- أفراد الأسرة؛ كالوالدين والأشقاء.
- المدرسون في المدرسة.
- مجموعة الرفاق، وشِلة الأصدقاء.
- أو الشخص نفسه.

لماذا يحدث الوسم؟

في عملية (الوسم) يُصدّر المربي -دون مبالاة- حكمه على ما يظنه خصائص غريزية ملازمة مغروسة (Innate) في داخل الطفل، لم يكتسبها ولم يتعلمها.

وهذا في الواقع خطأ أساسي في عزو الوسم^(١) إلى الطفل (Fundamental Attribution Error) وهو صورة من التحيز (Bias) الذي يؤثر سلباً على قراراتنا وبخاصة فيما يتعلق بالتربية الوالدية، وإصدار أحكام عامة على الأولاد.

فالطفل الذي ينثر ملابسه في أرجاء المنزل قد تسمه خطأ بأنه (فوضوي كسول)، ويمكن أن يكون في الحقيقة -ومن زوايا أخرى متعددة- شخصاً كادحاً مجتهداً مجّداً، وليس كسولاً فوضوياً (يقيناً).



(١) ولو أنك رأيت أبا يوبّخ ابنه ويعنفه بشدة في السوق التجاري، فإنك تتسرع بقولك: «يال له من أب مُريع أو قاسٍ أو أحمق... إلخ»، مع أنك لا تعرفه أصلاً، وقد يكون في الحقيقة أبا حنوناً مُحبّاً راعياً ولكن مرّ بوقتٍ صعبٍ في وظيفته مع مديره مثلاً، فأزاح غضبه منه -لا شعوراً- إلى شخصٍ طفله (Displacement)، وفقد أعصابه للحظاتٍ قليلة.

وهذا ليس تبريراً وتسويغاً لسلوكه مع طفله، ولكنه تفسيرٌ يساعدنا في معرفة سبب عصبية وسلوكه السيئ الذي يُنفّي وراءه أبا رائعاً حنوناً مُحبّاً بخلاف (الوسم) الذي ألصقته به بسبب خطأ عابر.

ومن أسباب (الوسم):

أنه يُشعر المربي بالرضى عن نفسه؛ لأنَّ الوسْم يقوي إحساس المربي بقيمته الذاتية (Self - worth)، وهؤلاء الآباء يرون في أبنائهم غالبًا نماذج مُصَغَّرة من ذواتهم (Mini - Me's)، وسلوك أطفالهم مرآة تعكس صورتهم كبشر، والآباء الذين يشعرون بضالة ذواتهم يعززونها عن طريق وسم الآخرين فيما يشبه الإسقاط (Projection)، وحين يستعمل الآباء (ملصقات) سلبية، فإنَّهم ينكرون لا شعوريًا تقصيرهم كأباء نحو أولادهم (Denial).

وما أكثر الآباء الذين وسموا أولادهم بسماتٍ ندموا عليها، لكنهم يفضلون أن لا يعترفوا بأنهم قالوها فضلًا عن اعتذارهم عنها.

وقد يكون سبب (الوسْم) بالنسبة لبعض الآباء أنه متجذر بعمق في داخلهم لتدعيم وتقوية نفوسهم الهشة، وربما لأنَّ والديهم - فيما مضى - كانوا يواظبون على توبيخهم وتعنيفهم بقسوة أو تدليلهم والتلطف معهم^(١).

بين الوسم والتأثير:

إنَّ (الوسْم) بعلاماتٍ أو خصائصٍ إنما يصف جزءًا صغيرًا من كيان الطفل وليس كله، ومع هذا فإن تأثير الوسْم يشمل كيانه كله.

وليس الوسْم تحديدًا أو تعريفًا للشخص (Definition)، كالشخص الذي يعاني مثلاً من (الاكتئاب) لا نعرفه بأنه السيد «اكتئاب»؛ لأنه لا يساوي

(١) لأن الآباء الذين يواظبون على تدليل أطفالهم عن طريق الملصقات الإيجابية يعكسون -ببساطة- الوجه الآخر للعملة نفسها.

المرض، ولكنه إنسانٌ يعاني من (الاكتئاب)، ومع ذلك فإنَّ الوبس يؤثر على كيان الطفل كله:

- أما الوبس السلبي: فإنه يصنع منه طفلاً هُشاً، ويشوّه صورته عن نفسه، ويضر تقديره لذاته، ويُشعرُ بعدم الجدارة، فيفقد الرغبة في تطوير نفسه، قائلاً: «وما جدوى المحاولة؟».

- وأما الوبس الإيجابي: فإنه يفرض عليه حدوداً وقيوداً، وقد يدمر قيمته الذاتية من خلال تضخُّم ذاته (Self - inflation).

إنَّ وسم الطفل ينتقش في ذاكرته، ويحفر فيها أثراً طويلاً وربما دائماً على الشخص، وإذا سألت رجلاً عما أطلق عليه والدُه من سماتٍ وهو صغير، فسوف تجده يتذكر ذلك، ويصطحبه معه طوال حياته.

يقول أحدُ المجرمين المسجونين: «لقد كان أبي يقول لي دائماً وأنا صغير: «إنَّك لن تفلحَ في شيء»، وقال لي يوماً: «سينتهي بك الأمر إلى السجن»، وها أنذا نزيل السجن، إن الكلمات قد ترحل أعمق وأسرع وأطول وأشد من أيِّ سيفٍ عرفه الإنسان، وإن أنسَ لا أنسَ الكلمات التي قيلت لي وأنا طفل»^(١).

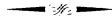
كانت الطفلة بصحبة أمها في محل البقالة، وأسقطت زجاجة اللبن التي كانت تحملها، فانكسرت، وانسكب اللبن على الأرض، هنا خاطبتها أمها في غضبٍ: «أيتها الطفلة الغبية لماذا فعلتِ هذا؟ لقد كان هذا غيباً منكِ جداً».

أي الأمرين يستحق وصف الغباء: الطفلة أم الفعل؟

(١) انظر: (Before you punish a child, see that) في موقع: (youtube.com).

لا شك أن الوصف إذا أُطلقَ على الطفلة نفسها فسيؤثر في صورتها عن نفسها وتقديرها لذاتها ويُشعرها بالعار.

يجب أن ننتبه إلى الكلمات التي نوجهها إلى أبنائنا؛ لأن العِصِيَّ والحجارة قد تكسر عظامنا، لكن الكلمات تكسر قلوبنا، وتهشم أحلامنا، وتبدد طموحاتنا.



الوسم الإيجابي؛

بعض الآباء قد يطلقون على أبنائهم وسماً إيجابياً، مثل: «أنت طفل مثالي»، «أنت أذكى طفل في العالم»، «أنت طيب المستقبل»، «لم يخلق الله مثلك أحداً»، «أنت أبرع طفل في الرياضيات»، «أنت أحسن الأطفال أدباً»، ويكررون ذلك على مسامعهم حتى إنهم يتجاهلون أو يتعامون عن سلوكيات أطفالهم وأخطائهم التي تقدر في استحقاقهم لهذا الوسم.

إن الوسم الإيجابي قد يفهمه الطفل على أنه مكافأة له، وقد يفهمه على أنه تحجيم، وكأنه يقول لنفسه: «وما أدراهم أنني أريد أن أكون طيباً؟»، أو: «إنني مطالب بأن أحبس نفسي داخل صندوق توقعاتهم؛ لأن هذا كل ما أنا عليه»؛ لأن الطفل يتشكل بالصورة التي يراه عليها أبواه.

ولك أن تتخيل طفلاً لا يزال يردد أبواه على مسامعه: «أنت الطفل المثالي

العبقري، والنجم الذي لا عيب فيه، ولا يمكن أن يخطئ» (The star performer)

.(with no flaws

كيف سيؤثر هذا على إحساسه بقيمته الذاتية؟ وعلى تشكيل تفاعلاته مع والديه وأشقائه وزملائه ومدرسيه؟ وعلى قدرته على أن يُنشئ علاقاتٍ صحيّةٍ عاطفيةٍ أو مهنيةٍ مبنيةٍ على الحقيقة والأمانة والشفافية لا على الذات المتورمة المتضخمة (Inflated Self)؟

لماذا لا ينبغي وصف الطفل بأنه (مثالي)؟

قد يكون وسمٌ (مثالي) (Perfect) أحد أسوأ السمات التي تُطلقها على طفلك، وبخاصة إذا كان لديك طفل آخر لم تُنعم عليه بهذا الوسم، فتتسبب في مقارنة ضارة ومؤذية بينهما.

وقد يشكل هذا (الوسم) ضغطاً نفسياً شديداً عليه، يُحمّله همّ الارتقاء إلى هذا الوسم -الذي يجلب له حب واحترام والده-، والثبات عليه، والحرص على أن لا يرتكب أيّ خطأ، وإلا ستُدمر صورته في عين والده.

ومثل ذلك وسم الطفل بأنه (رجل) أو الطفلة بأنها (عاقلة) أو (رزينة) فإن هذا يلقي على كاهله عبئاً ثقيلاً، ويحرمه من حقه في الاستمتاع بطفولته بحرية وانطلاق حسبما تقتضيه مرحلته العمرية، ويُلح عليه أن يتكلف ممارسة دور الكبار كي يحتفظ بكونه (رجلاً أو حكيمًا) في أعين والديه^(١)، وكي يستبقي ثناءهما عليه، ولا يُحرم من فخرهما به.

(١) وقد رأينا بعض الدعاة صَدَّروا طفلاً صغيراً بعد أن حَقَّظوه ولَقَّنوه خطبة بليغة مؤثرة يأمر فيها بالمعروف وينهى عن المنكر (كالزنا) وغيره، مما أثار إعجاب المشاهدين حتَّى لَقَّبوه بالطفل (الداعية)، دون أن يفتنوا إلى ضرر هذا (التصدير) و(الوسم) على طفولته ونموه النفسي؛ لأن الكبار هنا يتندرون ويتفكهون ويتسلون بالصغير، وفي سبيل ذلك يثقلون كاهله، ويرهقون نفسه بتحميله ما لا يطيق من أدوار الكبار.

رأى عروة بن الزبير بن العوام ولده يلعبون، فقال: «العبوا يا بني»، فإن المروءة لا تكون إلا بعد اللعب»^(١).

وُروِيَ أَنَّ أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَخَلَ مَرَّةً الْمَسْجِدَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَوَجَدَ غُلَامًا، فَقَالَ لَهُ: «يَا غُلَام، اذْهَبِ الْعَبْ»، قَالَ: «إِنَّمَا جِئْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ»، قَالَ: «فَتَقْعِدْ حَتَّى يَخْرُجَ الْإِمَامُ؟»، قَالَ: «نَعَمْ».

وإنما قال له: «اذْهَبِ الْعَبْ»؛ لأن الجمعة لم تَحِبَّ عليه، ولأنه قد يشق عليه المحافظة على طهارته، أو تحمُّل الجلوس وقت الخطبة، فإن أقبل على الصلاة برغبته -دون سن العاشرة-، وإلا تركه يترقه ويلعب.

وعن الحسن أنه دخل منزله وصبيان يلعبون فوق البيت، ومعه عبد الله ابنه، فنهاهم، فقال الحسن: «دعهم؛ فَإِنَّ اللَّعْبَ رِبِيعُهُمْ»^(٢).

(١) ولذلك علينا أن نُشَبِّحَ حاجةَ الطفل إلى اللعب كي يستمتعوا بطفولتهم كاملةً غير منقوصة، والرجولة الكاملة تأتي مقابل الطفولة الكاملة، أما حرمان الطفل من وظيفته (اللعب) واستعجال نموه -وبخاصة عن طريق تشغيل الأطفال وعمالهم- فقد يؤدي به فيما بعد إلى النكوص (Regression)، ويختزن في أعماقه أشواق الطفولة غير المشبعة، فيخسر الطفولة، ولا يربح الرجولة.

(٢) ومن فوائد اللعب بالنسبة إلى الطفل:

١- أنه وسيلة للتطهير أو التفريغ الانفعالي (Catharsis) يتخلص بها من التوتر أو الضغط الذي قد يُمارس عليه، ويُفَسِّس به عن الكبت، ففي اللعب يلعب دور الكبار مع لُعبه، فيضربها أو يصيح بها كنوع من التعويض (Compensation) أو الإزاحة (Displacement) جهة من هو أضعف منه، فيحقق الإشباع للحاجات التي لم يستطيع إشباعها في حياته اليومية، ويعيد التوازن الذي افتقده بسبب التوتر والحرمان.

٢- اللعب أداة تعبيرية تتفوق على الكلام والتعبير اللفظي، فهو وسيلة للتعبير الرمزي عن خبرات الطفل في عالم الواقع، ووسيلة رائعة لاستكشاف ما يدور بداخل الطفل من صراعات، وما يفكر فيه وما يشعر به، ويكشف ميوله واتجاهاته، ويعين المختص -من خلال اللعب التمثيلي الحر التلقائي على سجيته، واستعمال الدُّمى والمكعبات وغيرها- على تشخيص مشكلاته وأسبابها، ومن ثَمَّ علاجها باللعب أيضًا.

إشكال وجوابه:

فإن قيل: قد روى الإمام البخاري رَحِمَهُ اللهُ فِي «المغازي» بسنده عن أبي قلابة عن عمرو بن سَلَمَةَ، قال: «قَالَ لِي أَبُو قَلَابَةَ: أَلَا تَلْقَاهُ فَتَسْأَلُهُ؟ قَالَ: فَلَقَيْتُهُ فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: كُنَّا بِهَا عَمَرَ النَّاسِ^(١)، وَكَانَ يَمُرُّ بِنَا الرُّكْبَانُ فَتَسْأَلُهُمْ: مَا لِلنَّاسِ؟ مَا لِلنَّاسِ؟ مَا هَذَا الرَّجُلُ^(٢)؟ فَيَقُولُونَ: يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ، أَوْحَى إِلَيْهِ -أَوْ أَوْحَى اللَّهُ بِكَذَا- فَكُنْتُ أَحْفَظُ ذَلِكَ الْكَلَامَ^(٣)، فَكَأَنَّا يُقَرُّ^(٤) فِي صَدْرِي، وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَلَوُّمْ^(٥) بِإِسْلَامِهِمُ الْفَتْحَ، فَيَقُولُونَ: اتْرُكُوهُ وَقَوْمُهُ؛ فَإِنَّهُ إِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ أَهْلِ الْفَتْحِ، بَادَرَ كُلُّ قَوْمٍ بِإِسْلَامِهِمْ، وَبَدَرَ^(٦) أَبِي قَوْمِي بِإِسْلَامِهِمْ، فَلَمَّا قَدِمَ^(٧) قَالَ: جِئْتُكُمْ وَاللَّهِ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقًّا، فَقَالَ:

= ٣- من خلال اللعب الجماعي ترسخ القيم الأخلاقية، ويكتسب الطفل معايير السلوك السوي، ومفهوم الخطأ والصواب، والتعاون، وتقبل الخسارة، والتحكم في انفعالاته، والتخلص من الأنانية والتمركز حول الذات، ويحفزه على التعلم والتطور والنمو، ويساعده على التكيف.

٤- اللعب فرصة طيبة لنشاط تعليمي منتج، لا سيما في (رياض الأطفال)، حيث يتعلم مهارات التواصل، ويكتسب المعرفة، وتزداد حصيلته اللغوية.

(١) وعند أبي داود: «كنا نحاصر، يمر بنا الناس إذا أتوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

(٢) أي: يسألون عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن حال العرب معه.

(٣) وفي رواية أبي داود: «وكنْتُ غلامًا حافظًا، فحفظتُ من ذلك قرآنًا كثيرًا».

(٤) يُقَرُّ: من القرار، وقيل: بل هي (يُغَرَّى) أي: يُلصَق بالغراء، ورجَّحها القاضي عياض في «مشارك الأنوار» (١٦٣/٢)، وقيل: (يُقرا) من التقرية أي الجمع، وللاكثر بهمز (يُقرا) من القراءة.

(٥) تَلَوُّم: تنتظر، وأصلها: تَلَوُّم، فحُذِفَتْ إحدى التاءين.

(٦) بَدَرَ: سَبَقَ.

(٧) قَدِمَ: استقبلناه.

«صَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، وَصَلُّوا صَلَاةَ كَذَا فِي حِينِ كَذَا، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَدِّنْ أَحَدُكُمْ، وَلْيُؤَمِّكُمْ أَكْثَرُكُمْ قُرْآنًا»^(١). فَانْظَرُوا فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَكْثَرَ قُرْآنًا مِنِّي؛ لِمَا كُنْتُ أَتَلَّقِي مِنَ الرُّكْبَانِ، فَقَدَّمُونِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَنَا ابْنُ سِتٍّ أَوْ سَبْعِ سِنِينَ، وَكَانَتْ عَلَيَّ بُرْدَةٌ، كُنْتُ إِذَا سَجَدْتُ تَقَلَّصْتُ^(٢) عَنِّي، فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الْحَيِّ: أَلَا تَنْعَطُوا عَنَّا أَسْتَ قَارِئُكُمْ^(٣)؟ فَاشْتَرَوْا^(٤)، فَقَطَّعُوا لِي قَمِيصًا، فَمَا فَرَحْتُ بِشَيْءٍ فَرَحِي بِذَلِكَ الْقَمِيصِ»^(٥).

فهذا الصبي كان يؤم قومه في الفريضة في حياة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من أدوار الكبار؟

والجواب: كلا؛ فَإِنَّ إِمَامَةَ الصَّلَاةِ لَا تَنْحَصِرُ فِي الْكِبَارِ، وَمَعَ أَنَّ صَلَاةَ الصَّبِيِّ لَا تَقَعُ عَنْهُ فَرِيضَةً، وَتُحْسَبُ لَهُ نَافِلَةً، إِلَّا أَنَّهُ تَصَحَّحَ مِنْهُ؛ لِأَنَّ الْبُلُوغَ شَرْطُ وَجُوبٍ، وَلَيْسَ شَرْطُ صَحَّةٍ، وَشَرْطُ الصَّحَّةِ هُنَا هُوَ التَّمْيِيزُ، وَمَنْ صَحَّتْ صَلَاتُهُ لِنَفْسِهِ صَحَّتْ صَلَاتُهُ لغيره.

(١) وفي رواية أبي داود أنهم قالوا: يا رسول الله، من يؤمننا؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَكْثَرُكُمْ جَمْعًا لِلْقُرْآنِ»، وعند أبي داود: «فَمَا شَهِدْتُ جَمْعًا مِنْ جَزْمٍ إِلَّا كُنْتُ إِمَامَهُمْ». وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا كَانُوا ثَلَاثَةً فَلْيُؤَمِّهِمْ أَحَدُهُمْ، وَاحْتَقَمَ بِالْإِمَامَةِ أَقْرَاهُمْ» رواه مسلم (٦٧٢).

وَلَمْ يُخَصَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ بِالْبَالِغِينَ، فَيَدْخُلُ فِيهِ الصَّبِيُّ الْمُمِيزُ.

(٢) تَقَلَّصْتُ: انْجَمَعَتْ وَارْتَفَعَتْ، وَفِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ: «تَكَشَّفْتُ عَنِّي».

(٣) وَلَأَبِي دَاوُدَ: «فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنَ النِّسَاءِ: وَارُوا عَنَّا عَوْرَةَ قَارِئِكُمْ».

(٤) فَاشْتَرَوْا: أَي: ثَوْبًا.

(٥) رواه البخاري (٤٣٠٢)، وأبو داود (٥٨٥)، وانظر: «فتح الباري» (٩/ ٤١٥-٤١٧).

وعمر بن سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يودع طفولته بسبب هذه الإمامة، بل كانت إمامته الكبار كالمكافأة له على حفظه وذكائه، ولم يُثَقَّلْ كاهله بدور الكبار، والدليل أنه كان لا يتحرَّزَ تحرُّزًا كافيًا من أجل ستر عورته في الصلاة (شأن الطفل)، فكان على سجيته الطفولية حتى تأذت النساء من ذلك، ونَبَّهْن عليه، وتأمَّلْ تعبيره عن فرحته بالقميص التي لم يَذُقْ قطُّ فرحةً مثلها (شأن الطفل أيضًا).

كيف نعالج مشكلات الأطفال بدون وسم؟

تأمل فترة طفولتك، وفتَّش: هل تعرَّضتَ لوسمٍ من والديك أو أقربائك، أو أصدقائك، أو مدرسيك، أو مدربيك؟ وما الوسم الذي ألصقوه بك؟ كيف كنت تشعر إزاء الوسم الإيجابي أو السلبي؟ وما الأثر الذي طبعه الوسم على شخصك وعلاقاتك في الطفولة ثم الآن؟

إنك إذا كنت واعيًا بأثر ذلك الوسم فإنَّ هذا سيحفزك على أن تتجنبه مع أولادك وغيرهم.

١ - إذا أردتَ من طفلك أن يُعدِّلَ سلوكًا تعارضه، فلا بدَّ من تحديد وفهم هذا السلوك النوعي بدقة؛ لأن هذه هي الخطوة الأولى في خطة تدعيم الطفل ليعدِّلَ سلوكه.

٢ - عند ملاحظة الأطفال يجب أن ننظر إليهم بإيجابية من خلال عدسات متأمِّلة محايدة.

٣- إذا كان طفلك قادرًا على وصف الأسباب وراء سلوكه، فتوجّه إليه بالسؤال عن هذه الأسباب؛ لأن الأطفال غالبًا يريدون أن يشرحوا أنفسهم، وأن يُنصت إليهم.

إنَّ السؤال بـ(لماذا؟) يفتح الباب لإجراء حوارٍ بناءً مع الطفل، وهو علامة على أنَّ العلاقة بين الوالد وولده علاقة صحية سوية.

وحين تنصت إلى جوابه فقد تكتشف أسبابًا لسلوكه لم تخطر على بالك، الأمر الذي يمنحك فرصة جيدة لإرشاده كي يتجنّب السلوك السلبي، ويكرر السلوك الإيجابي.

ركّز على وَسم الفعل دون الفاعل؛

٤- احرص على استعمال الكلمات التي تصنف السلوك وليس الطفل، فحينما يفعل الطفل سلوكًا ما إيجابيًا كان أو سلبيًا، فإن عليك أن تركز على الفعل ذاته بدلًا من وسمه بصفة تميزه؛ لأن إطلاق الوسم على السلوك لا حرج فيه، وإنما الحرج أن تجعل الوسم عنوانًا رئيسيًا تلصقه على الطفل ذاته.

وإذا أطلقت وسمًا على سلوكٍ ما فينبغي أن تستعمل بيانًا واضحًا لا لبس فيه، لكن دون جرح الطفل أو إيذائه.

- مثال:

لا تقل: «أنت فوضوي كسول، أينما حللت تُخلّف وراءك فوضى»؛ لأنّ هذا (وسم) تلصقه بشخصية الطفل وكيانه.

ولكن قل: «إن الطريقة التي تنظم بها أشياءك غير مسؤولة وغير مقبولة على الإطلاق في هذا المنزل^(١)، ولذلك نحتاج منك أن تعمل على إصلاح كذا وكذا، ودعنا نتحاور معًا حول الكيفية التي يمكن بها أن نساعدك على أن يتحسن أداؤك، وترتقي بمعاييرك».

ويحتاج الأطفال إلى أن يشرح لهم الوالدان وجهة نظرهما حول سلوكهم، ولماذا يعتبران هذا السلوك مرفوضًا، لا سيما إذا ترتب عليه تأديب أو عقوبة.

- مثال:

أخبر الطفل لماذا اعتبرت رميه للملابسه في أرجاء المنزل سلوكًا غير مسؤول، ويبيّن له أن لهذا تأثيرًا سلبيًا على الآخرين.

٥- قم بتوثيق التقدم والتحسن.

٦- لا تُقارن بين طفلين.

٧- إذا حصل الطفل على تقدير (ممتاز) في الاختبار فلا تستعمل هذا الإنجاز في إصدار تصريح (عام) يتعلق بشخصه، كأن تقول له: «أنت لا تحصل أبدًا على درجاتٍ متدنية، إنك أذكى طفلٍ أعرفه»، ولكن هتته على هذا الإنجاز، وقل له: «أنا فخور جدًا بك لحصولك على الامتياز، وأرجو أن تحافظ على هذا المستوى العظيم»، ثم اشرح له لماذا يُعتبر الحصول على درجاتٍ عالية أمرًا مهمًا جدًا.

٨- اطلب من زوجك (الوالد الآخر) أن ينبهك -على انفراد- إذا زللت

فأطلقت (وسمًا) على طفلك من حينٍ لآخر.

(١) لاحظ كيف أن هذه العبارة تُدين وتُسم السلوك دون أن تجرح أو تؤذي الشخص نفسه.

٩- من الجيد أن يعتذر الوالد لطفله إذا وسمه بطريقة سلبية، كأن يقول له: «أعتذر، فقد كنتُ مُحَبَّطًا، ولذا قلتُ ذلك»، أو: «آسف، ما كان ينبغي لي أن أقول لك هذا».

إن هذا يعودُ على علاقتك بطفلك بعائدٍ جيّد، ويوجد بينكما مُناخًا صالحًا، ويُوفّرُ له أنموذجًا يحثّذه ويُعلّمه أن يعتذر إذا أخطأ.

موقف تربوي جيد:

عاد الطفل إلى المنزل، واشتكى إلى أبيه من المعلمة التي قالت له: «أنت غبي».

في اليوم التالي اصطحبه الأبُّ إلى المدرسة، وقابل المعلمة، وقال لها: «أعطني ورقةً أوقّع لك فيها أنني المسؤول عن مستوى ابني الدراسي، وليست عليك أيّة مسؤولية، ولكن لا تقولي له: يا غبي! فأنا لم أعوّذه على ذلك».

يقول الأستاذ محمد سعيد مرسي مُعلّقًا على هذا الموقف: «كم كان هذا الموقف مؤثّرًا بالنسبة لي! إذ إنه يبدو أن هذا الأب الإيجابي يعلم أن الإنسان بوجه عام لو تصوّر في ذهنه صفةً لنفسه، وأخذ يرددها، أو يسمعها من آخرين فسوف تكون له خُلُقًا بالفعل، فإن قال الأب للطفل: «يا غبي!» مرّةً على الأقل في اليوم، وقالت الأم مثلاً، وسمعها الصغير من كلّ مدرس في المدرسة، أي إنها تُقال له حوالي عشر مرات في اليوم، وربما أكثر، فحتماً سيكون غيبًا، أو على الأقل مُتغايًا، والضرر الأقل أن يستمرّ الكلمة ويتعوّدها رغم أنها سبٌّ خطيرٌ يمس شخصه مباشرةً.

ومثل ذلك من يكذب مرة، فيظل الجميع ينادونه بالكذاب حتى يصير له خلقاً وطبعاً رغم أنه كان من الممكن أن تكون الكذبة الأولى والأخيرة.

وإنَّ احترام الصغير بعدم شتمه هو أمر يُكسبه الثقة في نفسه، ويشعره بإنسانيته وأدميته، والعكس عندما نشبهه بالحيوانات أو بصفات قبيحة، فنسمع من يقول: (يا كلب، يا حمار، يا عجل، يا جاموسة، يا حشرة، يا كسلان، يا شيطان، أنت لا تصلح لشيء، ليس فيك فائدة...).

والذي يقول ذلك ربما يُنقّس عن نفسه، لكنه يترك في نفس الصغير أثراً سيئاً وجروحاً غائراً.

لكن هذه الكلمات والتعليقات التي يطلقها الآباء يمكن أن تكون لها تشعّبات عميقة الجذور، فالأطفال يصدقون آباءهم تماماً، وإذا أخبرتهم بأنهم أغبياء أو أنانيون أو مشاغبون، حتى وأنت في حالة الغضب، فإنهم يحزنون ذلك في عقولهم، فأى كلمة سلبية تُستخدم لتصنيفهم سوف يأخذونها بجدية، حتى وإن كان ذلك في مستوى اللا شعور.

والمعروف تربوياً وإنسانياً أن المذموم هو الفعل السيئ وليس الشخص نفسه، إنَّ وقوع الخطأ لا يعني أن الخاطئ أحق أو مُعقّل، ولا بُدَّ أن يقع الطفل في أخطاءٍ عديدة؛ لذلك علينا أن نتوجّه إلى نقد الفعل الخاطئ والسلوك الشاذ، لا نقد الطفل وتحطيم شخصيته، فمن هنا فنقول للمخطئ: (إنَّ ما فعلته هذا شيء سيئ، وأرجو ألا تفعله بعد ذلك)، ولا نقول: (أنت سيئ بسبب ما فعلت)، ونقول: (لم نكن نحب أن نسمع منك قولاً كهذا)، ولا نقول: (أنت غبي

ومتخلف عندما تُسمِعنا هذا القول)، ونقول: (هذا الفعل سيئ، وأنت طفل مهذب لا يحسن بك هذا السلوك).

ومن اللازم للأبناء عند تهذيبهم أن يشعروا بعدم الرضا عن تصرفهم الخطأ لا عن أنفسهم وشتان بينهما، وكذلك لا ينبغي إشعار الطفل بالأسى وأنه إنسان سيئ لارتكابه الخطأ، فهذا يدمر ولا يبني، وقد يُسهم في استدامة السلوك الخطأ لا منعه.

ويسئ بعض المربين إلى أبنائهم عندما يخطئون من خلال انتقاصهم لشخصياتهم وهم غاضبون، فينتونهم بصفات قبيحة من الصعب على الأطفال نسيانها فيما بعد، بل هي تسري كالسهم المسمومة في تدمير شخصياتهم، وتعمل على اضطرابها وضعفها، والسبب أن الإنسان مخلوق بقدره فطرية هي الإحساس، ومن الطبيعي أن يشعر الطفل الذي يصفه والداه بأنه قبيح أو غبي بالقهر والظلم وأحياناً بالكُره لهما لما يسببان له من ألم نفسي، وقد ينطلق خياله لكي ينتقم منهما لشعوره بالذنب والقلق والضيق بعكس ما هو مطلوب منه أخلاقياً ودينياً.

فالطفل الذي ينعت والداه بأنه غبي وأحمق قد يرُد في البداية عليهما بأنه غير أحمق أو غبي لكنه سيصدّقهما فيما بعد عندما يكررانها عدة مرات، وسيبدأ في التفكير في نفسه على أساس أنه غبي، وسيبتعد عن تجربة أي شيء لأنه يخاف الفشل، أي أنه سيبتعد عن أي جهد عقلي يبذله لكي يتطور.

إذن من الأفضل أن يكون انتقادنا لأبنائنا بعيداً عن تحقير شخصياتهم، وأن ينصبَّ على ما فعله الطفل من تصرف خاطئ بأن نركز حديثنا معه حول ما كان يجب عليه القيام به لكي يتفادى الخطأ، إننا بهذا الأسلوب البناء في التوجيه سنساعد على تقوية ثقة أبنائنا بأنفسهم، وسنجعلهم راغبين في تطوير شخصياتهم»^(١).



(١) «كيف تكون أحسن مُربِّ في العالم؟» (ص ٩٢-٩٤).

النوع التاسع

العقاب المقترن بالسب والشتم واللعن

أو السخرية والتحقير والإهانة والاستهزاء

هذه كلها من صور الإساءة اللفظية إلى الطفل (Verbal Abuse) التي تحتوي غالباً على وسمٍ سلبي، وهذا كله من الأذى الذي يحرم إيصاله إلى المسلم بوجه من الوجوه، أو حالٍ من الأحوال، لكن أثره السيئ يتضاعف إذا قرنه المرء بالعقوبة التربوية.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَلْسَمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١].

قال إمام المفسرين الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «عمَّ الله بنهيه المؤمنين عن أن يسخر بعضهم من بعض جميع معاني السخرية، فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن، لا لفقره، ولا لذنبه، ولا لغير ذلك»^(١).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره»، وقال: «بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر»^(٢) أخاه المسلم، كل المسلم

(١) «تفسير الطبري» (٨٣/٢٦).

(٢) التحقير: هو أن يستصغر شخصٌ شخصاً آخر أو ما يصدر عنه من معروفٍ يسديه أو هدية يعطيها، قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» يعني يكفيه من الشر احتقاره أخاه المسلم، فإنه إنما يحقر أخاه المسلم؛ لتكبره عليه، والكبر من أعظم خصال الشر، وفي صحيح مسلم (١٩٨٦) عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر».

على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه» الحديث^(١).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ، وَغَفْطُ^(٢) النَّاسِ»^(٣) الحديث.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ أَرْبَى الرِّبَا
الْإِسْتِطْلَاقَ فِي عِرْضِ الْمُسْلِمِ بِغَيْرِ حَقٍّ»^(٤).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَبَابُ الْمُسْلِمِ فَسُوقٌ،
وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»^(٥).

وفي حديث أبي جريّ جابر بن سليم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
«اعهد إليّ»، قال: «لَا تَسُبَّنْ أَحَدًا»، قال: «فما سببتُ بعده حُرًّا ولا عَبْدًا، ولا بَعِيرًا
ولا شاة»^(٦) الحديث.

وعن سعيد بن عبد العزيز قال: رأى أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ امرأة سَلِيْطَةً
اللسان، فقال: «لو كانت هذه خرساء؛ كان خيرًا لها»^(٧).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ،
وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَاحِشِ، وَلَا الْبَذِيءِ»^(٨).

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) غمطت حقّ فلان: إذا احتقرته ولم تره شيئاً، وكذلك غمضته: إذا انتقصته وازدرت به.

(٣) رواه أبو داود (٤٠٩٢)، وقال محقق «جامع الأصول»: «حديث صحيح» (١٠/٦١٥).

(٤) رواه أبو داود (٤٨٧٦)، وصححه الألباني.

(٥) رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤).

(٦) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٤٠٨٤).

(٧) «الإحياء» (٣/١٢٥).

(٨) رواه الإمام أحمد (٤٠٥/١)، وصححه الشيخ شاکر رقم (٣٨٣٩)، والترمذي (١٩٧٧)،

وقال: «حسن غريب».

وفي حديث ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وإنه من لعن شيئاً ليس له بأهلٍ، رجعتِ اللعنةُ عليه»^(١).

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إنَّ اللعَّانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يومَ القيامة»^(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إياكم والفُحشَ والتَّفَحُّشُ؛ فإنَّ الله لا يُحِبُّ الفاحشَ المتَّفَحِّشَ» الحديث^(٣).

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يومَ القيامة من خلقٍ حسنٍ، وإنَّ الله لَيُبْغِضُ الفاحشَ البذيء»^(٤).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مهلاً يا عائشة! عليك بالرفق، وإياك والعنف والفُحشَ»^(٥).

وعن جابر بن سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء، وإنَّ خيرَ الناس إسلاماً أحسنُهم خلقاً»^(٦).

(١) رواه أبو داود (٤٩٠٨)، والترمذي (١٩٧٨)، وقال «حسنٌ غريب»، وصححه محقق «جامع الأصول» (١٠/٧٦٤).

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٨).

(٣) رواه الحاكم (١٢/١)، وابنُ حبان (٦٢٤٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٨٧)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٦٠٣).

(٤) رواه الترمذي (٢٠٠٢)، وقال: «حسن صحيح»، وحسنه محقق «جامع الأصول».

(٥) رواه البخاري (٦٠٣٠)، ومسلم (٢٥٩٣).

(٦) رواه أبو داود (١٦٠٩)، وابن ماجه (١٨٢٧)، وحسنه الألباني.

ومن صور الإساءة اللفظية السخرية من الطفل:

- من جسده: (أجسام البغال وأحلام العصافير)، (أيها السمين).
- من ملامحه الخلقية: (يا قصير)، (يا أبا شبر)، (يا أعور).
- من تصرفاته وأفعاله كطريقة نومه أو أكله أو مشيه، ونحو ذلك.
- من قدراته العقلية: (اسكت أيها الأبله)، (أنت بليد غبي متخلف).
- وقد تدور الإساءة اللفظية حول تحطيم ثقته في نفسه، وتحقير ذاته: (قابلني إذا نجحت)، (لن تذوق طعم النجاح)، (أنت أسوأ من رأيت)، (لم يعد لي فيك أمل، قد أيست منك، أنت خيبت فيك رجائي)، (أكرهك لأنك فاشل عديم القيمة، وستبقى فاشلاً ما حييت)، (الموت أفضل لمثلك)، (أنا لا أفتخر بأنك ابني، ولا أريد أن يعرف أحد أنك ابني) ... وهكذا.
- وقد يقترن بالإهانة اللفظية إيذاء جسدي (Physical Abuse) كاللطم والصفع على الوجه والقفأ، والرَّكل، والبصق عليه، والضرب بالنعال.
- فهذا أبٌ أشبع طفله (المتفوق) ضرباً بالعصا الغليظة؛ بسبب أنه يكلفه إنجازاً في المذاكرة يفوق طاقته، وبالتالي عجز عن إجابة سؤال، وبعد أن أنهكه الضرب، أجبره على أن يقفَ ويظلّ يكرر بصوت عالٍ: «أنا غبي، أنا غبي».
- وفي إحدى المدارس خيّر الطلبة الذين لم يؤدّوا الواجب المدرسي بين أن يُجسّوا داخل مخبأ ضيق، وبين أن يقوم زملاؤهم برسم أشكالٍ على وجوههم بالخبير الدائم (Permanent Marker).

- وقد تصل الإساءة اللفظية إلى حدّ قذف الطفل في عرضه بإطلاق الألفاظ النابية البذيئة عليه.

وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شأن العبد المملوك: «من قَذَفَ مملوكه وهو بريء مما قال: جُلِدَ يومَ القيامة، إلا أن يكون كما قال»^(١).

- وفي مدرسة بولاية أريزونا الأمريكية عاقبَ ناظرُ المدرسة ولدين تشاجرا في الفصل بعد أن خيّرهما بين أمرين: الفصل من المدرسة، والآخر -وهو ما حدث-:

أن يجلسا أمام زملاء الفصل على مقعدين قرييين لمدة ساعة، ويُشَبَّك كُلُّ منهما أصابعَ كفِّه بأصابعِ كفِّ الآخر، -يعني على هيئة العاشقين- وبالفعل تم إذلالهما على الملأ، بينما أخذ زملاؤهما يسخرون منهما، ويلمزون عِرْصَتَيْهما، ويلتقطون لهما الصور والفيديوهات.

وقد تكون الإهانة من خلال تشبيهه بالحيوانات الدنيا، أو مناداته بأسمائها، كالكلب، والقرد، والخنزير، والحمار ... إلخ.

يقول أحدُ الشباب: «في المرحلة الإعدادية (المتوسطة) درّسَ لنا مُدَرِّسٌ فاحشُ اللسان، فكان ينادينا بأسماءِ الحيوانات، ويعاملنا باحتقار، وكان كثير من الطلاب يقبلون هذا الأسلوب، ويخافون من عصا المدرس، أما أنا فقد ربّاني أبي على عِزَّةِ النفس، وحِفْظِ الكرامة، ولذلك كنتُ لا أرضى أن يناديني بأسماء الحيوانات.

(١) رواه البخاري (٦٤٦٦).

وذات يوم طلبَ مِنِّي هذا المدرس أن أُجِيبَ عن أحدِ الأسئلة، وقال:
قُمْ يا حمار، وأجب عن السؤال.

فلم أقم، ومثلتُ دورَ السرحان، وكأني لم أسمعهُ.

فكرر كلامه: قم يا حمار!

فظللتُ جالسًا، فأقبل ناحيتي، وهو غاضبٌ، وقال: ألم تسمع يا حمار؟

فقلتُ: هل تقصدني؟

قال: وهل هناك حمار غيرك؟ وضحك زملائي.

فقلتُ له: أنا لستُ حمارًا.

فازداد غضبه، وقال: بل أنت ستون حمارًا، قف ولا تقل لنا إجابة السؤال،

لك عندي سؤال جديد، هو: من أنت؟ والإجابة الصحيحة: ههههههه...

وضحك معه جميعُ مَنْ بالفصل!

وسألني: من أنت؟

فقلتُ: إنسان كَرَّمَهُ الله.

فضربني، وأعاد عليَّ السؤال: من أنت؟

فقلتُ: إنسان كَرَّمَهُ الله، فضربني للمرة الثانية، وظللنا على هذه الحال،

حتى ضربني عشر مرات، وكان الضرب يؤلمني كثيرًا، لكنني عزمْتُ ألا أسمعَ

له بإهانتني، وانتهت الحصة، فابتسم المعلم، وقال: الجرس هو الذي أنقذك

مني، لكنك ستكون أول طالب أسأله في الحصّة القادمة، وطبعاً أنت تعرف السؤال، وتعرف الإجابة.

وبعد الحصّة لامي كل زملائي، وقالوا: لقد جلبت لنفسك الضرب والإهانة، كان يكفيك أن تقوم من البداية، أو تقول: أنا حمار.

ورجعتُ إلى البيت، وحكيْتُ لأبي ما حدث، فقبَّل رأسي، واحتضنني بحنان، وقال لي: اليوم عرفتُ أنني ربيتُ رجلاً، وفي اليوم التالي فوجئتُ بأبي في المدرسة، وقد دافع عني بشدّة، وحشد كل طاقته حتى يجعل المعلم يعتذر لي، ومن يومها أحببتُ أبي أكثر، وتعلّمتُ أن الكرامة تحتاج إلى تضحية وصبر، لكنها في النهاية لها طعم خاص لا يدركه الأذلاء»^(١).

«إِنَّ مِنْكُمْ لَمُنْفَرِينَ»

قال أحدُ الشباب: عندما كنتُ في سنِّ العاشرة، بدأتُ أهتمُّ باللعب وأتكاثر عن الصلاة، وكان أبي رجلاً صعباً، فلم يتعامل معي برفق، وكنتُ على استعداد أن أتجاوب معه لو نصحني بلطفٍ، لكنه بدلاً من ذلك كان كلما سألني عن الصلاة، وأخبرته (صادقاً) أنني لم أصل، كان يقول لي: «الحمار أحسنُ منك، فهو يعبدُ الله تعالى ويسبحه، وأنت لا».

وبعد فترة قصيرة، قال أبي لإخوتي الذين يُصلُّون: «من اليوم لا أحد ينادي أحاكم سامي -يقصدني أنا- باسمه، من اليوم اسمه (حمار)، والحمار الذي نملكه اسمه (سامي)، ولن نتوقَّف عن هذا إلا بعد أن يُصلِّي».

(١) «بالحب نربي أبناءنا» (ص ٣٠، ٣١).

ومن يومها أصبح الجميع ينادون الحمار بسامي، وينادونني بالحمار، ونتيجة لذلك دخلتُ في موجةٍ من الاكتئاب الشديد، وكرهتُ الصلاة، وعاندتهم أكثر، وساءت حالتي الصحية، وانخفض مستواي الدراسي، وفي النهاية هربتُ من البيت لفترةٍ، وهذا فقط هو ما جعل أبي يشعرُ بخطئه للمرة الأولى، ويحسن تعامله معي، ويجعل الجميع يحترمونني، وهنا فقط قررتُ أن أعودَ للصلاة، لكنني قضيتُ فترةً طويلةً في إصلاح ما فسد من حياتي وشخصيتي وقلبي^(١).



(١) «كيف تعاقب ابنك تارك الصلاة» للدكتور عبد الله محمد عبد المعطي.

احترمت الشريعة كرامة العصاة ومرتكبي الكبائر. ولم تبخ شتمهم واحتقارهم وهم يُعاقبون. فكيف بالأطفال غير المكلفين؟!

يعتبر الاحتقار والازدراء والإهانة في بعض المجتمعات وسيلة من وسائل (الضبط الاجتماعي)، وهذه الوسيلة مرفوضة في الإسلام، سواء على المستوى الاجتماعي، أو المستوى الأسري، وسواء في حق الكبار، أو في حق الصغار، فالإسلام حرّم حرّم الكبر، والتعالي، وحرّم تقديس الأشخاص، وقرر المساواة بين البشر، وقرر حدًا أدنى من الكرامة لكل الناس، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

ولم يأذن الإسلام بالإساءة إلى الكرامة وبالتحقير كعقوبة، حتى في كبائر الذنوب المستوجبة للحدود؛ إذ قال النبي ﷺ: «إِذَا زَنَتِ أَمَةٌ أَحَدَكُمْ فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا، فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ، وَلَا يُتْرَبْ^(١) عَلَيْهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّانِيَةَ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ، وَلَا يَتْرَبْ عَلَيْهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتِ الثَّلَاثَةَ فَلْيَبْعِهَا وَلَوْ بِحَبْلٍ مِنْ شَعْرٍ»^(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ خَمْرًا، فَقَالَ: «اضْرِبُوهُ» الْحَدِيثُ، وَفِيهِ: فَلَمَّا انْصَرَفَ؛ قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: أَخْزَاكَ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَقُولُوا هَكَذَا، لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ»^(٣)، وَفِي رِوَايَةٍ: «وَلَكِنْ قُولُوا: اللَّهُمَّ اغْضِرْ لَهُ، وَارْحَمْهُ».

(١) التثريب: التوبيخ.

(٢) رواه البخاري (٢٢٣٤)، ومسلم (١٧٠٣).

(٣) رواه البخاري (٦٧٧٧)، وأبو داود (٣٧٥٩).

وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رجلاً على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان اسمه عبد الله، وكان يُلقَّب حمارًا، وكان يُضْحِكُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد جلدته في الشراب، فأَتِيَ به يومًا فأمر به فجلد، فقال رجلٌ من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تلعنوه؛ فوالله ما علمتُ إلا أنه يحب الله ورسوله»^(١).

ورُوِيَ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء الأسلمي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فشهِد على نفسه بالزنا أربعَ شهاداتٍ يقول: «أتيتُ امرأةً حرامًا»، وفي كلِّ ذلك يُعرِضُ عنه رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلى أن قال: «فما تريدُ بهذا القول؟» قال: «أريدُ أن تُطَهِّرَنِي»، فأمر به رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُرْجَمَ، فُرْجِمَ، فسمع رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلين من الأنصارِ يقولُ أحدهما لصاحبه: «انظرُ إلى هذا الذي ستر الله عليه، فلم يدعْ نفسه حتى رُجِمَ رُجْمَ الكلبِ»، قال: فسكت رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم سار ساعةً، فمرَّ بجيفةٍ حمارٍ سائلٍ برجله^(٢)، فقال: «أين فلانٌ وفلان؟» فقالوا: نحن ذا يا رسولَ الله، فقال لهما: «كُلا من جيفةِ هذا الحمارِ»، فقالا: «يا رسولَ الله، غفر الله لك، مَنْ يأكلُ مِنْ هذا؟» فقال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما نلتُما من عرضِ هذا الرجلِ أنفاً أشدَّ من أكلِ هذه الجيفةِ، فوالذي نفسي بيده إنه الآن في أنهارِ الجنةِ يَنغمِسُ فيها»^(٣).

(١) رواه البخاري (٧٦٨٠).

(٢) الشائل: كل ما ارتفع.

(٣) رواه أبو داود (٤٤٢٨)، وسكت عنه، وابن حبان (٤٣٩٩)، وفيه عبد الرحمن بن الصامت،

في عداد المجهولين.

وفي «صحيح مسلم» أَنَّ الغامدية جاءت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: يا رسول الله، إِنِّي قد زْنَيْتُ فطَهَّرْنِي، وإنه رَدَّهَا، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، قالت: يا رسول الله لَمْ تَرُدَّنِي؟ لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَا عَزَّاءَ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لِحُبْلَى، قال: «إِذَا لَمْ يَكُنْ فَادْهَبِي حَتَّى تَلِدِي»، فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خِرْقَةٍ، قالت: هذا قد وَلَدْتُهُ، قال: «ادْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَقْطُمِيهِ»، فلما فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةً خُبْزٍ، فقالت: هذا -يا نبيَّ الله- قد فَطَمْتُهُ، وقد أَكَلَ الطَّعَامَ، فدفع الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا، فَحَفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا، وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَوْهَا، فَيُقْبَلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ، فَرَمَى رَأْسَهَا، فَتَنْصَحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ، فَسَبَّهَا، فَسَمِعَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَّهُ إِيَّاهَا، فقال: «مَهْلًا يَا خَالِدُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ^(٢) لَغُفِرَ لَهُ» ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَصَلَّى عَلَيْهَا وَدُفِنَتْ^(٣).

تَجَنَّبْ تَحْقِيرَ ذَاتِهِ:

يتفق التربويين على أن النقد أو العقاب يجب ألا يتضمننا (تحقير الذات)، بمعنى أن المذموم هو السلوك الذي يُعاقَب عليه الطفل، وليس الطفل نفسه، وأن وقوع الخطأ من الطفل لا يعني أنه أحمق، أو متخلف، أو غبي .. إلخ، فيجب أن يتوجه النقد إلى السلوك وليس إلى الطفل ذاته، فنقول مثلاً: «هذا الفعل سيئ، وطفل مهذب مثلك لا يحسن منه هذا السلوك»، بدلاً من أن نقول له: «أنت سيئ أو غبي أو أحمق ...».

(١) معناه: إذا أَبَيْتَ أَنْ تَسْتَرِيَ عَلَى نَفْسِكَ وَتَتَوْبَى وَتَرْجِعِي عَنْ قَوْلِكَ، فَادْهَبِي حَتَّى تَلِدِي، فَرُجِّمِينَ بَعْدَ ذَلِكَ. «شرح صحيح مسلم» (٢٠٣/١١).

(٢) أي الذي يأخذ أموال الناس بغير حق، ويصرفها في غير وجهها، وهذا من أَقْبَحِ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ وَالْمُوبِقَاتِ. انظر: «شرح صحيح مسلم» (٢٠٣/١١) للنووي.

(٣) رواه مسلم (١٦٩٥).

لأن المقصود هو أن يشعر الطفل بعدم الرضا عن «تصرُّفه»، وليس عدم الرضا عن «نفسه».

يقول الإمام الماوردي في آداب المعلم: «ومن آدابهم أن لا يعنّفوا متعلِّماً، ولا يُحقِّروا ناشئاً، ولا يستصغروا مبتدئاً»^(١).

عاقبه وأنت تحترمه؛

يجب أن يقترن التأديب بالاحترام والاعتبار، وأن يتنزّه العقاب التربوي عن الإهانة، فإنَّ الطفل كما يحتاج الطفل إلى الحب، والقبول، والمدح، والطمأنينة، كذلك يحتاج إلى التأديب عن طريق سلطة ضابطة مُربّية، ويحتاج منها إلى الاعتبار^(٢) والاحترام والتقدير.

والحب وحده لا يكفي لإتمام الدور التربوي، ولكن يجب أن يقترن به الحزم والانضباط.

وفرض وجود قواعد محترمة، وحدود ضابطة لا يمكن أن يعني أن المربي لا يحب الطفل ولا يقبله.

قد يستلزم التأديب (عقوبة تربوية)، لكن هذه العقوبة لا تتنافى مع احترام الطفل وتقديره واعتباره، ويصعب على كثير من الناس (هضم) هذه الثنائية: (العقاب) و(الاعتبار) بسبب ما رسخ في أذهانهم من أنَّ العقاب ملتصق

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص ٩٣).

(٢) انظر: «التربية الإيجابية من خلال إشباع الحاجات النفسية للطفل» للدكتور مصطفى أبو سعد (ص ١٥-١٨).

بتوأمه: السخرية والإهانة وتحقير الذات، والشتم والسب واللعن والتلقيب بألقابٍ قبيحة، وربما بذئثة، وهذا كله مما تحرمه شريعتنا في كل حال، لكنها حال العقوبة أغلظ؛ لأنها تضم إلى ألمه البدني الألم النفسي.

وليس شرطاً في العقاب التربوي أن يصحبه عبوسٌ، وتقطيبٌ جبين، وصياح، وصراخ، لكن المربي -أثناء العقاب- يتكلم بنبرة جازمة، وإشارة حازمة، مع احتفاظه بالهدوء، وامتلاك زمام غضبه، هذا هو العقاب الجدّي المؤثّر، وهو أشدُّ فعلاً وأبعدُ أثراً من (حفلة) عقاب صاحبة يُرغى فيها المرَبّي ويزبد، ويتطاير فيها الشرر من العيون كأنها فصل من معركة قتالية.

دلالة لجوء المربي إلى السب والتحقير والإهانة أثناء العقوبة:

إنَّ قران المربي العقابَ بالشتم والسب بالألفاظ القبيحة، يدل على أنَّ عقابه عقاب انتقامي، وليس تربوياً تأديبياً، وهذا في حدِّ ذاته كافٍ في الحكم عليه بأنه غيرُ مُؤَهِّلٍ لممارسة العقاب التربوي الذي يُشترط فيمن يُوقَّعه أن لا يكون غضبان؛ لأنَّ العقاب هنا يخرج من كونه تأديباً منضبطاً إلى كونه وسيلةً انتقاميةً يشفي من خلالها المُعاقِبُ غيظه، ويعلن عن فشله، وجهله بعلم (إدارة الغضب)^(١).

يقول القاسبي: «إنما تجري الألفاظ القبيحة من لسان التقي إذا تمكَّن الغضبُ من نفسه، وليس هذا مكان الغضب»^(٢)؛ لأنه موضعُ تأديب وليس انتقاماً.

(١) انظر: (ص ١٠٥)، وما بعدها.

(٢) «التربية في الإسلام» للأهواني (ص ١٤٥).

لا توجد «تربية بالإهانة»:

ولأنَّ التربيةَ رعايةً وحمايةً، يتفق التربويون على أنَّ السَّبَّ والشتَمَ والإهانةَ والسخرية والازدراء والتحقير لا يمكن أن تندرج تحت أي وسيلة تربوية مما يمكن أن يُستخدم في تقويم سلوك الأطفال، بل هي بالأحرى عدوان وإيذاء وتخريب وتدمير.

إنَّ التأديب والعقاب والتوبيخ يجب أن يخلو تمامًا من الشتم والسب والإهانة والإذلال والاحتقار، وكل ما يجرح الكرامة، يقول القاسبي مخاطبًا المعلمَ: «والتقريع بالكلام الذي فيه التواعد من غير شتمٍ ولا سبٍّ لعرضٍ، كقول من لا يعرف لأطفال المؤمنين حقًا، فيقول: يا مسخ، يا قرد، فلا يفعل هذا، ولا ما كان مثله في القبح، فإن قلتَ له واحدةً، فلتستغفر منها، ولتنته عن معاودتها»^(١).

مخاطر وعواقب العقاب المهين:

إنَّ الإهانة في حدِّ ذاتها -فضلاً عن العقاب التربوي المقترن بها- لا تمكُّ إلى التربية القويمة بأدنى صِلَةٍ، ولا تغرز في الطفل أيَّ قيمةٍ تربوية، بل تكسر قلبه، وتشوّه نفسيته، وتزرع فيه الخوف، وهذا من الثمرات المريعة للعقاب البدني غير التربوي الذي يكون مصحوبًا بانفعالٍ وغضبٍ شديدين من المربي المتسلط على الطفل المقهور، وهذا يتصادم مع المهمة التربوية المقصودة.

وكيف يمكن للإهانة أو التحقير أن يُقوِّما طفلًا يُرمَى بصفاتٍ قبيحة يصعبُ عليه نسيانها، وتسري في كيانه كالسهام المسمومة، فتدمر احترامه

(١) «نفسه» (ص ٣٠٩، ٣١٠).

لنفسه، ويسئ الظنَّ بقدراته، وتجرح كرامته وكبريائه، وتحدث فيها جراحاً نفسية غائرة لم تكن آلتها السكين الحادة بل الكلمات الطائشة، ولا تندمل هذه الجراح بسرعة، بل ترسخ في نفسه، وتحفر أخاديد عميقة في وجدانه.

وَجُرْحُ السِّيفِ يُدْمِي ثُمَّ يَعْفُو وَجُرْحُ الدَّهْرِ مَا جَرَحَ اللِّسَانُ

إِنَّ تَجَنُّبَ الإِهَانَةِ يعني حماية الطفل من مشاكل سلوكية عديدة، ووقايتَه من اضطرابات نفسية خطيرة.

يقول الأستاذ محمد عطية الإبراشي: «ويجب ألا يمس نوع العقوبة كرامة الطفل، وألا يكون فيها إهانة له، كأن يُضْرَبَ أمام الناس، أو يُعلنَ عندهم أنه سرق أو نحو هذا، فإن للطفل شخصيةً يجب أن تُراعى، وكرامة يجب أن تُصان، كثيراً ما أخطأ المربون الغرض من العقوبة فضللوا السبيل، وظنُّوا مخلصين أنَّ الشدَّة على البنين والبنات، قد تأتي في ظنِّهم بخير ما يرجون، وذلك لقلَّة يقظتهم للحقيقة المؤلمة، فقد أدت الشدة إلى كثير من البلايا التي ولدت بعض المشاكل الاجتماعية التي يتألم منها المجتمع الإنساني، فجعلت الطفل كائنًا ميت النفس، ضعيف الإرادة نحيف الجسم، مضطرب الأعصاب خائر العزيمة، قليل النشاط والحيوية».

إهانات تتضمن الكذب، وتهدر كرامة الأدمي؛

حين يوصف الطفل بأنه (حيوان) أو (قرد) أو (كلب) أو (حمار) أو (خنزير) .. إلخ، فإنَّ هذا كذب مخالف للحقيقة؛ لأنه إنسان كَرَّمَهُ اللهُ بصفَةِ (الإنسانية)، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وليست هيئته كهيئة هذه الحيوانات الأدنى.

ولا يقولنَّ قائل: لقد وصف الله عَزَّجَلَّ الكفار في القرآن الكريم بأنَّهم حيوانات؛ لأن هذا ادّعاء غير صحيح، فالذي في القرآن الكريم تشبيههم بالحيوانات في بعض الصفات، كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ٧٩]، وقال سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا الثَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿فَثَلَّمُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وقد رأينا من أخلاق سلفنا الصالح ما يعكس حُسْنَ خُلُقِهِمْ مع البهائم، فكيف بالإنسان المكرم؟ فكيف بالمسلم الموحد؟

قال الفضيل بن عياض: «والله ما يحل لك أن تؤذي كلبًا أو خنزيرًا بغير حق، فكيف تؤذي مسلمًا؟».

وقال الإمام تاج الدين السُّبكي رَحِمَهُ اللهُ: «كنت جالسًا بدهليز دارنا، فأقبل كلبٌ، فقلتُ: «احسأ كلب ابن كلب»، فزجرني الوالد من داخل البيت، فقلتُ: «أليس هو كلب ابن كلب؟» قال: «شرط الجواز عدم قصد التحقير»، فقلتُ: «هذه فائدة».

وعن يحيى بن سعيد أن عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقي خنزيرًا بالطريق، فقال له: «انفذ بسلام»، فقبل: «تقول هذا لخنزير؟»، فقال عيسى: «إني أخاف أن أعودَ لساني النطق بالسوء».

وقال عاصم بن أبي النُّجود: «ما سمعتُ أبا وائل -يعني شقيق بن سلمة- سبَّ إنسانًا قط، ولا بهيمة».

وعن المثني بن الصباح قال: «لبث وهب بن منبه أربعين سنة لم يسب شيئاً فيه الروح».

وعن عمرو بن مالك أنه سمع أبا الجوزاء يقول: «ما لعنت شيئاً قط، ولا أكلت شيئاً ملعوناً قط، ولا آذيت أحداً قط».

لقد أمر الله تعالى بحسن الخلق مع الناس كافة، ولم يستثن، فقال عز من قائل: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] قال: «يعني الناس كلهم»^(١)، وعن عطاء قال: «لناس كلهم، المشرك وغيره»^(٢).

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال أبو العالية: «قولوا لهم الطيب من القول، وجازوهم بأحسن ما تحبون أن تُجازوا به»، وهذا كله حض على مكارم الأخلاق، فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس ليئلاً، ووجهه منبسطاً طلقاً مع البرِّ والفاجر، والسُّنيِّ والمبتدع، من غير مداينة ولا موالاة محرمة، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يُرضي مذهبه؛ لأن الله تعالى قال لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]، فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون، وقد أمرهما الله تعالى باللين معه.

وقال طلحة بن عمر: قلت لعطاء: إنك رجل يجتمع عندك ناس ذوو أهواء مختلفة، وأنا رجل في حدة، فأقول لهم بعض القول الغليظ، فقال:

(١) «شعب الإيمان»، (٥/٢٨٨).

(٢) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٢/٢٩٦)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» رقم (٣٠٨).

«لا تفعل! يقول الله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى، فكيف بالحنيفي؟»^(١).

وعن أبي سنان، قال: قلت لسعيد بن جبير رَحِمَهُ اللهُ: «المجوسي يُولينِي من نفسه، وَيُسَلِّمُ عَلَيَّ، أَفأرد عليه؟» فقال سعيد: سألتُ ابنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن نحو من ذلك؟ فقال: «لو قال لي فرعونُ خيرًا لرددتُ عليه».

وعن ابن عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «لو قال لي فرعون: بارك الله فيك، قلتُ: وفيك، وفرعون قد مات»^(٢).

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: قال معاذ: «يا رسولَ الله، أوصني»، فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْتَقِمْ، وَنِيحْسُنْ خُلُقَكَ لِلنَّاسِ»^(٣).

وعن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اتق الله حيثما كنتَ، واتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالفِ الناسَ بخلقٍ حسنٍ»^(٤).

وعن أبي حازم سلمة بن دينار، قال: «السيئ الخلق أشقى الناس به نفسه التي بين جنبيه، وهي منه في بلاء، ثم زوجته، ثم ولده، حتى إنه ليدخل بيته وإنهم لفي سرور، فيسمعون صوته فينفرون عنه، فرقاً منه، حتى إن دأبته تحيدُ مما يرميها بالحجارة، وإن كلبه ليراه فينزو على الجدار، حتى إن قِطَّه ليفر منه».

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٦/٢).

(٢) «صحيح الأدب المفرد» (٨٤٨).

(٣) أخرجه ابن حبان (٥٢٤)، والحاكم (٥٤/١)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٢٢٨).

(٤) رواه الترمذي (٢٠٧٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٦١٨).

ومن مساوئ الإهانة والتلقيب بالصفات القبيحة والأسماء الكريهة:

الانحراف عن الأدب الشرعي في استحباب مناداة الإنسان بأحب الأسماء إليه، فعن أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «ثَلَاثُ يُصَفِّينَ لَكَ وَدَّ أَخِيكَ: أَنْ تَسْلَمَ عَلَيْهِ إِذَا لَقَيْتَهُ، وَأَنْ تَوْسَعَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ، وَأَنْ تَنَادِيَهُ بِأَحَبِّ الْأَسْمَاءِ إِلَيْهِ».

- ومن مساوئها: توحد الطفل مع المربي المعتدي؛ فَإِنَّ الطفل يتماهى مع المربي، فَإِنْ كَانَ حَسَنَ الْخُلُقِ، مَهْذَبَ السُّلُوكِ، عَفِيفَ اللِّسَانِ، رَاقِيَ الْأَدَبِ، اقْتَدَى بِهِ فِي حَسَنِ الْخُلُقِ، وَتَقَمَّصَهُ وَتَوَحَّدَ مَعَهُ، أَمَّا إِذَا كَانَ سَيِّئَ الْخُلُقِ، بَذِيءَ اللِّسَانِ، شَتَّامًا لَعَّانًا طَعَّانًا، فَإِنَّ صُورَتَهُ كَقَدْوَةٍ سَتَهْتَزُّ، وَرَبَّمَا تَمَاهَى الْوَحْدَانُ مَعَ هَذَا الْمُرِيٍّ وَخَرَجَ مِثْلَهُ، وَرَبَّمَا قَلَّدَهُ فِي الْبَذَاءِ، وَرَبَّمَا وَصَلَ إِلَى حَدٍّ خَطِيرٍ إِذَا رَدَّ عَلَيْهِ الشَّتِيمَةُ بِالْمِثْلِ فَيَحْدُثُ بَيْنَهُمَا شَرْخٌ عَمِيقٌ يَصْعَبُ مَدَاوَنُهُ.

إِنَّ خُرُوجَ الْمُرِيٍّ عَنِ الْخُلُقِ الْحَسَنِ يَقْدَحُ فِي أَهْلِيَّتِهِ لَوْظِيفَةِ التَّربِيَةِ، وَيَجْنَحُ بِالْأَطْفَالِ بَعِيدًا عَنِ الْقِيَمِ التَّربَوِيَةِ السَّامِيَةِ، وَيَهْوَنُ عَلَيْهِمْ تَقْلِيدَ الْمُرِيٍّ فِي أَلْفَاظِهِ الشَّائِنَةِ، فَتَلَوُثُ لُغَتُهُ وَتَفْحَشُ أَلْفَاظُهُ، وَقَدْ يَدْفَعُهُمْ إِلَى الْبَحْثِ عَمَّنْ يَنْاسِبُ هَذِهِ الصِّفَاتُ مِنَ الْأَشْخَاصِ، وَبِالتَّالِيِ الْارْتِبَاطُ بِالْجَانِحِينَ.

- ومن مساوئها: أَنَّهَا تُوْحِي لِلطِّفْلِ بِأَنَّهُ غَيْرُ مُرْغُوبٍ فِيهِ، وَأَنَّ مُرَبِّيَهُ يَكْرَهُهُ وَلَا يَقْبَلُهُ، وَيَتَمَنَّى لَهُ الشَّرَّ، مِمَّا يَقِيمُ جَدَارًا سَمِيكًا يَعِزُّلُ طَرَفِي الْعَمَلِيَةِ التَّربَوِيَةِ، وَيَقْطَعُ جَسَرَ الثِّقَةِ وَالتَّوَاصُلِ الصَّحِيحِ بَيْنَهُمَا.

- ومن مساوئها: أنها تَحُول دون تمتُّع الطفل بالتعامل الطبيعي مع من حوله إذا سمعها باستمرار، فهي تخبر الطفل بطريقة، أو بأخرى بأنه غير معترف به كإنسان أو كفرد، وأنه ناقص لا يتمتع بالكفاءة اللازمة، وهذا من شأنه أن يحد من تفاعله مع الآخرين، وأن يوقف عملية نموه الانفعالي والنفسي ويجعله شخصية انطوائية، ويُعَرِّضه للانكماش العاطفي وعدم الشعور بالأمان والطمأنينة، والشعور بالإحباط والفشل والعجز والهوان، وبالتالي عدم الرضا عن النفس، وعدم الثقة بعلاقته بالآخرين.

- ومن مساوئها: أنها قد تدفعه إلى التمرد على القيم، والثورة على عالم الكبار، وقد تكون بداية لجنوحه وانحرافه، والبحث عمَّن يناسبه من الجانحين.

تنبيه:

قد لا يعتمد المربي تجريح الطفل وإهائته تحت ضغط الغضب أو التوتر، وهنا يجب على المربي الاعتذار للطفل واسترضائه، وشرح الدوافع التي أدَّت به لهذه الإساءة، هذا الاعتذار -رغم أنه من الكبير للصغير، ورغم أنه يأتي بعد فوات الأوان- إلا أنه يخفف من الآثار السيئة للإهانة، ويَشفي غيظ الطفل المقهور، ويعطيه الأسوة في الاعتذار عن الخطأ، وتبادل الاحترام، والتقدير لمشاعره.



النوع العاشر

العقاب بكثرة التوبيخ والنقد الهدام

العقاب الكلامي:

باللوم والتأنيب والتوبيخ والنقد صورة من صور العقاب التي لا بد أن يتقدمها حوار ومناقشة، وتحتاج من المربي إلى حذر وحكمة ليضع هذا العقاب في موضعه الملائم، ويحدد القيمة التربوية التي يستهدف غرسها، والسلوك الذي يريد أن يُعَدِّله مراعيًا شخصية الطفل وبيئته، ومقدراً مدى تأثيره ورد فعله للتأنيب، وهذا النوع من العقاب لا يُستعمل إلا نادراً وبشروطٍ مُحدَّدة كي يؤتي أكله.

ولأنَّ خيرَ الهدي هدي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نسرد بعض مواقف التربوية صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كي تكونَ نبراساً وأسوةً لنا حين نربي أبناءنا، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

العتاب والتوبيخ في السنة الشريفة:

عن أنس بن مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: لما قَدِمَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة، أخذ أبو طلحةَ بيدي، فانطلق بي إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، إن أنساً غلامٌ كَيْسٌ، فليخُدْكُمْ. قال: فخدمتهُ في السفر والحضر، والله ما قال لي شيءٌ صنعتُه: لِمَ صنعتَ هذا هكذا؟ ولا شيءٌ لم أصنعُه: لِمَ لَمْ تصنعَ هذا هكذا؟^(١)

(١) أخرجه الإمام أحمد (١١٩٨٨)، والبخاري (٢٧٦٨)، (٦٩١٦)، ومسلم (٢٣٠٩)، وغيرهم.

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَدَمْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِسْعَ سِنِينَ، فَمَا أَعْلَمُهُ قَالَ لِي قَطُّ: هَلَّا فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا، وَلَا عَابَ عَلَيَّ شَيْئًا قَطُّ»^(١).

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَدَمْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشَرَ سِنِينَ، وَاللَّهُ مَا قَالَ لِي: أَفَّا^(٢) قَطُّ، وَلَا قَالَ لِي لَشَيْءٍ: «لِمَ فَعَلْتَ كَذَا، وَهَلَّا فَعَلْتَ كَذَا».

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَدَمْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشَرَ سِنِينَ، فَمَا أَمَرَنِي بِأَمْرٍ فَتَوَانَيْتُ عَنْهُ، أَوْ ضَيَعْتُهُ؛ فَلَا مَنِي، فَإِنْ لَا مَنِي أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ إِلَّا قَالَ: «دَعُوهُ؛ فَلَوْ قُدِّرَ - أَوْ قَالَ: لَوْ قُضِيَ - أَنْ يَكُونَ كَانَ»^(٣).

وَفِي رِوَايَةٍ مُسْلِمٌ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، فَأَرْسَلَنِي يَوْمًا لِحَاجَةٍ، فَقُلْتُ: «وَاللَّهِ لَا أَذْهَبُ، وَفِي نَفْسِي أَنْ أَذْهَبَ؛ لَمَّا أَمَرَنِي بِهِ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، فَخَرَجْتُ حَتَّى أَمَرْتُ عَلَى صَبِيَانٍ وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي السُّوقِ، فَإِذَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَبِضَ بِقَفَايَ مِنْ وَرَائِي، فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقَالَ: «يَا أُتَيْسُ، أَذْهَبْتَ حَيْثُ أَمَرْتُكَ؟» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، أَنَا ذَاهِبٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ! قَالَ أَنْسَ: وَاللَّهِ لَقَدْ خَدَمْتُهُ تِسْعَ سِنِينَ^(٤)، مَا عَلِمْتُهُ قَالَ لَشَيْءٍ صَنَعْتُهُ: «لِمَ فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا»، أَوْ لَشَيْءٍ تَرَكْتُهُ: «هَلَّا فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا»^(٥).

(١) أخرجه الإمام أحمد (١١٩٧٤)، ومسلم (٢٣٠٩)، وأبو داود (٤٧٧٣)، وقال محققو «المسند»: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٢) الألف والتف: وسخ الأظفار، وتستعمل هذه الكلمة في كل ما يُستَقْدَر، قال الهروي: يُقال لكل ما يَضْجَرُ مِنْهُ وَيُسْتَقَلُّ: أَفٌّ لَهُ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ الْإِحْتِقَارُ مَأْخُذٌ مِنَ الْأَفْ، وَهُوَ الْقَلِيلُ.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٣٤١٨)، والبيهقي في «الشعب» (٨٠٧٠)، والضياء في «المختارة» (١٨٣٤)، وإسناده عندهما على شرط الشيخين كما في «تحقيق المسند» (١٠٣/٢١).

(٤) أي تسع سنين وأشهر، وفي رواية التسع لم يحسب الكسر، بل اعتبر السنين الكوامل، وفي رواية العشر حسبها سنة كاملة.

(٥) رواه مسلم (٢٣١٠).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَّابًا وَلَا فَحَّاشًا وَلَا لَعَّانًا،
كَانَ يَقُولُ لِأَحَدِنَا عِنْدَ الْمُعْتَبَةِ: «مَا لَهُ تَرَبَّ جَبِينَهُ»^(١)»

وَرُويَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرِ الْمَازَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَعَثَنِي أُمِّي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقُطْفٍ مِنْ عِنَبٍ، فَأَكَلْتُهُ، فَقَالَتْ أُمِّي لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ أَتَاكَ عَبْدُ اللَّهِ بِقُطْفٍ؟ قَالَ: «لَا»، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَأَى قَالَ: «غُدْرُ غُدْرُ»^(٢)، فَمَا زَادَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى التَّنْبِيهِ لِلصَّبِيِّ فِي شَكْلِ عِتَابِ رَقِيقٍ، وَهُوَ أَشْبَهُ بِالْمَلَاعِبَةِ مِنْهُ بِالْمُعَاتَبَةِ، وَتَكَرَّرَ ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى سَبِيلِ التَّذْكِيرِ وَالتَّفْهِيمِ؛ حَتَّى يَدْرِكُ الصَّغِيرُ أَنَّهُ ارْتَكَبَ خَطَأً، فَيَتَنَبَّهُ، وَيَرْجِعُ، وَبِذَلِكَ عَلَّمَهُ -دُونَ إِهَانَةٍ- أَنْ يَكُونَ صَابِرًا عَلَى شَهْوَةِ طَعَامِهِ، أَمِينًا عَلَى مَا أُمِرَ بِتَوْصِيلِهِ.

(١) أي: خَرَّ لَوَجْهَهُ فَأَصَابَ التَّرَابَ جَبِينَهُ، وَالْجَبِينَانِ يَكْتَفِنَانِ الْجَبْهَةَ، «وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ» أَلْقَاهُ عَلَى جَبِينِهِ .. وَهِيَ مِثْلُ (رَغِمَ أَنْفُهُ) وَلَا يُرَادُ مَعْنَى (تَرَبَّ جَبِينَهُ) بَلْ هُوَ مِثْلُ: (تَرَبَّتْ يَمِينُكَ) كَلِمَةٌ تَجْرِي عَلَى اللِّسَانِ وَلَا يُرَادُ حَقِيقَتُهَا.

(٢) رواه البخاري (٦٠٣١).

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠٥ / ٦)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٣٥٥ / ٢)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: «فيه الحكم بن الوليد، وبقيّة رجاله ثقات».

وقوله: «غُدْرُ» مِنَ الْغَدْرِ بِمَعْنَى غَادِرٍ، وَهُوَ النَّاْقِضُ لِلْعَهْدِ، وَلَمْ يَرِدْ بِهَا السَّبُّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَإِنَّمَا الْمَلَاْطِفَةُ وَالتَّحَبُّبُ لِلْغَلَامِ، مَعَ إِشَارَةِ لَطِيفَةٍ إِلَى خَطْئِهِ وَهُوَ عَدَمُ حِفْظِ الْأَمَانَةِ.

وَفِي سَنَنِ ابْنِ مَاجَهَ: عَنِ النِّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَهْدَيْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنَبٌ مِنَ الطَّائِفِ، فَدَعَانِي فَقَالَ: «خُذْ هَذَا الْعَنْقُودَ فَأَبْلُغْهُ أُمَّكَ»، فَأَكَلْتُهُ قَبْلَ أَنْ أَبْلُغَهُ إِيَّاهَا، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ لَيْالٍ، قَالَ لِي: «مَا فَعَلَ الْعَنْقُودُ؟ هَلْ أَبْلَغْتَهُ أُمَّكَ؟»، قُلْتُ: لَا، فَسَمَّانِي: غُدْرَ. وَضَعَفَهُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

ورُوِيَ عن زينب بنت أبي سلمة أنها دخلت على رسول الله ﷺ وهو يغتسل، فأخذ حفنة من ماء فضرب بها وجهي، وقال: «وراءك أي لكاع» واللكاع: الصغير.

لقد كان ﷺ يخاطب كل فئة عمرية بما يناسب فهمها، ونوع خطئها وحجمه، فللأطفال خطاب، وللنساء خطاب، وللشباب خطاب، ولل كبار خطاب، وهاك نماذج تربوية اعتمد فيها رسول ﷺ أسلوب التوبيخ والتعنيف كعقاب.

فمن ذلك: ما رواه جندب بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بعث بعثاً من المسلمين إلى قوم من المشركين، وإنهم التقوا، فكان رجلٌ من المشركين إذا شاء أن يقصدَ إلى رجلٍ من المسلمين قصد له فقتله، وإنَّ رجلاً من المسلمين قصد غفلته، قال: وَكُنَّا نَحَدِّثُ أَنَّهُ أَسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَلَمَّا رَفَعَ عَلَيْهِ السِّيفَ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فقتله، فجاء البشيرُ إلى النبي ﷺ فسأله فأخبره خبرَ الرجل كيف صنع، فدعاه فسأله، فقال: «لِمَ قَتَلْتَهُ؟» فقال: يا رسول الله أوجع^(١) في المسلمين فقتل فلاناً وفلاناً، وسمي له نفراً، وإني حملتُ عليه، فلما رأى السيف قال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قال رسول الله ﷺ: «اقتلته؟» قال: نعم. قال: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟» قال: يا رسول الله! استغفر لي. قال: «وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟»، قال: فجعل لا يزيدُه على أن يقول: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟».

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (٧١٢/٢٤)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/١٦٩): «إسناده حسن».

(٢) أي: أوقع بهم، وآلمهم.

وفي رواية أنه قال: «فطعنته، فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قال: لا إله إلا الله، وقتلته؟»، قال: قلت: يا رسول الله، إنها قالها خوفاً من السلاح، قال: «أفلا شققتَ عن قلبه حتى تعلمَ أقالها أم لا؟»، فما زال يكررها عليّ، حتى تمنيتُ أني أسلمتُ يومئذٍ^(١).

(١) رواه مسلم (١٦٠)، وأراد بقوله: «حتى تمنيت أني أسلمت يومئذٍ» أي: لم يكن تقدّم إسلامي، بل ابتدأت الآن الإسلام؛ ليمحو عني ما تقدّم، وانظر: «جامع العلوم والحكم» (١/١٥٥)، (١٥٦).

ومع هذا التعنيف والتوبيخ الشديد فإن خطأ أسامة الجسيم لم يمنعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أن يعينه فيما بعد قائداً للجيش -مع صغر سنّه آنذاك (١٨ سنة)- المتجه لغزو الروم أقوى جيوش العالم يومئذ، بل انطلق لسانه الشريف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالثناء على أسامة وإثبات أهليته للإمارة، فعندما طعن بعض الناس في إمارته، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن تطعنوا في إمارته؛ فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وإيم الله، إن كان خليقاً بالإمارة، وإن كان لمن أحبّ الناس إليّ، وإن هذا لمن أحبّ الناس إليّ بعده».

وما ذاك إلا لحمايته من «عقدة الذنب»، والإحباط، والشعور بالخذلان؛ بسبب إنكاره الشديد عليه في تلك الواقعة، وفتح باب الأمل والثقة فيه وفي قدرته، ولم يجعل هذا الخطأ وصمةً يلازمه أثرها سائر حياته.

ومن هذا الباب ما حدث عند رجوع خالد بن الوليد بجيشه المنسحب في «مؤتة»، إذ لم يكد خالد يصل بجيشه إلى ضواحي المدينة حتى اصطدم بأهل المدينة الحانقين على الجيش يؤثّبونهم قائلين: «يا فرّار! فررتم من سبيل الله».

رؤي عن أبي بكر بن عبد الله بن عتبة أنه كان يقول: ما لقي جيش بُعثوا معنا ما لقي أصحاب مؤتة من أهل المدينة، لقيهم أهل المدينة بالشر، حتى إن الرجل لينصرف إلى بيته وأهله، فيدق عليهم الباب، فيأبون أن يفتحوا له، يقولون: «ألا تقدّمت مع أصحابك؟».

وعن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: كان في ذلك البعث -يعني جند مؤتة- سلمة بن هشام بن المغيرة، فدخلت امرأته على أم سلمة زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت أم سلمة: «ما لا أرى سلمة بن هشام؟ أشتكى شيئاً؟» قالت امرأته: «لا والله، ولكنه لا يستطيع الخروج، إذا خرج صاحوا به وبأصحابه: «يا فرّار! أفررت في سبيل الله؟!» حتى قعد في البيت»، فذكرت ذلك أم سلمة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بل هم الكُرّار في سبيل الله، فليخرج!» فخرج.

وعن سالم عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خالد بن الوليد إلى بني جَذِيمَةَ^(١)، فدعاهم إلى الإسلام، فَلَمْ يُحْسِنُوا أَنْ يَقُولُوا أَسْلَمْنَا، فجعلوا يقولون: صَبَانَا، صَبَانَا^(٢). فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودَفَعَ إلى كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا أُسِيرَهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ أَمَرَ خَالِدٌ أَنْ يَقْتُلَ كُلَّ رَجُلٍ مِنَّا أُسِيرَهُ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَقْتُلُ أُسِيرِي، وَلَا يَقْتُلُ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِي أُسِيرَهُ، حَتَّى قَدِمْنَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْنَاهُ، فَرَفَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ خَالِدٌ»^(٣) مرتين^(٤).

وعن المعرور بن سُوَيْدٍ قال: رأيتُ أبا ذَرٍّ وعليه حُلَّةٌ، وعلى غلامه مثُلها، فسألته عن ذلك، قال: فذكر أنه سَابَّ رجلاً على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَيَّرَهُ بِأُمَّه^(٥)، قال: فاتى الرجلُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذكر ذلك له، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ وَخَوَلُكُمْ^(٦) جعلهم الله تحت

= هكذا دافع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن جيش مؤتة: نفى عنهم الفرار، وأثبت لهم أنهم كَرَّارُونَ في سبيل الله، وقد انحازوا إلى فئتهم.

وفي رواية أنهم قالوا: يا رسول الله، نحن الفرارون؟ قال: «بل أنتم العَكَارُونَ، وَإِنَّا فَتَنُكُمْ». وقوله: «وَإِنَّا فَتَنُكُمْ» يمهد بذلك عذرهم، انظر: «المسند» (١٠/ ١٣٥).

(١) قال ابن إسحاق: «بعثه داعياً، ولم يعثه مقاتلاً» كما في «الفتح» (٩/ ٤٧١).

(٢) حمل خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قولهم: «صَبَانَا» على ظاهرها، أي: خرجنا من دين إلى دين، فنقم عليهم العدول عن لفظ «أَسْلَمْنَا» وحسب أن ذلك وقع منهم على سبيل الأنفة، وتأوَّل قولهم على عدم الانقياد للدين.

(٣) أنكر عليه العجلة وترك التَّشَبُّثِ في أمرهم قبل أن يعلم المراد من قولهم «صَبَانَا».

(٤) رواه البخاري (٤٣٣٩)، (٧١٨٩).

(٥) وكانت أعجمية، وقيل: سوداء.

(٦) الخَوَلُ: عطية الله من النعم والعبيد والإماء وغيرهم من الأتباع والحشم.

أيديكم، فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلّفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه»^(١).

وهذا ما فعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين أمّ قومه بسورة البقرة، فقال منكرًا عليه: «يا معاذ، أفأتأنت؟» أو: «أفاتن؟» ثلاث مرّات^(٢)؛ ليدرك عظم ما ارتكبه، مع أمنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الردّة أو التردد؛ لأنه كان من خاصة أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولأنه كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤاخذ القويّ في دينه بأشدّ مما يؤاخذ الضعيف كما في قصة الثلاثة المخلفين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومرّ عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما بفتيانٍ من قريشٍ قد نصبوا طيرًا وهم يرّمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرّقوا، فقال ابن عمر: «من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا»^(٣).

وحين استضاف أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثلاثة نفر من أصحاب الصّفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، ومكث مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد مضيّ وقتٍ من الليل، ثم عاد وحسب أن ابنه عبد الرحمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قصّر في ضيافتهم، قال عبد الرحمن: «فذهبتُ أنا فاخبتُ، فقال: يا عُثْر^(٤) - فجذع وسبّ -» توبيخًا له لما حسب أنه لم يقيم بالضيافة، مع أن الأضياف هم الذين أبوا العشاء لما عُرض عليهم حتى يأتي أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ^(٥).

(١) رواه البخاري (٢٥٤٥)، (٦٠٥٠)، ومسلم (١٦٦١)، والإمام أحمد (٢١٤٣٢).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٤٣٠٧)، والبخاري (٦١٠٦)، ومسلم (٤٦٥)، وغيرهم.

(٣) رواه مسلم (٣٦١٩).

(٤) عُثْر: كلمة توبيخ، معناها: الثقل الوخم، وقيل: «الجاهل من الغثارة والجهل، والنون زائدة».

(٥) رواه البخاري (٦٠٢)، (٣٥٨١).

التغافل قبل التوبيخ؛

المربي الرفيق يحسن تقدير الأمور، فإذا صدر من الطفل هفوات يسيرة فعليه أن يتجاوز عنها ويتجاهلها، ويتأكد هذا إذا كان الطفل حريصًا على إخفاء سلوكه السيئ عن والديه، على أن يتم توجيهه هنا بطريقة غير مباشرة كالقصص ونحوها. قال الإمام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللهُ في سياق بيانه لدقائق صناعة التعليم: «أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن، ولا يصرِّح، وبطريق الرحمة، لا بطريق التوبيخ، فإنَّ التصريح يهتك حجابَ الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف...»^(١).

وقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يَحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعَنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ»^(٢).

بل يمكن أن نفتح للطفل بابَ العُذر أحيانًا، كأن تقول له: «لقد فعلتَ كذا، وكان الأفضل أن تفعلَ كذا، ويبدو أنَّك لم تكن تقصد».

إنَّ التغافل من شِيمِ الكِرام الذين لا يستوفون أخطاء غيرهم^(٣)، فلا تظهر له كلَّ ملاحظاتك فتبدو بَحَاثًا عن الهناتِ والزَّلَّاتِ، ولكن نبِّهه على أهمها، وتخيَّر الظروف المناسبة لذلك.

(١) «الإحياء» (١/ ٨٠).

(٢) رواه مسلم (٢٥٩٣).

(٣) انظر: (ص ٥٤)، وما بعدها.

كما يجب على المربي أن يفرّق بين سلوكٍ سلبيٍّ يكرره الابن ويصر عليه، وبين سلوكٍ عابرٍ طارئٍ؛ فإنَّ مقتضى العدل في هذا السلوك النادر الصّفح والتجاوز عنه، وعدم العقاب عليه.

لا تتحمل عن الطفل أخطاءه

بل دعه يتحمل بنفسه نتيجة تصرفه؛ وذلك لأنَّ الطفل اعتمادياً بطبيعته، فإذا قصّر فيما هو من مسؤوليته، ووجد المربي يتحمّل عنه خطأه، فستزداد اتكاليته، ولذا يجبُ أن يفهم أنه يجبُ عليه أن يبذل جهده، ويتحمل مسؤولية وعواقب سلوكه السيئ.

متى يكون التوبيخ نافعا؟

يكون التوبيخ مفيداً في تعديل سلوك الطفل:

- ١ - إذا سبّب له ألماً نفسياً، وشعوراً (يسيراً) بالذنب^(١).
- ٢ - إذا صدر من شخص يحبه الطفل ويحترمه ويقدره.
- ٣ - إذا صدر من شخص لا يكرهه الطفل.
- ٤ - إذا صدر من الشخص الذي تعود أن يتلقّى منه الإثابة والمدح.
- ٥ - إذا كان الطفل يتمتع بشفافية ذوقية ورُقّيٍّ أخلاقيٍّ؛ لأن مثل هذا الطفل يرفض أن يُوصَفَ سلوكه بوصفٍ سيئٍ، ويأنفُ من ذلك، وهذه يؤرّه على التخلّي عن هذا السلوك، في حين لا يجدي التوبيخ مع طفل نشأ في بيئة

(١) ولا ضرر في أن يشعر الطفل قليلاً بالذنب؛ لأن القليل من الشعور بالذنب لا يضر، بل يدفع الطفل إلى التراجع عن تكرار الخطأ.

متدنية ذوقياً وأخلاقياً، تعوزها تلك الشفافية، وتواظب على تحقير الطفل وإهانته وشتمه.

٦- إذا تمَّ التوبيخ عقب السلوك السيئ مباشرةً دون تأجيل، أمّا إذا ارتكب الطفل خطأً، ولم تعلم به إلا بعد مرور الوقت، فيمكنك -فور علمك- أن توبخه عليه.

تجنّب توبيخ الطفل في الحالات التالية:

الأولى:

إذا كان الطفل يجادل والده، ويرد عليه بوقاحة وبدون أدب ولا احترام، ويُظهر عدم المبالاة، فهذا يؤشّر على أنّ التوبيخ لا يُجدي معه، فينتقل الوالد حينئذٍ إلى عقوبة تأديبية أكثر فعالية.

الثانية:

إذا كان الطفل يستجيب للتوبيخ بنوبة غضب (Temper Tantrum) وانفعال وعصبية؛ لأنّ التوبيخ هنا قد يكون مثل البنزين إذا صُبَّ على نارٍ مشتعلة فيزيدها اضطراباً.

الثالثة:

إذا بدا أنّ الطفل يستمتع بالتوبيخ لأنه يجلبُ له الاهتمام السلبي. وعموماً فإنّ التوبيخ إذا كان دواءً لسلوكٍ سيئ، فإنّه يتحوّل إلى داءٍ ينبغي اجتنابه إذا أتى بنتيجة عكسية؛ لأنّ الوسائل تنتفي بانتفاء المقاصد.

الحوار قبل التوبيخ:

يفضل أن يسبق التأنيب والتوبيخ حوار بين المربي والطفل يتناول بالتحديد السلوك المرفوض الذي فعله، وأثره على الآخرين، وضرره على نفسه، ثم يؤنبه عليه ويوبخه، ثم يتناقش معه حول الخيارات التي يستدرك بها خطأه، والسلوك البديل المرغوب في المرات التالية.

- فإن كان قصر في واجباته المدرسية، فعليه تعويض ذلك.

- وإن كان شتم أخاه أو ضربه، فعليه أن يعتذر إليه.

- وإذا سخر من زميله المُقْعَد -مثلاً- بيّنت له أن هذا ليس من اختياره، وأنه قدر وابتلاء من الله تعالى، كان يمكن أن يصييك أنت لولا أن الله عافاك وابتلاه، فالواجب عليك أن تحمد الله على العافية، وأن تساعد وتواسيه، وتعتذر له.

- وإن كان سرق من زميله قلمًا، فعليه أن يعيده إليه مع الاعتذار.

- وإن كان كسر أو أتلف لعبة أخته، فعليه أن يُصلِحَهَا، أو يُعوِّضَهَا غيرها من مصروفه الشخصي.

- ولا بأس أن يقرن التوبيخ والحوار بضمّة إلى صدر الأم، مع وضع يدها على كتفه أو رأسه مع إظهار حزنها وتأسّفها بسبب سلوكه السيئ، وعدم رضاها عن هذا السلوك، فإن تكرر السلوك السيئ فإنّها تعاقبه بالتوبيخ -دون هذه الضمة- مرة أو مرتين.

كيف نوبخ الطفل؟

التوبيخ واللوم عقاب لفظي خفيف الشدة، يؤثر إذا تمَّ بطريقة صحيحة، وهاك بعض الإرشادات كي يكون التوبيخ صحيحًا:

- هدف التوبيخ:

هو نصح الطفل وإرشاده؛ كي يتحسن أدائه وسلوكه، وليس التجريح والتبكيت.

- أخطاء الطفل فرصة لتعليمه:

إنَّ الطفل الذي لا يخطئ هو الطفل الذي يتوقف تمامًا عن العمل والحركة والنشاط، وهذا غير واردٍ بالنسبة إلى الأطفال، ومن ثمَّ علينا أن ننظر إلى أخطائه على أنها فرص لإكسابه معلوماتٍ وخبراتٍ يحتاج إليها في نموه.

- قوِّم أخطاء الطفل بروح التفهُّم والاحترام لمشاعره:

لأنَّ هذا يُنمِّي شعوره بقيمته الذاتية، ويُحسِّن من تقديره لنفسه، ويدعم الشجاعة الأدبية لديه.

- لا ترسل رسالة مُشوَّشة:

إذا جرَّبَت التغافل والتجاهل وتمادى الطفل في سلوكٍ سيئ، فلا تُهَوِّن من شأن الخطأ، ولا تغضَّ الطرف عنه؛ كأن تُهرع الأم إليه، وتنسى الخطأ، فتحضنه، وربما تلعب معه.

والخطأ هنا أنها أوقعت الثواب (الاحتضان واللعب معه) عقب السلوك السيئ مباشرة، وهذه الرسالة تُربِّكه ولا يستفيد منها شيئاً.

- أظهر عدم الرضا عن السلوك السيئ؛

عن طريق التعبير اللفظي عن شعورك بالاستياء، والوقت الفعّال لذلك هو عقب السلوك مباشرة دون تأجيل.

- ركّز على خطأ واحد؛

لا تعاتب الطفل على أكثر من خطأ في وقتٍ واحد، بل ركز على خطأ واحد، واجعل رسالتك مختصرة^(١) وواضحة ومتوجّهة نحو نقد سلوكٍ محدد، مع التعبير اللفظي.

- لا تنتهز الفرصة فتعاقبه بأثر رجعي؛

يخطئ بعض الآباء حينما يخرجون عن حيّز المشكلة المطروحة للنقاش ويوسعون دائرة المشكلة لتشمل الماضي والحاضر والمستقبل، فيذكرون الابن بمشاكله كلها، وتاريخ (الأسود) مع المشكلات، وبالتالي بدلاً من أن تكسر عصا واحدة كأنك تجمع معها تسعاً وتسعين عصاً، وبذلك لن تستطيع تكسير هذه الحزمة مجتمعةً، وذلك يحدث حينما يكذب الابن مرّةً فيذكره الأب بكل كذبه السابق، ويقول له: «أنت كذاب وسوف تصبح كذاباً»، ويقول له: «ذيل الكلب سيبقى معوجاً، ولو ربطنا به قالباً ثقيلاً»، وهكذا حينما يسرق الابن أو حينما يرسب في مادة معينة ... إلخ.

(١) وإياك أن تلقّي عليه محاضرة طويلة؛ لأنها قد تُملّه، وقد يُصغي إليها باستمتاع باعتبار أنها من الاهتمام السليبي.

ومن المعروف أن المراهق حسّاس بطبعه؛ ولذا يشعر بالألم الشديد حينما يرى نفسه من خلال الوالدين أنه عبارة عن سلسلة من المشكلات التي لا تنتهي^(١).

- لا تعاتبه وأنت بعيد عنه؛

بينما الأم منهمكة في عملها في المطبخ، ضرب ابنها أخته الصغرى؛ لأنها أخذت لعبته، فصاحت به الأم وهي في مكانها: «توقّف عن ضرب أختك»، فكررت الأمر مرارًا، وفي كل مرة يتماهى في ضرب أخته.

خطأ الأم هنا يكمن في كونها وبّخته وهي بعيدة عنه، فهو إذن محتاج إلى اهتمامها به، فصار توبيخها سببًا يستجلب له الاهتمام السلبي الذي يصبو إليه، فيكرر الخطأ؛ ليبقى جاذبًا لاهتمامها به.

والصحيح هنا أن تأتّى الأم إليه -لو كانت بعيدة- وتقربه إليها عقب خطئه مباشرة، ويُفضّل أن تنزل إلى مستواه، وتنظر إليه في عينيه بجدية، وتخطبه بنبرة صوت حازمة، وملامح وجه جادة وصارمة، بدون صراخ ولا عصبية ولا تحقير ولا سخرية، فتقول له: «توقّف عن ضرب أختك، واطلب منها أن تعيد إليك لعبتك بهدوء» أي: إنها تأمره بالكفّ عن السلوك السيئ، وتعطيه البديل المقبول، ثم تتركه ينصرف، وتنشغل عنه بشيء آخر لمدة معقولة بدون أن تندمج معه في حوار أو ترفيه، وبدون نكيد أيضًا.

(١) «فنون التعامل مع المراهقين» للدكتور صالح عبد الكريم حفظه الله.

- وَجَّهْ نَقْدَكَ إِلَى سُلُوكِهِ، وَلَيْسَ إِلَى شَخْصِهِ؛

لأنَّ هذا يدعم شعوره بأنَّك تقبله رغم خطئه، وتجه حُبًّا غير مشروط^(١).
إننا جميعًا صغارًا وكبارًا نقبل أن ينقد الآخرون بعض مواقفنا أو بعض تصرُّفاتنا، لكننا جميعًا أيضًا نرفض أن نُصنَّفَ تصنيفًا دائمًا في فئة الأغبياء أو اللصوص أو الأشرار، وإننا مع الأسف كثيرًا ما نصنف أبناءنا تصنيفاتٍ إن كانت صحيحة فهي غير مناسبة؛ ولهذا فإنَّ المهم أن ننقد سلوك الطفل لا ذاته. إنَّ توجيه النقد والاحتقار إلى شخصٍ الطفل إذا أخطأ يُجِبُّه، ويشعره بالخجل والدونية، ويوجهه إلى العزلة الاجتماعية وتجنُّب لقاء الناس في أي موقف يجذب انتباههم إليه؛ كي لا يتعرض للنقد والرفض والامتهان.

- إِيَّاكَ أَنْ تَقَارِنَهُ بغيره أثناء التوبيخ؛

كأن تردَّدَ على مسامعه كلما انتقدته ووبَّختَه: «لماذا لا تكون هادئًا مؤدبًا مثل أخيك؟»، لأنَّ هذا يدل على أنَّك لا تقبله كما هو عليه، ويشعره بالظلم والكرهية. إنَّ النقد الدائم والتوبيخ المستمر والمقارنة بغيره^(٢) يعكس عدم تقبُّلك له كشخص، ويتنافى مع إشباع حاجاته النفسية إلى الحب والثقة والأمان والتقدير، مما قد يدفعه إلى تكرار الأخطاء والعناد والتمرد.

فتعامل معه في حدود قدراته، وتحمل أخطاءه، وشاركه مشاعره كي يُحسِّن أداءه، ولذا يمكنك أن تقرنَ عتابه بمشاعر الحب، كأن تقول له: «يا حبيبي هذا تصرُّف غير مقبول».

(١) انظر: «تأسيس عقلية الطفل» للدكتور عبد الكريم بكار (ص ٦٠-٦٤).

(٢) انظر: (ص ٣٧٥)، وما بعدها.

أو تقول له: «الطفل المؤدب مثلك لا يفعل كذا»، أو تقول: «هذا التصرف لا يليق بك»^(١).

يَبَيِّنُ الإمام الأَجَرِّي رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ المتعلم إذا بدر منه خُلُقٌ غير ملائم، وليس من أخلاق أهل العلم: «لم يجبهه في وجهه على جهة التبكيت له، ولكن يقول: لا يحسن بأهل العلم والأدب كذا وكذا»^(٢).

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «لا يعنف السائل بالتوبيخ القبيح، فيخجله، ولا يزجره فيضع من قدره...»^(٣).

- تَجَنَّبْ أَسْلُوبَ الْمَنِّ وَالْأَذَى:

احذر أن تخلطَ توبيخَ طفلك بكثرة المَنِّ عليه والأذى، وتكرار تعييره بذكر تضحياتك وما بذلته من أجله، وكيف أنه يكلفك الكثير والكثير، ومع ذلك فإنه (جاحد) لهذا الفضل والمنِّ، إِنَّكَ حينئذٍ تُذِلُّه، وتضايقه وتحيرُه، وتُشْعِرُه بقلّة الحيلة، فلا يدري كيف يرد عليك، وماذا عليه أن يفعل؟ وقد يُعَبِّرُ عن رفضه لهذا التعبير بالامتناع عن أكل طعامك (المُسَمَّم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى)، أو يهرب من البيت، وما يستتبع ذلك من ضياع^(٤).

(١) وهذا الأسلوب إنما يجدي مع الطفل إذا كنت ربيته على العزة والأنفة، واحترمت كرامته وأنت تربيته، وساعدته على أن يرسم لذاته صورةً جيّدة؛ لأنَّ الطفل -وإن كان ناقصاً في خبراته- فإنه غيرُ ناقصٍ في مشاعره، بل يشعر بما يشعر به الكبار، فإن كنت عودته من قبل على الإهانة والإذلال والتصغير والتحقير، فإن عبارة: «مثلك لا يليق به هذا التصرف» تكون غير ذات قيمة أو معنى لديه، ولن تُجدي معه شيئاً.

(٢) «أخلاق العلماء» (ص ٥٧).

(٣) «نفسه» (ص ٥٨).

(٤) ويتأكد الحذر هنا مع المراهق بصفة خاصة؛ لأنه بطبيعته نزاع وميال إلى الاستقلال، لا سيما الاستقلال المادي، ولكنه أحرَق لا يُحسّن مهنة بسبب ظروف المجتمع الحديث التي أطالت =

فإن كان ولا بد فقل له: «أنا أودّي واجبي الذي فرضه الله عليّ والذي هو حقك عليّ في الوقت نفسه، وواجبك في المقابل هو أن تهتم بدروسك ولا تهدر وقتك».

- لا تتعقب الطفل كأنه مجرم يخطط لارتكاب جريمة؛

من الجيد أن نطلّع على أحوال الطفل، ونشاركه أحداث حياته، ومسراته وأحزانه، ونتعرف على ما قد يُعكّر مزاجه أو يقلقه، وغير ذلك من مظاهر المشاركة الوجدانية التي تُوثّق الروابط بينه وبين أبويه.

لكن السيئ هو أن نُفِرط في اقتحام حياة الطفل، ونبالغ في التدخل فيها، ونُحصي عليه أنفاسه، ونتلصّص عليه، ونفتش جيوبه وأدراجته، ونستقصي كل صغيرة وكبيرة، إلى حدّ التسلط الذي يُضجره ويشحنه بالتوتر والضغط، أو يلجئه إلى المراوغة والكذب والاحتيال.

إنّ الأصل هو المودة والثقة والتواصل والمكاشفة، أما سوء الظن الذي يتبعه الاستجواب والتحري والتحقيق فإنه استثناء نلجأ إليه نادراً عند الضرورة.

- إياك والوَلَع بالسلبيات؛

من الآباء من لديه ولعٌ شديدٌ بالنقد السلبي الهدّام الذي يتبع كل تصرّفات الطفل العفوية والمقصودة، الصغيرة والكبيرة، الحسنة والسيئة، ثم لا يرى إلا التصرفات السيئة، فيشبعه نقداً وتوبيخاً واستهزاءً وتثبيطاً، فهو يتجاهل الإنجاز، ويركز على التقصير.

= فترة (الطفولة الاقتصادية) من أجل تفرغه للتعليم بمراحله المتتابعة، ويعجز غالباً عن الجمع بين اكتساب المال والتفرغ للتعليم فتزداد حساسيته لمثل هذا المنّ.

- فيها هو تلميذ يبدو سعيدًا مبتهجًا، فيتوجه إلى والده مهرولًا، ويطلعه على ورقة الامتحان الذي حصل فيه على درجة متميزة، فيمسك الأب ورقة الامتحان، ويركز على بعض الأخطاء بدل أن يمتدح الجوانب الإيجابية والمضيئة التي تفوق فيها ابنه، فيصاب الابن بالإحباط وضعف الثقة في النفس، ويرى نفسه فاشلاً لا فائدة من دراسته ما دام الأهل لا تعجبهم الدرجات التي حصل عليها.

- وها هو ذا أب آخر في موقف مشابه يرى ابنه قد حصل على تسع درجات من عشر، وبدلاً من أن يهنئته ويشجّع، يقول له: «ولماذا خسرت درجة؟».

- وتلك طفلة رغبت في أن تسرّ أمها بمفاجأة سارة، فتوجهت إلى المطبخ، وغسلت الصحون، وذهبت إلى أمها تقول: «أنا عملت لك مفاجأة يا أمي، فقد غسلتُ الصحون»، فردت عليها الأم: «أنت الآن كبرت، ويجب عليك القيام بمثل هذه الأعمال، لكن لماذا لم تغسلي الصحون الموجودة في الفرن؟ هل نسيت؟! فالبنت كانت تتوقع من أمها أن تكافئها ولو بكلمات الاستحسان والتشجيع، لكن جواب الأم كان عقوبة محبطة، وليس مكافأة؛ لأنّ الأم لم تعترف بالمبادرة الجميلة التي قامت بها البنت، بل وجّهت لها اللوم بصورة مباشرة على تقصيرها في ترك صحون الفرن دون غسيل.

- وهذه معلمة (جاهلة) تقبل إليها الطفلة الصغيرة باللوحة التي كلفتها المدرّسة برسمها، وبذلت جهداً كبيراً في تلوينها وإتقانها، حتى إذا قدّمتها إليها، وهي تتوقع تشجيعها وتقديرها، إذا بها تصدمها بأن مزّقت اللوحة، ونثرت

الورق الممزق في الهواء قائلة لها: «ما هذا القرف؟»، هذا تصرف قبيح، ولكن الأقباح منه أن هذه المعلمة كانت تكرر موقفها البشع كلما أعادت الطفلة رسم اللوحة، وقدمتها لها.

ألا ما أبعد سلوك هؤلاء المربين النقّادين عن هدي رسول الله ﷺ الذي هديّه خير الهدي!

حاجة الطفل إلى التقدير:

في داخل الإنسان حاجة متجذرة إلى التقدير، ورغبة في إشباعها، وهذه الحاجة مشروعة؛ فقد قال الله عزّ وجلّ: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وعلمنا ﷺ أن نشكر للناس إحسانهم وصنيعهم.

قال رسول الله ﷺ: «من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافؤونه فادعوا^(١) له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»^(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال رسول الله ﷺ: «من لم يشكر الناس، لم يشكر الله عزّ وجلّ»^(٣).

(١) ومن أفضل الدعاء هنا ما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «من صنع إليكم معروفاً فقال لفاعله: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء» رواه الترمذي (١٩٥٨)، والنسائي في «الكبرى» (٥٣/٦)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

(٢) رواه أبو داود (١٦٧٢)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٧٥٠٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٨)، وأبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤)، وقال: «حسن صحيح»، وابن حبان (٣٤٠٧).

وعن الأشعث بن قيس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَشْكَرَ النَّاسِ

لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَشْكُرُهُمُ لِلنَّاسِ»

وعن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أُوْلِيَ

مَعْرُوفًا، فَلْيَذْكُرْهُ، فَمَنْ ذَكَرَهُ فَقَدْ شَكَرَهُ، وَمَنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ»^٢

يقول الدكتور محمد عز الدين توفيق -حفظه الله-: «تتكون لدى الفرد من

خلال التربية الحاجة إلى تقدير واستحسان الآخرين فتتجه أعماله نحو إشباع هذا

الدافع الاجتماعي، بالتفوق والمنافسة والإتقان.

وفي الإسلام يجب أن يسعى الإنسان لنيل مرضاة الله أولاً، فيراعي نظر الله

إلى عمله قبل نظر الناس، كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا لِغَيْرِ اللَّهِ فَسَوْفَ أَعْمَلُكُمْ وَعِندَ رَبِّكُمْ

وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وهذا لا يتعارض مع حرصه على انتزاع ثناء الناس وتقديرهم، والفرق أن

الكافر والمنافق لا يهيمه إلا نظر الخلق؛ فهو يتوسل إلى نيل المحمدة عندهم بكل

وسيلة، بينما يجعل المؤمن مدح الناس وثناءهم ثمرة من ثمرات عمله، وتلك عاجل

بشراه، إذا بلغه شيء من ثناء الناس حمد الله، وقال: اللهم اجعلني خيراً مما يظن

الناس، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون»^٣.

(١) رواه الإمام أحمد (٢١٨٤٦)، والطبراني (١٠٤٨)، والبيهقي في «الشعب» (٩١٢٠)، وقال

محققو «المسند»: «صحيح لغيره»، وفيه إبطال للعبارة الشائعة «لا شكر على واجب».

(٢) رواه الطبراني، وحسنه لغيره الألباني في «صحيح الترغيب» (٩٧٤)، وفي الحديث: «ويكفرن

العشير: تحسن إلى إحداهن الدهر، فإذا رأت منك شيئاً تكرهه قالت: ما رايت منك خيراً قط».

(٣) «التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية» (ص ٥١٧، ٥١٨)، وهي أطروحة «مبدعة»، قدمها

لنيل درجة الدكتوراه بكلية الآداب جامعة محمد الخامس.

ومن هنا كان من باب «المدح التقديري» إطلاقُ رسول الله ﷺ على بعض أصحابه ألقاباً خاصةً كالصديق، والفروق، وأمين الأمة، وسيف الله، وأسد الله، وأحبي الأمة، والطيّار.

التشجيع بالمدح التقديري؛

الأصل في الشرع الشريف كراهية المدح لأنه قد يجز المادح إلى المبالغة والكذب، ويجز الممدوح إلى العُجب والغرور، وقد سمع النبي ﷺ رجلاً يشنّى على رجل ويطريه في المدحة فقال: «اهلكتم، أو قطعتم ظهر الرجل»^(١)، وقال ﷺ في موقف مماثل: «ويحك! قطعت عنق صاحبك»^(٢).

وأخذ العلماء من ذلك كراهية المدح، وهو الأصل، «وفي الجملة المدح والثناء على الرجل مكروه، لأنه قلماً يسلم المادح عن كذبٍ يقوله في مدحه، وقلماً يسلم الممدوح من عُجبٍ بداخله...»^(٣).

وقد يُستثنى من ذلك أحياناً جواز مدح المربي لتلميذه، أو القائد لجنديه، إذا كان لغرض التشجيع، وأمن عليه من العُجب والغرور، بل حتى التشجيع للقادة أو بين الأقران، فقد جُبلت النفوس على ذلك، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة حيث يقول في حادثة إغارة الكفار على سرح^(٤) المدينة وذهاب سلمة وأبي قتادة في أثرهم:

(١) رواه البخاري (٢٦٦٣)، ومسلم (٣٠٠١).

(٢) رواه البخاري (٢٦٦٢)، ومسلم (٣٠٠٠).

(٣) «شرح السنة» (١٥١/١٣).

(٤) وهي الإبل والمواشي التي تسرح للرعي بالغداة.

«كان خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة»^(١)، فعلق النووي على ذلك بقوله: «وهذا يدل على جواز ثناء الإمام على من ظهرت منه براعة في القتال»^(٢).
و استنبط ابن حجر منه: «استحباب الثناء على الشجاع ومن فيه فضيلة، لاسيما عند الصنع الجميل ليستزيد من ذلك، ومحله حيث يؤمن من الافتتان»^(٣).
ومن الثناء ما يكون فرديًا، كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لسعد يوم أُحُد: «ارم فداك أبي وأمي»^(٤).

وكذلك قوله للزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن لكل نبي حوارياً، وإنَّ حوارِيَّ الزبير ابن العوام»^(٥).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أقضي أمتي علي بن أبي طالب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت».

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لابن مسعود لما سأله: «إنك غلام مُعَلِّم». وقال: «من أحب أن يقرأ القرآن غُضًّا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد».

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «زادك الله حرصاً»^(٦)، ولما أخذ زيد ابن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينقل التراب مع المسلمين في الخندق، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنه نعم الغلام».

(١) رواه مسلم (١٨٠٧).

(٢) «الأذكار النووية» (ص ١٨٣).

(٣) «فتح الباري» (٢٩٣/٩).

(٤) رواه البخاري (٤٠٥٥)، ومسلم (٢٤١١).

(٥) أخرجه البخاري (٣٧١٩).

(٦) رواه البخاري (٧٨٣).

وحين أتى النبي ﷺ الخلاء وجد ابن عباسٍ رضي الله عنهما قد وضع له ماءً يتوضأ به، فلما خرج قال: «من وضع هذا؟» فأخبر، فقال: «اللهم فقهِه في الدين، وعلمه التأويل»^(١).

وقد يكون الثناء جماعياً يخص مجموعة كاملة، مما يقاس عليه الثناء على مجموعة من الدعاة، أو دعاة مكانٍ بعينه، أو مدح رهطٍ معيّن يقومون بمهمة دعوية، قال رسول الله ﷺ في قبيلتي أسلم وغفار: «غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله...»^(٢).

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أتى زمزم، وهم يسقون، ويعملون فيها، فقال: «اعملوا، فإنكم على عملٍ صالحٍ»^(٣).

وعنه رضي الله عنه قال: قدم رسول الله ﷺ وخلفه أسامة، فاستسقى، فأتيناه بإناءٍ من نبيذٍ^(٤) فشرب، وسقى فضله أسامة، وقال: «أحسنتم، وأجملتم، كذا فاصنعوا»^(٥).

وامتدح ﷺ شدة بني تميم وشجاعتهم، فقال: «هم أشدُّ أمتي على الدُّجَالِ»^(٦).

(١) رواه البخاري (١٤٣)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٥٨٩).

(٢) رواه البخاري (٣٥١٣)، ومسلم (٢٥١٤).

(٣) رواه البخاري (١٦٣٥).

(٤) النبيذ: كل شراب بُدِّ، سواء تعجلوا شربه وهو حلو قبل أن يتخمر، وهو الأكثر، وهو المراد هنا، أو تركوه حتى يتخمر، وكل ذلك يُسمَّى عندهم نبيذاً.

(٥) رواه مسلم (١٣١٦)، وانظر: «الأذكار» للنووي (ص ٢٥٩).

(٦) رواه البخاري (٢٥٤٣)، ومسلم (٢٥٢٥).

وكل ما صدر عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مدح للأفراد أو الجماعات صدقٌ محض، أَمِنَ فيه إعجابُ الممدوحين بأنفسهم، واغترارهم بها، وكذا سائر ما ثبت من الأحاديث في مناقب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ^(١).

التشجيع وأثره على الأطفال؛

قال الشيخ علي طنطاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قرأتُ مرةً أن مجلةً إنكليزية كبيرة سألت الأدباء عن الأمر الذي يتوقف عليه نمو العلوم وازدهار الآداب، وجعلتُ لمن يُحسن الجواب جائزةً قيِّمةً، فكانت الجائزة لكاتبة مشهورة، قالت: (إنه التشجيع!)، وقالت: (إنها في تلك السنّ، بعد تلك الشهرة والمكانة، تدفعها كلمة التشجيع حتى تمضي إلى الأمام، وتقعدها كلمة التشبيط عن المسير)» اهـ.

ولقد حفل تراثنا الإسلامي بكنوزٍ ثمينة من مواقف تشجيع الأطفال على يد الولاة والعلماء والمربين، يتصدرهم حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُدخل ابنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -وهو غلامٌ حَدَث- مع أشياخ بدر، قال ابنُ عباس: فكأن بعضهم وجد في نفسه، فقال: «لِمَ تُدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟» فقال عمر: «إنه من حيث علمتم»، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم، فما رُويت أنه دعاني يومئذٍ إلا لِيُرِيَهُمْ، قال: ما تقولون في قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: «أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصرنا، وفُتِح علينا»، وسكت بعضهم

(١) انظر: «فتح الباري» (١٠/ ٤٧٩).

فلم يَقُلْ شيئاً، فقال لي: «أَكْذَلِكْ تقول يا بنَ عَبَّاسٍ؟» فقلتُ: «لا»، قال: «فَمَا تقول؟»، قلت: «هو أَجَلُ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾»، فقال عمر: «ما أعلمُ منها إلا ما تقول»^(١).

هكذا كان أميرُ المؤمنين يُقَوِّي ثقته بنفسه، ويغذي همته، ويربأ به عن احتقار الذات أو الشعور بالدونية والنقص، وقد روى البخاري في «صحيحه» أيضاً أنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سأل بعض الصحابة عن آية في القرآن الكريم، فلم يعرفوا الإجابة، وكان بينهم عبد الله بن عباس، وهو صغير السن، فقال: «في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين»، قال عمر: «يا ابنَ أخي قل، ولا تحقر نفسك»، فأجابه^(٢).

وقال سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما رأيتُ أحداً أحضر فهماً، ولا ألبَّ لباً، ولا أكثر علماً، ولا أوسع علماً من ابنِ عَبَّاسٍ، ولقد رأيتُ عمرَ بنَ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يدعوه للمعضلات، ثم يقول: «جاءتك معضلة»، ثم لا يجاوز قوله، وإذا أهمَّ الأمر عمر بن الخطَّاب دعاه، وقال له: «غَضَّ غَوَّاصُ!».

- وقد كان ابنُ شهابٍ رَحِمَهُ اللهُ يشجع الأولاد الصغار، ويقول لهم: «لا تحتقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم، فإنَّ عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كان إذا نزل به الأمر المعضل، دعا الفتيان فاستشارهم، يتبع حِجَّةَ عقولهم»^(٣).

(١) رواه البخاري (٤٢٩٤).

(٢) رواه البخاري (٤٥٣٨).

(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٨٥).

- وقال الذهبي عن شيخه علم الدين البرزالي: وهو الذي حَبَّبَ إليَّ طلبَ الحديث، فإنه رأى خَطِّي، فقال: «خطك يشبه خط المحدثين»، فأثر قوله فيَّ، وسمعتُ منه، وتخرَّجتُ به في أشياء.

- ويحكى أن بعضَهم سمع صبيًّا في مجلسِ العلماء يذكر شيئًا، فطلب القلم، وكتب عنه، فلما فارقه قال: «والله إني لأعلمُ به منه، ولكن أردتُ أن أُذيقَه حلاوةَ رياسَةِ العلم ليعتَه على الاستكثار»^(١).

من ضوابط التوبيخ أن لا يقع أمام الآخرين؛

احرص على ألا يقع التأنيب والتوبيخ أمام الحاضرين؛ وقايةً للطفل من الشعور بالنقص، ولكن عرِّفه بخطئه بهدوء مقرونًا بالحجج المقنعة التي تحرصه على اجتناب تكرار الخطأ.

عن معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ عطس رجلٌ من القوم، فقلتُ له: يرحمك الله، فرماني القومُ بأبصارهم، فقلت: واثكل أمياه!! ما شأنكم تنظرون إليَّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يُصمِّتونني سكْتُ، فلما انتهى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صلاته دعاني، فبأبي هو وأمي ما رأيتُ معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما قهرني، ولا ضربني، ولا شتمني، لكن قال: «إنَّ هذه الصلاة لا يصلحُ فيها شيءٌ من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»^(٢).

(١) «فتح المغيث» للسخاوي (٣٢٦/٢)، وانظر كتابي «علو الهمة» (ص ٦١٨-٦٣٩).

(٢) رواه مسلم (٥٣٧).

عدم الإكثار من التوبيخ أهم ضابط لممارسته؛

لأنَّ الحكم على السلوك بأنه خطأ لا يستلزم دائماً اللوم والتوبيخ^(١).

عواقب كثرة التوبيخ والنقد السلبي الهدام:

لا يوجد إنسان سويٌّ لا يتبرَّم من التوبيخ والنقد إذا كان متواصلاً متتابعاً هداماً ومُحِطاً، واقتن بإصدار أحكام عامّة على الشخص نفسه، وتعليق وَصَمَاتٍ على جبينه وصدره، مثل: (غبي، فاشل، لئيم...) إلى آخره، وحدث أمام الأشقاء الأصغر سناً، أو الأصدقاء أو الأقرباء أو الجيران، وكان يُركّز فقط على الأخطاء، ويتجاهل المزايا والحسنات.

وحينما تنتقد الطفل وتوبيّخه باستمرار في تصرُّفاته، وملابسه، وأصدقائه، ومستواه الدراسي، وسائر أحواله، فإنَّك تريد إصلاحه، وتعديل سلوكه، ولكن «كم من مريدٍ للخير لا يبلغه!»؛ لأنَّ النقد المتواصل والتوبيخ المبالغ فيه يُبغض إليه الحياة في هذه الأسرة اللوامة التي لا ترى فيه شيئاً جميلاً يمكن أن تفخر به. وإذا كان الهدف تعديل السلوك فإن من الممكن تحقيقه والوصول إليه بطرق أخرى سليمة، ليس من بينها حتماً النقد اللاذع المستمر.

(١) فإذا كسر الطفل مثلاً آنية زجاجية بدون قصد، ثم سأله الأم: من فعل هذا؟ فأقر بأنه الذي كسرها، فإنَّ تمسُّكه بقيمة (الصدق) هنا يجب أن يُحسَب له، بل يُكافأ عليه؛ لأنَّ ترك العقاب هنا من أنواع المكافأة، ويمكن أن تبدي الأم هنا إعجابها بصدقه، واحترامها لصراحتها، وتكتفي بأن تقول له: «إن الغرفة ليست مكاناً مناسباً للعب، فلا تُكرِّر اللَّعبَ فيها».

الآثار السلبية التي تترتب على كثرة التوبيخ:

الأثر الأول:

أن كثرة التوبيخ تلغي مبدأ الحوار، وتقطع التواصل بين طرفي العملية التربوية.

الثاني:

أن كثرة التوبيخ تفقد فاعليتها في تعديل السلوك، وتهوّن على الطفل التمادي في المخالفة.

لقد أوصى الإمام أبو حنيفة رحمه الله المربي والمعلم فقال: «وتقوم في تقويمهم وتأديبهم، واستعمل بذلك الرفق، ولا تكثر العتب، فيهون العذل».

قال الإمام الماوردي رحمه الله: «لا تكثرن معاتبة إخوانك، فيهون عليهم سخطك»^(١)

وقال شمس الدين الإنبائي في «رياضة الصبيان وتعليمهم وتأديبهم»: «ولا يكثر عليه الملامة في كل وقت؛ فإنه يهون عليه الملامة، وركوب القبائح».

وقال الإمام الغزالي رحمه الله: «ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين، فإنه يهون عليه سماع الملامة، وركوب القبائح، ويسقط وقع الكلام من قلبه، وليكن الأب حافظاً هيبة الكلام معه، فلا يؤبّخه إلا أحياناً، والأم تحوّفه بالأب، وتزجره عن القبائح»^(٢).

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص ١٧٩).

(٢) «الإحياء» (٣/ ٧٠).

الثالث:

أنها تُحدث نفورًا من المنتَقِد وبُغْضًا له.

قال بعضهم: «كثرة العتاب تُوجب البغضاء»

الرابع:

أنها تؤدي إلى تكوين الطفل صورة سلبية عن نفسه، وتهز ثقته بها، وتشعره بالنقص، وتُلجئه إلى الانطواء، وتُحبطه، وتقتل دافعيته، وبالتالي يستمر على السلوك السلبي، ويتدهور إنجازه، فيترتب على ذلك أن يتلقى قدرًا أكبر من التوبيخ في دائرة مفرغة؟

يقول الدكتور صالح عبد الكريم: «إذا كان الإنسان بشكلٍ عام لا يقبل التأنيب واللوم خاصة إن كان هدامًا وليس بناءً فالمرأى بشكل خاص يكره التأنيب واللوم؛ لأنه في طور تشكيل الشخصية ولديه أزمة هوية فهو يتأرجح بين الطفولة والرجولة، ولديه من السلوكيات ما يشبه سلوكيات الأطفال ولديه من السلوكيات ما يشبه سلوكيات الرجال، وهو يعيش حالة من الارتباك والحيرة تجاه هويته أهو طفل أم رجل، ويأتي التأنيب واللوم ليثبت له أنه ليس رجلًا، وأنه كالطفل الصغير، وأنه كثير الأخطاء وأنه لا يفهم، ولا يستطيع تحمل المسؤولية، كما أن المرأى يمر في هذه المرحلة بأزمة الثقة بالنفس، ويأتي التأنيب واللوم ليزيد من تفاقم هذه الأزمة، كما أن كثرة التأنيب واللوم للمرأى لا تحل مشكلةً وقع فيها، بل إنها تباعد بين قلبه وقلوب والديه، وتقتل المشاعر الإيجابية بينهما، مما

يؤدّي إلى توتر العلاقة بين الآباء والأبناء لشعور الأبناء بالذنب مع عدم التركيز فيما يريده الوالدان، حيث ينشغل المراهق في خجله وإحراج أهله النفسي، غير أن التأنيب واللوم لا يساعد على حل المشكلات، مما يؤدي إلى استمرارها^(١).



(١) «فنون التعامل مع المراهقين» (ص ١٤٢).

النوع الحادي عشر العقاب بالتشهير

التشهير (Defamation):

مصطلح شرعي وقانوني مأخوذ من شَهَرَه، أي: أعلنه وأذاعه.

وشَهَّرَ به: أذاع عنه السوء، وضد التشهير: الستر.

والتشهير: إذاعة السوء عن الجاني، والإعلان عن جريمته.

وهو نوع من أنواع (التعزير)^(١) في الفقه الإسلامي، يُستخدم فيه الضغط الجماعي على نفس الجاني بهدف ردعه وتأديبه^(٢)، ويُرجع في تحديد جنسه وقدره إلى نظر الحاكم.

ويكون التشهير غالبًا في الجرائم التي يعتمد فيها المجرم على ثقة الناس كشهادة الزور والغش.

(١) التعزير: التأديب والإهانة دون الحدِّ، وهو أعم من التشهير؛ لأنه يكون بالتشهير وغيره.

(٢) يجوز التشهير بالمجاهر بالمعصية، المعلن بالفسق؛ لأنه لا يستنكف أن يُذكر به، بل ربما افتخر به جهارًا نهارًا، لكن إذا كان المشهَّرُ به يتصف بما يقال عنه، ولكنه لا يجاهر به، ولا يقع به ضرر على غيره؛ فالتشهير به حرام؛ لأنه من الغيبة التي نهى الله عنها: ﴿وَلَا يَتَّبِعْ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، ولأنَّ السَّترَ على المسلم واجب لمن ليس معروفًا بالأذى والفساد؛ لحديث: «من ستر مسلمًا ستره الله عز وجلَّ يومَ القيامة» متفق عليه.

صور من العقاب بالفضيحة والتشهير (Public Shaming and Humiliation):

- ١ - أخطأ التلميذ خطأً يسيراً ففاجأه المدرس بصوتٍ غاضبٍ وركلةٍ بقدمه، فبال على نفسه أمام التلاميذ، فسخر منه المعلم، وفُضِّحَ في المدرسة كلها.
- ٢ - استأذن طفل في الرابعة من عمره لدخول الحمام في بيت خالته، فرفضت الأم، وتكرر طلب الإذن، وتكرر الرفض، إلى أن بال الصغير في ثيابه، فما كان من الأم إلا أن دعت أطفال البيت، وطلبت منهم الضحك على الصغير المسكين.
- ٣ - أجبرت الأم طفلها ذا السبع السنوات على شرب صلصة الفلفل الحار قبل أن تضعه تحت (دُش) الماء المثلج، وأذاعت ذلك على الهواء، وشاركته مع العالم!
- ٤ - لم تحصل البنت ذات الاثني عشر عامًا على درجات جيّدة في المدرسة، فحلقت الأم رأسها بالموسى وأجبرتها على الخروج من المنزل لجمع القمامة مرتديةً فائلة وحفاضة أطفال فقط.
- ٥ - سرقت البنت ثوبًا من السوق التجاري فعاقبتها أمُّها بإجبارها على ارتداء فائلة قد كَتَبَتْ عليها: «أَخْفِ نقودك، أَخْفِ ملايسك، أَخْفِ كُلَّ شيءٍ؛ لأنني لَصَّة»، وأجبرتها على ارتدائها والخروج بها يوميًا لمدة سبعة أيام.
- ٦ - طفل عاقبه أبوه بأن علّق لافتتين كبيرتين على صدره وظهره^(١)، وأجبره على أن يدورَ حولَ نفسه في الشارع ليقرأهما المارة وسائقو السيارات، وقد كتب عليها: «لقد فُصِّلْتُ من المدرسة؛ لأنني أسرق وأكذب».

(١) ويُسمَّى هذا الوضع (Sandwich Boarding) تشبيهاً له بالساندويتش حيث يُخَصَّرُ الطفل بين اللوحين.

٧- تقول أخصائية اجتماعية في مدرسة إعدادية للبنات: «وأذكر في إحدى المرات عند استدعاء ولي أمر الطالبة في أمرٍ عادي، حدث بين طالبة ومُدَرِّسَتِها، فجاءت الأم، وما أن انتهت المدرسة من سَرْدِ شكاوها، حتى وجدنا الأمَّ توسعُ ابنتها ضربًا على الوجه والرأس بشكلٍ مهين وَسَطَ المعلمات والطالبات، وطبعًا كانت النتائج الأولية هي انطواء تلك الفتاة عن الجميع وتأخر درجاتها الدراسية إلى اقترانها برفيقات السوء لتفريغ مشاعر الكراهية المكبوتة لديها».

٨- ومن التشهير ما يحدث من بعض الأمهات من ثرثرة كلما زارها ضيوف، فتفيض في الشكوى من طفلها تلميذ المرحلة الابتدائية الذي يبلل فراشه، الأمر الذي يزيد الطينَ بلَّةً فتزداد حالته سوءًا، لا سيَّما إذا انضمَّ إلى ذلك تعييرُ أشقائه وأقاربه إيَّاه بذلك.

٩- يقول أحد الشباب: «ذهبتُ يومًا مع أبي لاجتماعٍ عائلي عند جدتي، وهناك رأيتُ أعمامي وعمَّاتي وأبناءهم، وكانت فرصة جميلة للتواصل وصلة الرحم، وكان وقتًا جميلًا وممتعًا، وفجأةً تغيرت الأجواء، وذلك لما بدؤوا يتكلمون عن مشاكل الأولاد، وكل واحد يذكر عيوب أبنائه، ومناطق ضعفهم، وفوجئتُ بأبي يكلمهم عني بطريقة سلبية جدًّا، فلم يذكر شيئًا واحدًا من إيجابياتي، وذكر لهم أنني تاركٌ للصلاة، وهنا بدأ كل منهم يعاتبني ويلومني ويصفني بصفات سيئة، ولم أجد ردًّا غير الصمت، ولم يدافع عني في هذا اللقاء غيرُ عمِّي، الذي قال لأبي: «هكذا كُنَّا في مثلِ سنِّه، وهدانا الله تعالى، وستفرح بصلاته قريبًا»، فردَّ أبي عليه بقسوة قائلًا: «لا أظن ذلك، فقد فقدتُ فيه الأمل»، قال عمي: «ابنك هذا رجل، وستذكر كلامي يومًا ما».

وهنا بدؤوا يتكلمون في موضوع آخر، ولم يشعر أحدهم أنه قد أساء لابنه أو ابنته عندما فضح عيوبه أمام الآخرين، وقضيت بقية اللقاء وأنا أفكر فيما فعله أبي، وندمت أنني جئت معه لبيت جدتي، وأقسمتُ في نفسي ألا أذهب معه إلى مكانٍ أبدًا؛ لأنه سيقفل من شأني أمام الناس.

ورجعتُ إلى المنزل غاضبًا حزينًا، وتعاملتُ مع إخوتي بغلظة، حتى الطيب منهم نهرته بشدة دون سبب، وتعاملتُ مع أُمِّي بسوء أدب، ودخلتُ غرفتي وجلستُ أفكر فيما قاله أبي عن صلاتي، وكنت في حيرة من أمري بعدما فضحني ووصفني بتارك الصلاة، ماذا عليَّ أن أفعل؟ هل أحافظ على الصلاة لأبدًا جيدًا أمام الجميع (وحينها سأبدو مثل طفلٍ صغيرٍ يستجيب لأوامر أبيه)؟ أم أعاند وأثبت لهم أنني رجل لا أسمع كلام أحد؟ وكمراهق قررت أن أعاند لأكون رجلًا، وهذا جعلني أترك الصلاة نهائيًا بعد أن كنتُ أصلي بعض الصلوات، وانقطعتُ عن لقاءات العائلة لفترة طويلة؛ لأنني كرهتُ لقاء من يراني سيئًا.

وهكذا تسببت فضيحة أبي لأسراري في قطع الرحم، وترك الصلاة، وظللت على هذه الحال لسنواتٍ، فالمرهق حين يشعر أن هناك تهديدًا لكرامته ورجولته سيعاند، وحين يعاند لا يستطيع أحد أن يجعله يتراجع، ويسير في طريق الخطأ إلى متناه، ولم ينقذني من هذه الدوامة غير عمي الطيب، الذي دافع عني في لقاء العائلة، فجلس معي بحب، وشجعني على الصلاة، وقال: «أنا على يقين أنك ستكون رجلًا، وستهزم الشيطان».

وبهذه الكلمات دَعَمَ عمي وازعَ الإيمان في قلبي، وأضعف وازع الشيطان، وبعد فترة من التواصل والتشجيع والتعامل الطيب، والاحترام، وبث الأمل، رجعتُ إلى الصلاة بعد سنوات، ولولا لطفُ الله تعالى لتركْتُ الصلاة مدى الحياة؛ نتيجة لفضيحة أبي لي في لقاء العائلة.

١٠ - ويقول شابٌ آخرُ: «في المراهقة ذهبتُ يومًا لزيارة الجد، وكان هناك عدد من الأقارب وأبنائهم، ففتحوا موضوع الصلاة، وبدأ الجميع يشكو من أبنائه، ويفضح سرهم، وطبعًا كان الأولاد يسمعون ما يسوؤهم، ولا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

وكنْتُ أجلس بينهم خائفًا مضطربًا، فلو تكلم أبي عن صلاتي سيقول إنني أتعبه كثيرًا، وأهرب من الصلاة بحيل كثيرة، وأحيانًا أكذب وأقول إنني قد صليت، وأتكاسل عن صلاة الفجر، رغم أن أبي يحاول إيقاظي يوميًا.

وفجأة تحدث أبي عني، فقال: «ابني طيب، ويجتهد في صلاته، ويقاوم الكثير من مغريات الحياة التي تلهيه عن الصلاة، وسيظل يقاوم حتى يكونَ أفضلَ».

فأثنى عليَّ الجميع، ودعا لي جدي بخير.

وهنا فقط هدأت نبضات قلبي، والتقطت أنفاسي، ورفعتُ رأسي.

وفي طريق عودتنا إلى المنزل قال لي أبي: «لقد كنتُ رجلًا معك، فكُن رجلًا معي، ولا تتكاسل عن صلاتك فيفضحك الله تعالى».

ومن ساعتها قررت أن أتغير، ووجدتُ من الله تعالى عونًا كبيرًا، فقد تحسنت صلاتي سريعًا، وأصبحتُ سهلةً بعد أن كانت ثقيلة على نفسي، واجتهدتُ في

الاستيقاظ لصلاة الفجر قدر المستطاع، وبعد فترة فوجئت بأبي يقبلُ رأسي ويقول: «شكرًا لك، فلقد كنتَ رجلًا معي، كما كنتَ رجلًا معك»^(١).

التشهير الإلكتروني (Electric Public Shaming):

بعد الطفرة الهائلة في عالم الاتصالات، وإتاحة أجهزته وتطبيقاته وكاميراته لكل أحد، اعتبر بعضُ الآباء «وسائل التواصل الاجتماعي» أداة -أو بالأحرى: سلاحًا- يستطيعون تسخيرها كي يعاقبوا أولادهم عن طريق «التشهير والفضح عبر وسائل التواصل الاجتماعي»، توهّمًا منهم أنّ ذلك وسيلة لردعهم عن سوء سلوكهم.

أمثلة للتشهير الإلكتروني:

١ - مدرّسة تلتقط صورًا للأطفال الذين قصّروا في الحفظ، وتهددهم بنشر صورهم على وسائل التواصل.

٢ - ومدرسة تهدد الأطفال الذكور الذين قصروا في الحفظ أيضًا بأنها ستضع لهم مساحيق التجميل النسائية (الماكياج) على وجوههم وشفاههم إذا لم يحفظوا، وتشهرّ بهم!

٣ - عاقب الأب طفله بأن جعل الحلاق يخلّط رأسه بحيث بدا الطفل كأنه أصلع من أعلى رأسه مع استبقاء شعر الجانبين كالرجل العجوز، وأجبره على الذهاب إلى المدرسة بهذه الهيئة.

(١) «كيف تعاقب ابنك تارك الصلاة؟» للدكتور عبد الله عبد المعطي (ص ١٢٥-١٢٨).

٤- عوقبت طفلة ذات اثنتي عشرة سنة؛ لأنها رسبت في الامتحان، بحلق شعر رأسها تمامًا، وصورتها والدثها، ونشرت صورها على وسائل التواصل.

٥- طفل عمره عشر سنوات عاقبه أبوه؛ لأنه بلّل فراشه وهو نائم، بأن أجبره على أن يرتدي ثياب (بنت)، ووضع على وجهه مساحيق التجميل، وأجبره على أن يتجولّ في الشارع بهذه الهيئة حتّى يره الجيران، ولم يكتف بهذا الإذلال بل نشر تسجيلًا لهذا العقاب على وسائل التواصل.

لقد استنكر خبراء التربية أغلب صور التشهير الإلكتروني للأسباب التالية:
الأول: أن هؤلاء لم يُعلّموا أطفالهم كيف يتصرفون بالطريقة الملائمة، ولا يستفيد الأطفال من التشهير شيئًا بل يتضررون أشد الضرر؛ لأنه يسبب لهم صدمة نفسية عنيفة.

الثاني: أن التشهير الإلكتروني لا يمت بأدنى صلة إلى منهج العقاب التربوي الصحيح الذي يقتضي مواجهة المشكلة السلوكية بطريقة إيجابية.
مثال:

١- إذا استولى (سرق) نقودًا من حصالة أخيه، تقول له الأم: «سأسدد نقود أخيك وأودعها حصالته، على أن تسدها لي من مصروفك».

٢- إذا كان يستعمل ألفاظًا قبيحة، تقول له: «إذا استمرت في استعمال هذه الألفاظ غير اللائقة، فهذه هي العواقب»، ليكون شريكًا في صنع القرار، بحيث يتوقع ما الذي ينتظره في المستقبل إذا انحاز إلى الخيار السيئ، ونحدد نوع العقاب الملائم لسنّه، والمتناسب مع حجم الخطأ الذي ارتكبه.

الثالث: أنَّ التشهير قد يكون مُحَقَّرًا على الأمد القصير، ولكنه «مسموم» وغير صحي على الأمد البعيد؛ لأنه يُثَبِّط، ويَجْرَح، ويعتمد على أسلوب «التخجيل أمام الملاء» فيقول الطفل لنفسه: «إنه لا يريد أن يهذبني، ولكنه يريد أن يراني الآخرون وأنا أعاقب وأهان»، ويصبح حادث (التشهير) عارًا يود إخفائه ودفنه، فإن عجز عن ذلك فإنه يحاول أن يُخْفِي نفسه بعيدًا عن أعين الآخرين كي لا يُجْرَج منهم^(١).

إنَّك إنْ أهنتَ موظفًا في مكان عمله أمام زملائه وأمام الجمهور ، ، فقد لا يبقى أمامه خيار ليحفظ كرامته سوى أن يُغَيِّر مكان عمله إن استطاع، ولكن ماذا يفعل الطفل إذا أهين على الملاء؟

وتأمل القصة التي رواها ابنُ عمرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: كنتُ مع عمر بن الخطاب في حج أو عمرة، فإذا نحن براكب، فقال عمر: «أرى هذا يطلبنا»، قال: فجاء الرجل يبكي، قال: «ما شأنك؟ إن كنت غارمًا أعنَّاك، وإن كنت خائفًا آمناك إلا

(١) من أجل ذلك يجب التفريق بين «الشعور بالذنب» وبين «الشعور بالعار»، والحرص على أن لا يتلازما، بمعنى أنني يمكن أن أرتكبَ خطيئةً دون الشعور بالعار، فالشعور بالذنب يعني أنني ارتكبتُ خطأً أحتاجُ إلى تصحيحه بالاستغفار والتوبة والاستقامة، وربما احتجت إلى أن أذهب لصاحب الحق فأعتذر وأرد إليه حقه، والشعور بالذنب هنا صحي؛ لأنه يدفعنا إلى التصحيح والتكفير عنه كي نسترِدَّ سلامنا وعافيتنا النفسية.

أمَّا «الشعور بالعار» فيعني أنني ارتكبتُ خطأً شهده القاصي والداني (عبر التشهير)، وهذا الخطأ غير قابل للإصلاح، وهو - في الوقت نفسه - يمثل كينونتي وذاتي الملطخة بالإثم، ولذا أحتاج إلى أن أخفيه، وأحتاج إلى أن أخبئ نفسي كي أحمي نفسي من تنمر الآخرين ونظراتهم، وهذا ما يحدث بسبب «التخجيل العام».

والحاصل: أننا لا بدَّ أن نفرِّق بين الشعور بالخطأ في بيئة تربوية مغلقة (شعورًا بالذنب دون الشعور بالعار)، وبين الشعور بالعار والخجل من خلال التشهير الإلكتروني.

أن تكون قتلتَ نفسًا فتُقتلَ بها، وإن كنت كرهت جوار قومٍ حولناك عنهم» قال: «إني شربت الخمر، وأنا أحد بني تيم، وإن أبا موسى جلدني وحلقني وسود وجهي، وطاف بي في الناس، وقال: لا تجالسوه ولا تؤاكلوه، فحدثت نفسي بإحدى ثلاث: إما أن أتحذَّ سيفًا فأضرب به أبا موسى، وإما أن آتيك فتحولني إلى الشام فإنهم لا يعرفونني، وإما أن ألحق بالعدو وأكل معهم وأشرب، قال: فبكي عمر، وقال: «ما يسرني أنك فعلت وإن لِعمرَ كذا وكذا، وإني كنت لأشرب الناس لها في الجاهلية، وإنها ليست كالزنا»، وكتب إلى أبي موسى: «سلام عليك، أمّا بعدُ، فإنَّ فلانَ بنَ فلانٍ التيمي أخبرني بكذا وكذا، وإيم الله لئن عُدتَ لأُسودنَّ وجهك ولأطوفنَّ بك في الناس، فإن أردتَ أن تعلم حقَّ ما أقول لك فعُدْ، فأمرِ الناسَ أن يجالسوه ويؤاكلوه، وإن تاب فاقبلوا شهادته، وحمله، وأعطاه مئتي درهم»^(١).

والشاهد فيها قول الرجل التيمي: «فإنهم لا يعرفونني».

الرابع: أن في اللجوء إلى «التشهير الإلكتروني» كي تفضَحَ ولدك، وتذيعَ سلوكه السيئ على رؤوس الأشهاد دليلًا على فشلك التربوي، واعترافًا منك بأنك خسرت المعركة، وعجزت عن إدارتها بعلمٍ وحكمة، فمن ثمَّ توهَّمت أن وجهة نظر «المشاهدين» ستؤدِّي الوظيفة التربوية نيابةً عنك.

(١) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠٩/٢١، ١١٠) رقم (٢٠٩٨٩)، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (٨١٣/٣، ٨١٤)، وانظر تحسينه في «ما صح من آثار الصحابة في الفقه» باب (شهادة من تاب من شرب الخمر) (١١٦٨/٣).

الخامس: أن التشهير الإلكتروني يؤثر سلبًا على تقدير الطفل لنفسه، ويشوّه صورة ذاته لديه، ويُسعِرُه بالذل والإهانة والإحراج، كما أنه يقلل من دافعيته وقدرته على الإبداع.

السادس: أن التشهير الإلكتروني يؤثر سلبًا على علاقة الطفل بوالده أو والدته؛ إذ يرى أحبّ الناس إليه، وأقربهم لديه، ومثله الأعلى الذي يستمد منه الحب والأمان والانتماء والحماية هو نفسه الذي يشوّه صورته، ويهين كرامته ويذيع خطأه على أوسع نطاق، ويشارك ذلك مع العالم أجمع من خلال وسائل «التواصل الاجتماعي»، فيتولد من ذلك كراهية للمربي ونفورٌ منه، وشرخ في الرابطة بينهما.

السابع: إذا قال المربي: «ولكن واجبي أن أهذبه بحسم، والملابس المتسخة تحتاج إلى أن نغسلها»، فإننا نقول له: «حقًا، ولكن ذلك لا يتم إلا في حجرة الغسيل أو المكان المخصص لذلك».

وإذا كان العقاب بالإهانة والشتم والتحقير والإذلال في داخل البيئة المنزلية (المغلقة) مرفوضًا لما يترتب عليه من أضرار وسلبات؛ فإن هذه الأضرار والسلبات تتضاعف إذا تمّ ذلك في البيئة الإلكترونية (المفتوحة) أمام من يعرفه ومن لا يعرفه، من الكبار والصغار، والأقران والمعارف والأقارب والأصدقاء. إنَّ واقعة سوء سلوك الابن تحظى بخصوصية المكان الذي وقعت فيه، وكذلك خصوصية الزمان، وخصوصية الذين حضروها، و«التشهير الإلكتروني» يُعَدُّ هذه الخصوصية لينتشر «الفديو» بالصوت والصورة كانتشار

النار في الهشيم (Viral)، في كل القارات السبع، ويبقى في كل زمان متى ما رُفِع على وسائل الاتصال، ويتداوله الناس، ويعلقون عليه، وغالبًا ما سيراه زملاء الطفل الذين سيسخرون منه، ويتنمرون عليه، ويُعيّرونه به.

هل للعقاب بالتشهير مكان في العملية التربوية؟

كل ما نذكره في هذا المبحث ونستدل به متعلّقًا بالمكلفين، فإنّنا نذكره من باب قياس الأوّل، فإذا كان الشرع الشريف قد حفظ كرامة المكلفين وهم عصاة، ودفع عنهم «العقاب بالتشهير» إذا كانوا مستترين بالذنب غير مجاهرين به؛ فالأولى منع ذلك في حق الصغار غير المكلفين الذين نتولاهم بالرعاية والتهذيب كي يشبوا عبادًا لله صالحين.

الأصل هو السّتر؛

استفاضت أدلة الوحي الشريف التي تحث على السّتر على العُصاة، وتحذر من معيّة تتبع عوراتهم، وفضحهم والتشهير بهم في الدنيا والآخرة^(١). ومنها قول رسول الله ﷺ: «ومن سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

ولهذا يجب علينا ستر أولادنا وعدم التشهير بهم إذا أخطؤوا، وبخاصة فيما يسترونه عنّا^(٣).

(١) وقد ذكرتُ ذلك - بحمد الله - مُفصّلًا في «فقه السّتر» يَسّر الله طباعته.

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٣) أمّا ما يظهر من أخطاء الطفل فإننا نتغافل أحيانًا (التغافل الواعي)، ولكن نقتنص الفرصة الملائمة كي نحاسبه عليها؛ لأن الطفل سيظل محتاجًا لسلطة ضابطة لسلوكه مصححة له، بشرط عدم المحاسبة الشديد والصارمة والخانقة، والمراقبة الدقيقة الدائمة لكل سلوك يصدر =

كما أنَّ التجسس وتتبع العورات من الأمور التي تُهي عنها شرعاً، بل المطلوب معاملة الابن بما يظهر منه، وإعطائه حقوق المسلم من الستر انتظاراً لفيئه ورجوعه عن الخطأ، بل لا بدَّ مع الستر من طلب مؤلفته بالتشجيع والهدية. فقد كان من هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا رأى شيئاً من أصحابه، أو بلغه شيء عنهم، وأراد أن يذمهم على الحق فيه، أنه لا يصرح بأسمائهم، ولكنه يُلمح فيسُرُّ عليهم، ويحصل مقصوده من النصيح، فيقول: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا»، كما سيأتي مُفصَّلاً إن شاء الله^(١).

إنَّ من طبيعة البشر الخطأ والتقصير، ولم يجعل الله العصمة لغير الأنبياء والمرسلين، لذلك ينبغي أن نتوقع الزلل من أبنائنا، فإذا حدث هذا الزلل وجب علينا الستر وعدم هتك عوراتهم.

وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّكَ إِنْ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ، أَوْ كَذَبْتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ»^(٢).

تجنب تأديبه أمام الآخرين؛

الأصل أن يتم تأديب الطفل بالعقاب على انفراد بعيداً عن أعين أشقائه وزملائه أو الغرباء؛ حماية له من الإحراج العلني والتشهير، ومن الجيد أن ننبهه على أننا نعمدُ السَّترَ عليه كي لا نخرجه أمامهم، ولا ينبغي العدول عن هذا

= منه، والأصل عدم التجسس عليه وتفتيش غرفته أو ملابسه مثلاً؛ لأن هذا يجرح ثقته بنفسه، وربما دفعه إلى العناد، بل إلى تنمية خبرته في التبرير والكذب والخداع فيما بعد.

(١) انظر: (ص ٣٦١)، وما بعدها.

(٢) رواه أبو داود (٤٨٨٨)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود».

الأصل إلا لمصلحة تربية ترجّح إعلان ذلك على مجتمع المدرسة مثلاً؛ لأنّ هذا الأسلوب قد يكون آخر حلٍّ مع الطالب المشاغب الذي تعجز المدرسة عن ضبطه بالبدائل العقابية الأخرى، على أن يتم ضمن حدود تربية ضيّقة، وبعد محاولة حصره أمام المعلم والإدارة.

روى البيهقي في «سُنَنِهِ» بسنده عن جرير: أنّ رجلاً كان ذا صوتٍ ونكايّة على العدوِّ مع أبي موسى، فَعَنِمُوا مَغْنَمًا، فأعطاه أبو موسى نصيبه ولم يُوفِّه، فأبى أن يأخذه إلّا جميعًا، فَضْرَبَهُ عِشْرِينَ سَوْطًا وَحَلَقَ رَأْسَهُ، فَجَمَعَ شَعْرَهُ، وَذَهَبَ بِهِ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فدخل عليه، قال جرير: وأنا أقربُ النَّاسِ مِنْهُ، فأَخْرَجَ شَعْرًا مِنْ جَبِيهِ^(١)، فَضْرَبَ بِهِ صَدْرَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: «أما والله لولاه!»، فقال عمر: «صدق، لولا النار»، فقال: «مالك؟» فقال: «كنت رجلاً ذا صوتٍ ونكايّة على العدو، فغنمنا مغنمًا»، وأخبره بالأمر، وقال: «حَلَقَ رَأْسِي، وجلدني عشرين سوطًا، يرى أنه لا يُقتَصص منه»، فقال عمر: «لأن يكون الناس كلهم على مثل صرامة هذا أحب إليّ من جميع ما أتى علينا».

قال: فكتب عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أبي موسى: «سَلَامٌ عَلَيْكَ، أمّا بعدُ، فإنَّ فُلانَ ابنِ فُلانٍ أخبرني بكذا وكذا، وإني أقسمُ عَلَيْكَ إنْ كُنْتَ فعلتَ به ما فعلتَ في مَلَأٍ مِنَ النَّاسِ؛ لما جَلَسْتُ له في مَلَأٍ مِنْهُمْ، فاقْتَصَصَ مِنْكَ، وإنْ كُنْتَ فعلتَ به ما فعلتَ في خَلَاءٍ، فاقْعُدْ له في خَلَاءٍ فليقتَصصَ مِنْكَ»، فقال له الناس: اعْفُ عَنْهُ،

(١) في رواية عبد الرزاق: «من ضَبْنِهِ»، والضَبْنُ: ما بين الكشح والإبط، والكشح: ما بين الخاصرة إلى الصِّلَعِ الخَلْفِ، انظر: «القاموس» (١٥٦٣)، (٣٠٥).

قال: «لا والله، لا أدعُه لأحدٍ من الناس»، فلَمَّا دَفَعَ إِلَيْهِ الْكِتَابَ قَعَدَ لِلْقِصَاصِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَقَالَ: «قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ اللَّهُ»^(١)
قال حمّاد: فأعطاه أبو موسى بعضَ سَهْمِهِ^(٢).

من هدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نصيحة الناس:

عَلَّمَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَقُومَ بِوَاجِبِ النِّصِيحَةِ لِلْآخِرِينَ، مُخْلِصِينَ النِّيَّةَ لِلَّهِ تَعَالَى فِي ذَلِكَ، مَعَ الْحِرْصِ الشَّدِيدِ عَلَى خَيْرٍ مِنْ نَنْصَحَهُمْ.

وَعَلَّمَنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَنْصَحَ الْآخِرِينَ - مَا أَمَكْنَ - دُونَ تَشْهِيرٍ وَلَا تَجْرِيعٍ، وَبِالتَّعَمُّيمِ دُونَ التَّخْصِيسِ، وَبِالْفَرْقِ دُونَ التَّعْنِيفِ، وَبِالتَّعْرِيزِ دُونَ التَّصْرِيحِ، فَإِنَّهُ أَعُوذُ لَهُمْ عَلَى قَبُولِهَا وَالْإِمْتِثَالِ لَهَا؛ لِأَنَّ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ إِذَا وُوجِّهَتْ وَصُورِحَتْ بِعُيُوبِهَا قَدْ تَأْخُذُهَا الْعِزَّةُ وَالْأَنْفَةُ وَالْحُمِيَّةُ، وَيَتَمَلَّكُهَا الْكِبْرِيَاءُ وَالْإِعْتِدَادُ بِذَاتِهَا، فَتَمِيلُ إِلَى الْعِنَادِ وَالْمُكَابَرَةِ وَالتَّحَدِّيِّ.

النصيحة بالتعريض:

«يبلغ التعريض للمنصوح ما يبلغه التصريح، وسر ذلك أنه يتضمن إعلام السامع على صورة لا تقتضي مواجهته بالخطاب المنكر كأنك لم تعنه، وهو أعلى محاسن الأخلاق، وأقرب للقبول، وأدعى للتواضع» اهـ^(٣).

وقال ابنُ حزمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَنْ وَعَظَ بِبَشَرٍ وَتَبَسَّمَ وَلِينٍ، وَكَأَنَّهُ مُشِيرٌ بِرَأْيٍ، وَمُخْبِرٌ عَنْ غَيْرِ الْمَوْعُوظِ، بِمَا يَسْتَفْتَحُ مِنَ الْمَوْعُوظِ، فَذَلِكَ أُبْلَغُ وَأَنْجَحُ فِي

(١) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٤٠٠)، والبيهقي في «سننه» (١٦١٢٠).

(٢) أي بعض سهم أبي موسى رَحِمَهُ اللَّهُ عَنهُ.

(٣) «البرهان» للزركشي (٣/٣١٣).

الموعظة، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يواجه بالموعظة، لكن كان يقول: (ما بال أقوام يفعلون كذا) اهـ.

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومما ينجع في الوعظ أيضًا الشاء بحضرة المسيء، على من فعل خلاف فعله، فهذا داعية إلى عمل» اهـ^(١).

وقال الإمام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن دقائق صناعة التعليم والوعظ، أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق، بطريق التعريض ما أمكن، ولا يصريح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف، ويهيج الحرص على الإصرار.

والتعريض يُمِلُّ النفوس الفاضلة، والأذهان الذكية، إلى استنباط معانيه، فيفيد فرح التفطن لمعناه، رغبة في العلم به، ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته» اهـ^(٢).

رُوِيَ عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَلَّ ما يواجه رجلاً في وجهه بشيء يكره»^(٣).

وعن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يَقُلْ: ما بال فلان يقول كذا، ولكن يقول: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا»^(٤).

(١) «الأخلاق والسير» (ص ٦٣).

(٢) «الإحياء» (١/ ٥٧).

(٣) رواه أبو داود (٤١٨٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٣٧) بنحوه، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢٣٦)، وضعفه الألباني في «ضعيف الأدب المفرد» (٦٦).

(٤) رواه أبو داود (٤٧٨٨)، والبيهقي في «الشعب» (٧٧٤٥)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» رقم (٣٧٥).

وقد استفاد عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الأسلوب الرائع في النصيحة، وفيما يلي نذكر أمثلة من هديه الشريف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك:

«ما بال أقوام» سنة مهجورة؛

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَأْتُونِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَيَّ رَيْكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ الْإِنْسَانِ الَّتِي قَطَعَنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ الآية [يوسف: ٥٠].

فلم يصرح بامرأة العزيز -مع أنها التي سَعَتْ في سَجْنِهِ- ونكب عنها حُسْنَ عشرة، ورعاية لِذِمَامِ الملك العزيز له، بل ذكر النساء جملةً لِيَدْخُلَ فِيهِنَّ امرأة العزيز مدخل العموم بالتلويح؛ حتى لا يقع عليها تصريح، وذلك حُسْنَ عشرة وأدب^(١).

وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرًا ما يستعمل قاعدة «ما بال أقوام» مع أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فنبه المخطئ على خطئه ولا يُعَيِّنُ شخصه، ويهدي إليه النصح في هذا (الغلاف) الجميل، فيرتدع عن الخطأ، ويحصل المقصود في سترٍ جميل.

وفيما يلي مواقف من هديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك:

١ - عن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: رَخَّصَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعض الأمر، فَرَغِبَ عنه رجالٌ، فقال: «ما بال رجالٍ أمرُهُم بالأمرِ يَرِغَبُونَ عنه، والله إنِّي لأَعْلَمُهُم بالله عَزَّوَجَلَّ، وأشدُّهم له خشيةً»^(٢).

(١) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٢٠٧/٩).

(٢) رواه الإمام أحمد (٢٥٤٨١)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٠٦٣)، وقال محققو «المسند»: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

٢- وعن أنسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَمَلِهِ فِي السَّرِّ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوِّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَأَنَّمُ عَلَى الْفَرَاشِ. فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا؟ وَلَكِنِّي أَصْلِي وَأَتَأَنَّمُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوِّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(١).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي شَرْحِهِ: «هُوَ مُوَافِقٌ لِلْمَعْرُوفِ مِنْ خُطْبِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مِثْلِ هَذَا، أَنَّهُ إِذَا كَرِهَ شَيْئًا فَخُطِبَ لَهُ، ذَكَرَ كِرَاهِيَتَهُ وَلَا يُعَيِّنُ فَاعِلَهُ، وَهَذَا مِنْ عَظِيمِ خُلُقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ ذَلِكَ الشَّخْصَ وَجَمِيعَ الْحَاضِرِينَ وَغَيْرِهِمْ، مَنْ يَبْلُغُهُ ذَلِكَ، وَلَا يَحْصُلُ تَوْبِيخُ صَاحِبِهِ فِي الْمَلَأُ»^(٢).

٣- وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ يُوَاصِلُ وَذَلِكَ فِي آخِرِ الشَّهْرِ، قَالَ: فَأَخَذَ رِجَالٌ يُوَاصِلُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا بَالُ رِجَالٍ يُوَاصِلُونَ، إِنَّكُمْ لَتَسْتَمُّ مِثْلِي، أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ مَدَّ لِي الشَّهْرُ لَوَاصِلَتْ وَصَالًا يَدْعُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ»^(٣).

٤- وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى نُخَامَةً فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ، فَأَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: «مَا بَالُ أَحَدِكُمْ يَقُومُ مُسْتَقْبِلَ رَبِّهِ»^(٤)، فَيَتَنَخَّعُ^(٥)

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٢) «شرح النووي» (١٩٠/٥)، ط. دار أبي حيان، و«منهاج المحدثين» (٨/٣٠٤، ٣٠٥).

(٣) رواه مسلم (١١٠٤)، والإمام أحمد (١٣٠١٢)، والوصال: أَنْ لَا يُفْطِرَ مِنَ الصَّيَامِ أَيَّامًا تَبَاعًا، أَوْ أَنْ يَصُومَ يَوْمِينَ فَأَكْثَرَ لَا فِطْرَ بَيْنَهُمَا، وَهُوَ قُرْبَةٌ فِي حَقِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمِنْ خِصَائِصِهِ الشَّرِيفَةِ، وَمَكْرُوهُ فِي حَقِّ الْأُمَّةِ رَحْمَةً بِهِمْ، وَالْأَصَحُّ عِنْدَ الشَّافِعِيَةِ تَحْرِيمُهُ عَلَيْهِمْ.

(٤) أي: مستقبل القبلة.

(٥) تنخع: رمى بنُخَاعَتِهِ، وَهِيَ الْبَلْغَمُ الَّذِي يُخْرِجُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ فَمِهِ.

أمامه؟ أوجب أحدكم أن يستقبل فيتنخع في وجهه؟ إذا تنخع أحدكم، فليتنخع عن يساره، أو تحت قدمه، فإن لم يجد، فليقل هكذا، في ثوبه» فوصف القاسم: فتقل في ثوبه، ثم مسح بعضه ببعض^(١).

٥- وعن أنس رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم»، واشتد قوله في ذلك حتى قال: «لئن تهن عن ذلك، أو لتخطفن أبصارهم»^(٢).

٦- وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: كنا إذا صلينا وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم قلنا: السلام عليكم بأيدينا^(٣) يميناً وشمالاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما بال أقوام يرمون»^(٤) بأيديهم كأنها أذناب الخيل الشفس^(٥)؟ ألا ينسكن أحدكم، ويشير بيده على فخذه، ثم يسلم على صاحبه عن يمينه وعن شماله»

٧- وفي قصة بريرة رضي الله عنها حين أخبرت عائشة رضي الله عنها أن أهلها اشترطوا أن يكون لهم ولاؤها، فذكرت عائشة ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ابتاعي فأعتقي، فإنما الولاء لمن أعتق». قالت: ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «ما بال أناس يشترطون شروطاً ليست في كتاب

(١) رواه الإمام أحمد (٧٤٠٥)، ومسلم (٥٥٠)، وابن ماجه (١٠٢٢).

(٢) رواه الإمام أحمد (١٢٠٦٥)، وقال المحققون: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٣) أي: مشيرين بأيدينا.

(٤) أي: يشيرون.

(٥) الشفس أو الشمسوس: جمع شمس، وهو النور من الدواب، الذي لا يستقر لشغبه وحديثه.

(٦) رواه الإمام أحمد (٢٠٨٠٦)، ومسلم (٤٣١)، وأبو داود (٩٩٨، ٩٩٩)، وغيرهم.

الله عَزَّوَجَلَّ، من اشترط شرطاً ليس في كتاب الله ^(١) عَزَّوَجَلَّ فليس له، وإن شَرَطَ مئة مرة، شَرَطَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أَحَقُّ وَأَوْثَقُ ^(٢).

٨- وعن أبي حميد الساعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: استعمل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلاً من الأزد يقال له: ابن اللُتَيْبَةِ، على صدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي، فقام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على المنبر، فقال: «ما بالِ العاملِ نَبَعْتُهُ فيجيءُ فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي! أفلا جَلَسَ في بيتِ أبيه وأمه فيَنْظُرَ أَيَهْدِي إليه أم لا؟! والذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده، لا يأتي أحدٌ منكم منها بشيءٍ إلا جاء به يومَ القيامةِ على رَقَبَتِهِ، إن كان بَعيراً له رُغَاءٌ، أو بَقَرَةً لها خُوارٌ، أو شاةٌ تَنْعَرُ ^(٣)» ثم رفع يديه حتَّى رأينا عُفْرَةَ يديه ^(٤)، ثم قال: «اللهم هل بَلَّغْتُ» ثلاثاً ^(٥).

٩- وَرَوَى عن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما بالِ أقوامٍ يلعبون بحدود الله، يقول أحدهم: قد طَلَّقْتُكَ، قد راجعْتُكَ، قد طَلَّقْتُكَ» ^(٦).

١٠- وقام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما وقع حديث الإفك في الناس يخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيراً» الحديث ^(٧).

(١) أي في حكم الله، يعني أنها مخالفة لحكم الله تعالى.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٤٥٢٢)، والبخاري (٢٥٦١)، ومسلم (١٥٠٤)، وغيرهم.

(٣) تصحيح.

(٤) المراد باليدين: أصول اليدين، وهما الإبطان، والعُفْرَةُ: البياض غير الخالص بسبب الشعر.

(٥) رواه الإمام أحمد (٢٣٥٩٨)، والبخاري (٢٥٩٧)، ومسلم (١٨٣٢)، وأبو داود (٢٩٤٦).

(٦) رواه ابن ماجه (٢٠١٧)، وابن حبان (٤٢٦٥)، والبيهقي (٣٢٢/٧)، وضعفه الألباني في

«الضعيفة» (٤٤٣١).

(٧) «سيرة ابن هشام» (١٦٠/٣) ط. التوفيقية.

١١- ولما حسد عامر بن ربيعة سهل بن حنيف وهو يغتسل، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «علام يقتل أحدكم أخاه»، ولم يعين العائن، ثم قال: «إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه، فليدع له بالبركة» الحديث^(١).

وقد اقتدى أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بهديه الشريف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الخلق الرفيع، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما عمر بن الخطاب يخطب الناس يوم الجمعة إذ دخل عثمان بن عفان فعرض به عمر فقال: «ما بال رجال يتأخرون بعد النداء؟» الحديث^(٢).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن عمر بن الخطاب صعد المنبر فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «ما بال رجال ينكحون هذه المتعة، وقد نهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنها، لا أوتي بأحد نكحها إلا رجمته»^(٣).

وعن نافع قال: بلغ عمر أن صفية امرأة عبد الله بن عمر سترت بيوتها بقرام أو غيره، أهدها لها عبد الله بن عمر، فذهب عمر وهو يريد أن يهتكه، فبلغهم، فنزعوه، فلما جاء عمر لم يجد شيئاً، فقال: «ما بال أقوام يأتوننا بالكذب؟!»، قال البيهقي: وكأنه كره ذلك للسرّف^(٤).

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٥٩٨٠)، وابن ماجه (٣٥٠٩)، والطبراني في «الكبير» (٥٥٧٤)، وغيرهم، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٨٢٨) ع.

(٢) رواه مسلم في سياق حديث: «إذا جاء أحدكم إلى الجمعة، فليغتسل» (٨٤٥).

(٣) رواه البيهقي في «سننه» (١٤٢٨٦).

(٤) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٩٨٢٢)، والبيهقي في «الشعب» (٦١٥٥).

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما بال رجالٍ يَنَحِلُون أبناءهم نَحْلًا ثم يمسكونها» إلخ وعن أمير المؤمنين معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه بلغه أمرٌ، فقام خطيبًا، وقال: «ألا ما بال رجالٍ يتحدثون عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحاديثَ قد كُنَّا نشهدها ونصحبُه فلم نسمعها منه»^(٢).

من يصلحه التلميح لا يُعدل عنه إلى التصريح:

عن خوات بن جبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: نزلتُ مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَرِّ الظَّهْرَانِ، فخرجتُ من خِبَائِي، فإذا نسوة يتحدثن فأعجبني، فرجعتُ فأخرجتُ حُلَّةً من عَيْتِي^(٣) فلبستُها ثم جلستُ إليهن، فمرَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهَبْتُ، فقلتُ: يا رسول الله، جَمَلٌ لي شَرُودٌ وأنا أبتغي له قيدًا، فمضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتبعته، فألقى إليَّ رداءه، ودخل الأراك فقصي حاجته، وتوضأ، ثم جاء فقال: «أبا عبد الله، ما فعل شِرَادُ^(٤) جَمَلِكَ؟» ثم ارتحلنا، فجعل لا يلحِقُنِي إلا قال: «السلام عليكم أبا عبد الله، ما فعل شِرَادُ جَمَلِكَ؟» قال: فتعجَّلتُ إلى المدينة، واجتنبْتُ المسجدَ ومجالسةَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلمَّا طال ذلك عليَّ تَحَيَّنْتُ ساعةَ خَلْوَةِ المسجد، ثم أتيتُ فجعلتُ أصلي، فخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بعضِ حُجَرِهِ، فجاء فصلَّى ركعتين خفيفتين، وطوَّلتُ الصلاةَ رجاءً أن يذهبَ ويدعاني، فقال: «طَوِّلْ يا أبا عبد الله ما شئتَ فلستُ بقائمٍ حتى تنصرفَ»، فقلتُ: والله لأَعْتَزِرَنَّ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) رواه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٦٥٠٩)، والبيهقي في «سننه» (١٢٠٧٣).

(٢) رواه مسلم (١٥٨٧).

(٣) العَيْتِي: وعاء من أدم ونحوه يكون فيه المتاع، وتُصان فيه الثياب وتُحفظ.

(٤) شرد البعير شُرودًا: نفر، واستعصى، وذهب في الأرض.

وَلَا بُرْتَنَ صَدْرَهُ، فأنصرفْتُ، فقال: «السلام عليكم أبا عبد الله، ما فعل شِراءُ الجمل؟» فقلت: والذي بعثك بالحق ما شَرَدَ ذلك الجمل منذُ أسلمتُ، فقال: «رَحِمَكَ اللهُ»، مرتين أو ثلاثاً، ثم أمسك عني فلم يعد^(١).

فانظر إلى أدبه صلى الله عليه وسلم بخُلُقِهِ العظيم، وأسلوبه الرقيق الذي لم يخلُ من حَسٍّ دُعابة لطيفة استدعى من خوات رضي الله عنه شعوراً بالندم والتوبة قد بلغ المدى.

النصح في السر دون العلن:

والنصح في السر دون العلانية مما يُبدَأُ به في النصيحة، قال نوح عليه السلام: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٩].

وكان السِّلَفُ يحبُّونَ أن يكونَ الأمرُ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ سِرًّا فيما بين الأمرِ والمأمورِ، فإنَّ هذا من علاماتِ النَّصْحِ، فإنَّ النَّاصِحَ ليس له غرضٌ في إشاعة عيوبٍ من ينصحُ له، وإنَّما غَرَضُهُ إزالةُ المفسدةِ التي وَقَعَ فيها.

وقالت أمُّ الدَّرْداءِ رضي الله عنها: «من وعظ أخاه سِرًّا فقد زانه، ومن وعظه علانيةً فقد شانه».

وقال عبد العزيز بن أبي رواد: «كان من كان قبلكم، إذا رأى الرجل من أخيه شيئاً يأمره في رفق، فيؤجر في أمره ونهيه، وإن أحد هؤلاء يخرق بصاحبه، فيستغضب أخاه، ويهتك ستره».

(١) قال الهيثمي في «المجمع»: «رواه الطبراني (٤١٤٦) من طريقين، ورجال أحدهما رجال الصحيح غير الجراح بن مخلد، وهو ثقة» (٩/٤٠١)، وانظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/٤٥٧)، (٤٥٨)، وانظر: «تخريج الإحياء» للعراقي (٣/١٦١) وزاد الحافظ ابن حجر عزوه إلى البغوي كما في «الإصابة» (٢٣٠٠).

وعن عبد الرحمن بن مطرف قال: «كان الحسن بن حيي إذا أراد أن ينصح أخاه، كتبه في ألواح وناولته»^(١)

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ: «المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويُعير».

وأنشد الشافعي رَحِمَهُ اللهُ:

تَعَمَّدَنِي بِنُصْحِكَ فِي انْفِرَادِي	وَجَنَّبَنِي النَّصِيحَةَ فِي الْجَمَاعَةِ
فَإِنَّ النُّصْحَ بَيْنَ النَّاسِ نَوْعٌ	مِنَ التَّوْبِيخِ لَا أَرْضَى اسْتِمَاعَهُ
وَأَنْ خَافَتَنِي وَعَصَيْتَ قَوْلِي	فَلَا تَجْزَعْ إِذَا لَمْ تُفْطِ طَاعَهُ

وقال القاضي ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ: «إذا رأيت إنساناً على معصية، فَعِظْهُ فيها بينك وبينه، ولا تفضَّحه».

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: وكان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد وعظوه سراً، حتى قال بعضهم: «مَنْ وَعَظَ أَخَاهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فَهِيَ نَصِيحَةٌ، وَمَنْ وَعَظَهُ عَلَى رُؤُوسِ النَّاسِ فَإِنَّمَا وَبَّخَهُ»^(٢).

وكان يُقال: «من أمر أخاه على رؤوس الملأ؛ فقد عيره».

وإذا كان الله تعالى قد أمر رسوله إلى فرعون موسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فقال: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (١٢) فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّئَلَّا نَلْعَلَهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿[طه: ٤٣، ٤٤]، فكيف ينبغي أن يكون الرفق مع المسلمين وفلذات الأكباد؟!]

(١) «شعب الإيمان» (٧٢٣٦).

(٢) «الفرق بين النصيحة والتعير».

قال الإمام ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ: «والاتساء بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وعظ أهل الجهل والمعاصي والرذائل واجب، فمن وعظ بالجفاء والكفهرار^(١)، فقد أخطأ، وتعدى طريقته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصار في أكثر الأمر مغرياً للموعوظ بالتمادي على أمره لجأجأ^(٢)، وحرّداً^(٣)، ومغايظة للواعظ الجافي، فيكون في وعظه مسيئاً لا محسناً، فإن لم يتقبل فلينتقل إلى الموعظة بالتحشيم^(٤)، وفي الخلاء، فإن لم يقبل ففي حضرة من يستحي منه الموعوظ، فهذا أدب الله في أمره بالقول واللين.

وقد أثنى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الرفق، وأمر باليسير، ونهى عن التنفير، وكان يتحوّل بالموعظة خوف الملل، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وأما الغلظة والشدّة، فإنما تحب في حدّ من حدود الله تعالى، فلا لين في ذلك للقادر على إقامة الحدّ خاصّة^(٥).

النصيحة بالرفق:

- عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بال أعرابي في المسجد، فقام الناس إليه ليقعوا فيه، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَعُوهُ وَأَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ -أو ذَنُوبًا مِنْ ماءٍ- فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»^(٦).

(١) الكفهرار: عبوس الوجه وانقباضه.

(٢) اللجأج: التمادي في الخصومة مع ثقل الكلام، ونقص الكلام.

(٣) الحرّدا: الغضب.

(٤) التحشيم: من الحشمة، وهي الاستحياء.

(٥) «الأخلاق والسّير» (ص ٤٥).

(٦) رواه البخاري (٢٢١)، ومسلم (٢٨٤)، وغيرهما. والذّنوب والسّجل كلاهما بمعنى، وهو الدّلّو المملوء ماءً.

- وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المسجد ومعه أصحابه، إذ جاء أعرابي، فبال في المسجد، فقال أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَهْ مَهْ! فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تُزْرِمُوهُ»^(١)، ثم دعاه، فقال: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لَشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْقَذَرِ وَالْبُؤُولِ وَالْخَلَاءِ، وَإِنَّمَا هِيَ لِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَذِكْرِ اللَّهِ، وَالصَّلَاةِ»، ثم دعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ، فَسَنَّهُ^(٢) عَلَيْهِ^(٣).

- وعن معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله! فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أميَّاه! ما شأنكم تنظرون إليّ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فعرفت أنهم يُصَمِّتُونِي.

فلَمَّا صَلَّى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسنَ تعلِيمًا منه، فوالله ما ضربني، ولا كَهَرَنِي^(٤) ولا سَبَّنِي، قال: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ» أو كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٥).

- وَيُرْوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَعِينُهُ فِي شَيْءٍ - قَالَ عِكْرَمَةُ: أَرَاهُ فِي دَمٍ، فَأَعْطَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا،

(١) لَا تُزْرِمُوهُ: لَا تَقْطَعُوا عَلَيْهِ بُولَهُ.

(٢) سَنَّهُ عَلَيْهِ: صَبَّ عَلَيْهِ.

(٣) رواه مسلم (٢٨٥).

(٤) وَلَا كَهَرَنِي: أَيُّ مَا انْتَهَرَنِي، يُقَالُ: كَهَرَهُ: إِذَا زَبَرَهُ وَاسْتَقْبَلَهُ بِوَجْهِ عَابِسٍ.

(٥) رواه مسلم (٥٣٧)، وأبو داود (٩٣٠)، والنسائي (٣/ ١٤، ١٨).

ثُمَّ قَالَ: «أَحْسَنْتُ إِلَيْكُمْ»، قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: لَا، وَلَا أَجْمَلْتَ! فغَضِبَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ أَوْ أَنْ يَقُومُوا إِلَيْهِ، فَأَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ أَنْ كُفُّوا، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَلَغَ إِلَى مَنْزِلِهِ، دَعَا الْأَعْرَابِيَّ إِلَى الْبَيْتِ، فَقَالَ لَهُ: «إِنَّكَ جِئْتَنَا فَسَأَلْتَنَا فَأَعْطَيْنَاكَ، فَقُلْتَ مَا قُلْتَ»، فزاده رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئاً، فقال: «أَحْسَنْتُ إِلَيْكُمْ؟» فقال الأعْرَابِيُّ: نعم، فجزاك الله من أهلٍ وعشيرٍ خيراً، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكَ كُنْتَ جِئْتَنَا فَأَعْطَيْنَاكَ، فَقُلْتَ مَا قُلْتَ، وَفِي نَفْسِ أَصْحَابِي عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ؛ فَإِذَا جِئْتَ فَقُلْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَا قُلْتَ بَيْنَ يَدَيَّ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْ صُدُورِهِمْ»، قَالَ: فَلَمَّا جَاءَ الْأَعْرَابِيُّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ صَاحِبَكُمْ كَانَ جَاءَنَا فَسَأَلَنَا فَأَعْطَيْنَاهُ، فَقَالَ مَا قَالَ، وَإِنَّا قَدْ دَعَوْنَاهُ فَأَعْطَيْنَاهُ، فزعم أنه قد رضي، أكنذك؟» قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: نَعَمْ فَجزاك الله من أهلٍ وعشيرٍ خيراً. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مَثْلِي وَمَثْلَ هَذَا الْأَعْرَابِيِّ كَمَثْلِ رَجُلٍ كَانَتْ لَهُ نَاقَةٌ، فَشَرَدَتْ عَلَيْهِ، فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ، فَلَمْ يَزِيدُوهَا إِلَّا نَفُورًا، فَقَالَ لَهُمْ صَاحِبُ النَّاقَةِ: خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي؛ فَأَنَا أَرْفُقُ بِهَا، وَأَعْلَمُ بِهَا، فَتَوَجَّهَ إِلَيْهَا صَاحِبُ النَّاقَةِ فَأَخَذَ لَهَا مِنْ قَتَامٍ^(١) الْأَرْضِ، وَدَعَاها حَتَّى جَاءَتْ وَاسْتَجَابَتْ، وَشَدَّ عَلَيْهَا رَحْلَهَا وَاسْتَوَى عَلَيْهَا، وَلَوْ أَنِّي أَطَعْتَكُمْ حَيْثُ قَالَ مَا قَالَ دَخَلَ النَّارَ»^(٢).

- وعن عباد بن شرحبيل قال: أصابنا عامُ حَمْصَةٍ^(٣)، فَأَتَيْتُ الْمَدِينَةَ، فَأَتَيْتُ حَائِطًا مِنْ حَيْطَانِهَا، فَأَخَذْتُ سُبُلًا ففَرَكَتُهُ^(٤) فَأَكَلْتُهُ، وَجَعَلْتُهُ فِي كَسَائِي، فَجَاءَ

(١) القَتَام: كسحاب، الغبار.

(٢) قَالَ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ»: «رَوَاهُ الْبَزَّازُ، وَفِيهِ إِبرَاهِيمُ بْنُ الْحَكَمِ بْنِ أَبَانَ، وَهُوَ مَتْرُوكٌ» اهـ.
(١٦/٩، ١٧).

(٣) حَمْصَةٌ: جوع وقحط.

(٤) فَرَكَتُهُ: أَخْرَجْتَ مَا فِيهِ مِنَ الْحَبُوبِ.

صاحب الحائط فضر بني وأخذ ثوبي، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فقال للرجل: «ما اطعمته إذ كان جائعاً أو ساغباً ولا علمته إذ كان جاهلاً»^(١)، فأمره النبي ﷺ فرد إليه ثوبه، وأمر له بوسق^(٢) من طعام أو نصف وسق^(٣).

- وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال: «ادنه» فدنا منه قريباً، قال: فجلس، قال: «أتحبه لأهلك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لأهلك؟»، قال: لا والله، يا رسول الله، جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لبنائك؟»، قال: «أفتحبه لأختك؟»، قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم؟»، قال: «أفتحبه لعميتك؟»، قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم؟»، قال: «أفتحبه لخالتك؟»، قال: لا والله جعلني الله فداك، قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم؟»، قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحسن فرجه»، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء^(٤).



(١) أي إنه كان جاهلاً جائعاً، فاللائق بك تعليمه أولاً، بأن لك ما سقط، وإطعامه بالمساحة عما أخذ ثانياً، وأنت ما فعلت شيئاً من ذلك.

(٢) الوسق: مكيّلة معلومة، وهي ستون صاعاً، والصاع: خمسة أرتال وثلاث.

(٣) رواه ابن ماجه (٢٢٩٨)، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٢٢٢٩).

(٤) رواه الإمام أحمد (٢٢٢٦٥)، والبيهقي في «الشعب» (٢٩٥/٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٣٧٠).

النوع الثاني عشر

المقارنة بين الأطفال

يمرُّ الإنسان في حياته بمراحلٍ عُمريَّةٍ متعدِّدةٍ، تبدأ بالرضاعة، ثُمَّ الطفولة، إلى أن تنتهي إلى الشيخوخة، وهذه المراحل متصلة كالنسيج الواحد المتكامل، ويؤثر كلُّ منها فيما يليه من المراحل، لكن مرحلة الطفولة تُعدُّ من أهمِّ المراحل في رسم معظم معالم شخصية الطفل، ودور الأسرة في ذلك غاية في الأهمية.

ولا يولد طفل ومعه (صورة عن ذاته) ولكنه يكتسبها من خلال كيفية تعامل الآخرين معه، فهم المرأة التي يرى فيها صورة ذاته.

ومن الأساليب التربوية التي تطبع أثرًا ضارًّا على الطفل أسلوب المقارنة.

والمقارنة بين الأطفال: هي إحدى وسائل التربية الشائعة التي يلجأ إليها بعضُ المُربِّين بهدف توليد مشاعر الغيرة لدى الطفل، وبالتالي تحفيزه على محاكاة سلوك مرغوب لدى طفل آخر (النموذج)؛ بهدف غرسه فيه، أو التَّخْلِي عن سلوكٍ غير مرغوبٍ عن طريق مقارنته بآخر لا يأتي هذا السلوك، كي ينال إعجاب وتقدير من يقومون بهذه المقارنة.

وتشيعُ (المقارنة) في البيوت: بين الأبناء، والأقارب، والجيران، وفي المدارس: حيث يقارن بعضُ المعلمين الطفلَ بزملائه؛ إمَّا لتحفيزه -زعموا-، أو لإحراجِه وتخجيله.

من صور المقارنة:

- مقارنة نتائج التحصيل الدراسي بين الطفل وأقرانه الأكثر تفوقاً.
- مقارنته بصديقه الأكثر نشاطاً منه وحيوية وموهبة في مجال معيّن.
- مقارنته مع شقيقه أو شقيقته في بعض الخصائص السلوكية أو الجسدية^(١).
- ومن صور المقارنة: المقارنة الإيجابية حين يكون الطفل هو النموذج الأفضل بين أقرانه، فيُكّال له المديح المبالغ فيه من والديه، ورُبّما يصيبه الغرور، فيتكبر على أقرانه أو يتنمر عليهم.

ومعظم الناس لا ينتبهون إلى الآثار الضارة التي تطبعها (المقارنة) على نفوس الأطفال، ولذلك أفردنا هذا الفصل للتوعية بهذه الآثار مع ذكر الطريقة الصحيحة لتحفيز الأطفال دون عقد المقارنات بينهم.

المقارنة تصرف غير منصف:

من أسباب ثقة الطفل بنفسه أن يشعر بأنه محبوب (كما هو)، وأنه يتميز عن غيره في (بعض) الجوانب الإيجابية، وأن نجاحه ليس مرهوناً بأن يكون مثل فلان، وأنه ليس مطالباً أن يكون صورةً من غيره.

ومقارنة الطفل بغيره ليس فيها إنصاف؛ لأنها تقتصر على شيء يتفوق فيه طفل آخر على ولدك، مع تجاهل الأشياء والمهارات الأخرى التي يتفوق فيها ولدك عليه.

(١) كأن يُقارَن بعض الناس بين أختين مثلاً، فيسألوا إحداهما: «ألستما من أمٍّ واحدة؟ فلماذا بشرتُكِ داكنة وبشرة أختكِ بيضاء؟»، بل بلغ الجهل ببعضهن أن تقول للابنة: «لماذا أمُّكِ أجمل منك؟».

وأنت حين تقارنه تُسلطُ الضوء على نقاطٍ ضعفه، وعلى قوة الآخرين، وتقارن ابنك (ككل) بالآخر (الكامل في نظرك) مع أنه متميز فقط في وجه المقارنة، فإذا قارنته في كلِّ جانبٍ منه بعدة أشخاصٍ آخرين يتفوق كل واحد منهم في مجالٍ غير مجال الآخر، فإنَّ الأمر يبدو وكأنك تريده أن يكونَ (كاملاً) في كلِّ شيءٍ، ومن كلِّ النواحي، رغم أنَّك نفسك لستَ بكاملٍ.

الفروق الفردية بين الأطفال؛

لكلِّ طفلٍ شخصيته المستقلة، بخصائصها الجسدية والنفسية والعقلية، وقدراته، وإمكاناته، واهتماماته، وظروفه التي تُميِّزه عن غيره، فلا يُخلَق طفلٌ نسخةً طبق الأصل من غيره، بل كل واحدٍ يختلف عن الآخر، ويتميز عنه سواء في الكمبيوتر أو الرياضيات أو اللغات أو الرسم أو التحدُّث أو الذكاء الاجتماعي، أو القراءة، أو الرياضة البدنية، فهناك أنماط مختلفة، ولكن تنوعها لا يعني أن أحداً أفضل من الآخر.

فلا تطلبِ الكمال في أبنائك، وتذكَّر أنَّهم أطفالٌ، وأنَّ من حقِّهم اللعب والاستمتاع بطفولتهم كما أن واجبهم المذاكرة، ولا تركز على الجانب الأكاديمي فقط عند تقويم طفلك، ولكن فُتِّش عن نقاط قوته، وعزِّزها، وأثني عليه بها، ونقاط ضعفه للعمل على تحسينها دون مقارنته بغيره.

آثار المقارنة على الطفل ذاته

المقارنة تُعَرِّضُ الطفلَ للإجهاد النفسي؛

إنَّ الطفولة رحلة جميلة يستحقُّ الطفلُ أن يستمتعَ بها، وأن نحفر في ذاكرته أجملَ الذكريات عنها، لكنَّ المقارنة تُحوِّلُ هذه الرحلة إلى حلبة سباق محموم يتنافس فيها اللاعبون، ويتصارعون أيُّهم يفوز بالغلبة؟

وَتَعَرِّضُ الطِّفْلَ باستمرار للمقارنة بغيره يُلقِي على كاهله عبئًا ثقیلاً، يفوق طاقته النفسية والعقلية والجسدية، ويضعه تحت ضغط وتوتر دائمين مما يؤثر سلبًا على أدائه السلوكي والأكاديمي.

والمقارنة تُشعر الطفل بـ(التَّسَلُّط) النفسي عليه، فيُحَسُّ أنَّه مقيَّد بالخوف من حُكْمِ الوالدين عليه بالفشل أو العجز عندما يُقَارَن بالآخرين، ورُبَّما حاول أن يحرر نفسه من هذا القيد بتصرفاتٍ عكسية تجاه والديه وتجاه الأقران الذين يُقَارَن بهم.

إنَّ المقارنة تضعه في سباقٍ محموم مع شقيقه الأكثر ذكاءً ونشاطًا، أو زميله الذي يتفوق عليه في مهارة أو رياضة، الأمر الذي يكلفه ساعاتٍ مذاكرةٍ أو تدريبٍ أطول، مع توقُّعٍ مستمرٍ للإحباطات، وبخاصة إذا كانت قدراته ومواهبه أقل من الذين يُقَارَن بهم.

إنَّ المقارنة لا تؤدِّي إطلاقًا إلى النتيجة المرجوة من ورائها (وهي التحفيز من أجل ارتقاء مستوى الأبناء)، وربما تؤدِّي إلى نتائج عكسية.

أثر المقارنة في ضعف تقدير الذات (Low Self-esteem):

- إنَّ الطفل حين يشرع في عملٍ، ويبذل فيه طاقته ووقته كي يُتمَّه، فإنَّه ينتظر من المُربِّي أن يُقابل جهده بالتقويم الإيجابي وعبارات التشجيع التي تدعم ثقته بنفسه، فإذا لم يفعل المربي ذلك، بل عارضه بمقارنته بأقرانه وزملائه الذين تفوَّقوا عليه، فإنه بذلك يطبعُ فيه الشعور بالدُّونية (Inferiority)؛ إذ يرى نفسه أقلَّ مستوى منهم، وأنَّه عاجزٌ عن أن يكونَ مثلهم، وفاشلٌ في أن يجاريهم.

- ومقارنة الطفل بغيره تُضعِفُ تقديره لذاته، وتشككه في قدراته ومهاراته، ومع أنَّ واجبَ المُربِّي أن يُغذِّيَه بالثقة واحترام الذات، فإنَّ المقارنة تنال من ذلك نيلاً^(١)

إنَّ الكبارَ النَّاضجين ينفرون من مقارنتهم بغيرهم، فكيف بالصغار الذين يحتاجون لمن يدعم ثقتهم بأنفسهم، ويحسِّن صورة ذواتهم، وهم في الوقت نفسه ليس لديهم القدرة على مقاومة الآثار السلبية للمقارنة التي تُضعِف من إحساسهم بقيمة ذواتهم.

- والمقارنة تشعره بأنَّ والده لا يتقبله كما هو، وأنَّ حُبَّه إيَّاه مُهدَّد؛ لأنَّه يرى هذا الحبَّ مشروطاً بالتفوق، وأنه إذا لم يحقق توقُّعاتِ الوالدين -ولو كان فيها مبالغة بالنسبة إلى قدراته- فإنَّه يكون قد خذلها، وأصابها بخيبة الأمل، وبالتالي لن يفخرا بأنه ولدهما.

(١) ويَحْتَمِلُ أن يُبالغَ في مميزاته وعيوب الآخرين، كحيلةٍ نفسيةٍ دِفاعيَّةٍ (لا شعورية) يلجأ إليها كأسلوبٍ دِفاعيٍّ ضدَّ التقليل المستمر من شأنه من خلال المقارنة.

يقول خبير تربوي: «من الخطأ الربط بين مشاعر الحب تجاه طفلك ومدى الإنجاز الذي يقوم به، حتى لو أخطأ في بعض الأمور، أو سبب لك الحذلان والإحراج في موقفٍ مُعَيَّن، فيجب أن يكون شعورك بالحبِّ نحوه حاضراً دائماً، فهذا يعزز ثقة طفلك بنفسه، ويُحفِّزه على المحاولة من جديد.

لذلك فإنَّ من المهم منح التقدير والاحترام لطفلك خاصَّةً أمام الآخرين، فهذا التقدير سوف يُعزِّز الرُّوحَ المعنوية للطفل، ويُكسِّبُهُ الثقةَ بنفسه، ليحاول من جديد».

- ومن العواقب المحتملة للمقارنة السلبية: أن يُصاب الطفل بمشكلة (الكمالية - أو المثالية - التعجيزية) (Perfectionism)؛ لأنه إذا انخفض تقديره لذاته، فإنه لن يُقدِّر إنجازاته، ولن يرضى عنها، بل يستصغر ما يحققه من نجاحات، ويضخِّم فضائل الآخرين على حساب فضائله، ويندفع إلى الطموح المثالي (المستحيل) الذي لا يراعي القدرات، فيصبو إلى تحقيق «التفوق المطلق والكمال»، ومما يُعيقُه عن الحد الأدنى من الإنجاز، وكأنه يتبنَّى مبدأ: «كل شيء أو لا شيء»، كما أنه لا يتحمل أيَّ درجة من الفشل، وينسى أن «التَّحسُّن التدريجي أفضل من الكمال المُؤَجَّل» (Gradual improvement is better than delayed perfectionism) وأنَّ «تمَّ إنجازُه» خيرٌ من «مثالي يستحيل إنجازُه في الواقع» (Done is better than perfect).

المقارنة تقلل رغبته في تحسين ذاته،

لأنها قد تنتهي بالطفل إلى التوقف عن العمل؛ ليتجنب المقارنة المستمرة،
والمواقف المحرجة.

كما أنَّ المقارنة تُحجِّم موهبته، وتقتل طموحه، وتشل قدرته على الإبداع،
وتطفئ حماسه وشغفه بموهبته، أو بتحصيله الدراسي.

المقارنة قد تؤدي إلى (اللامبالاة)؛

المقارنة المستمرة قد تقود الطفل إلى حالة (اللامبالاة)؛ لأنه يرى أن والديه
يريان الآخرين دائماً أفضل منه، وعليه فلا فائدة تُرجى من أي مجهود يبذله طالما
أنهما لن يرضيا عنه بأية حال، وطالما أنه لن يلحق بالآخرين مهما حاول، وقد
ينتهي به هذا إلى فقدان (الدافعية) للإنجاز، وخُفوت رغبته في إسعاد والديه.

- يأتي الطفل فَرِحاً مسروراً ويخبر أمه أن ترتيبه على الفصل: الثالث، وبدلاً
من أن تبادله البهجة والفرح بإنجازه، تبادر إلى سؤاله: وماذا كان ترتيب فلان
وفلان من زملائه؟ مما يسبب له خيبة الأمل والإحباط.

- دأبت الأمُّ على مقارنة ابنتها (السمينة) بأختها (الرشيقة)، وبدلاً من
استشارة المختصين استمرت الأم في المقارنة والتوبيخ إلى أن أُحْبِطَت البنتُ
وَأَيِسَتْ من تكرار محاولات خفض الوزن، فقررت الهروب إلى الأمام، وهُرِغَتْ
إلى ازدراد كمِّيَّاتٍ ضخمة من الطعام بشراهة ودون مبالاة.

تحفيز أم تعجيز؟

معظم الآباء حين يقارنون أولادهم بالآخرين يريدون بهم خيراً، وأن يكونوا أفضل من الآخرين، ويتوهمون أن هذه المقارنة تُحفّزهم وتشجعهم على الاجتهاد والتنافس معهم والتفوق عليهم، والذي يحدث هو نقيض ذلك، حين يشعر الطفل بالعجز عن اللحاق بأقرانه.

إن التحفيز هو شحذ الهمة بالتشجيع والمكافأة، فكيف يعقل أن يتم التحفيز بالنقد وذكر مواطن الضعف أو التعبير بها؟!

- كانتِ الأمُّ تضربُ طفلها بسبب سوء خطّه، وتقول له دائماً: «ألا ترى خطأً زميلك الجميل؟» وهي تريد التحفيز، فانقلب تصرّفها إلى تعجيز، إذ ازداد خطأ ابنها سوءاً بسبب المقارنة.

آثار المقارنة على علاقة الطفل بالآخرين:

نحن -البشر- لا نستطيع أسلوب المقارنة عامةً، وتولد لدينا بسببه مشاعرُ سلبيةٌ؛ لأن المقارنة تُذكّرنا بمواطنِ ضعفنا أو فشلنا ونُجسّدُها أمامنا.

أمّا الأطفال فإنهم -بالإضافة إلى أنهم يُحسّون بالمشاعرِ نفسها- فإنهم يخبرون -بسبب المقارنة- مشاعر أشد سلبية وأبعد أثراً.

١- إنَّ الطفل يُفكّرُ بطريقةٍ بسيطةٍ لا تمكنه من أن يُدركَ أن هدفك من المقارنة تحفيزه على التفوق والنجاح، ولأنه غافل عن نيتك الحسنة هذه يرى أنّك لا تُحبّه ولا ترضى عنه، ولا تقف إلى جانبه؛ لأنه خيَّبَ أملك فيه، بل صارَ

مصدرَ حَرَجٍ لك؛ بسبب عجزه عن مجاراة الآخرين، فمن ثمَّ يسعى للانفصال وجدانيًّا ونفسيًّا عن الوالدين، ويزداد بُعْدُهُ عنهما كُلِّمَا تَكَرَّرَتِ المقارنات.

إنَّ الانعزال عن الوالدين يمنحُ الطفلَ مسافةً فاصلةً تُؤمِّنُ له النجاة من النقد والمقارنات.

٢- ومقارنة الطفل بغيره لا تُنتج لديه حماسًا كي يفعلَ مثله؛ لأنه -في موقف المقارنة وسياقها- لا ينظر في مهارات الطفل الآخر بقدر ما يركز على المشاعر العدوانية تجاهه، فتشتعل في قلبه نارُ الغيرة المرضية؛ لأنَّ هذا الذي تفوَّقَ عليه لفتَ الأنظار بعيدًا عنه، وحرمه محبة الآخرين وتقديرهم.

قال أحدهم وهو يجتُرُّ ذكرياته مع المقارنة مخاطبًا صديقه: «غفر الله لأبي؛ كنتُ عندما آتية فَرِحًا بشهادتي التي تزينها الدرجاتُ العالية، كان يبادرني سائلًا: «وماذا فعل فلان وفلان؟» فإذا كانت درجاتي أقلَّ منهم وبَّخَنِي، وأضاع عليَّ فرحة النجاح والتفوق، ولا أخفيك سرًّا أن هذا زرع في نفسي شيئًا من البغض والحسد لقرنائي المتفوقين، وتولَّد لدي إحساسٌ بأنهم سرقوا مني فرحتي».

٣- وقد تتطور الغيرة على المدى البعيد إلى الكراهية والعدوان والتنمر من أجل الانتقام، فكأنَّك بالمقارنة صنعتَ له أعداءَ ينفر منهم، ويتجنَّب الاختلاط بهم أو يعاديهم؛ لأنهم يُذكِّرونه بنقطة ضعفه.

يقول أحدهم: «أنا الآن متزوِّجٌ ولدي طفلٌ، لكن إلى الآن أذكرُ كلامَ أبي عندما كان يقارنني بابن عمِّي حينما كنتُ صغيرًا، صرْتُ أكرهه وما زلتُ، وأكرهه أيَّ مجلسٍ قد يجمعني به».

٤- وتكون نتيجة المقارنة أسوأ إذا تمت بين الأشقاء؛ لأنها تُفَرِّق بين المرء وأخيه، إذ تُوْغِرُ صدورَهم، وتدمر علاقتهم ببعض، وتخلق جَوْاً مشحوناً قد تمتدُّ آثاره بعدَ مرحلة الطفولة، وقد ينتهي بعداواتٍ في الكِبَرِ، أو بقطيعة الرحم. تقول إحدى ضحايا المقارنة: «أمي جعلتني أكره شقيقتي؛ لأنها تطالبني أن أصبحَ مثلها، سأخبرك بِسِرٍّ: لقد قطعتُ الكثيرَ من فساتينها، وأخفيتُ بعضَ مجوهراتها نكايَةً وحقداً».

٥- وقد تنتج المقارنة شخصاً حَسوداً يُرَكِّزُ على ما يوجد لدى الآخرين من نجاحاتٍ يفتقدُها، وربما تمنى زوالَ النعمةِ عنهم، وحصولَ الشرِّ لهم، قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [النساء: ٥٤].

لا تقارن بين الجيلين؛

يحاول بعضُ الآباء تحفيز أبنائهم عن طريق المقارنة الدائمة بين جيلهم وجيل الأبناء:

- «حين كُنَّا في مثل عمرك كُنَّا ننجز كذا وكذا».

- «في أيامنا كُنَّا لا نعرفُ شيئاً اسمه اللعب».

وهذه المقارنة تستدعي في ذهن الابن أن أباه (يحكم) عليه بالفشل أو التقصير، وأنَّ حظه العاثر هو الذي حرّمه من أن يلتحق بهذا الجيل (المثالي) الذي يحكي عنه الأب، كما أنَّ تكرار هذا النوع من (الحُكم) والمقارنة قد يصيبه بالملل والتوتر.

هناك فروقٌ بين الأجيال، وكُلُّ جيلٍ له ما له، وعليه ما عليه، ولكل جيلٍ ظروفه، فالجيل السابق كان أيضًا (محظي) بقدرٍ لا بأس به من العيوب، وإلى جانب ذلك لم يدرك ثورة المعلومات، ولا تقنية الحاسب الآلي والهاتف المحمول .. إلخ.

والجيل السابق لم يتعرَّض لِكَمِّ الإحباطات والصراعات والضغط المعيشية التي يتعرَّض لها الجيل الحالي.

فيا أيُّها المربي، افهم طبيعة هذا الجيل وظروفه، ولا تكرر مقارنتك المملة بين إنجازاتك وإنجازات أبنائك، فهم لن يكونوا (نُسخة) مكررة منك؛ لأنهم وُلِدُوا في زمنٍ مختلف، ولهم اهتماماتهم واختياراتهم وقدراتهم التي يجب علينا أن نُنمِّيها، لا أن نجبرهم على أن يكونوا امتدادًا لجيلنا.

إنَّ الأحكام المبنية على الأعراف تتبدَّل بتبدُّل الأزمان، وما يحدُّ من أعراف، أما ثوابت الدين العقديَّة والتعبديَّة والأخلاقيَّة والتشريعيَّة فإنها تظلُّ بمنأى عن تغيُّر أنماط الحياة وأساليبها المتجددة، ويجب علينا أن نعص عليها بالنواجذ، ونتمسك بها مهما زادت غربة الدين.

ركز على تصحيح الخطأ بدون مقارنة؛

- اجعل حوارك مع الطفل موجَّهًا إلى وصف وتحديد خطئه أو تقصيره، ثم كيفية علاجه وتصويبه بعيدًا عن مقارنته بالآخرين.

- شجعه على تحسين مستواه، وتوظيف إمكاناته وقدراته؛ لأن الله أعطاه القدرة على ذلك بنفسه، وليس لأنَّ فلانًا قدر على ذلك.

قارن ولدك بنفسه:

مقارنة ولدك بغيره تصرف غير منطقي، لكن المنطقي الذي يُحَفِّزُه على تحسين أدائه هو أن تقارنه بنفسه، وهنا حالتان:

الأولى: أن تُبْرِزَ له تَقَدُّمَ مستواه عن ذي قبل، ففي أوَّلِ العام الدراسي مثلاً كان خطُّه في الكتابة سيئاً، فقارن مستواه حينذاك بما وصل إليه في آخر العام من تحسُّن ملحوظ بسبب نمو قدراته والتدريب المستمر على تحسين الخط.

الثانية: إذا نجحت في أن تجعله يرسم لذاته صورة إيجابية، فما عليك -إذا أخطأ أو تهاون- إلا أن تقارنه حينذاك بتلك الصورة التي رسَّختها فيه من قبل:

- كيف كان؟

- وكيف أصبح الآن؟

- وما ينبغي أن يكون عليه في المستقبل.

١ - فبدلاً من أن تقول له: لماذا لم تحصل على الدرجة النهائية مثل زميلك فلان؟ قل له: «هل أعاقك شيءٌ عن تحقيق درجة عالية كما تعودنا منك؟»، أو: «لقد بذلت جهداً رائعاً في المذاكرة، فما السبب وراء هذه النتيجة؟»، أو: «أشك أن هذه الدرجة هي درجتك الحقيقية، يبدو أن هناك خطأ ما، وأنا واثق أنك ستستدرك هذا، وتوفَّق بإذن الله في المرة القادمة».

٢ - وبدلاً من أن تقول له: «انظر إلى زميلك فلان كيف أنه يحافظ على نظافة ملابسه»، قل له: «أنت معروف بين الجميع بنظافة ثيابك، فكيف اتَّسَخَتْ ثيابك بهذا الشكل؟».

٣- إذا أخفى عليك شيئاً مما ينبغي أن يخبرك به، فلا تقل له: «انظر إلى صديقك فلان كيف يفعل كذا وكذا»، ولكن قل له: «أنت معروفٌ بصراحتك وطبعك الواضح، فلماذا أخفيت عني هذا؟ ومع ذلك فهذه زلة لا أتوقعها منك، فيجب أن لا تكرر ذلك».

وهكذا تُركّز على أن يكون مشغولاً بشأنه (عليك نفسك)، ولا دخل له بالآخرين، فالناجحون يُركّزون على عيوبهم ليعالجوها، ونقاط القوة لديهم ليستثمروها، وقد قال رسول الله ﷺ: «من حُسن إسلام المرء تزكُّه ما لا يعنيه»^(١).

جدول قياس الإنجاز:

إذا أردت تشجيع ولدك، فعلمه كيف ينافس نفسه دون أن تقارنه بغيره، ودون أن تربط عمله بعمل غيره.

ويمكن أن يتم ذلك بأن تصمّم له (جدول قياس الإنجاز)، تحدد فيه المهام المطلوب منه إنجازها خلال الأسبوع التالي -مثلاً- بشرط أن تكون واقعية، وفي حدود قدراته بدون مبالغة ولا تعجيز، ثم تكرر ذلك في الأسبوع الذي يليه، واجعله يقارن إنجاز هذا الأسبوع بإنجاز الأسبوع الذي قبله، ويمكن أن يتم ذلك بشكل شهري.

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الترمذي (٢٤٣٣)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (١٨٨٦).

العبرية استثناء:

من المفيد لأبنائنا أن نُقْصَّ على أسماعهم قصصَ العباقة الأفاذا؛ كي نُحَفِّزَهُم ونُشَجِّعَهُم، ونُؤَكِّدَ لَهُم قُدْرَةَ الإنسان على تحقيق ما يصبو إليه إذا استعان بالله، ووظفَ موهبته، وحوَّلَ ظروفه إلى صالحه، ولكن علينا الحذر من المبالغة والغلو في ذلك إلى حد إشعارهم بالعجز، لا سيما إذا ظللنا نكرر - عند كل إخفاق لهم - عقد المقارنات بين أبنائنا وبين هؤلاء العباقة، ومقدار ما أنجزوه مبكرًا في حياتهم؛ لأن (العبرية) تظلُّ حالةً استثنائيةً فردية محكومة بظروفها التي أفرزتها، وحسبنا أن نشحذَ هِمَمَهُم؛ كي يبذلوا ما في وسعهم طبقًا لمكاناتهم وظروفهم.

كيف تُحَفِّزُ طفلك دون أن تقارنه بغيره؟

١- لا بُدَّ من استبصار الآباء بأضرار المقارنة، وأن يكون لديهم (وعي ذاتي) يراقبون به مسالكهم التربوية مع أبنائهم، بحيث تُفحص هذه المسالك باستمرار، وتخضع للمراجعة وإعادة التقييم، والتصحيح أولاً بأول.

٢- أقوى ما يحفز الأطفال على الإنجاز هو وجود علاقة وثيقة ورابطة متينة تربطهم بأبائهم، وتُؤمِّنُ لهم الحب غير المشروط (بالتفوق على الآخرين)، والتقدير والمشاركة الشعورية والاهتمام بهم، والإنصات لهم؛ لأنَّ الاتصال يأتي قبل التصحيح (Connection before correction).

٣- لا تنظر إلى طفلك على أنه (مادة) للتباهي و(موضوع) للمفاخرة الاجتماعية، فتُحمَلَه في سبيل ذلك فوق طاقته، وتُرهِّقَه من أمره عُسراً، بل

احترم ذاتيته، وامنحه بعض الاستقلالية، وأنصت له، وحاوره، وساعده على اتخاذ القرار الصائب.

٤- لا يولد الأطفال متمتعين بكل المواهب والقدرات والصفات والمهارات، وإنما يعطي الله هذا ما لا يعطي لغيره، وكل طفل لديه ما يمتاز به على حدة، فلا بد للمربي من أن يُراعي الفروق الفردية بينهم، ويكتشف ما اختص به كل واحد من مكامن القوة والموهبة، ويوجهه لتنميتها واستثمارها.

٥- إذا أثبتت على أطفالك بالمدح التشجيعي فلا تقارن بينهم في وجه المقارنة نفسه، ولكن امدح كلاً منهم بما اختص به من موهبة دون غيره، ففلان بارع في اللغة العربية، وفلانة متميزة في الرياضيات، وفلان صوته بالقرآن الكريم جميل، وهكذا.

٦- إذا تبين لك ضعف مستوى ابنك في مادة معينة فلا تعيظه بذلك، ولا تقارنه بغيره، ولكن قدم له الدعم الكافي الذي يحسن به مستواه ويقهر ضعفه.

٧- كن واقعياً في توقعاتك من ابنك حين تقوم إنجازاته، ولا تضغط عليه لكي ينجز إنجازاً يفوق قدراته وإمكاناته.

٨- احذر أن تفرض عليه هواية أو نشاطاً لا يتماشى مع اهتماماته، ولا يميل إليه، لكن دعم موهبته التي يتمتع بها، فإنك إذا رفضت موهبته وفرضت عليه غيرها، فإن موهبته لن تنمو بل ستتضاءل، وقد يفشل في الأخرى التي فرضتها عليه.

٩- إذا كان يزوركم ضيوف من أقارب أو جيران، وأنت تعلم أن من عاداتهم إذا زاروك أن يخوضوا في مقارنة طفلك بغيره، فقم بتوعيتهم -فيما بينك وبينهم- بالعواقب السلبية لهذه المقارنة، واطلب منهم أن يتجنبوا ذلك في حضور أولادك.

ماذا لو قارن الطفل نفسه بغيره؟

١- قد يبدأ الطفل في مقارنة نفسه بالآخرين، وربما بدأ يطلب مقتنيات غير مرغوبة أو باهظة الثمن؛ وقد يكون سبب ذلك ليس أنه يريد أن يجاريهم في مستواهم المادّي، ولكنه يريد أن يحظى باهتمام الوالدين عن طريق إثارة الموضوع، ويأخذ وقتاً أكثر معهما، وأن يكون ضمن خريطة شؤونهما اليومية، ومثل هذا إذا حاز الاهتمام والرعاية تزول طلباته المكلفة تلقائياً.

٢- وقد يقارن نفسه بمستوى زميله المتفوق عليه دراسياً، فعليك حينئذ أن تُبيّن له أن مستوى الآخرين ليس هو ما يعينك، وأن كل ما يهملك هو إنجازة الشخصي فحسب، وأنك تريد منه بذل طاقته قدر استطاعته بغض النظر عن ترتيبه بين زملائه.

٣- أما إذا كان يقارن بين المستوى المادي لأسرته وأسرته زميله، فإنّ محتوى الحوار معه ^(١) يختلف باختلاف مرحلته العمرية:

- فإن كان عمره بين (٤ إلى ٦ سنوات)، فعليك أن تشرح له فكرة تفاوت طبقات الناس شرحاً مبسطاً، وأن لكل أسرة أولويات مادية في حدود إمكانياتها.

(١) وعلى الوالد أن يعلم أن هذا الحوار يحتاج إلى مثابرة وتكرار إلى أن يستوعب الطفل أنه ليس كل ما نراه في أيدي الآخرين يمكننا أن نمتلكه، ولا يتمّ غرس هذا المفهوم من المرة الأولى.

مثال: إذا طلب زيادة مصروفه اليومي لجاري زميله الثري الذي يستمتع بشراء مأكولات مرتفعة الأثمان، فعليك أن تُلَبِّيَ رغبته في حدود استطاعتك، وأن تخبره أن الحياة تقوم على رعاية الأولويات، وأن لديك مسؤولية تجاه سائر أفراد الأسرة.

- أمّا إذا كان مُمَيِّزًا تجاوز عمره السّتّ السنوات:

فحدّثه عن حكمة الله تعالى؛ إذ رفع الناس بعضهم فوق بعض درجات، وأنّ على الإنسان أن يرضى بما قسم الله له من رزق، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «قد أفلح من أسلم، ورُزِقَ كفافًا، وقنّعه الله بما آتاه»^(١).

وأنّ الغنى الحقيقي هو غنى النفس:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس الغنى عن كثرة العَرَض، ولكن الغنى غنى النفس»^(٢) والعَرَض: متاع الدنيا.

وأنّ التنافس الذي أمرنا به في قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ (المطففين: ٢٦) هو التنافس في معالي الأمور، ومنازل الجنة.

أمّا التنافس في الدنيا فقد نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: «ولا تنافسوا».

ورُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»، ومفهومه: الحث على النظر إلى من هو فوقنا في الدين والطاعة^(٣).

(١) رواه مسلم (١٠٥٤).

(٢) رواه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

(٣) انظر: «علو الهمة» للمؤلف (ص ٩، ٥٤٠).

وقد خاطب الله سبحانه أحبَّ خلقه إليه ﷺ فقال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، ذكَّره بأنَّ هناك نعمًا أعظم قيمةً من المال، كنعمة الإسلام والإيمان، ونعمة حياة الوالدين، ونعمة العافية والصحة، وأنَّ الحياة مليئة بأناسٍ أقل من مستوانا المادي، ويتمنون أن ينعموا بمثل ما أكرمنا الله به من نعم، وقد يعينك على تجسيد هذه المعاني أن تصحبه لعيادة المرضى في المستشفيات، أو تتجول به في الشوارع ليرى أحوال المبتلين والمحرومين؛ كي يُدركَ عِظَمَ نعمة الله عليه ويشكرها^(١).



(١) انظر: «العافية» للمؤلف (ص ١٤-١٩)، (ص ٤١-٤٥)، (ص ٦٠-٦٨).

النوع الثالث عشر العقاب بالهجر الطويل

الهجر: ضد الوصل، ومعناه الترك والإعراض والتغافل والقطيعة.

قد يلجأ بعض الآباء إلى عقاب الأبناء بهجرهم وقطع التواصل معهم أو تقليله لفترة قصيرة^(١)؛ تعبيراً عن اعتراضهم على سلوكهم، والصورة المرفوضة تربوياً لهذا النوع من العقاب هي الهجر الذي يمتد طويلاً؛ لأنه:

- أسلوب هروبي تجنبني لا يحل المشكلة، وقد يزيدها.
- فيه جفاء وجداني، ويُحدث فجوة عاطفية بين الطرفين، ويكون مشاعر سلبية تجاه الأهل.
- يشعره بالرفض وعدم القبول.
- يشعره بالذنب.
- يحرم الولد من فهم السلوك الصحيح بعقلانية.
- قد يجد الابن في الهجر فرصة للانفلات السلوكي دون ضوابط لغياب رقابة الأهل.

- يمتص الابن هذه الطريقة ويقتدي بها حين لا يعجبه سلوك غيره، ويصبح الهجر الممتد أسلوبه في التعبير عن عدم الرضا، وهذا يشبه (الصمت العقابي)^(٢).

(١) والهجر المحدود المدة يعطي الابن فرصة للخصوصية بحيث يراجع نفسه، ويفكر في عواقب سلوكه.

(٢) انظر: (ص ٥٥٨).

- قد ينقلب إلى عناد - وبخاصة من المراهق - فيتعمد تكرار السلوك الخاطئ.

ويختلف استعمال الهجر مع الكبار عنه في الصغار من حيث المدة، والسبب، فأقصى مدة للهجر في الكبار بسبب دنيوي ثلاثة أيام لما رواه أبو أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجَرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا، وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ»^(١).

والحكم على فاعلية الهجر يتوقف على المصلحة التربوية:

- فإن كان مُفْسِدًا للأبناء، فلا يُستعمل.

- وإن كان يردعهم عن السلوك السيئ، فإنه يستعمل لمدة وجيزة، وذلك لأنَّ (تصرف المربي منوط بمصلحة من يريه).



(١) رواه البخاري (٦٠٧٧)، ومسلم (٢٥٦٠)، وغيرهما.

الرابع عشر

معاقة الطفل بمثل عمله

يلجأ بعض الآباء إلى معاقة الطفل بأن نحاكي فعله، ونرد عليه بالمثل، كقوله مثلاً لطفله الذي يضربه: «إذا ضربتني أضربك، كي تحسَّ كم هذا مؤلم»، أو: «إذا عضضتني عضضتُك».

وهذا الأسلوب لن يعلم الطفل السلوك السليم.

ورد الفعل المقبول هنا: أن نذكِّره بالقاعدة: «الضرب خطأ، والعض خطأ، ولذلك لا أتركك تضربني، ولا أسمح لك أن تضربني؛ لأنَّ هذا غير لطيف، والصحيح أن تعامل أمَّك بلطف». كل هذا بنبرة صوتٍ حازمة، وتعبيرات وجه جادة وصارمة بدون رفع صوت أو عصبية.

وتمسك يده بحيث تمنعه من الضرب، فتكون كالحارس الشخصي الذي يستخدم يديه ليحجب الضربات؛ لأنه أقوى من الضارب.

ثم تقول له: «إذا أردت أن تضرب، فاضرب الكرة».

أو: «إذا أردت أن تعض، فعضَّ التفاحة».



الخامس عشر

عقاب الطفل بشيء إيجابي (تكرار العبادة)

على المربي أن يتجنب العقاب بأمر إيجابي؛ لأنه قد يُبغضه إلى الطفل، وينفره منه بسبب ربطه إياه بالألم الذي يسببه العقاب.

- فلا تقل لصبيٍّ أَخْلَ بوزِّه من حفظ القرآن الكريم (كأن يكون وجهًا من المصحف الشريف مثلاً): «عقابك على هذا التقصير أن تحفظَ غداً جزءاً كاملاً من القرآن الكريم».

- ولا تعاقب من قصَّر في إنجاز واجبه المدرسي بأن تقول له: «كُرِّرْ كتابةَ الدرس خمسين مرةً مثلاً».

- ولا تعاقب طفلك بأن تقول له: «عقابك أن تستيقظ لقيام الليل لمدة ساعة مثلاً»؛ لأن هذا من شأنه أن ينفره مما عوقِبَ بفعله^(١).

روى الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللهُ عَنْ أَبِي الْقَاسِمِ الْبَغَوِيِّ، سَمِعْتُ عُبيدَ اللهِ الْقَوَارِيرِي، يَقُولُ: لَمْ تَكُنْ تَكَادُ تَقُوتُنِي صَلَاةَ الْعَتَمَةِ^(٢) فِي جَمَاعَةٍ، فَنَزَلَ بِي ضَيْفٌ، فَشَغِلْتُ بِهِ، فَخَرَجْتُ أَطْلُبُ الصَّلَاةَ فِي قِبَائِلِ الْبَصْرَةِ، فَإِذَا النَّاسُ قَدْ

(١) ومن ثم سأل طفل يعاقبه والده بمثل هذا صديقه: «أبوك يصلي؟» فأجابه: لا، فقال الابن: «يا ليت والدي كان كافرًا مثل والدك!».

(٢) أي صلاة العشاء، انظر: «تحفة المودود» (ص ٥٤)، و«زاد المعاد» (٩/٢)، و«فتح الباري» (٤٤/٢).

صَلُّوا، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: يُرَوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: «صَلَاةُ الْجَمِيعِ تَفْضُلُ عَلَى صَلَاةِ الْفَدَى إِحْدَى وَعَشْرِينَ دَرَجَةً»^(١). وَرُوِيَ: «خَمْسًا وَعَشْرِينَ دَرَجَةً» وَرُوِيَ: «سَبْعًا وَعَشْرِينَ»^(٢)، فَانْقَلَبْتُ إِلَى مَنْزِلِي، فَصَلَّيْتُ الْعَتَمَةَ سَبْعًا وَعَشْرِينَ مَرَّةً، ثُمَّ رَقَدْتُ فَرَأَيْتَنِي مَعَ قَوْمٍ رَاكِبِي أَفْرَاسٍ، وَأَنَا رَاكِبٌ فَرَسًا كَأَفْرَاسِهِمْ، وَنَحْنُ نَتَجَارَى، وَأَفْرَاسُهُمْ تَسْبِقُ فَرَسِي، فَجَعَلْتُ أَضْرِبُهُ لِأَلْحَقَهُمْ، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ أَخْرَهُمْ، فَقَالَ: لَا تُجْهِدْ فَرَسَكَ، فَلَسْتُ بِلَا حِقْنَ. قَالَ: فَقُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: لِأَنَّا صَلَّيْنَا الْعَتَمَةَ فِي جَمَاعَةٍ»^(٣).

فَهَذَا عَاقِبُ الْقَوَارِيرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ صَلَّى الْعِشَاءَ سَبْعًا وَعَشْرِينَ مَرَّةً، وَهَذَا الْاجْتِهَادُ مِنْهُ رَحِمَهُ اللَّهُ لَا يَصِحُّ، وَلَا يَجُوزُ الْاِقْتِدَاءُ بِهِ فِيهِ، بِأَنَّهُ تَعَاقَبَ مِنْ قَصَرَ فِي حُضُورِ الْجَمَاعَةِ بِأَنَّهُ يَعِيدُهَا سَبْعًا وَعَشْرِينَ مَرَّةً.

- لِأَنَّ صَلَاةَ الْفَرِيضَةِ لَا تُصَلَّى فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً.

عَنْ سَلِيمَانَ مَوْلَى مَيْمُونَةَ، قَالَ: أَتَيْتُ عَلَى ابْنِ عَمْرٍ وَهُوَ بِالْبَلَاطِ^(٤)، وَالْقَوْمُ يَصْلُونَ فِي الْمَسْجِدِ، قُلْتُ: مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَ النَّاسِ، أَوِ الْقَوْمُ؟ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تَصَلُّوا صَلَاةً فِي يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ»^(٥).

(١) لم يرد في الحديث «إحدى وعشرين درجة».

(٢) انظر: «فتح الباري» (٢/ ١١٠، ١١١).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٤٤٤).

(٤) البلاط: موضع بالمدينة مُبْلَطٌ بالحجارة بين مسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين سوق المدينة.

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٤٦٨٩)، وأبو داود (٥٧٩)، والنسائي (٢/ ١١٤)، وابن حبان

(٢٣٩٦)، وغيرهم، وحسنه الشيخ شعيب رَحِمَهُ اللَّهُ.

- لكن من صلى فريضة، ثم صلاها ثانية مع جماعة أخرى بنية النافلة، فلا حرج؛ لما رواه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كيف بكم إذا أُمر عليكم أمراء يُصلون الصلاة لغير ميقاتها؟»، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك يا رسول الله؟ قال: «صل الصلاة لميقاتها، واجعل صلاتك معهم سُبحَةً»^(١).
والسُّبحَة: النافلة.

والنوافل هي السبيل لجبر الخلل في الفرائض.

- أمّا معاقبة الصبي بإعادة الصلاة سبعا وعشرين مرة فإنه تنفير له من هذه العبادة العظيمة، وربما احتال كي يكذب عليك فرارًا من تنفيذ هذه العقوبة، عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا بعث أحدًا من أصحابه في بعض أمره، قال: «بَشِّرُوا وَلَا تُنْفَرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»^(٢).



(١) رواه الإمام أحمد (٥/ ٢٣١، ٢٣٢)، وأبو داود (٤٣٢)، والنسائي (٢/ ٧٥، ٧٦)، وابن ماجه (١٢٥٥)، وابن حبان (١٤٨١)، وقال الشيخ شعيب: «إسناده صحيح على شرط الصحيح».

(٢) أخرجه مسلم (١٧٣٢).

السادس عشر

عقاب الطفل بإتلاف ممتلكاته

الأصل في الشريعة الحفاظ على الممتلكات المباحة، وعدم تعمد إتلاف المال المتقوّم؛ لأنّ هذا من (إضاعة المال) وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»^(١).

وقد يغضب الوالد من ولده فيعاقبه بتحطيم ما يُشغله عن دراسته وبخاصة أجهزة المحمول و(اللاب توب)، و(الآي باد)، والكمبيوتر، ونحوها.

وهالك أمثلة واقعية:

- أمّ تقول إنّ الهاتف المحمول هو منبع الشرور والخلل في حياة ابنها، فقامت بتحطيمه على جذع شجرة.

- أجبر الأب ابنه -لأنه رسب في الدراسة- على أن يحطم بنفسه جهاز الألعاب بمطرقة ثقيلة، وصوّر هذا، ونشره على وسائل التواصل الاجتماعي.

- أتلف أبٌ جهاز (اللاب توب) الخاص بابنه عن طريق إطلاق عشر رصاصات عليه، وصوّر ذلك، ونشره على وسائل التواصل.

فإذا كان اقتناء بعض هذه الأجهزة مفروضاً ولا مناص منه لأغراض التعليم وغيره، فلن يجدي تحطيمها ثم شراء غيرها، وواجب الآباء حينئذٍ ترشيد

(١) رواه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابْنُ حَبَّانٍ في «صحيحه» (٥٧٢٠)، وحسّنه الشيخ شعيب على شرط مسلم.

استعمال أبنائهم لهذه الأجهزة ورقابتهم لحمايتهم من استهلاك الوقت، ومن الوصول إلى ما يضر دينهم وأخلاقهم، وأن يُحدّد لهم وقتًا لاستعمالها، مع استعمال برامج حماية الأطفال من المواقع غير اللائقة، ومن أفضلها: (Norton Family).



النوع السابع عشر إياك والظلم في العقاب

أهمية العدل في العقاب:

إن العدل أصل من أصول الشريعة الإسلامية، وهو نقيض الظلم، وقد أمر الله تعالى بالعدل، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ الآية [النحل: ٩٠]، وقال سبحانه: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْمَقْسُطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَكَّلُوا»^(١)

وقال الله -تعالى-: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨]. وعن أبي ذر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا...»^(٢).

وعن جابر رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ

ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

ولما أخبر النعمان بن بشير رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ أُعْطِيَ وَلَدَهُ مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَةَ عَطِيَّةً، وَطَلَبَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ

(١) رواه مسلم (١٨٢٧) - واللفظ له - والنسائي (٨ / ٢٢١، ٢٢٢).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٨).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا»، قَالَ: لَا، قَالَ: «فَاتَّقُوا اللَّهَ، وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ»، قَالَ: فَرَجَعَ، فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ^(١).

وعن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «سَوُّوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ فِي الْعَطِيَّةِ، فَلَوْ كُنْتُ مُفَضَّلًا أَحَدًا، لَفَضَّلْتُ النِّسَاءَ»^(٢).

وعن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَجُلٌ جَالِسٌ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجَاءَهُ ابْنٌ لَهُ فَأَخَذَهُ، فَقَبَّلَهُ، ثُمَّ أَجْلَسَهُ فِي حِجْرِهِ، وَجَاءَتْ ابْنَةٌ لَهُ، فَأَخَذَهَا إِلَى جَنْبِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا عَدَلْتُ بَيْنَهُمَا؟»^(٣)، يَعْنِي: بَيْنَ ابْنِهِ وَابْنَتِهِ فِي تَقْيِيلِهِمَا.

وَاجْتَمَعَ أَصْحَابُ الرَّأْيِ وَأَصْحَابُ الْحَدِيثِ عَلَى بَابِ أَبِي يُوسُفَ -تَلْمِيزُ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ (ت ١٨٢هـ)-، فَطَلَبَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ الدَّخُولَ إِلَيْهِ أَوَّلًا، فَأَشْرَفَ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يَأْذَنْ لَفَرِيقٍ مِنْهُمْ، وَقَالَ: «أَنَا مَعَ الْفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا، وَلَا أَقْدِمُ فَرَقَةً عَلَى فَرَقَةٍ، وَلَكِنِّي أَسْأَلُ الْفَرِيقَيْنِ عَنْ مَسْأَلَةٍ، فَأَيُّهُمَا أَصَابُوا دَخَلُوا»^(٤)، وَأَمَلَى عَلَيْهِمْ مَا أَرَادُوا، فَلَمَّا فَرَّغُوا، دَخَلَ الْفَرِيقُ الثَّانِي، وَبَذَلَ لَهُمْ مَا أَرَادُوا مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ.

(١) رواه البخاري (٥/ ٢١٠، ٢١١ - فتح)، ومسلم (١٦٢٣)، وغيرهما.

(٢) قال الحافظ ابن حجر: «أخرجه سعيد بن منصور، والبيهقي من طريقه، وإسناده حسن» اهـ. من «فتح الباري» (٥/ ٢١٤).

(٣) رواه البرز، وابن الأعرابي، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (٢٨٨٣)، (٢٩٩٤).

(٤) «مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه» للذهبي (ص ٢٨).

وقد ذكر التربويون بعضَ التوجيهات للمدرسين؛ كي يحققوا العدل بين تلاميذهم، فقال:

«- انظر إلى جميع أفراد الفصل.

- لا تمنع نفسك من النظر إلى الطلبة.

- لا توجه اهتمامًا خاصًا لأي فرد من أفراد الفصل (إلا لسبب تربوي).

- لا تُفرِّق بين الطلبة في المعاملة.

- لا تركز اهتمامك على الطلبة الممتازين، وتهمل بقية الطلبة.

- انظر مباشرةً إلى الأفراد في جميع أرجاء الفصل، وهذا يتطلب وقوفك في

مكان مناسب»^(١).

إنَّ الطفل يستحسن بفطرته العدلَ ويحبه، ويضيق بالظلم ولو صدر من أحبَّ الناس إليه، ومن ثمَّ وجبَ على المربي أن يراعيَ العدلَ عند اللجوء إلى العقاب التربوي، وأن يتنزَّه عن الظلم بكلِّ صورة.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ ضَرَبَ سَوْطًا

ظُلُمًا، أَقْتَصَّ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٢).

(١) «كيف تواجه الطلبة؟» داوسن (ص ٨٨)، وما بعدها.

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» رقم (١٤٤٥)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٢٣٥٢).

وعن عَمَّارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ ضَرَبَ مَمْلُوكَهُ ظُلْمًا، أُقِيدَ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وعن أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي مَمْلُوكَيْنِ، يَكْذِبُونَنِي وَيُخُونُونَنِي وَيَعْصُونَنِي، وَأَضْرِبُهُمْ وَأُسَبِّهُهُمْ، فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُخْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَّبُوكَ وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ. فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ؛ كَانَ فَضْلًا لَكَ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا، لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ، اقْتَصَّ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ»^(٢) الَّذِي بَقِيَ قَبْلَكَ». فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَبْكِي بَيْنَ يَدَيِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَهْتَفُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا لَهُ؟ أَمَا يَقْرَأُ كِتَابَ اللَّهِ: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]». فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَجْدُ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ فِرَاقِ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي عَبِيدِهِ - إِنِّي أَشْهَدُكَ أَنَّهُمْ أَحْرَارُ كُلُّهُمْ»^(٣).

وعن الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «إِذَا قُوطِعَ الْمَعْلَمُ عَلَى الْأَجْرَةِ، فَلَمْ يَعْدِلْ بَيْنَهُمْ - أَيِ الصَّبْيَانِ - كُتِبَ مِنَ الظُّلْمَةِ».

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣٧٨/٤)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٢٣٥٢).

(٢) الفضل: الزيادة.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢٦٤٠١)، والترمذي (٣٣٨٨)، والبيهقي في «الشعب» (٨٥٨٦)، وقال الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٥٣١): «صحيح الإسناد»، وقال محققو «المسند» (٤٣/٤٠٧): «حديث ضعيف».

ونعرضُ فيما يلي أهم ضوابط العدل في العقاب التربوي؛ كي يؤتيَ ثمرته.
وظيفة التأديب بالعقوبة حكرٌ على المربي؛

إنَّ التأديب بالعقوبة حقٌّ أصيلٌ للوالد، ثمَّ هو وظيفة المعلِّم يتولّاها بنفسه
أو من خلال من يعلوه في الهرم الإداري للمؤسسة التعليمية.

وعليه فلا يسوغ بحالٍ أن تُوكَّل إلى شقيقه أو زميله؛ لأنها يستويان معه
في درجة الأخوة أو الزمالة، ويخضعان معه لسلطان المربي، والطفل يُسلَّم زمامه
طواعيةً لمن يعلوه من والدٍ أو معلم، ويقر لهما بهذه السلطة، لكنه يشعر بالظلم
والقهر إذا حلَّ محلَّهما من هو كُفُوٌّ مماثل في الدرجة، كما أنَّ تنازُل المربي عن
سلطانه لمن هو دونه ممن يفتقر إلى المشاعر الأبوية، ولا يملك الخبرة التربوية،
ولا يُضمن معه النزاهة والشفافية؛ يُفسد عَلاقة الأخ بأخيه، والزميل بزميله،
ويورثهم البغضاء والشحناء.

لا يعاقب بريء؛

الأصل براءة الذمة، والمتهم بريء حتَّى تثبت إدانته، وعليه فإنَّ الطفل
لا يعاقب بمجرد الوشاية، أو الظن، أو الاتهام^(١).

وما دامت التهمة لم تبلغ درجة اليقين فإنها تبقى مجرد شبهة^(٢)، ولا يصح
أن يعاقب بسببها؛ لأن الأطفال غير المكلفين أولى من المكلفين الذين أجمع

(١) فلا تعاقب الطفل مجاملةً للجار الذي شكاه إليك قبل أن تتحقق، ولكن قل له: «سأنظر في الأمر، وأتصرف معه».

(٢) الشبهة لغتاً: الالتباس، وهو عدم وضوح حقيقة الشيء بحيث يشتبه بغيره، واصطلاحاً: ما يشبه الثابت وليس بثابت.

الفقهاء على أن الحدود تُدرأ عنهم بالشبهة^(١).

وروي أن أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «ادروا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن وجدتم للمسلم مخرجاً فخلوا سبيله، فإن الإمام أن يخطئ في العفو، خيرٌ له من أن يخطئ في العقوبة»^(٢).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من ضرب غلاماً له حداً لم يأتِه، أو لطمه؛ فإن كفارته أن يُعتقه»^(٣).

إنَّ التَّسَرُّعَ في معاقبة الطفل على أمرٍ لم يثبت للمربي أنه فعله؛ ظلمٌ ينافي العدل، وهو «أمرٌ يتطلب من المربين مراعاة الحذر.. والتيقن التام من أن الخطأ المعاقب عليه قد صدر منه هو، وليس من الآخرين.. ذلك أن الكثيرين من الأطفال يلجؤون في أحيان متكررة إلى شكل من أشكال الكذب الدفاعي أو الانتقامي، يُلقون فيها بتبعة تصرفاتهم على أطفال آخرين حمايةً لأنفسهم من العقاب أو انتقاماً من هؤلاء الآخرين.. ويقدم الواحد منهم قصصاً مقنعة وأسانيد منطقية، فتتحول عن عقابهم إلى عقاب الأبرياء.. وقد يتكرر ذلك الأمر -لأن الطفل المتملص يكون ألسنٌ وأقوى حجةً من الآخر الذي قد لا يملك نفس القدرات- فينزوي المسكين ليجترّ مشاعر القهر والظلم.. التي

(١) ذكره ابن الهمام، كما في «شرح فتح القدير» (٤/ ١٤٠)، ونقله ابن قدامة عن ابن المنذر في «المغني» (٩/ ٥٧)، ونصّت القوانين الوضعية على أن «الشك يُفسّر لصالح المتهم».

(٢) رواه الترمذي مرفوعاً وموقوفاً (١٤٤٧)، ورجّح وقفه، والحاكم (٤/ ٣٨٤)، والبيهقي (١٧١٣٩)، وضَعَفَه الألباني في «ضعيف الترمذي» (٢٣٧)، و«إرواء الغليل» (٢٣٥٥).

(٣) رواه مسلم (١٦٥٧).

تكون وخيمة العواقب على نفسه ومستقبله.. وما دمنّا بشراً - ومع تحري الحذر والدقة - فلا بُدَّ من أن نُخطئَ مرّةً ومرات..

وفي ضوء مفاهيم الإسلام وأخلاقياته.. فإنَّ أبسط حقٍّ لهذا المظلوم هو أن نعتذرَ له، وأن نُطَيِّبَ خاطِرَه فورَ اكتشافنا لما لحقه من ظلم.. ونحن بذلك نضربُ عصفورين بالحجر نفسه، إذ نقطعُ الطريق على مضاعفات الظلم وآثاره الجانية من ناحية، ونُعلِّمُ الطفل فضيلة الاعتراف بالخطأ من ناحية أخرى^(١).

لا يُعاقَبُ معذور^(٢)؛

تصدر عن الأطفال سلوكيات سيئة ناشئة عن أضرار معتبرة، بحيث لا يمكن اعتبارهم مسؤولين عنها ويستحقون العقوبة، وهم أولى في إعدارهم والعفو عنهم من المكلفين الذي قال تعالى في حقهم: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ الآية [الأحزاب: ٥]، وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حقهم أيضاً: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَن أُمَّتِي الْخَطَا وَالنَّسِيَانَ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(٣).

إذن لا يُعاقب الطفل على سلوكيات سلبية صدرت عنه بسبب؛

١- الجهل: فقد يخطئ الطفل بسبب عدم فهمه الفرق بين السلوك المرغوب والسلوك المرفوض، ولأن المربي لم يمهّد له بتبصيره بالفرق بينهما، وتدريبه على السلوك المطلوب.

(١) «الثواب والعقاب في التربية» (ص ٨٦).

(٢) انظر: (ص ١٦٩)، وما بعدها.

(٣) انظر تحريجه (ص ١٦٩).

٢- الخطأ: فلا يُعاقب طفلٌ طاشت يده عفواً فسكبت الطعام على الأرض، أو وقعت منه زجاجة الحبر، فلطّخت الفراش مثلاً.

ولا يُعاقب لخطأ صدر عنه لأول مرة؛ إذ إنه لا يدرك عواقب فعله لقلة خبرته، فلا يعاقب إلا بعد تكرّر خطئه، وبعد محاولة إرشاده وإثابته قبل عقوبته.

٣- النسيان: فلا يُعاقب إذا رجع إلى البيت وقد نسي أن يُنجز ما كلفناه بشرائه مثلاً.

٤- الإكراه: فلا يعاقب طفل أجبره شقيقه الأكبر على القفز داخل بيت الجيران لإحضار الكرة التي سقطت فيه.

ولا يُعاقب الطفل إذا عجز عن سداد المصروفات أو لم يشتَر أدواته المدرسية لفقر أسرته.

ولا يعاقب الطفل إذا أخفق في إنجاز عمل كلفناه به، وهو يفوق قدراته، أو امتنع المدرس -القاصر في علم التربية- من الإذن له بالخروج من الفصل لقضاء حاجته فبلل ملابسه قسراً.

ولا يعاقب الطفل إذا كان كثير الحركة: لأن كثرة الحركة واللعب والنشاط والضوضاء ليست ظواهر سلبية تعبر عن الشيطنة وسوء الأدب وقلة التربية كما يظنها البعض، وبالتالي يبدؤون في وضع أنظمتهم المحكمة من القيود والكوابح، بل هي ظاهرة إيجابية وصحية في نمو الطفل، فضلاً عن كونها ظاهرة طبيعية بحكم مراحل النمو التي يمر بها الطفل، ولكن هذا لا يعني أن لا نقوم بنصحهم وضبط سلوكهم وإرشادهم.

إنَّ الطفل ينمو بسرعة كبيرة، وتنمو معه العديد من السلوكيات التي تقتضيها مراحل النمو وتبدو -غالبًا- مزعجة للأسرة ... مثل العناد وكثرة الحركة ... وهي سلوكيات لو نظرنا إليها من منظور علمي لوجدناها صفاتٍ إيجابية تدل على نموِّ الطفل السليم، وعلى كونها بؤادرَ ومقدماتٍ لسلوكياتٍ إيجابية تساهم في بناء شخصية الطفل النامية.

ولذلك نتساءلُ حقًا: هل السلوك يحتاج إلى تدخُّلٍ عنيفٍ وعقابٍ بالضرب؟! هل وصل السلوك حدًّا يقتضي هذا فعلًا؟! هل السلوك ضارٌّ للطفل ولخلفه ودينه؟ أو هو -فقط- مزعج لراحتنا وهدوئنا؟!

ولا يعاقب الطفل إذا تعرَّض في مشيِّته فكسر شيئًا؛ لأنَّ الطفل قد يكون في مرحلةٍ سنِّيةٍ لم يكتمل عندها نمو جهازه العصبي، مما يجعله في حالة عدم تأزر أعضاء الجسم، فتتخطَّم منه الأشياء، أو يتعرَّض في مشيِّته، أو يصطدم بشيءٍ فيحطمه، كل ذلك دون قصدٍ منه^(١)، وقد يتكرر منه ذلك حتى يبلغ درجةً تأزر الأعضاء، فلا يصح معاقبة مثل هذا (المراهق) على سلوكٍ لم يقصده،

(١) التآزر (Muscle Synergies): هو مفهوم لآلية الاتصال بين الجهاز العصبي المركزي (المخ والحبل الشوكي)، وعضلات جسم الإنسان، ويتحقق بتنشيط وتنسيق حركة مجموعة من العضلات لتساهم مجتمعةً في تحقيق حركة محددة، وتشمل المهارات الحركية الكبيرة والدقيقة و(الحس-حركية).

(٢) وهذا ما يحدث في «طفرة نمو المراهق» (Adolescent Growth Spurt) التي تحدث بسبب نشاط الهرمونات المسؤولة عن (النضج الجنسي) (Sexual Maturation).

وفيها يبلغ المراهق أوجَ زيادة نمو قامته (Stature) وبخاصة العظام الطويلة كلها، ومعظم أجزاء الهيكل العظمي، ويزداد فيها وزنه، وتستغرق هذه الطفرة فترة قصيرة، (من يومين أو ثلاثة أيام) إلى (أسبوع واحد)، ومن علامتها: أنه يجوع دائمًا، وتقصر كل بناطيله فجأة، وينام أكثر من المعتاد، ويصطدم بكل شيء تقريبًا.

ويجب أن نشجعه ونعذره ونسامح معه في هذه الحالات، ونشرح له كيف أنه الآن ينمو ويتطور.

ولا يعاقب الطفل إذا اتَّسخت ثيابه وهو يأكل أو يلعب: فإنَّ الطفل المبدع هو الطفل الحر^(١)، ولا ينبغي للمربي أن يحصي على الطفل أنفاسه، ويرصد كلَّ صغيرة وكبيرة من حركاته^(٢)، واجبنا أن ندع أبناءنا على سجيّتهم يلعبون، ويسقطون، ويدخلون في مشاكل، وعلينا فقط أن نوجَّههم من بعيد ونعلمهم ماذا يجب عليهم أن يفعلوا، ونصوب لهم ما أخطؤوا فيه.

ويُوصي الدكتور (جينو) الخبير التربوي بعدم التركيز على أهمية بقاء ملابس الطفل نظيفة خلال تواجده في المدرسة أو خارجها؛ لأننا -حسب اعتقاده- نحرّم أطفالنا بهذا الأسلوب من حرية الطفولة وعفويتها في الجري والقفز واللعب، أما الاهتمام بالمظهر الخارجي فإنَّ الأطفال سوف يدركونه شيئاً فشيئاً.

(١) الطفل الحر (Free): تلقائي، عفوي، فطري، بديهي، مرن، مرح، منطلق، خياله خصب، محب للاستطلاع، يعشق الحرية، ويضيق بالقيود، يفكر خارج الصندوق ولذلك يكون مبتكراً ومبدعاً ومخترعاً.

- بخلاف الطفل المتكيف (Adaptive/submissive): فهو مستسلم، تدرب على الانصياع للتعليمات، يتخلى عن حريته وانطلاقه لينفد ما يريده منه من حوله (People Pleaser) كي يفوز برضاهم، وينجو من نقدهم، هادئ منسحب حريص على أن يكون واحداً من «القطيع»، ويُسمَّى: (To Please Disease) أو (You Must Please Others' Syndrome).

- وبخلاف الطفل المتمرد (Rebel): الذي يرفض القواعد والقوانين، وهو صعب القيادة، عنيد، في صراع مستمر مع غيره.

(٢) وهذا أوضح ما يكون في (الوالدية المروحية) Helicopter Parenting، انظر: (ص ٧٠).

ويطلب الدكتور (جينو) من الأم ألا تلوم ابنها على عدم محافظته على نظافة ملابسه وإنما تقول له: «يبدو أن نهارك كان حافلاً بالنشاط، وإذا كنت تريد تغيير قميصك فستجد غيره في دولابك»، فإنَّ مثل هذا التعليق يوطّد علاقة الطفل بوالديه أكثر من قول الأم لطفلها: «كم أنا مُتعبَة من قذارتك، ألا تكون حذراً في المرة القادمة؟ حتى توفرَ علينا غسلَ ملابسك وتنظيفها عدّة مرات في اليوم». إنَّ صحة الطفل النفسية تتطلب أن يستمتع بطفولته لا أن يبقى نظيفَ الملابسِ دائماً، وتستطيع الأم شراء ملابس رخيصة وعملية لطفلها تتيح له حرية الحركة والتمتع بيومه بدل أن تشتري له ملابس غالية الثمن تخاف إفسادها بسبب كثرة الغسيل، وسوف يتعلَّم الطفل مع نموه كيف يعتني بمظهره^(١)

لا يعاقب الطفل إذا كان يعاني من مشكلات خارجة عن إرادته؛

ليس الطفل كالكبير؛ إذ إنه لا يستطيع أن يُعبّر عن مكونات نفسه، ولا أن يصف ألمه النفسي وبخاصة في طفولته المبكرة، ولهذا فإنَّ معاناته النفسية تأخذ أشكالاً في التعبير عنها يفارق بها الكبار: فقد يضطرب نومه، أو يفقد شهيته، أو يصاب بالتبول والتبرز غير الإرادي، أو يتلعثم في الكلام، وقد يكذب أو يسرق أو يهرب من البيت أو المدرسة، أو يصير عدوانياً.. كل هذا يعني أنَّ هذا الطفل يمرُّ بطفولة غير سعيدة، ويحتاج إلى مساعدة متخصصة، حيث تُدرس حالته من النواحي الجسدية والنفسية والاجتماعية والمدرسية، ثم تحدد مشكلته، وعوامل نشأتها وتطورها، ثم توضع الخطة اللازمة لعلاجها، والتي قد تستلزم إشراك البيت والمدرسة في علاجها.

(١) «أحسن مُربِّ في العالم» (ص ٩٥، ٩٦).

إنَّ مناهج إعداد المعلمين يجب أن تتضمن تأهيلهم وتثقيفهم كي يستطيعوا (التقاط) الأطفال الذين لديهم أعراض أو علامات ترشحهم لأن يكونوا مرضى باضطرابات تسبب لهم تدهورًا في الأداء المدرسي (Scholastic underachievement) أو خللاً في العلاقات الاجتماعية، وبدلاً من معاقبتهم على سلوكهم فيه معذورون يُحالون إلى الطبيب المختص؛ لأن العقاب هنا لا يزيل المشاكل بل يزيدها، ويسبب مضاعفات سلبية تزيد الطين بلة.

ولا بدّ من وجود قنطرة من التواصل بين الأخصائي وبين كل من البيت والمدرسة للتعاون من أجل إصلاح الطفل وتحسين حالته.

- ولا يعاقب الطفل الذي يتخلّف دراسياً بسبب ظروف أسرية أو بيئية أو مدرسية^(١) خارجة عن إرادته، أو بسبب انخفاض قدرته العقلية وذكائه عن المستوى المتوسط.

- ولا يُعاقب الطفل الذي يكتشفُ المدرس أنه لم يركز أثناء الدرس؛ لأنه يحتمل أن لديه اضطراب «نقص الانتباه» (ADD)، المصحوب أو غير المصحوب

(١) يؤكد التحليل العلمي أن التخلف الدراسي الشديد يعود أحياناً إلى السنين الأولى من التعليم، والتي لم يتلقَ فيها الطالب المبادئ الأولية للقراءة والكتابة والحساب بشكل سليم، مما يجعل ما يبنّي عليها فيما بعد من العلوم، كمن يكتب على صفحة الماء، أو يحرث في البحر، والأهل يحسبون أن مجرد ذهاب ولدهم إلى المدرسة، وحمله الكتب والأسفار، وجلسه على المقعد المدرسي، وعودته إلى البيت، كافٍ لأن يكونَ من الناجحين، ولا نستطيع في عصر تحتفل فيه بعض المجتمعات، بتخريج آخر الأميين فيها من كبار السن، أن نُلقِيَ باللوم على الأهل وحدهم، أو المدرسة وحدها، بل في هذه الحالة وأمثالها، تكون المسؤولية مسؤولية مجتمع بأكمله، نظاماً ومنهجاً، للبحث عن جذور معوقات التقدم الفردي والجماعي، واكتشاف الحلول المناسبة لها. انظر: «كيف نؤدّب أبناءنا بغير ضرب؟» للأستاذ محمد نبيل كاظم (ص ٦٠).

بفرط الحركة (ADHD)، أو يحتمل أنه كان يمر بنوبة صرع صغيري Petit-mal epilepsy، فعند حصول هذه النوبة يحدث تغيرٌ قصير المدى في وعيه قلماً يتجاوز الدقيقة، يعود المريض في نهايتها إلى حالته الطبيعية تمامًا كأن شيئاً لم يكن.. ففي خلال الثواني العشر أو العشرين يظلُّ المريض يحملق فيما أمامه دون أن يقع، ولكن لا يستطيع أن يفهم أو يتكلم، وربما تحركت جفونه عدّة مرات، ولا يظهر عليه أيُّ تشنجات عضلية كبرى.

إنَّ هذا النوع يصيب الأطفال عادةً وبخاصة تلاميذ المدارس، ولذا فقد يؤثر على دراستهم واستيعابهم، وقد يعيشون حياتهم دونما تشخيص.

- ولا يُعاقب الطفل إذا كان يعاني من صعوبات التعلم^(١) Learning Disabilities.

- ولا يعاقب الطفل إذا كان يبلى فراشه ليلاً بصورة متكررة بعد سن الخامسة، وهي حالة التبول اللاإرادي الليلي Nocturnal Enuresis، ونظرة واحدة في كلمة «اللاإرادي» تكفي لمعرفة أنه معذور ويحتاج إلى علاج لا إلى عقاب^(٢).

(١) وهي فرع من اضطرابات النمو في الطفولة تتضمن نوعين:

الأول: نمائي Developmental ويظهر غالباً قبل دخول المدرسة كاضطراب الانتباه، والذاكرة، والعجز في الإدراك الحسي، والتفكير، واللغة الشفهية.
الثاني: أكاديمي: ويظهر لدى أطفال المدارس، كصعوبات القراءة، والكتابة، والهجاء، والتعبير الكتابي، والحساب.

(٢) وتشكل العوامل النفسية نسبة (٩٦٪) من أسباب حدوث التبول اللاإرادي، ولا تتجاوز الأسباب العضوية نسبة (٤٪) منها.

وعادةً ما يكون التبول اللاإرادي عرضاً من أعراض سوء تكيّف الطفل مع البيئة المحيطة به؛ لأنها لا تشبع حاجته النفسية الضرورية، من شعور بأنه مقبول ومحبوب وآمن ومحظى بالتقدير.

- كذلك لا يعاقب الطفل الذي يعاني من اضطرابات انفعالية كالخوف والخلج، بل يتعامل معه الأخصائي المعالج.

- ومن أسوأ أنواع الإيذاء الظالم للطفل أن يضطهده «المربي»! لأن اسم الطفل أو ملامحه تشبه اسم أو ملامح شخص يكرهه أو يحمل له ذكريات دفينه ومشاعر أليمة.

لا تعاقبه على خطأ أنت قدوته فيه^(١)؛

فالطفل في غفلة عن مبدأ «لا أسوة في الشر»، وغافل عن قول القائل:

خذ من علمي ولا تنظر إلى عملي ينفعك علمي ولا يضررك تقصيري
بل أعمق وسائل التأثير فيه: التربية بالقدوة العملية.

وإذا فعل المربي شيئاً ينهى طفله عنه، فإن ثقته به تهتز، ويقع في حيرة وارتباك، ويشعر -إن هو عُوقِبَ- بالظلم، وغالبًا ما يسلك المربي هذا المسلك المتناقض ظنًا منه أن الطفل لا يدرك هذا التناقض، وربما يفعل المربي بحكم العادة (كما في حالة التدخين مثلاً).

مثال ذلك: أن يسأل شخص عن وجود أحد الوالدين في البيت، فيقول له أحدهما: «قل له: إنه غير موجود»، ويكون داخل البيت، أو: «إنه نائم»، وهو غير نائم، كل ذلك أمام سمع وبصر الطفل، ويتكرر ذلك منهما، حتى صار يُضَرَّبُ به المثل على سبيل الفكاهة، حيث يذهب الطفل إلى السائل، ويقول له بسذاجة: «أبي يقول لك: إنه ليس هنا».

(١) راجع أيضًا: (ص ٩٢-٩٥).

والصواب هنا أن يجتهد المربي ليعدل سلوكه الذميمة أولاً، قال الشاعر ابن

التعاويذي:

إذا كان ربُّ البيتِ بالدُّفِّ ضارباً فشيمةُ أهلِ البيتِ كُلِّهمُ الرِّقْصُ

وقال أبو الأسود الدؤلي:

وإذا جريت مع السفية كما جرى فكلاكما في جريه مذمومٌ
وإذا عتبت على السفية ولته في مثل ما تأتي فأنت ظلومٌ
لا تنه عن خلقٍ وتأتي مثله عارٌ عليك إذا فعلت عظيمٌ
ابدأ بنفسك فانها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيمٌ
فهناك يُقبلُ ما وعظت ويُقتدى بالعلم منك وينفع التعليمُ

لا يعاقب الطفل على خطأ سبب له آلاماً جسدية أو نفسية:

فبعض الأفعال الخاطئة التي يقوم بها الطفل تسبب عواقبها آلاماً له، وهذه الآلام تكون بالنسبة له وسيلة تأديب، وبالتالي ليس من العدل أن توبّخه أنت أيضاً فتزيد من آلامه، وذلك كأن نكون قد حذرناه من طريقته الخاطئة في تشغيل لعبته ولم يعمل بالتحذير فتعطّلت لعبته وحزن عليها، فليس من العدل والصواب هنا أن نعاقبه؛ لأنه لم يأخذ بتحذيرنا، فألمه النفسي على خسارته لعبته هو تأديب في حد ذاته.

ولكن هذا لا يمنع أن نشرح له أن إهماله لتحذيرنا نتج عنه خسارته لعبته، وأن عليه أن يتحمّل نتيجة عمله. ومن أمثلة ذلك أيضاً، قفزُه الذي ينتج عنه رضة في جسمه أو جرح في يده أو رجله أو وجهه، على الرغم من تحذيرك له

من ذلك، ليس من المعقول أن نبادر إلى عقابه والدم يسيل منه والآلام توجعه، ولكن بعد أن نضمد جرحه ويهدأ ألمه يحسن أن نشرح له أنه لو أطاعنا لما حصل له الذي حصل^(١).

يلغى العقاب أو يخفف إذا اعترف بخطئه واعتذر؛

فإن معاقبته -رغم اعترافه واعتذاره- ستدفعه إلى عدم الاعتراف بالخطأ في المستقبل.

عدم المحاباة في إيقاع العقاب؛

وما ينافي العدل في العقوبة أن يرتكب عدة أطفال الخطأ نفسه، ثم يعاقب المربي طفلاً واحداً، ويتجاوز عن الآخرين مع استوائهم معه في ارتكاب الخطأ، وهنا يشعر الطفل المعاقب وحده بالظلم والتمييز، وتهتز عنده معاني العدل والمساواة.

تناسب حجم وصفة العقوبة مع نوع الخطأ وحجمه؛

فإن من العدل أن يعاقب على قدر خطئه، فلا يتلقى عقاباً صارماً على خطأ يسير، ولا يهمل العقاب على خطأ جسيم^(٢).



(١) راجع: (ص ١٨١).

(٢) راجع: (ص ١٦٧-١٦٩).

النوع الثامن عشر

العقاب الجماعي

العقاب الجماعي هو إيقاع العقوبة بمجموعة من الناس بسبب خطأ ارتكبه واحدٌ منهم، وهو مبدأ ظالمٌ ينافي أبسط قواعد العدل والإنصاف، كما أنه أسلوبٌ فاشلٌ تربويًا، وليس له فعالية تُذكر.

ويحدثُ غالبًا حين يكتب المدرس على السبورة وظهره للطلاب، فيرتكبُ أحد الطلبة حماقة وهو مُتَخَفٌ وَسَطَ زُمَلَائِهِ، ويحاول المدرس أن يتحرَّى هُويَّته، فيعجز، ولأنه متأكد من أَنَّ هناك نفرًا من التلاميذ يعرفون الفاعل، ويأبون الوشاية به، ويتسترون عليه، حينئذٍ يعاقبُ المدرس جميعَ الطلاب ولا يستثني منهم أحدًا.

ومن صور العقاب الجماعي:

- تكليف جميع الطلاب بالوقوف أغلب وقت الحصة، وربما أمرهم أيضًا برفع أيديهم وهم قيام، بل رفع أيديهم وهم يحملون بها حقائبهم.
- ضرب جميع الطلاب بالعصا.
- إضراب المعلم عن شرح الدرس طوال الحصة.
- التعميم في سبِّ الطلاب وشتيمهم بما لا يليق (مع أنَّ السبَّ والشتيم لا مدخل له في الأساليب التربوية بحالٍ من الأحوال).

المسؤولية فردية:

وهذا العقاب الجماعي يصادم مبدأ مسؤولية الشخص الفردية عن أعماله؛ فقد قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَازِرَةً وَلَا نُزِرْ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهينٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

وقال الله تعالى عن نبي الله يوسف -عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام-: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عَنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُوكَ﴾ [يوسف: ٧٩].

قال الإمام ابن العربي رحمه الله: «الأدلة القاطعة قد قامت على أن أحداً لا يُعاقب بذنب أحد، لا على العموم ولا على الخصوص»^(١)

العقاب الجماعي إعلان إفلاس وفشل تربوي وإداري:

لأن من المفترض أن المدرس قد تم إعدادُه إعداداً خاصاً يؤهله للتعامل الصحيح مع كل المواقف التي قد يواجهها وهو يمارس التربية والتعليم مع الطلاب، مهما اختلف طبائعهم وأخلاقهم وسلوكياتهم.

(١) «القبس في شرح موطأ مالك بن أنس» للإمام ابن العربي، طبعة دار الغرب الإسلامي، (١١٧٤/٣).

ولجؤه إلى «العقاب الجماعي» هو إعلان عن فشله في حُسن إدارة الفصل^(١)، وعجزه عن تحديد المخطئ^(٢) بأسلوب لا يقوم على الوشاية والنميمة^(٣).

كما أنَّ المدرس الذي هو أسوة؛ يقدم للطلاب بهذا الأسلوب قدوة تعلمهم اللجوء إليه في مواجهة المواقف الاجتماعية استسهالاً أو بسبب فشلهم في علاجها.

العقاب الجماعي ظلمٌ ينافي العدل؛

لأنه يعاقب من لا ذنب له، ولا يستحق العقاب، ويسوّي الصالح بالطالح، والمسيء بالمحسن، والمجتهد بالتكاسل المستهتر، والمؤدب المهذب الرافض للإساءة بالمشاكس المشاغب الحريص على تضييع وقت الحصة سُدىً. الخطأ في الإمساك عن العقاب الجماعي أهون من الخطأ بعقاب البريء؛ ولو دار الأمر بين الكفّ عن معاقبة الجميع (بسبب عدم القدرة على تحديد هوية المذنب، وبالتالي عدم معاقبته بما يستحقه)، وبين إيقاع العقوبة على الجميع (مع أنَّ أغلبهم أبرياء)؛ لَتَرَجَّحَ الكفُّ عن العقاب الجماعي شرعاً وعقلاً.

(١) في الغالب لا يسيء الطلاب إلى المدرس القوي الشخصية، الذي يحترمونه لإتقانه شرح مادته، والذي يستطيع شد انتباههم إليه بطرق متنوعة، كما أن لديه القدرة الحازمة التي يستطيع بها ضبط الفصل في حضوره وغيبابه، ويستطيع أن يتعامل مع الطالب المشاغب على حدة، وبأسلوب تربويٍّ فعّال.

(٢) وقد تعدد الحاجة إلى العقاب الجماعي، واستنطاق الطلاب في الفصول التي تزوّد بكاميرات مراقبة، يمكن من خلالها اكتشاف الطالب المشاغب، ومعاقبته بما يستحقه.

(٣) إذ ليس المطلوب من الطالب أن يكون عيناً للمعلم يرى بها ما لا يراه بنفسه، وقد يتعرض الطالب (النام) لبطش زميله الذي وشى به وأصدقائه من رفقة السوء.

وقد رُوِيَ عن أمِّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «ادروا الحدود عن المسلمين ما استطعتم، فإن وجدتم للمسلم مخرجاً؛ فخلُّوا سبيله، فإنَّ الإمامَ لأنَّ يخطيَ في العفو، خيرٌ من أن يُخطيَ في العقوبة»^(١).

ورُوِيَ عن أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إذا حضرتمونا فاسألوا في العفو جهدكم، فإنِّي أن أُخطيَ في العفو أحبُّ إليَّ من أن أُخطيَ في العقوبة»^(٢) أي عقوبة من يُحتَمَل أن يكون بريئاً.

وهذا كله في حق من تحوم حوله شبهة، فكيف بالبريء الذي لا شبهة فيه أصلاً؟! والكف عن العقاب الجماعي أهونُ بكثير من الآثار السلبية لهذا العقاب الظالم.

عيوب العقاب الجماعي وآثاره السيئة:

- من مبادئ العقاب الصحيح أن يقتنع المعاقبُ - في قرارة نفسه - بأنه أخطأ، وأنه يستحق العقاب، وهذا ما يجعل العقاب (التربوي) وسيلةً ناجعةً في تعديل السلوك.

والعقاب الجماعي يفتقد هذا الشرط؛ لأنَّ المعاقبَ هنا مقتنعٌ تماماً بأنه بريء تَمَّت مساوئته بالمذنب بدون وجه حق، مما يُشعره بالظلم.

- لا يراعي العقاب الجماعي الفروق الفردية بين الطلاب من حيث طباعهم وسماتهم ووقوع العقاب عليهم، وردود أفعالهم، لا سيما الشخصيات المرفهة الحس التي ينفرها ويؤلها هذا العقاب الجائر.

(١) انظر تخريجه (ص ٤٠٦).

(٢) رواه البيهقي (١٧١٤٣)، وقال: «منقطع وموقوف».

آثاره على الطالب البريء؛

- عدم احترامه لمعلمه الذي ظلمه.
- يُربي الطالب على تقبل الظلم والقهر.
- يُؤلِّد في الطالب مشاعرَ عدوانيةً، وإحساسًا بالقهر والإذلال والإهانة، فيتمرد على النظام المدرسي، وربما يفتعل سلوكياتٍ سلبيةً؛ انتقامًا من ظلمه، فتتكرر الأخطاء وتزداد.
- العقاب الجماعي يُؤلِّد في الطالب البريء كراهيةً للمعلم ونفورًا من كلّ ما يمس العملية التعليمية ومحيطها المدرسي، مما ينعكس بالسلب على أدائه وتحصيله التعليمي، وربما تسبب في كثرة التغيب والتهاؤض بل هجر التعليم بالكلية والتسرُّب منه.
- مع أنّ واجب المدرس أن يجبّ إلى الطالب العملية التعليمية بكلّ ما تشمله من المدرسة وأنشطتها، وذلك بأن يكونَ عنصر جذبٍ نحوها لا عامل تنفيرٍ وتبغيض، وعلامةُ نجاحه في ذلك أن يقبل الطالب على مدرسته سعيدًا بالعلم الذي يتلقّاه، والهوايات الرياضية والثقافية التي يمارسها، والحياة الاجتماعية المبهجة مع أقرانه، واكتساب القدوة الحسنة من معلِّمه.
- من حق الطالب المظلوم بالعقاب الجماعي أن يعبر عن غضبه، ويسأل: لماذا أعاقب على خطأ لا دخل لي به؟

إنَّ المنطق السليم يقضي بأنَّك إذا عاقبتَ المحسنَ مع المسيء؛ فأين الحوافز التي تشجع المحسن على لزوم الاستقامة إذا كان يرى نفسه قد استوى مع الطالب المشاغب وعوقب بجريسته؟!

نعم سلوك الطالب المشاغب مشكلة، لكنَّ الطالب الجادَّ الملتزم ليس سبباً فيها، وتحديد المخطئ ومحاسبته هو جزء من مسؤولية المدرس والإدارة المدرسية التي ينبغي أن تبتدع الأساليب التربوية المناسبة لفرض الانضباط والنظام بدون ظلم، ولردع الطلبة المتسيبين والمشاغبين الذين يستفزون المدرس، بل التفتيش وراء المشاكل المتوارية (=النار) وراء سلوك الطالب المشاغب (=الدخان) والتي تدفعه إلى المشاكسة، وفتح الحوار معه ومع أسرته لحلّها.

أشاره على الطالب المذنب:

يُعَدُّ العقاب الجماعي وسيلةً تدعيمية لتكرار السلوك السيئ؛ لأن المخطئ أفلت بفعلته، وتساوى مع البريء، وبالتالي لن يُوجَدَ لديه ما يمنعه من تكرار فعلته، وهو يأمن أن ينكشف أمره.

إبطال قاعدة «الحسنة تخص، والسيئة تعم»:

لا تلقى أحداً يتبنى مبدأ «العقاب الجماعي»، ويطبقه بكل فخر، ثم تُنكرُ عليه إلا بادر بإقامة «حجته» على صحة مسلكه، وهي قاعدة «الحسنة تخص، والسيئة تعم» أو: «الخير يخص، والشر يعم»، مع أنها قاعدة فاسدة جائرة تناقلتها الأجيال^(١) دون أن تُخضعها لنقدٍ أو تمحيص، مع كونها مصادمة للقرآن الكريم، والسنة الشريفة، والعقل السليم، والفطرة السوية، والمنهج التربوي العلمي.

(١) وهي تشبه قاعدة: «بالجريرة تُؤخذ العشيرة» الجاهلية، التي جاءت الشريعة الحنيفية بهدمها.

وهذه القاعدة تُغلبُ جانب الشر على أكثرية مجتمع ما في مقابلة تَصَرُّفٍ سيئ من شخصٍ واحد، فتعاقب الأبرياء استنادًا -فقط- إلى زعمهم أنَّ «السيئة تعم».

والصحيح أن نقول «نعم» للعقاب الفردي للمسيء، و«لا» لمعاقبة المحسن البرئ والمسيء معًا في الوقت ذاته^(١)، بل حق المحسن أن يُكَافَأَ على إحسانه وَيُدْعَمَ؛ لأنه يعبر عن نفسه، وليس وكيلاً عن غيره، أي أن «الحسنة تخص»^(٢)، وكذلك «السيئة تخص» أيضًا المسيء فينال عقابه؛ لأنه يعبر عن نفسه، وليس وكيلاً عن غيره في إساءته^(٣).

(١) ومثله قول معلم عاقب طلابه عقابًا جماعيًا، فقال له أحدهم: لِمَ تعاقبني وما أسأتُ؟ فأجابه: «لأن المساواة في الظلم عدل»، والحق أن هذه القاعدة (فاشية) تحاول تسوية الظلم، وهي تُصادم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩]، والمساواة في الظلم ظلماتٌ بعضها فوق بعض، وقمة الظلم هي المساواة في الظلم، والعدل هو وضعُ كُلِّ شيءٍ في موضعه، وإعطاء كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ، فأين هذا من تعميم الظلم على مَنْ لا يستحق العدل الحقيقي؟!

(٢) مع أنَّ الحسنة تعمُ أحيانًا كما في حديث: «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» الذي صحَّ في أنَّ الله يغفر للذاكرين، ثم تقول الملائكة: «رَبِّ فِيهِمْ فَلان عبد خَطَّاء، إنما مرَّ فجلس معهم» قال: فيقول الله تعالى: «وله غفرت، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» رواه مسلم (٢٦٨٩).

(٣) وكم عانت الأمة المسلمة من «التعميم الظالم»! كلما قام فئة قليلة من الغلاة بترجيع الناس وقتل الأبرياء، فتبادُرُ بعض وسائل الإعلام العالمية إلى رمي المسلمين بالإرهاب في تشويه مُتعمدٍ لدين الحق، وصَدَّ عن سبيل الله تعالى، إذ كيف يمثل أشخاص قليلون أُمَّةً كاملة يبلغ عددُ أفرادها (١٩٥) مليون مسلم، أي أكثر من ربع سكان الأرض؟!

ومثل هذه الجرائم تشيع في الأمم كلها، وبمعدل أعلى بكثير مما يقوم به حفنة غالية من حوادث فردية يرتكبها من لا يحمل توكيلاً يمثل به سائر المسلمين.

وإذا عوقب المستقيم البريء فقد يكره سلوكه الحسن، ولن يجتهد في تفادي الخطأ في المستقبل مادامت النتيجة واحدة، ولا يوجد سبيل للنجاة من العقاب. الرد على استدلال بعضهم بقوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] لتسوية قاعدة: «السيئة تعم»:

قال القرطبي رحمه الله: «واتقوا فتنة تتعدى الظالم، فتصيب الصالح والطالح»^(١). وقد جاءت أحاديث كثيرة تبين أن غير الظالمين منهم تشملهم الفتنة؛ لأنهم كانوا قادرين على تغيير المنكر، فلم يغيروه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمر الله المؤمنين ألا يقرؤا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب».

عن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعا يقول: «لا إله إلا الله، ونيل للعرب من شرٍ قد اقترب، فتَحَ اليوم من رذم يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش: فقلت يا رسول الله! أتهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث»^(٢).

وعن المنذر بن جرير عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من قوم يعملون بالمعاصي، وفيهم رجل أعزُّ منهم وامنع لا يغيرون، إلا عمهم الله بعقاب» - أو - : «أصابهم العقاب»^(٣).

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٣٩٣/٧).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٩١٩٢)، وقال محققو «المسند»: «حديث حسن، وهذا إسناد ضعيف لضعف شريك» (٥٣٠/٣١)، وقوله: «لا يغيرون» أي المنكر، بأن يقوم العزيز بالمنع عنه.

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً بلفظ: «ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي هم أعزُّ منه وأمنع؛ لم يُغَيَّرُوا عليه إلا أصابهم الله عَزَّ وَجَلَّ منه بعقاب»

وَرُوِيَ عَنْ عَدِي بْنِ عَمِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَعْذِبُ الْعَامَّةَ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ، حَتَّى يَرَوْا الْمُنْكَرَ بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ، وَهُمْ قَادِرُونَ عَلَى أَنْ يَنْكَرُوهُ فَلَا يَنْكَرُوهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ، عَذَّبَ اللَّهُ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ»

وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: كَانَ يُقَالُ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَا يُعَذِّبُ الْعَامَّةَ بِذَنْبِ الْخَاصَّةِ، وَلَكِنْ إِذَا عَمِلَ الْمُنْكَرُ جَهَارًا، اسْتَحَقُّوا الْعُقُوبَةَ كُلُّهُمْ»^(١).

وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَقَائِعِ - وَفِي رِوَايَةٍ: وَالرَّاتِعِ - فِيهَا، [وَالْمَدَاهِنِ فِيهَا]؛ كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ [فِي الْبَحْرِ] فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَ[أَصَابَ] بَعْضُهُمْ أَسْفَلُهَا [وَأَوْعَرَهَا]، فَكَانَ الَّذِي - وَفِي رِوَايَةٍ: الَّذِينَ - فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ فَمَرَوْا عَلَى مِنْ فَوْقَهُمْ، [فَتَأَذَوْا بِهِ] - (وَفِي رِوَايَةٍ: فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا يَصْعَدُونَ

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٩٢١٦)، وقال محققو «المسند»: «حديث حسن» (٥٤٨/٣١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (١٧٧٢٠)، وقال محققو «المسند»: «حسن لغيره» (٢٥٨/٢٩)، وقال السندي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَيُّ فَيُعَذِّبُ كُلًّا بِعَمَلِهِ، فَالْعَامَّةُ يُعَذِّبُهُمْ بِتَرْكِ الْإِنْكَارِ عَلَى الْمُنْكَرِ، كَمَا يُعَذِّبُ الْخَاصَّةَ بِفَعْلِ الْمُنْكَرِ، وَهَذَا ظَهَرَ التَّوْفِيقَ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُزْرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَتَّقُوا فَتَنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، وَاللَّهُ أَعْلَمُ» اهـ. من «حاشيته على المسند» (٣٣٨/١٠).

(٣) «الموطأ» للإمام مالك (١٤٤٣/٥).

فيستقون الماء، فيصبون على الذين في أعلاها، فقال الذين في أعلاها: لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا) - فقالوا: لو أننا خرقنا في نصيبنا خرقاً [فاستقيناً منه] ولم نُؤذِ مَنْ فوقنا - (وفي رواية: ولم نمرَّ على أصحابنا فنؤذيهم) -، [فاخذ^(١) فأساً، فجعل يَنْقُرُ أسفل السفينة، فأتوه فقالوا: ما لك؟ قال: تأذيتم بي، ولا بُدُّ لي من الماء]، فإن تركوهم وما أرادوا؛ هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم؛ نجوا، وأنجوا جميعاً^(٢).

وكان النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا سرد هذا الحديث يقول قبله: «يا أيها الناس، خذوا على أيدي سفهائكم»، فإذا سرد عاد فقال: «خذوا على أيدي سفهائكم قبل أن تهلكوا»^(٣).

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ففي هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة، وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال علماؤنا: فالفتنة إذا عُمِلَتْ هلك الكل، وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار المنكر وعدم التغيير، وإذا لم تُغَيَّرْ وجب على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجرانُ تلك البلدة والهربُ منها، وهكذا كان الحكم فيمن كان قبلنا من الأمم، كما في قصة السَّبْتِ حين هجروا العاصين، وقالوا: لا نُساكنكم، وبهذا قال السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، روى ابن وهب عن مالك أنه قال: تُهْجَرُ الأرض التي يُضْنَعُ فيها المنكرُ جهاراً ولا يُسْتَقَرُّ فيها»^(٤).

(١) أي: أحدهم.

(٢) رواه البخاري (١٣٢/٥ - فتح)، والترمذي (٢١٧٣)، والإمام أحمد (٤/٢٦٨-٢٧٠)، ولفظ الرواية من «الصحيحة» رقم (٦٩).

(٣) «الزهد» لابن المبارك (ص ٤٧٥).

(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/٣٩٢).

وقال أيضًا رَحِمَهُ اللهُ: «إِنْ قِيلَ: فَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [فاطر: ١٨]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ﴾ [الذثر: ٣٨]، وقال: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وهذا يوجب ألا يؤخذ أحد بذنب أحد، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب، فالجواب أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره، فإذا سكت عليه فكلهم عاصي، وهذا بفعله وهذا برضاه، وقد جعل الله في حكمه وحكمته الراضي بمنزلة العامل، فانتظم في العقوبة. قاله ابن العربي، وهو مضمون الأحاديث كما ذكرنا»^(١).

الهلاك العام قد يكون طهرة للمؤمنين ونقمة على الفاسقين؛

إذا كثر الخبث، وأعلنت المعاصي، وعجز الصالحون عن إنكارها بغير القلب، ونزل الهلاك العام على الفريقين، فإنه يكون عقابًا للفاسقين، وأما الصالحون فإنه يحلُّ بهم معهم؛ ابتلاءً من الله لهم، وليس عقابًا، وقد يكون في هذا الابتلاء كفارة لسيئاتهم، ورفعًا لدرجاتهم، واصطفاءً لشهادتهم؛ لأن العذاب أعمُّ من أن يكون عقابًا.

عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَنْزَلَ اللهُ بِقَوْمٍ

عَذَابًا؛ أَصَابَ الْعَذَابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ، ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى أَعْمَالِهِمْ»^(٢).

وعن عبد الله بن الزبير أن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: عِثْتُ^(٣) رسولُ الله

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في منامه، فقلنا: يا رسول الله، صنعتَ شيئًا في منامك لم تكن تفعله؟

(١) «نفسه» (٣٩٣/٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٠٨)، ومسلم (٢٨٧٩).

(٣) عث: اضطرب جسمه الشريف، وقيل: حرك أطرافه كمن يأخذ شيئًا أو يدفعه.

فقال: «العجب، أن ناساً من أمتي يؤمنون هذا البيت لرجلٍ من قريشٍ قد لجأ بالبيت، حتى إذا كانوا بالبيداء خُسِفَ بهم». فقلنا: يا رسول الله، إنَّ الطريق قد يجمع الناس. فقال: «نعم، فيهم المُستَبصر^(١) والمجبور وابن السبيل يهلكون مَهْلِكًا واحدًا، ويصدرون مصادِرَ شَتَّى^(٢) يبعثهم الله تعالى على نياتهم»^(٣).

عن عبيد الله بن القبطية قال: دخل الحارث بن أبي ربيعة، وعبد الله ابن صَفْوَانَ، وأنا معهما، على أُمِّ سَلَمَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَسَأَلَاهَا عَنِ الْجَيْشِ الَّذِي يُخَسَفُ بِهِ -وكان ذلك في أَيَّامِ ابْنِ الزُّبَيْرِ-، فقالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَعُودُ عَائِدٌ^(٤) بالبيت، فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءٍ مِنَ الْأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ»، فقلت: «يا رسول الله، فكيف بِمَنْ كَانَ كَارِهًا»^(٥)، قال: «يُخَسَفُ بِهِ مَعَهُمْ، وَلَكِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى نَبِيَّتِهِ»^(٦).

وَرُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا ظَهَرَ السُّوءُ فِي الْأَرْضِ، أَنْزَلَ اللَّهُ بِأَهْلِ الْأَرْضِ بِأَسَهِ» قالت: وفيهم أهل طاعة الله؟ قال: «نعم، ثم يصيرون إلى رحمة الله تعالى»^(٧).

وَرُوِيَ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا ظَهَرَتِ الْمَعَاصِي فِي أُمَّتِي، عَمَّهِمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ

(١) المستبصر: هو المستبين للأمر، القاصد لذلك عمداً، والمجبور: المكره المقهور.

(٢) المقصود أن مهلك هذا الجيش مهلك واحد يُخَسَفُ بهم جميعاً، إلا أنهم يصدرون عن الهلكة مصادر متفرقة، فواحد إلى الجنة، وآخر إلى النار، على قدر أعمالهم ونياتهم.

(٣) رواه البخاري (٣٣٨/٤ - فتح)، ومسلم (٢٢٨٤).

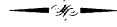
(٤) العائد: اللاجئ إلى الشيء المحتمي به، الممتنع على من يطلبه.

(٥) كارهًا: أي غير راضٍ بما قصدوا.

(٦) رواه مسلم (٢٨٨٢)، والترمذي (١٢٧٢)، وغيرهما.

(٧) أخرجه الإمام أحمد (٢٤١٣٣)، وضعَّفه محققو «المسند» (١٦١/٤٠).

من عنده». فقلت: يا رسول الله، أما فيهم أناس صالحون؟ قال: «بلى». قالت: فكيف يصنع أولئك؟ قال: «يُصيبهم ما أصاب الناس، ثم يصيرون إلى مغفرة من الله ورضوان»^(١).



يتعامل البشر فيما بينهم بناء على ما يظهر منهم، أما الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فهو وحده المَطْلَعُ على ما تخفيه القلوب، وتُكِنُّهُ الصدور.

وقد يشاء الله -كونًا وقدرًا- أن يُنزل العذاب العام على خلقه كالوباء، والمصائب، والإهلاك بالموت، فيصيب المؤمنين أيضًا لحِكم يعلمها كسائر ما يصيبهم من الابتلاء في دار الدنيا، فهذا فعلُ الله وقضاؤه الكوني القدري ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وليس للظالم المعتدي الذي يطبق «العقاب الجماعي» أن يحتج بفعلِ الله الكوني القدري، ويجعله مسوِّغًا لعقابه الناس على ذنبٍ لم يقترفوه، ويعارض به أمر الله الشرعي الإرادي الطلبي^(٢): فقد أمرنا بالعدل حتى مع الكفار، وحرَّم كل أنواع الظلم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فالعدل مأمورٌ به في جميع الأعمال، والظلم منهيٌّ عنه نهياً مُطلقاً»^(٣).

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٦٥٩٦)، والطبراني في «الكبير» (٧٤٧/٢٣)، وضعفه محققو «المسند» (٢١٦/٤٤).

(٢) وقد كان عدم التفريق بين الأمر الكوني القدري، والأمر الشرعي الإرادي الطلبي سببًا في تورُّط بعض الغلاة الجاهلين في إراقة دماء الأبرياء مُحْتَجِّين بحديث (يبعثهم الله على نياتهم).

(٣) «الرد على المنطقيين» (ص ٤٢٥).

النوع التاسع عشر العقاب بالفلل الحار أو الصبار المر (تعذيب وليس تهذيباً)



في المكسيك القديمة:

- كانوا يعاقبون الطفل الشديد البكاء بأن يضعوا في فمه نباتات شديدة المرارة؛ (كي يتأذّب).

- وإذا كذب الطفل يعاقبونه بحكّ لسانه بأشواك الصبار لاعتقادهم أن نبات الصبار يجبر بمرارته الناس على قول الحقيقة!

- وإذا كان الطفل مشاعباً مثيراً للمشاكل مع أقرانه فكان آخر حلّ معه أن يتم إشعال النار أسفل الفلفل الأحمر الحار، ويحمل الطفل على أن يستنشق دخانه الحارق، وأثناء ذلك لا يُسمَح له بأن يغلق عينيه.

وفي القرن الواحد والعشرين:

لا يزال بعض الآباء يعاقبون الطفل بفرك فمه بقرن الفلفل الحار، أو إجباره على شرب الشطة الحارة أو الخل، أو بوضع الملح في فمه، بل من الأمهات من إذا أرادت أن تفطم الرضيع وضعت لُزوجة نبات الصبار المشقوق على موضع الرضاعة، مما يشكل صدمة نفسية (غادرة) للطفل، فينفر من الرضاعة ويفطم^(١).

(١) ولهذا الفطام الصادم المفاجئ آثار نفسية سيئة على الطفل، والصحيح أن يتم الفطام بالتدريج بأن يُعطى وجبة جافة تحل محل رضعة بدايةً من آخر شهره السادس، ثم تزيد تدريجياً حتى =

وقد حدث مرة أن طفلاً عمره ست سنوات التقطت أذنه كلمة نابية جرت على لسان شخص في الشارع، وحين اصططحبه أبوه لزيارة جدّه، وكانت حالته هناك، ناداها الطفل بهذه الكلمة، وهو غافل عن معناها؛ لأنها كانت أول مرة يسمعها في الشارع^(١)، وهو يحسب أنه بذلك يمازحها ويتقرب إليها، وأمام دهشة الجميع، انطلق الجدّ مسرعاً إلى المطبخ، وجاء بقرن فلفل حار، وفرك به فم الطفل بشدة، قائلاً له: «هذا جزاؤك؛ لأنك تكلمت بلفظ غير مهذب، وأهنت خالتك».

يقول الأب: هذه الحادثة كسرت قلبي، وعندما رأيت ردّة فعل ابني أوشكت أن يُغمى عليّ، ولم أستطع الاقتراب منه لكثرة صراخه، ولرؤية دموعه تُغرق وجهه الصغير، فقامت أمي وأخذته وأعطته حليباً ليهداً، وتخفف عنه شعوره الحارق، ونهرت الجدّ قائلة: «نحن نهدد بالحر - الفلفل الحار - لكننا لا ننفذ تهديدنا».



= يرضع مرّة في الصباح ومرّة في المساء، ثم مرّة في المساء فقط، إلى أن يتم الفطام عند تمام السنتين بحيث يكون قد انتقل من الامتصاص إلى المضغ بطريقة طبيعية متدرجة بدون عنف.

(١) وما دامت هذه الحادثة عابرة، والطفل صغير السن وبخاصة من (٢ إلى ٤) سنوات فالحل الأمثل هو التجاهل؛ لأن ذلك هو ما يمحوها من ذاكرته، وأمّا التركيز عليها وربطها بالعقاب ووصفه بأنه (قليل الأدب) فإنّ هذا يرسّخها ويثبتها، وعلى الأم أن تُعوّده على أن يرجع إليها إذا سمعَ لفظاً لا يعرفها، وأراد استعمالها لتشرح له هل هي لائقة أو لا؟

النوع العشرون

العقاب بالتعذيب الجسدي

يتفنن بعض الآباء في تعذيب أولادهم بصور بشعة تطبع آثارها السيئة عليهم، وذلك كله بهدف عقابهم وتعديل سلوكهم، ومن هذه الصور:

- تسخين ملعقة معدنية، ثم لسع جلد الطفل بها.

- إيقاد شمعة، ثم تنقيط ما انصهر منها على جلده.

- يُحضّر الوالد حبيبات (البسلة) المجمدة أو حبّات الأرز، ثم ينثرها على الأرض، ويأمر الطفل بأن يجثو بركبته عليها، مع رفع ذراعيه مبسوطين إلى أعلى لمدة من الوقت.

- أو يجثو بركبته على آلة بَشْر الجُبْن (Cheese grater).

- أو بأن يُلقِي طعامه على الأرض القذرة ثم يُجَبِّر على أن يقترب منها بفمه، ويأكل الطعام المرمي المختلط بالقذارة.

- ومنهم من يضرب الطفل على القفا، أو يصفع وجهه، أو يجلد ظهره بالسلك الكهربائي.

- تقول إحدى الفتيات: «في ذراعي علامة كلما رأيتها شعرت بالحزن، وسألتُ الله أن يسامح أمي، ففي طفولتي تكاسلتُ يومًا عن الصلاة، فأخَذَتْ أُمِّي ملعقة، وسخَّنتها على النار، وحرقت بها يدي، وهي تقول: «ذوقي نار الدنيا؛

لأنك تركت الصلاة، قبل أن تذوق نار الآخرة»، وكان الحرق شديداً فسبب التهاباً في يدي، ظللت أعالج منه فترة، وقد ترك أثراً واضحاً في ذراعي، وحاولت محوهُ بكل طريقة ممكنة فلم أستطع، وبكى بسببه شهوراً، وكانت أصعب لحظات حياتي حين ترى إحداهن هذا الأثر في ذراعي فتسألني عن سببه، فأستحي أن أقول لها ما حدث، وأقول له: «إنه حرق قديم»، ولقد كان هذا الحرق سبباً في كراهيتي لأمي، وبسببه كرهت الصلاة لفترة، ورجعت إليها بصعوبة»

إنَّ العقاب باللسع والكي بالنار مما حرَّمه الشرع الشريف، فقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَا يُعَذَّبُ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ»^١

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَرَأَى قَرْيَةً نَمْلٍ قَدْ حَرَّقَهَا، فَقَالَ ﷺ: «مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ»، قُلْنَا: نَحْنُ، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذَّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ»^(٢).

إنَّ هذه الصور من العقاب الجسدي البشع لا وجود لها في برامج تعديل سلوك الأطفال التي تركز على إيجاد سلوك إيجابي بديل.

والعقاب الجسدي يحل المشكلة بشكل مؤقت؛ لأنه مجرد قمع وتخويف، ولا يُعلِّم الطفل السلوك الإيجابي.

(١) «كيف تعاقب ابنك تارك الصلاة؟».

(٢) رواه من حديث حمزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الإمام أحمد (١٦٠٣٤)، وأبو داود (٢٦٧٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٩٩٠)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٢٣٢٧).

(٣) رواه أبو داود (٢٦٧٥، ٥٢٦٨)، والحاكم (٢٣٩/٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (رقما ٢٥، ٤٨٧).

ومن أضرار هذا العقاب:

- أنه يُفقد الطفل الشعور بالأمان، ويزرع فيه الخوف.
- ويُضعف ثقته بنفسه؛ لأنه يشوّه مفهوم الذات لديه.
- ولأنه يتخذ سلوك المربي مثالاً يحتذيه، فيحل مشاكله مع الآخرين بالعنف.
- وقد يسبب له مشاكل نفسية: مثل التبول اللاإرادي، واضطرابات السلوك، والانطواء، والثأأة في الكلام، وضعف الانتباه والتركيز، والخوف المرضي (الرهاب).
- وقد يتهدى في السلوك السيئ عنادًا وانتقامًا، وربما اتجه إلى السلوك العدواني ضد المجتمع كله.
- وقد يُبغض المربي وينفر منه؛ لأن هذه الأساليب القاسية تحفر أخاديد عميقة في نفس الطفل تستعصي على النسيان مهما كبر.
- إنَّ لجوء المربي إلى هذه الصور البشعة من العقاب يدل على جهله التربوي، ويجب أن يخضع هذا المربي إلى تأهيل يُوعِّيه بهذه المخاطر، ويعلمه التفريق بين العقاب التربوي والتعذيب، ويبصره بالأساليب الإيجابية لتعديل السلوك.



النوع الحادي والعشرون الضرب غير التربوي

الضرب غير التربوي من أسوأ أساليب التربية؛ لأنه يطبع على الطفل آثاراً جسديةً يتبعها آثار نفسية وانفعالية تضر صحته النفسية.

لقد دلت نتائج الأبحاث الميدانية في العلوم السلوكية أنَّ الآثار الجانبية الناتجة عن هذا النوع من العقاب كثيرة ومتنوعة، فربما أدَّى إلى ظهور مجموعة جديدة من السلوك المنحرف كالكذب، والسرقة، والخداع، والنشل، وإشعال الحرائق. وأما الآثار الداخلية في الفرد نفسه فتتمثل في العقد النفسية، وخدش الكرامة الإنسانية، والكآبة، والعادات المنحرفة، والانحراف، وعدم احترام الذات، والشعور بالذنب، والأحلام المزعجة، والتبول أثناء النوم، وعدم الرضى عن النفس. وربما تتحوَّل هذه المشاعر إلى النقمة على المجتمع وعدم احترام حقوق الآخرين، بل واستخدام العنف معهم. هذا بالإضافة إلى تدمير الثقة المتبادلة بين الوالدين وأولادهم^(١).

أولاً: أضراره الجسدية

يلجأ بعض الآباء والمدرسين إلى العقاب الجسدي من أجل الحدِّ من سلوكيات الأطفال السيئة، وقد اكتظَّت جعبة الباحثين الأكاديميين على مستوى

(١) «كيف تنمي الانضباط الداخلي عند أطفالك؟» (ص ٦٥).

العالم بنماذج عقابية بالغ فيها المربون في إيقاع العقاب الجسدي على التلاميذ، حتى تحوّلت أحياناً إلى جرائم قتل غير مقصودة ارتكبتها الآباء أو الأمهات أو المدرسون وهم في حالات غضب شديدة، وربما انتهى العقاب البدني العنيف إلى إحداث إصابات وجروح بجسد الطفل تترك أثراً لا يزول وعاهةً مستديمة تنقل مرتكبها من الجنحة إلى الجناية^(١)، وتبقى شاهدة على ما تعرّض له الطفل من قسوة ووحشية وتشويه، ووثيقة مكتوبة على جسده تُذكره طولَ عمره بآلام طفولته المريرة، وما تعرّض له من انتهاك على يد من يدعون أنهم أرادوا به خيراً، ناهيك عن العاهات النفسية التي تشوه نفسيته، وتدمر شخصيته، وتحرف مسيرته.

قال أحد الشباب لمحدثه وهو يجترُّ ذكريات طفولته، مشيراً بإصبعه إلى مواضع متفرقة من جسده ترك فيها الضرب العنيف آثاراً وندبات دائمة على جسده:

«- هذه لأنني لم أجب السؤال،

- وهذه لأنني أجبتُ إجابة خاطئة،

- وهذه لأنني أحدثتُ شغباً وضوضاءً...» وهكذا.

(١) قسّم القانون الجرائم تقسيماً ثلاثياً تبعاً لجسامتها وخطورتها على المجتمع، وهي: الجنايات، والجُنْح، والمخالفات، وهذا التقسيم يحدد الجريمة تبعاً لمدة العقوبة المقررة لها في قانون العقوبات.

فالجناية: يعاقب عليها بالإعدام أو السجن المؤبد أو السجن المشدد، أو السجن من (ثلاث سنوات إلى خمس عشرة سنة)، ومن أمثلتها: القتل والسرقة.

والجُنْح: هي التي يعاقب عليها بعقوبات الحبس (من أربع وعشرين ساعة إلى ثلاث سنوات)، أو الغرامة أو هما معاً، ومن أمثلتها: المشاجرات البسيطة، والضرب، والمشاجرات والإزعاج، والقيادة المتهوره بسرعة زائدة، وتخريب ممتلكات الغير.

والمخالفة: هي الجرائم التي يعاقب عليها بالغرامة فقط، ولا تزيد على مئة جنيه.

وهذا طفل لطمته أمه على عينه حتى نزت دمًا.

وهذا أب كسر ذراع ولده وهو يضربه بعنف.

وهذا أب عاقب ابنه بأن لبس قفازي الملاكمة، وأشبعه لُكْمًا عنيفًا حتَّى

أدماه ونزف أنفه، بينما حاول الطفل الدفاع عن نفسه دون جدوى.

الشرع الشريف يُجرّم تعذيب الأطفال؛

في ضوء قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كل المسلم على المسلم حرام»^(١)

الحديث، نجزم بأن الأصل الأصيل هو المحافظة على سلامة هذا البدن من

العدوان والأذى، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنَّ الله يعذب الذين يعذبون

الناس في الدنيا»^(٢)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من لا يرحم لا يُرحم»^(٣).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب

البقر يضربون بها الناس»^(٤) الحديث.

وعن أبي مسعود البصري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنتُ أضربُ غلامًا لي بالسوط،

فسمعتُ صوتًا من خلفي: «اعلم أبا مسعود»، فلم أفهم الصوت من الغضب،

قال: فلمَّا دنا منِّي، إذا هو رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا هو يقول: «اعلم أبا مسعود،

اعلم أبا مسعود»، قال: فألقيتُ السوطَ من يدي، فقال: «اعلم أبا مسعود أنَّ الله

أقدرُ عليك منك على هذا الغلام»، قال: فقلتُ: لأ أضربُ مملوكًا بعده أبدًا، وفي

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) رواه مسلم رقم (٢٦١٣).

(٣) رواه البخاري رقم (٥٦٥١).

(٤) رواه مسلم (٢١٢٨).

رواية: فقلت: يا رسول الله هو حرٌّ لوجه الله، فقال: «أما لو لم تفعل لَلَّضَحَّتْكَ النارُ، أو لَمَسَّتْكَ النارُ»^(١).

وإذا صدق هذا الوعيد في حق من يصول على أبدان عموم الناس، فكيف بمن يصول على بدن طفل ضعيف هش لا يملك لنفسه حمايةً ولا دفعاً أمام من هو أقوى منه أضعاف المرات؟!!

إنَّ هذا «السادى» المجرم لا يستعملُ «الضرب» التربوي الذي أحاطه من أجازوه بسياج من الاحتياطات والضوابط، ولكنه يستعمل الضرب «الانتقامي»، لا لمعالجة سلوك الطفل، ولكن ليفرِّغ شحنة غضبه، ويشفي غيظ قلبه من هذه «الضحية» الضعيفة.

فهنا طرفان في مواجهة جبانة خسيصةٍ دنيئةٍ بين نفس طاهرة بريئة عجيبة غضة طرية، وأخرى معتدية مجرمة، بدون أدنى قدر من التكافؤ بينهما في القوة والخبرة والعلم وفهم الأمور.

ومع وجود طائفة من المربين تنظر إلى (الضرب) كوسيلةٍ تربويةٍ لتأديب الطفل بشروطٍ وضوابط دقيقة، لكن جميع المربين والمشرعين مجتمعون على إدانة العقاب البدني الشديد المؤذي، وأنَّ التأديب لا يكونُ بالإتلاف، بل إنَّ التشريع الإسلاميَّ يُلزِمُ المعلِّمَ المتعدِّي بالضمان إذا أتلف شيئاً من الغلام^(٢).

(١) رواه مسلم (١٦٥٩).

(٢) المغني (١٣٣/٦).

ومهما حاول المتخصصون وضع ضوابط وقواعد إجرائية للعقاب البدني التربوي، فإن الواقع المؤلم صارخ بأن الالتزام بهذه الضوابط أمرٌ نادرٌ الحدوث، بل إنه غالبًا ما ينحرف عن مساره إلى انتقامٍ وتَشَفٍّ من الطفل، وتنفيسٍ لغضبِ المربي.

وكم من طفلٍ هزيلٍ مريضٍ لا يصلح أصلًا للعقاب البدني تعرَّضَ لعدوانٍ عنيفٍ من مربيه انتهى به إلى المستشفى أو حتى إلى المقبرة!

كم من عاهةٍ بدنيةٍ تسبب فيها المربون الغلاظ القساة للطفل الضحية، كفقء عين، أو بتر ذراع، أو نزيف في المخ، أو نزيف داخلي، إلخ!

وفيما يلي نذكر وقائعَ من هذا النوع العنيف من «التأديب» زعموا! تجسد لنا خطره على أبنائنا وفلذات أكبادنا:

١ - قال شيخ الأزهر الأسبق العلامة محمد الخضر حسين رَحِمَهُ اللهُ:

«ذهبتُ إلى الجامع الأزهر لأذان العصر، وانتدبتُ للتحية مكانًا بين مجمعين لتعليم القرآن، فانشق صدري أسفًا لأحدِ المعلمين؛ إذ كان لا يضع العصا من يده، ولا يفتر أن يقرع بها جُنُوبَ الأطفال، وظهورَهم بما ملكت يده من القوة، وربما قفز الصبي آبقًا من وجع الضرب، الذي لا يستطيعُ له صبرًا، فيثبُّ في أثره بخطواتٍ سريعة، ويجلده بالمقرعة جلدًا قاسيًا، حتى قلتُ لأزهرِيَّ كان بجنبي: (من جلس إزاء هذه المزعجات فقد ظلم نفسه)، وذكرتُ أنَّي كنتُ ألقىُ خطبةً في أدبِ تعليمِ الصبيان ببلد (بنزرت) لما كنتُ قاضيًا بها، وأدرجتُ فيها ما قرره صاحب «المدخل» من الرفق بالصبي، وعدم زيادة المعلم إن اضطر إلى

ضربه على ثلاثة أسواط، وتحذيره من اتخاذ آلة الضرب مثل عصا اللوز اليابس، والفلقة، ولما خطبتُ في هذه الآداب أرسل لي بعضُ المعلمين كتابًا على طريق البريد يعترضُ فيه على نشر هذه الآداب، ويقول: إنَّ هذا مما ينبه قلوب التلامذة للجسارة علينا»

٢- وتحت عنوان «لا تكون التربية هكذا» كتب الدكتور عمر الأشقر رَحِمَهُ اللهُ: «أبتاه: انظر، لقد أخذ الطبيب يدي، لقد نزعهما، أبتاه: لن أعصيك بعد اليوم، فقل له يعيدهما، فسأكون لك طيعًا، ولأمرِك مُليًّا، لماذا تبكي يا أبي؟». وكيف لا يبكي أبوه، بكاءً دونه كل بكاء! إنَّ الألم يعصف به، والحزن يمزقه، إنه يرى نتيجة عمله الأحمق ماثلاً أمام عينيه، لقد أفسد على ابنه الشيء الكثير، فحرمه من نعمة اليد، كم كان قاسيًا جاهلاً عندما أوثق هذا الولد المسكين الذي لا يملك حَوْلًا ولا طَوْلًا، أوثق كلتا يديه إيثاق المجرمين، لا يرحم بكاءه، ولا يقبل شفاعة أمه فيه، ثم ألقى به سجينًا في حجرة من حجرات المنزل، وبعد وقتٍ ليس بالقصير خفت صوتُ الغلام، وتغيَّرتْ نبراته، فلمَّا فتح عليه باب الحجرة وجده متغيَّرَ اللون مبهور الأنفاس، ووجد يديه لا تكادان تتحركان، فسارع به إلى المستشفى بعد أن فكَّ رباطه، وصعق لهول النبأ، إنَّ ربطَ يديه هذه المرة زمنًا طويلًا أفسد اليدين، ولا سبيل للحفاظ على بقية الجسم إلا بترهما.

أنرثي لمصاب هذا الأب الجاهل، أم نلومه ونوبِّخه؟

كثيرٌ من الآباء -في سبيل تقويم الأبناء- يسلكون سبيلًا معوجة، تؤدي إلى مصائبٍ وبلايا، نعم قد تؤدي إلى عاهات ظاهرة، وأحيانًا إلى عاهات نفسية تلاحق الصغار في يقظتهم وتُفزعهم في منامهم. يقول لك الآباء: إننا نريد الخير في قسوتنا على الأبناء، ونقول لهم قولة ابن مسعود: «وكم من مُريدٍ للخير لا يدرکه!»، إن للخير سبلاً تؤدي إليه.

إنَّ العصا تكون طريقًا للتقويم إذا صاحبته يدٌ حانية، ولسانٌ هادٍ، وقلبٌ رحيمٌ. العصا أداة تنفع، ولكن إذا وجدت الذي يستخدمها بحكمة ولطف، إننا نريد الضرب غير المبرح، عندما نستنفد كلَّ سبل العلاج.

وكم ألمني يومًا في مدينة الرسول ﷺ إذ رأيتُ أبا في صورة جلّاد على مدخل أحد أبواب المسجد النبوي يلسع أبناء له ثلاثة لسعًا يرتفع له عويلُهم فيفتت القلوب، ولقد ذهلت عندما علمت أن هذا الرجل يُعلِّمُ أبناءه بعضَ العلم الذي لا يُحسنه، ويظن أن العصا ستُدخل هذا العلمَ في قلوبهم وعقولهم، ولقد كان هذا الأسلوب أسلوبَ بلاء عانى منه طلبة العلم الشيء الكثير كما عانى منه الأبناء، وتغيرت النظرة، وبقي قومٌ يعيشون في العصور الأولى، يلطمون الأبناء والتلاميذ لطم غرائب الإبل.

واشتطَّ قومٌ فأرادوا أن لا يُستعمل الضرب حتى عند الحاجة إليه، والحق بين ذلك، الضرب لا بد منه في التربية، ولكنه ضرب التعليم الحاني الرقيق، الذي يُعرِّف ابنه أو تلميذه بسبب العقوبة، ثم يحنو ويأسو ويعالج آثارها، والسعيد من وُعِظَ بغيره»^(١).

(١) «مواقف ذات عبر» (ص ٧٢-٧٤).

٣- وقال الدكتور مصطفى أبو سعد تحت عنوان «نعم للتأديب، لا للقسوة»: «كما أنه ليس جائزاً لنا أن نحول غضبنا إلى قسوة مبالغ فيها بإهدار إنسانية الأبناء. إن هذا الإهدار يجعل الأبناء في حالة من الرعب المستمر من الحياة، ويزرع في نفوسهم التشاؤم، ويلقيهم في أحضان الإحساس بفقدان القيمة والاعتبار.

إنني لا أنسى على الإطلاق وجهَ ذاك الشاب الذي كان والده يجلده كلما أخفق في سنته الدراسية، وكانت طريقة الجلد مستوردة من العصور الوسطى، إذ يرقد الابن على ظهره، ويمسك الأب بساقي ابنه بين فخذه، ويبدأ الضرب العنيف على بطن القدمين. والغريب أن هذا الابن كان يحفظ الكتب الدراسية عن ظهر قلب، ولكن ما إن يدخل الامتحان ويمسك بورقة الإجابة حتى ينسى كل شيء تماماً»^(١).

٤- وتحت عنوان: «تأديب أم تعذيب» كتب أحد التربويين: «حين اكتشفتُ أن ابنها الذي يبلغ من العمر ثماني سنوات يمارس التدخين شعرت أن الأرض تنزلزل من تحت أقدامها، فكيف يدخن صغيرها الذي لم تبخل عليه بشيء، ولم تهمله في يوم من الأيام؟

في صبيحة اليوم التالي حمل الهاتفُ صوتها الحزين، وبكثير من المعاناة بدأت تروي تفاصيل الحدث المفاجئ، والذي وصفته بأنه سلوكٌ خطيرٌ يؤذنُ بكارثةٍ محتملة إن لم تبادر في علاج الموقف.

(١) «الحاجات النفسية للطفل» (ص ٦١).

قالت الأم: لقد انهلتُ عليه ضرباً بكل ما أُوتيتُ من قوة، فقدتُ أعصابي، ورحتُ أنفُس عن شعوري بالإحباط وخيبة الأمل.

لقد انهارت كل أحلامي فجأة، وأحسستُ بالصدمة، وكان لا بدَّ وأن أعلم مدى الجرح الذي سببه لي حين بدأ يقلد من هم أكبر منه سنًا من أبناء الحي، الشيء الذي قد يحوِّله إلى مدمن في فترة قصيرة.

ثم أضافت: لقد ضربته حتَّى كلَّتْ يدي، وحين رأيتُ الدَم يسيل من ساقه لم أبال بذلك، وتركته ينام دون أن أداوي جرحه.

لم يَفُتْ هذه الأم التي غدت في حالة لا تُحسد عليها أن تقول: «صدقيني لقد أمضيتُ الليل كلّه، وأنا في حالةٍ يُرثى لها؛ إذ داهمتني الحمّى، وجافاني النوم، وبتُّ أرثي حظّي وقسمتي في الحياة».

مثل هذه الحكاية يمكن أن تتكرر في كثير من البيوت التي تعتقد أن إيمانها ببعض النظريات والمُثُل وحرصها على أن يجسدها الأبناء في الواقع يكفي لتحقيق الأحلام، وجعل الحياة وردية ناعمة.

لا تتردد الأسر المسرفة في أحلام اليقظة في القول بأنّ الموارد الثلاث من العاطفة والمال والوقت تكفي لتحويل الآمال إلى واقعٍ حيٍّ.

وذلك وهم من الأوهام القاتلة التي فتكت بأسر كثيرة اعتقدت خطأ أنه كلما ارتفع سقف الأهداف التربوية كلما اختُصرت المسافة إليها، طالما أنها تتوفر لها هذه المقومات الثلاث.

إذ إن العاطفة غير الذكية قد تفسد أكثر مما تصلح، والمال الذي لا تضبطه سياسة واعية قد يتحوّل إلى وسيلة تهدم روح الفرد، وتُضعِف قابليته للسيطرة على رغباته وأهوائه.

كما أن الوقت المفتوح الذي يُصرف دون هدف واضح وبرنامج محدد هو وقت مهدور نتيجة قصور الأدوات المعرفية للطرف الذي يجهل كيف يستثمره على النحو الصحيح.

نحن بحاجة ماسّة إلى حزمة كبيرة من المفاهيم التربوية عالية الجودة لتضاف إلى الرصيد المعرفي للآباء والأمهات حتى تتوفر لهم رؤية واسعة تتجاوز خنادق الأفكار الضيقة، ومازق النظرة المبسّرة، والفهم القاصر الذي يجلب من الأزمات أضعاف ما قد يأتي به من حلول طارئة، سريعة التلاشي والانطفاء.

هذه الحزمة المفاهيمية من شأنها أن توسّع دائرة الفهم للأطراف المعنية بالتربية وبناء الشخصية بحيث تتوفر رؤية نافذة تقي الآباء والأمهات من العثرات والانحناءات في مسيرتهم التربوية.

وبالعودة إلى سلوك الأم الذي أعده مبالغاً فيه، وقاصراً عن الوفاء بمتطلبات احتواء الموقف ومعالجته معالجة شافية يمكن الوقوف على جملة من الأخطاء الموضوعية التي صدرت منها دون وعي وإدراك.

من ذلك اعتبارها تورط طفلها في التدخين كارثة نزلت به وبها، وفي ذلك مبالغة وخروج عن خط الاعتدال، الأمر الذي يحتاج إلى الشجاعة في نقد الذات والبدء بها، قبل أن يُنتقد الطفل ويُدان.

إلى جانب قصور الرؤية حول سلوك الطفل المفاجئ كان يجب أخذ عدة مسائل بعين الاعتبار قبل اللجوء إلى العقاب البدني، مثل مراعاة المرحلة العمرية للطفل لمعرفة مدى قدرته على إدراك خطورة التجربة التي قام بها، إلى جانب تحديد خطوات عملية مناسبة لاحتواء الموقف والسيطرة عليه.

ولو تأملنا الحالة التي بين أيدينا لا تَصَحَّ لنا أنه من الصعب أن يحيط طفل في هذه السن الصغيرة بالنتائج السلبية التي تترتب على هذه التجربة الساذجة التي يقوم بها.

وبالتالي يُعدُّ تجريم الطفل الذي صدر منه سلوك سلبي في مثل هذه السن الصغيرة دليلاً على قلة المعرفة وضعف المفاهيم التي بحوزة الكبار.

٥- ومن بين الجرائم العائلية التي وقعت ضد الأطفال ونشرتها الصحف، اتهام سيدة سعودية طليقها بممارسة العنف ضد أطفالها، بتعريضهم للكي بالنار، ومنعهم من الأكل والشرب، وربط العضو التناسلي لأحدهم بقطعة مطاطية لمنعهم من التبول اللاإرادي^(١)!!

(١) «العنف الأسري جاهلية العصر» للأستاذ عامر شهاخ (ص ٣١).

وكيف ينتظر المربي من ابنه خيرًا وبرًا وهو قد أهانه وأذله بصنوف الإيذاء المستقبحة جميعها.

٦- كيف بأبٍ يعلق ابنته ذات السنوات العشر في السقف كالمروحة والمصباح، وكيف بأم تجلد ابنها وهو عريان وتمنعه من الأكل مع أفراد الأسرة لمدة أسبوع يظل فيها يأكل وحده في غرفته كالكلب الأجرّب.

٧- وفي القصة التالية دلالات ناطقة بحيث لا تحتاج تعليقًا:

«دعيت سيدة تونسية في إحدى مدن الساحل إلى حضور حفل عيد ميلاد، فاصطحبت ابنها الصغير، وفي خِصَمِ الحفل وعند عرض مائدة الحلويات والمرطبات تجمّع الكبار والصغار، وسال لعاب الجميع، وبراءة الأطفال تقدّم الطفل قليلًا ومدّ أصبعه فلمس شيئًا من الحلوى، إلّا أن صاحبة الحفل احتجّت على ذلك، ونعتت الطفل بانعدام التربية وقلة الذوق، ولامت أمه على اصطحابه.. وتفرّق الحفل.. وبمجرد دخول الأم إلى المنزل انهالت على فلذة كبدها ضربًا ورفسًا وركلاً حتى لم يعد المسكين قادرًا على الحركة، فألقت به في سريره وغطته، ورجع أبوه من عمله وسأل عنه، واتجه إلى السرير لإيقاظه فإذا هو جثة هامدة، وكان رد فعله عنيفًا فقد اختطف طنجرة كانت تغلي فوق الموقد وصبّها على الأم القاتلة فأصابتها حروق بليغة عجزت المجهودات الطبية عن إسعافها فلحقت بابنها وتركت زوجها في السجن».

٨- تلميذ في الصف الأول المتوسط أغضب المعلم، فوضع المعلم المغضّب كفيه على رقبة التلميذ فأحاط بها، ثم أخذ يخنقه، والتلميذ يصيح ويستغيث، حتى دبّ الرعب في الفصل فصاح التلميذ، ثم تركه بعد أن أجهدّه.

٩- أخذ أحد المعلمين تلميذًا من الصفوف الابتدائية الأولية، ووضعه داخل خزانة في جدار غرفة المعلمين، ضمن مبنى قديم متهاالك، قد بُني بالحجارة، على أن يخرجّه بعد يسيرٍ من الوقت، إلا أنه نسيه في حبسه، وما تفتّن إليه إلا بعد انتهاء اليوم الدراسي بوقتٍ طويل، حين انطلق والده للبحث عنه، فوجده في حالة سيئة، قد مُلئ رُعبًا، وتلوّثًا بفضلاته.

يقول الدكتور عدنان باحارث -حفظه الله:-

«لقد أفرط المجتمع -في مرحلة سابقة- في إعطاء المعلمين وإداراتهم المدرسية الثقة الكاملة للتصرف بشأن عقوبة التلاميذ الصغار، دون ضوابط ولا زواجر تحكم تصرفاتهم، فقد غلب الظنُّ أنَّ العنف المدرسي ضد التلاميذ: أداء ضروري لاكتمال العملية التعليمية، حتى شاع في المجتمع عبارات الإفراط الممعة في الثقة: «كسّر ونحن نُجَبِّر»، «لكم اللحم ولنا العظم»، مما دفع بعض المعلمين من المستجدين، ممن قلّت خبرتهم، وآخرين ممن اختلّت أخلاقهم، وصُعِفَ الوازع الديني في نفوسهم، إلى الانطلاق تجاه الصغار ليمارسوا في حقّهم أبشع أنواع التعذيب، ويفرغوا على أبدانهم أقسى أنواع العقوبات، بهدف إرهابهم وإخافتهم من جهة، وبهدف ممارسة عدوانيتهم، وتفريغ شحنات

نفوسهم السادية من جهةٍ أخرى، وفي استعراض الحالة التالية ما يوضح بجلاء هذا المعنى الخطير:

١٠ - معلم في المرحلة الابتدائية في منطقة نائية، إذا أراد أن يعاقب بعض التلاميذ: دَلَّ من بين الأعمدة الخشبية لسقف الحجرة الدراسية حبلًا أو عمامة لأحد التلاميذ، ثم تناول التلميذ «الضحية» وأوقفه على كرسي تحت الحبل، ثم شدَّه بإحكام حول رقبته، ثم دفع بالكرسي بعيدًا عن متناول قدمي التلميذ، فيبقى المسكين متدليًا من السقف، يصارع مقدمات الموت، ويدافع بيديه الهلاك، حتى إذا بلغ منه الجهد مبلغه، وانتقع لونه: أذن المعلم «الجلاد» بإعادة الكرسي تحت قدميه، ثم حلَّ رباطه!!

لقد أدَّت مثل هذه المسالك المتوحشة إلى ظهور تيار قوي معارض في الاتجاه الآخر، ينبذ مطلق العقوبة حتى مجرَّد التلويح بها، ويجرِّم كل أداء خشن مع التلميذ، مهما بدر منه من أخطاء سلوكية، ويكتفي -لعلاج ذلك- بأساليب: الثواب، والحوار، والإقناع، وقد وجد هذا الاتجاه المتطرف مكانه لدى صانعي القرارات في وزارات التربية والتعليم، فما لبثت المجتمعات المتحضرة طويلاً حتى أفرزت هذه القرارات المتطرفة: عنفاً مضاداً ضد المعلمين والإدارة المدرسية، فوقع بعضهم ضحايا العنف الطلابي، ضمن مواقف تربوية مخزية، فقد فيها المعلم المعاصر جانباً كبيراً من هيئته...»^(١).

(١) «عقوبة التلاميذ البدنية» (ص ٢٠).

ثانيًا: الأضرار النفسية للضرب غير التربوي

أساليب التربية بالعقاب كثيرة ومتنوعة، وقد كان العقاب بالضرب أقدم وسائل السيطرة الاجتماعية التي مارسها البشر.

لقد استخدم المربون العقاب كثيرًا في الماضي وكانوا ينصحون به، فمنظر مدير المدرسة الذي يحمل العصا في تجواله في المدرسة، أو منظر المعلم الذي يدخل غرفة الصف والعصا بيده، كان منظرًا مألوفًا لدينا خلال حقبة ليست بعيدة من الزمن.

ومع أن «الحنين إلى الماضي وذكرياته الجميلة» هو المعنى الذي استقر عليه الآن مصطلح نوستالجيا (Nostalgia)، وهي عملية انتقائية يتم فيها استرجاع

(١) وأصلها اليوناني يعني الألم الذي يعانيه المريض إثر حنينه للعودة إلى بيته، وخوفه من عدم تمكنه من ذلك إلى الأبد، وصُنّف هذا في عام (١٦٨٨م) كحالة مرضية أو شكل من أشكال الاكتئاب، ثم صارت تستعمل الآن للتعبير عن حب شديد وحنين جارف للعصور الخالية بشخصياتها وأحداثها وعشرتها القديمة مع (ناس زمان) و(أخلاق زمان) و(خير زمان) و(طعام زمان) إلخ.

قال الأديب الدكتور أحمد خالد توفيق رَحِمَهُ اللهُ: «هل فهمت الآن الحكمة من كون عمر الإنسان لا يتجاوز الثمانين على الأغلب؟ لو عاش الإنسان مئتي عام لَجُنَّ من فرط الحنين إلى أشياء لم يعد لها مكان» اهـ.

وتذكر أحداث الماضي بهذه الصورة ينحصر في المسنين الذين يشعرون بالملل والوحدة، فتستدعي عقولهم تلك اللحظات السعيدة الدافئة من الماضي التي تمنحه دفعة من الأمل والشعور بالسعادة، وهذه ثمرة (النوستالجيا) أنها تحد من الاكتئاب بشكل مؤقت، وكأن المسن يقول: «إن حياتي البائسة اليوم كانت ذات قيمة في يوم ما»، أو: «لقد كان الماضي بالمقارنة إلى الحاضر أسهل وأبسط وأكثر متعة».

مشاعر ولحظات سعيدة من الذاكرة البعيدة مع التخلص من ذكرياته السلبية، إلا أننا نرى من يتوقون بحنين شديد إلى الذكريات السلبية أيضًا، وما زال يعيش بيننا أفراد يتباكون بحرقة على «زمن الضرب الجميل»، ويجترونها أيام الصبا حين كان التلميذ يرتعد من الخوف بمجرد أن يلوح مُدرّسه عن بعد يمشي في الشارع نفسه الذي يسير هو فيه، فيبادر إلى الاختباء داخل أقرب عمارة إلى أن يختفي مدرسه.

على حين أنه يوجد بقايا من ذلك الجيل نفسه ورثتهم العقوبة القاسية أمراضًا نفسية، وجروحًا غائرة في أعماق كيأنهم النفسي تعود جذورها إلى «زمن الضرب الجميل»!

وأحيانا تكون القسوة في العقاب مثل «التسمم الغذائي»، يمكن علاجه، وينجو منه الإنسان بسلام دون أعراض مستقبلية، ولكن: من منا يحبه؟ إن قدرة بعض الناس على التعايش مع «الصفع» في طفولته لا تعني أن له «قيمة» جميلة.

إعلان فشل تربوي؛

إن مبادرة المربي إلى ضرب الطفل هو إعلان عن جهله بأصول التربية، وهذا الجهل يستلزم أن تُسحب منه «رخصة القيادة التربوية»؛ لأن لجوءه إلى هذا الأسلوب الانهزامي المتسرّع يكشف إفلاسه من الخبرة بالأساليب التربوية الناجحة.

وتكون (النوستالجيا) مرضية إذا أدمن الإنسان استرجاع الماضي بفخر واعتزاز وهوس به وغرق فيه إلى حد الإفراط، وقد يبالغ في «النكوص» إلى ممارسات لا تناسب عمره، وينكر حقائق الواقع، مع تجاهل أن الماضي أيضًا كان لديه مشاكل في الأخلاق والقيم والحروب والأمراض... إلخ، والصحيح الاعتراف بأن لكل عصر ميزاته وعيوبه، فعلينا أن نتقبل الماضي والواقع كما هما، ولا بأس أن نعود إلى الماضي أحيانًا، لكن بشرط ألا نطيل المكث هناك.

ولذلك فإن عواقب الضرب النفسية السيئة لا تقتصر على الأطفال، بل تمتد لتشمل المربي نفسه فيشعر بالإحباط، والتوتر والانزعاج، وربما انتابته -بعد الضرب- مشاعر الحزن والذنب، حتى إنه قد يتصرف حينها بطريقة متناقضة وغير مُتسقة.

كيف يشعر الطفل بعد الضرب؟

حين يعاقب الطفل تنتابه مشاعر الخوف من الأب، ويشعر بالفزع وانعدام الأمن والطمأنينة؛ لأن الإنسان الذي يُفترض أن يحميه ويحقق له الأمن والطمأنينة افتقد صوابه وضبطه لنفسه. ويستشعر أنه تم التخلي عنه وأنه وضع في سجل في لائحة الأشقياء ولا يعرف كيف يمكنه العودة لقائمة الطيبين من الأبناء؟ إنه في هذه اللحظات لا يمكنه أن يستوعب أي توجيه أو يفهم أية رسالة أو يفكر برزانة وتعقل بسبب إفراز غير طبيعي لمادة الأدرينالين.. هذه المشاعر قد تنقلب فيما بعد إلى سلوكيات أخرى منها التبول غير الإرادي والمخاوف المرضية أو الانطواء على الذات والخجل المرضي^(١).

يقول د. علي أسعد وطفة: «آثار التسلُّط التربوي بالغة الخطورة في التربية، فالإكراه والتسلُّط في العمل التربوي، يؤديان إلى توليد مشاعر البغض والضعينة، والجمود والكراهية والتصلُّب، والخجل والقلق والخوف والإثم، ومشاعر الدونية والنقص، وفقدان الثقة بالنفس، وعقدة الإحساس بالذنب والإهمال..»^(٢).

(١) «الحاجات النفسية للطفل» (ص ١٦٤).

(٢) «بنية السلطة وإشكالية التسلُّط التربوي» (ص ٩١).

ويقول د. أحمد جمال ماضي أبو العزائم: «إن حوادث العنف التي يرتكبها الكبار ضد الأطفال مهما كانت صغيرة تترك جرحاً نفسياً عميقاً، وإنَّ هذا الجرح تراكمي مع استمرار الاعتداء بالضرب على الطفل، ويمكن أن نؤكد ذلك إذا نظر كلُّ منا إلى ذكريات طفولته.

إنَّ أسوأ ذكريات الطفولة هي تلك التي تعرَّضنا فيها للضرب ممن يربوننا». لذلك فنحن نتذكر جيِّداً الألم الذي سببه هذا العقاب، وننسى السلوك السيئ الذي كان سبباً للعقاب.

كيف كان شعورك يومها وأنت طفل تتعرض للضرب المهين؟! لا شك أنك تتذكر أنك أحسست يومها بمزيج من المشاعر: انكسار، وخوف، ورهبة، عناد، وغيظ، وغضب، ومعارضة، مع شعورك بالحزن والأسى؛ لأنك مظلوم، ولم يفهمك أحد...

القاعدة التربوية الأصيلة:

ينظر بعض التربويين إلى العقاب البدني على أنه وسيلة لحمل المربي على الكف عن سلوك سلبي، وربما عزَّز جوانب تربوية أخرى، تنص القاعدة الأصيلة في التربية والتعليم على أن:

«كل وسائل التهذيب التي تُلقى الخوف والرعب، هي بالإجمال مُضرة غير نافعة؛ لأنها تثبط الهمم بدلاً من أن تنشطها، وتقلق العقل والقلب بدلاً من أن تنيرهما، أو تهدي ثائرتهما»^(١).

(١) «كيف نوَدِّبُ أبناءنا بغير ضرب؟» (ص ٤٣).

والعقاب البدني الذي يمارسه الآباء يهدف إلى السيطرة، وينطوي على رغبتهم في إخضاع أطفالهم، وهذه الأشياء ليس لها مكان في أي علاقة صحية سواء مع الكبار أو الصغار. نحن في حاجة إلى أن نعلم أطفالنا السلوكيات السليمة، وهذا ينبغي أن يتم بحب وقبول وصبر، لسنا في حاجة لأن نحاول السيطرة على أطفالنا، بل نحن مسؤولون أن نعلمهم ونربيهم بالقوة والتوضيح والإقناع والرحمة والحب.

إنَّ التربية التي تتسم بالسيطرة تؤدي إلى شعور الطفل بالاستسلام والخضوع وعدم الكفاءة، والاعتماد السلبي على الآخرين، وقد توجهه إلى الثورة والتمرد والعدوانية.

الضرب العنيف - وبخاصة المقترن

بالإساءة اللفظية والتحقير - ينتج عنه صورتان

الأولى: تشوه صورة الذات والشعور بالضالة والدونية؛

«لقد كسرَني يا أمي»!

هكذا وصف الابن ما فعلته به أمه حين خلعت حذاءها، وضربت به أمام

مدير المدرسة والمدرسين!

وإذا كانت العِصِيُّ تكسُرُ عظامنا، فإنَّ الكلماتِ الجارحةَ المهينةَ تكسُرُ قلوبنا، وهذا ما يحدث إذا اقترن العنف البدني بالعنف اللفظي - شتمًا وتحقيرًا وازدراءً - فينعكسُ على شخصية الطفل انعكاسًا سلبيًا.

وكما يُنتِجُ الضربُ شخصًا ضعيفَ الشخصية مستسلمًا خائفًا، قد يُنتِجُ - على الجهة الأخرى - شخصًا عدوانيًّا عنيفًا متمردًا، وهنا تتفاعل عواملُ البيئة مع عواملِ الوراثة.

«النار التي تُذيب الدهنَ هي نفسها التي تجعل البيض يتجمّد، والشخصية ليست نتيجة إضافة عددية لعامل الوراثة وعامل البيئة، بل هي نتيجة تفاعل بينهما. فطفلان مختلفان وراثيًا - في درجة التأثر الانفعالي وتحمل الحرمان مثلاً - تختلف استجابتهما لنفس النوع من المعاملة البيئية: هذا يستجيب للمعاملة القاسية بالتمرد والعدوان، وذلك بالاستسلام والاستكانة.

وشخصان يتفقان في الوراثة، كالتوأمين الصنوين، قد يصبح أحدهما مجرمًا، والآخر صالحًا؛ لاختلاف البيئة التي نشأ فيها»^(١).

في هذه الصورة - التي تحدث كاستجابة للعنف والقسوة - يشعر الطفل بالانكسار والذل والخزي، ويكوّن صورةً سلبيةً عن نفسه، إذ يراها غير جديرة بالاعتبار، فيسلّط عدوانيته على نفسه، وينكفي عليها يلوم صفاتها، ويستحضر تقصيرها، وعجزها وقلة حيلتها^(٢)، وبسبب انتقائه للصفات السلبية وتركيزه عليها ينسى إيجابياتها ومواهبه وقدراته، ويحل محلها التردد، وضعف الثقة بالنفس، وبقدراته، واهتزاز قوامه النفسي، وتشوّه صورة ذاته.

إنّ شعورَ الطفل بالضالة والدونية يقوده إلى العزلة والانطوائية، والسلبية، والنفور من التفاعل مع المحيطين به، منسحبًا من مشاركتهم في الأنشطة المدرسية، ومناقشاتهم داخل الصف، متهمًا من إجابة أسئلة المعلم، خائفًا من إهانتها أمام

(١) انظر: «أصول علم النفس» للأستاذ الدكتور أحمد عزت راجح رَحِمَهُ اللهُ (ص ٥٣٧، ٥٣٨).

(٢) ويكون الوضع في أسوأ صورته حين يكون الأب متسلطًا عنيفًا مع ولده، وذا متطلبات وتكاليف وطموحات عالية غير واقعية في آنٍ واحد، وهذا النمط الأسوأ معاكس تمامًا لنمط استخدام المكافآت والحوافز التي ترفع من اعتبار الذات.

زملائه، فيؤثر السكوت والانسحاب، ويصبح عاجزاً عن التأقلم والتكيف مع الحياة الاجتماعية، والتعامل مع الآخرين، وبالتالي تنكمش مهاراته الاجتماعية بسبب خجله وانطوائه على ذاته، ويخرج خنوعاً ذليلاً لا يستطيع الصمود أمام الشدائد فاقداً القدرة على اتخاذ القرار، لا يبادر بتحمّل أية مسؤولية تُظهر قدراته وطاقاته، فلا يستطيع إقناع الآخرين بفكرته؛ لأنه يصعبُ عليه التعبير عنها، وربما أصيب بالثأثة والتلعثم.

الصورة الثانية: تعزيز السلوك السلبي بالتحدي والتمرد والعناد؛

تقول إحدى الأمهات التي اعتادت معاقبة ابنها بالضرب لتعديل سلوكه: «نعم كنتُ أضربه باستمرار، وفي كل وقت أواجهه فيه كان يغدو أسوأ مما كان، ويعود إلى السلوك نفسه في نهاية الأسبوع».

قد يتحوّل موقف المنافسة المحتدمة بين الطفل ومن يعاقبه إلى صورة صراع ينتهي بفوز من يضرب على المضروب، وكأن الهدف هو الفوز بالتحكم، وهذا الوضع قد يدفع الطفل إلى العدوانية والجرأة والإصرار على الخطأ، لجذب الانتباه أو التحدي، وربما يرغم المربي على أن يزيد عدوانيته تجاه طفله، أو يعلن الاستسلام أمامه نهائياً.

إنّ المعاملة العنيفة قد تدعم صفة العناد في الطفل؛ نكايّة بمربيه؛ لأن المربي استعمل أقصى ما يقدر عليه، والابن قد اعتاد عليه وألفه، ولا يستطيع الثأر إلا بمزيد من العناد، ينتقم به من مربيه لأنه يدرك أن هذا يغيظه، وينتهي الأمر بتثبيت السلوك السلبي بدلاً من إبطاله.

يقول: «التحدي استجابة نفسية سلبية للعقاب، تدفع بالأبناء بعيداً عن الجو التربوي المطلوب تعزيزه، وبالتالي يكون رد فعل المعاقب عكسياً، فيزيد من سلبيته، ويقصر أكثر في واجباته، ليثبت ذاته من ناحية، وأنه قادر على فعل ما يريد من ناحية أخرى، وفي هذه الحالة يعتبر الاستمرار في العقوبة لا نفع له على الإطلاق، والمطلوب التوقف الفوري عنه، وهذا يؤدي إلى شعور المعاقب بالانتصار والفخر، لكن هذا يدل على أن قرارنا بالعقوبة كان خاطئاً، وخاطئاً جداً»^(١).

ويقول الدكتور يوسف أسعد: «ولقد يتحى الطفل أو المراهق -اللدان يستخدم الربون الضرب بإزائهما- إلى التذرع بالعناد والإغاظة، فهما لا يقومان بملاقة الضرب بضرب مماثل للانتقام من المربي الذي يضر بهما، بل يتخذان هذا الأسلوب المثير المتسم بإغاظة ومضايقه المربي، وبذا فإنهما ينتقمان منه بالطريقة التي يهزمانه بها معنوياً، وقد يتخذ العناد والإغاظة شكل تباطؤ أو تهاون، أو عدم القيام بحل الواجبات المدرسية، أو التخلف في التحصيل المدرسي، أو التأخر عن موعد المدرسة، أو الهرب مع شلة من الأصدقاء إلى أماكن اللهو واللعب، وقد تصل درجة الإغاظة والعناد إلى عدم حضور الامتحان، أو تسليم ورقة الإجابة بيضاء إمعاناً في إغاظة الوالدين والمدرسين»^(٢).

(١) «كيف نؤدب أبناءنا بغير ضرب؟».

(٢) «أثر الضرب في البيت والمدرسة» (ص ١٣١).

أثره على النمو العقلي للطفل:

«لا يختلف اثنان في أن أهم أولويات التربية، العمل على تفعيل النمو العقلي لدى أبنائنا بشكل سليم، وهذا لا يتم بغير جوٍّ من الحرية والحب والاحترام، وعليه فإنَّ التسلُّط والقسوة وجو الخوف والعنف، يكبل قوى النفس والفكر أن تنمو بالصورة الصحيحة والشكل السليم، فتتكشم القوى العقلية، مثل التذكر والتفكير والحكم، والاستنباط والاستنتاج والاستقراء، ناهيك عن حسن السؤال والجواب، وحل المضكلات وإبداع الاختراعات، مما يقلل تفاعل الأبناء مع العلم والتعلم، ويضع السدود والعراقيل أمام نموهم العقلي والفكري، أن يبلغ بهم المدى، في التفوق والنجاح والإبداع، على الرغم من كل المعطيات الحضارية التي يتمتعون بها، في بيئتهم وتراثهم وموروثاتهم»^(١).

إنَّ الفشل التربوي هنا يؤخر العمر العقلي والعمر النفسي عن العمر الزمني للفرد، بل إن كثيرًا من الأذكياء نتيجة الأمراض النفسية التي يسببها لهم عنف المعاملة يتدنَّى مستوى ذكائهم، وربما ينسحبون من التعليم بالكلية، ويقول صاحبنا كتاب «أساسيات علم النفس التربوي»: «إن العقاب المستمر، يولد اتجاهًا نحو ترك الموقف التعليمي ككل»^(٢).

إذن لا توجد أي صلة بين الضرب وبين التقدم الدراسي، ولا علاقة له بالنشاط الذهني، والعكس صحيح، وهو أنه يبعث الخوف في قلب الطفل، ويشل قدرته على التركيز والاستيعاب، فالشعور بالخوف يعوقه عن التعلم.

(١) «أثر العقوبات البدنية» (ص ١١٧).

(٢) «نفسه» (ص ١١٨).

الضرب يعطل القوة المخيلة المبدعة،

يعطل الضرب عمل جهاز (المخيلة) الذي يقوم بتصنيع المدركات الحسية، والذكريات المترسبة في الذاكرة، والأخيلة التي يبتدعها الطفل لنفسه، ويُنجب من تلاقحها خبراتٍ جديدةً، وصيغاً غير مسبوقة، فتشق النفس أمامها طرقاً جديدةً في التفكير، وترسم أهدافاً مستقبليةً، وتصمم مخططات لتحقيقها، باستقلالية واجتهاد ومسؤولية.

ومن شروط توسيع نطاق عمل المخيلة: الحرية والطمأنينة والهدوء النفسي، وتعرض الطفل للعنف والضرب والتحقير يوقف مبادرته بالتقدم نحو الإبداع؛ لأن الخوف المتواكب مع الضرب يحدث شللاً ذهنياً، والخائف لا يمكن أن يجهز ذهنه للإبداع، ولأن الضرب يضيق نطاق القوة المخيلة، ويحول بين الطفل وبين استثمار ما في جعبته من الاستعدادات الإبداعية.

إنَّ الإبداع والتجديد لا يمكن أن يَنبُتَا في تربة القهر والرعب، وإنما في بيئة الحوار، والإقناع، والحرية، واللين، والرحمة.

النفور من المعلم والمربي،

من المفترض أن أقوى أداة تدعم العملية التربوية والتعليمية هي وجود مشاعر إيجابية كالحب والثقة والاحترام بين طرفي هذه العملية.

وينظر الطفل إلى الأبوين على أنهما مصدر الحب والحماية والأمان، وهي كلها متطلبات هامة في النمو السوي.

ومن الخطأ ربط الحب والحماية والأمان بنوعية سلوك الطفل، وهي في هذا كتأمين الطعام والشراب؛ لأنه مهما كان سلوك الطفل سيئاً فإنه لا يُسَوَّغ أن تسلبه حقه في الطعام والشراب والحب والحماية والأمان.

والضرب - لا سيّما إذا كان مهيناً، كالضرب على الوجه أو القفا أو الركل أو الضرب بالحذاء، مقترناً بالعنف اللفظي كالإهانة والتحقير والقسوة والازدراء - يُوقِف الحوار والمصارحة بين المربي والطفل، ويُجِدِّث هُوءَ بين الطرفين، وتتآكل بسببه المشاعر الإيجابية من الحب والثقة والأمان، ليحلَّ محلَّها النفورُ والكراهية وانعدام الثقة والخوف، والنظر إلى المربي باعتباره مصدر ألم وخطر، مما يُبَعِّد بينهما، ويحول دون استفادته من المربي وتأثره به.

تقول إحدى المعلمات: «في الصف الثاني الابتدائي عاقبت المعلمة كل من حصلت على أقل من نصف الدرجة، وكنتُ من بينهن، وضربتني المعلمة بشدة، ونتيجة لذلك بدأتُ أخاف منها كثيراً، وأكره حصتها بشدة، وكنت أنتظر نهاية الحصّة بفارغ الصبر، وطوال (٤٥) دقيقة (مدة الحصّة) كنت أجلس خائفة من سؤالها وضربها، واستمرَّ هذا الخوف لمدة خمس سنواتٍ حتّى انتهت المرحلة الابتدائية، سألها الله؛ فلقد أخافتني ساعاتٍ طويلةً (٤٥ دقيقة في اليوم لمدة خمس سنوات) ... واليوم أنا معلمة، وعاهدتُ الله تعالى ألا أجعل طفلةً تجلس في الفصل خائفة بسببي، ودوماً أسأل زملائي: كيف نجعل لحظة دخولنا للفصل لحظة سعادة للجميع؟».

وهذا طفل -لشدة نفوره من عنف المدرّس وقسوته- يتمنى أن يقع زلزال يدمر المدرسة بمن فيها (بشرط أن يغيب ذلك اليوم)!

وآخر يتمنى أن يمرض المدرس أو يُصاب في حادث وهو في طريقه إلى المدرسة! فأين هذا كلّ من طفل يبكي إذا (حُرِمَ) من الذهاب إلى المدرسة لعذر أو مرض؟!

الآثار السلبية على عملية التعلم:

- أثبتت الدراسات العلمية أن مستوى التحصيل الدراسي لأغلب الطلاب الذين يتعرضون للعقوبات البدنية العنيفة، يتدنّى بسبب ذلك.

يقول (إدوارد لي ثورنديك): «قانون الأثر ينص على تأثير الحالة النفسية الطيّبة أثناء التعلم على تقدمه، وإذا رافقه انفعال غير مريح يعطله ويبطئه، فتقوى في حال الرضى حالة التعلم، وتضعف في الشعور بالضيق والعقاب»^(١).

- وأكدت الدراسات أيضًا أن نسبة المذاكرة الطوعية تنخفض في حالة العقاب بالضرب في البيت والمدرسة، وبالتالي تقلص فرصة التعلم الذاتي برغبة شخصية.

- وأكدت أيضًا أن شدة العقوبات البدنية وتكررها على يد الأهل والمعلمين قد تؤدّي إلى كراهية الطفل للمدرسة والتعليم، وقد تؤدّي إلى التسرب والانسحاب الكلي من التعليم، وربما كانت سببًا في الجنوح والانحراف.

(١) عالم نفس أمريكي من أتباع المدرسة السلوكية في علم النفس (ت: ١٩٤٩) عن كتاب «الثواب والعقاب في التربية» (ص ١١٥).

التكيف مع الضرب؛

إن تعود الأبناء على الضرب يحدث فيهم الجفاء والخشونة والتمرد، والعقوبة البدنية قد تُشكّل تعزيزًا للفشل والتقصير في التعلم، من خلال ما يعرف بنظرية بافلوف في المنعكس الشرطي، فكلما سمع كلمة واجب أو تكليف، استدعي إلى ذهنه الفشل السابق، وما يترتب عليه من عقوبة، فيحدث الكف التعليمي، والتحفز إلى دفع ألم العقوبة، بتهيئة أساليب الغش، أو الاستعداد الجسمي والنفسي لتلقي العقوبة^(١).

فالضرب إذا تكرر، وتعود الطفل عليه يفقد أثره؛ لأن الكائن الحي يميل إلى التكيف مع كل مستوى لاحق من مستويات العقاب، ويتولد لديه استعداد لتحمل ما هو أشد، ويسترسل في تكرار السلوك السيئ الذي عوقب عليه سابقًا، ولا شك أن هذا يضع المربي في وضع حرج حين يكون قد استنفد أقصى وسائل العقابية، «وركب أعلى ما في خيله»!

إعاقة النضج الاجتماعي والأخلاقي؛

يقول البروفيسور مارتين هوفمان (Martin Hoffman) من جامعة (متشيجان): «إنَّ استعمال العنف مع الأطفال وبخاصة العقاب البدني يعيق وصول الطفل مرحلة النضج في المجال الاجتماعي والأخلاقي، بينما استخدام المنطق والمحاكاة العقلية في الأمور للوصول إلى الإقناع يرفع من قدرتهم على الوصول إلى هذه المرحلة، وكذلك الحال نفسه بالنسبة لما يبيده الآباء من حنان وود تجاههم»^(٢).

(١) «كيف نؤدب أبناءنا بغير ضرب؟» (ص ٤٠).

(٢) «الآباء وتربية الأبناء» محمد عبد الرحيم عدس (ص ١١١).

عدم ولائهم للقيم التي ندعوهم إليها،

«لا شك أن القيم الأخلاقية، أحد أهم المستهدفات التربوية في عملية التنشئة، وهي مقترنة ببيئة الإنسان اقتراناً كبيراً، وهذه القيم ليست أكثر مما يسمعه ويراه الأبناء في الوالدين، من خلال البيئة والأسرة، وفي معلمهم وزملائهم في المدرسة، فإن السلوكيات والمفردات والاتجاهات، تحدد مُدْخَلَاتِ الأبناء الأخلاقية.

والعقوبة البدنية لها أكبر الأثر، على زعزعة شعور الإنسان بالاحترام والكرامة، وهذا يهدم اعتزاز الإنسان بالقيم، وخاصة أنها قيم أولئك الذين جلبوا له الألم والأذى، وبالتالي يبحث عن قيم آخرين، غير الذين عاقبوه عقوبة لا معنى لها، فإذا اجتمع إلى ذلك جفاف العاطفة وضمور الشعور بالحب والود، نسج ذلك كله طريقاً للانحراف»^(١).

إن التربية القائمة على العصا والسوط تعكس تشنُّجاً في العلاقة بين أطراف العملية التربوية.

«إن الدعوة وتأليف القلوب، حول قيم الخير والعلم والمعرفة، لا يمكن أن يتم بغير الرفق والتسامح والتلطف، والتجربة العملية تثبت أن النجاح في التحبب للعلم في التربية، وقبول القيم الإسلامية، من صلاة وأخلاق وشرعية سامية رفيعة، لا يتم بالأسلوب التقليدي في التربية، القائم على الرهبة من المعلم، والخوف من الأب والأم؛ لأن هذا يصنع حواجز سميكة بين الأبناء والمربين، سواء كانوا آباء أو معلمين.

(١) «أثر العقوبة البدنية» (ص ١٢١).

وبالتالي يكون قبول المفاهيم التربوية والقيم الأخلاقية، قبولاً ظاهرياً مؤقتاً، فإذا شبَّ الأبناء عن الطوق، أو ارتفعت عنهم الرقابة، تَخَلَّوْا عن هذه التعاليم، وضعف التزامهم بها؛ لأنها لم تدخل إلى قناعتهم بالإقناع والطريقة السليمة، ولا يقف الأمر عند هذا الحد فحسب، بل تصبح الشدة رقيقاً لكل نصح وإرشاد، وأمر بمعروف أو نهي عن منكر، وبالتالي تخسر هذه الأمة المتميزة بقيمتها، انتصار هذه القيم، وينحسر تسويقها لها بين الناس والأمم والحضارات، وبالتالي يجرنا استخدام العقوبات البدنية مع أبنائنا، إلى أن نخسر ولاءهم للقيم التي ندعوهم إليها، وبالتالي نخسر المجال الدعوي، الذي نتشوف أن يسدوا ثغرة فيه، حين يحمّلون المسؤولية، في دعوة الناس جميعاً إلى أصالتنا وحضارتنا»^(١).

الرغبة في الانتقام والتشفي من ضاربه:

العقاب العنيف يولد في نفس الطفل حالة من الانكسار، والجن، والحقْد، والغیظ، والكرهية، والشوق الدفين لتعويض الكرامة المفقودة عندما ينضج، بأن ينتقم من ضاربه، ويصبح الطفل بسببه أكثر عدوانية وتنمراً.

إنَّ الطفل حينما يكبر ينسى غالباً السبب الذي عوقِبَ من أجله، لكنه يظل يتذكر الألم النفسي الذي سببه له الضرب المهين، ولا يستطيع محوّه من ذاكرته.

وإذا كان لكل فعلٍ ردُّ فعل، فإنَّ الطفل إذا وجد نفسه أضعفَ من أن يرد على ضرب الكبير بالمثل، فإن دفة انتقامه قد تتوجه إلى السبب الذي أدى لضربه،

(١) «أثر العقوبات البدنية» (ص ١٢٣، ١٢٤).

وهو التعليم والمدرسة، فيكره التعليم والمعلم، وربما توعد - في نفسه - بالانتقام حين يكبر، ويملك زمام نفسه.

يقول باولو فرايدي: «أول عمل يقوم به المستلبون في تحقيق حريتهم، هو أن يستعيدوا حقهم في قول كلماتهم، ويوقفوا استمرارية الاستلاب اللاإنساني الذي مورس ضدهم»^(١)

وَإِذَا مَلَكَتِ النَّفُوسَ قَابِغٍ رِضَاهَا فَلَهَا ثَوْرَةٌ وَفِيهَا مَضَاءُ
يَسْكُنُ الْوَحْشُ لِلثَّوْبِ مِنَ الْأَسْرِ فَكَيْفَ الْخَلَائِقُ الْعُقُلَاءُ

وقد أشار إلى هذه العاقبة يزيد بن عبد الملك حين قال له مؤدّبُه: «لَمْ لَحَنْتَ؟» فقال يزيد: «الجواد يعثر»، فقال المؤدّب: «إي والله، ويُضْرَبُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ»، فقال يزيد: «وربما يرمح»^(٢) سائسه، فيكسر أنفه.

فإنّ هذا الطفل الذي ترهقه ضرباً وتعنيفاً سينمو إلى أن يأتي يومٌ لن يقبل أن تضربه، ولن تستطيع ضربه، وربما دفعه التحدي والعناد إلى أن يجترئ عليك ويقابل إهانتك بالمثل، فتقع الكارثة، وتتسع هوة الشروخ النفسية بينكما.

ومن هنا يجب على المربي الحكيم أن يكون مرناً رقيقاً، ويعدلّ عن العنف، ويجرّب أساليب جديدة في التربية.

عن أمّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أعطاني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناقةً سوداء، كأنها فحمة ضعيفة لم تُحْطَمْ، فمسحها ثم دعا لي عليها بالبركة، فجعلتُ

(١) «تعليم المقهورين» (ص ٦٨).

(٢) أي: يرفسه برجله، رحمته الدابة: ضربته برجلها.

أضربها، ثم قال لي: «يا عائشة، أدّبي وارفعي»^(١)، وذلك لأنها ستُحصّل بالرفق من الطاعة ما لن تناله بالعنف، وهكذا الأبناء.

وعن محمد ابن الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ قال: رأني أبي وأنا أعجل في بعض الأمر، فقال: «يا بني رفقاً رفقاً؛ فإنَّ العجلة تنقص الأعمال، وبالرفق تُدركُ الآمال».

زيادة العدوانية على الآخرين؛

إنَّ المربي الذي يفزع إلى العقوبة البدنية العنيفة يلحق ابنه أو تلميذه - عن طريق القدوة السيئة - قيماً غير مقصودةٍ من عدم التسامح، وفظاظة المعاملة، والرد على أخطاء الآخرين من إخوته أو زملائه بالضرب، وليس بالمحاوراة والتفاهم.

إنَّ هذا السلوك من المربي يزرع في «ضحيته» أنَّ العنفَ وسيلته البطولية لحل المشاكل والحصول على ما يريد، وأنه - وليس ضبط النفس، وحُسن إدارة الغضب - الطريقة الملائمة لتفريغ شحنة الغضب من سلوك الآخر، لا سيما إذا كان أضعفَ منه وأصغر، فالقوي يقهر الضعيف، والكبير - لأنه أقوى - لديه الحق في أن يقهر الصغير جسدياً، ويأمره بفعل شيءٍ وإلا أنزلَ به العقاب.

يقول الدكتور عمر بشير الطويبي: «إنَّ أسلوب العقاب البدني، يخلق جوّاً سلبياً مليئاً بالغضب والحقْد بين الصغار والكبار، إمّا لعدم إدراكهم مبررات العقاب، أو عدم اقتناعهم بشدته ونوعه، وشعورهم بأنهم أسرى عالم الكبار ورغباتهم، فيبذر الخوف منهم، والنفاق لهم والرياء، بل قد يتخذ الطفل والديه ومعلميه نموذجاً للعدوان على الآخرين، فلا تهتم بعدها مشاعرُ الآخرين»^(٢).

(١) قال الهيثمي في «المجمع»: «رواه البزار بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح» (١٩/٨).

(٢) «التدريس والصحة النفسية» للدكتور عمر بشير الطويبي (ص ١٤٧).

إنَّ التعامل مع الطفل بالعنف يؤدي إلى إحباطه، وتَوَلَّد طاقةٌ عدوانية في داخله، يعجز عن تفريغها نحو مصدر العنف (الوالد)، فيزيح عدوانيته نحو الأصغر منه والأضعف مثل أخيه الصغير (Displacement)^(١).

محدودية فائدة الضرب:

«من الحقائق النفسية الهامة أنَّ الضرب وإن كان يعمل على اختفاء بعض المظاهر السلوكية الخارجية، فإنه لا يعمل على اقتلاعها من جذورها، وملاشاة أسبابها من قوام شخصية المرء، فالضغوط الخارجية ووسائلها المختلفة وعلى رأسها الضرب ليست علاجاً لما يمكن أن تعاني منه الشخصية المنحرفة عن الجادة، بل هي مجرد وسائل لقمع بعض المظاهر السلوكية الخارجية البادية للعيان، أما بالنسبة لدخيلة الشخص الذي يتلقى الضرب، فإنَّ ثمة نتائجَ نفسيةً تعتمل في دخيلته، تتأتَّى عما يعاينه نتيجة تلقّيه له»^(٢).

«إنَّ أيَّ سلوكٍ يبنّي على الرهبة والخوف، يُحدِثُ آثاراً داخلية في النفس، يظهر أثرها فيما بعد بشكلٍ مريع، يكف جانباً من الحرية عظيمًا، وتعتل الشخصية الإنسانية التي يُراد لها القوة والكمال، فيحل محلها شخصية انهزامية أو نفاقية أو منفعية أو جبانة.

(١) الإزاحة (Displacement) حيلة نفسية لا شعورية إبدالية يقوم فيها الفرد بتحويل مشاعره عن المصدر الأساسي إلى مصدر بديل، بسبب عدم قدرته على مواجهة المصدر الأساسي، فيعيد توجيه الانفعالات المحبوسة نحو أشخاص غير الذين سبَّبوا الانفعال، مثل إزاحة غضب الزوج من رئيسه في العمل إلى زوجته أو أولاده في المنزل، فيبدو وكأنه يبحث عن سبب للشجار معهم.

(٢) «أثر الضرب في البيت والمدرسة» (ص ٦٥).

والتربية القائمة على هذا الأسلوب، يمكننا أن نسميها التربية القردية^(١)، كحيوانات السيرك^(٢).

يقول القاضي حسن العشماوي رَحِمَهُ اللهُ: «حين نربي الطفل على الإقناع والمشاركة والتفاهم، فإننا نربي أمة من الأحرار؛ لأن ذلك متصل بحق الإنسان في حرية الفكر والقول والعمل».

إنَّ الضرب لا يصحح الأفكار، ولا يثمر اقتناعاً واعتقاداً، وربما أَدَّى إلى نفور المتعلم من معلمه، والتوقف عن التحصيل المعرفي، وعن كل ما كان المعلمون يستخدمون الضرب كوسيلة تحملهم على اكتسابه.

- والضرب لا يخلق توجهات سلوكية جديدة، بل يساعد فقط على إطفاء توجهات سلوكية موجودة بالفعل تصدر عن شخصية المضرروب.

«لقد مر كثير منَّا في لحظات كُنَّا فيها في موقع الذين يعاقبون أو يعاقبون، لتذكر هذه اللحظات، فما الذي كان يسيطر علينا ويوجه سلوكنا؟ إنه الغضب والخوف وعدم الصبر الذي يسيطر على مشاعرنا وأعصابنا ويغلق عقولنا

(١) هناك فرق بين «التنشئة» و«التدريب»:

- فالتنشئة تنتمي إلى الإنسان، والتربية الحقيقية هي تربية للإرادة؛ لأنها هي مصدر حركة السلوك، والقوة الضابطة له، فإذا انضم إليها الحرية في الاختيار والاقتران؛ أبدعت وأنجزت، وأخرجت كنوزها النفيسة المخبوءة، وسلمت من علل النفاق والرياء والخيانة والغش.

- أما «التدريب» أو «الترويض» ضمن قوالب محددة فهو مصمم من أجل الحيوان، فالتربية القائمة على تدريب الأعضاء الظاهرة هي تربية القردة التي تنتج طاعة آلية نمطية، مستجيبة بالخوف والتسلط والقهر، فالطاعة هنا سراب، والانقياد ظاهره السلامة، وباطنه الخراب، فإذا غاب الرقيب، فلا طاعة ولا أمانة، ولا إنجاز ولا إبداع، وإنما التخلف والجمود.

(٢) «كيف نؤدب أبناءنا بغير ضرب؟» (ص ٤٦).

ويدفعنا للضرب أو العنف بقصد اقتلاع السلوك غير المرغوب مرّة واحدة، ولكن للأسف ليس هذا هو الطريق، إن الطريق لتغيير السلوك الخاطئ يأتي من خلال تعلّم الانضباط الداخلي وليس من خلال العقاب البدني»^(١).

فالضرب لا يؤدي إلى الانضباط الداخلي، ونتائجه تكون زائفة لأن الطفل المعاقب يستعير ما يرتسم في مخيلة المربي من قشور سلوكية، دون أن تنبع الباعثة الدافعية السلوكية من داخله نحو السلوك الجوهري الحقيقي، والطفل يتذكر الإهانة والألم والخوف الذي رافق العقاب، ولا يتذكر الدرس الذي أريد له أن يتعلمه من وراء العقاب.

«فالضرب لا يؤثر في العوامل التي تتسبّب في إحداث السلوك الذي يريد المربي القضاء عليه، بل يُؤثّر فقط في النتائج التي تؤدي إليها تلك العوامل.

فالضرب يشبه المُسكّن الذي يخفف من شدة الألم، ولكنه لا يشفي من المرض، وكما أن المُسكّن يخدع المريض بأنه قد شُفي من مرضه، مع أن أثره وقته، بل إن أسباب المرض يمكن أن تستفحل، وذلك لأن المريض لا يحاول القضاء على أسبابه، بل يتركها ترعى في جسمه، كذا فإنّ اللجوء إلى الضرب، لا يعمل على القضاء على الأسباب الحقيقية لانحراف السلوك، بل يعمل فقط على تخيئة النتائج أو الأعراض السلوكية التي تُقلّق المربي، والتي حملته على توقيع العقوبات البدنية على صاحب ذلك السلوك»^(٢).

(١) «كيف تنمي الانضباط الداخلي عند أطفالك؟» (ص ٦٤).

(٢) «أثر الضرب في البيت والمدرسة» (ص ١٥، ١٦).

إنَّ الضرب يركز على فكرة دفع (ثمن) الخطأ دون تصحيح الخطأ ودون بيان السلوك المرغوب.

نتائج الضرب مؤقتة لا تدوم:

يُعدُّ الضرب ردَّ فعلٍ قصير المدى لا يعبأ بالعمليات الذهنية الهامة (مثل تدبر أمر المشكلات، أو إعادة النظر في أنماط السلوك) ويضحي بها من أجل النتيجة الفورية، ولعل ذلك ما قد يجعله يتسبب في إحداث آثار سلبية بعيدة المدى تُلقِي بظلالها على العلاقة بين الطفل والمربي.

ولو سلَّمنا جدلاً أن العقاب البدني دواء يقتلع السلوك السيئ، فإننا نقول: إن الدواء لو زادت آثاره الجانبية، وتضاعفت نتائجه العكسية وطال أمدها، يتحول إلى داء.

«ولا شكَّ أن الضرر النفسي الواقع على المعاقب، أكبر بكثير من الضرر الواقع على جسده، جرَّاء العقوبة البدنية، وذلك لأن الأثر البدني، سرعان ما يزول وينمحي أثره، إلا أن الأثر النفسي غالباً ما يدوم طويلاً، وربما يحفر في النفس أثراً لا يزول أبداً، وفي بعض الحالات والشخصيات الإنسانية، تتفاعل النفس تفاعلاً سلبياً مغالياً، مع أثر العقوبة البدنية، فتضخمه وتضفي عليه هالة من الحزن والألم والخيال القاتم، وظلالاً من الحقد والكراهية والشدة والقسوة على المربي المعاقب، ليست مطابقة للحق ولا للواقع.

لأن الغالب في المربي المعاقب، الشفقة والحرص والحب، والخوف على مستقبل الأبناء المعاقبين، وإن كانت هذه الشفقة وذاك الحب، قد أخطأ الوسيلة

في تربية المعاقب، أو لربما لم يخطئاً، ولكن الظروف المحيطة بالمربي والمعاقب، لم تفسح المجال لهما لحسن التعامل والتفاهم، على الأسلوب الأمثل.

ولو أن هذا الضرر النفسي، يظهر أثره بوضوح وجلية، لكان الأمر سهلاً، يمكن التعامل معه بالتعديل والتغيير، لكن الأمر أبعد أثراً وأعمق خطراً مما نتصور أو نتوقع، لأن المعاقب من أبنائنا في الغالب يستجيب استجابةً ظاهريةً للعقوبة، فنحسب أنها آتت أَكْلَهَا، وأدّت دورَهَا، في تعديل سلوك الأبناء، ولا يخطر في بال الكثيرين من المربين، أن هذا الانطباع سراب لا طائل وراءه^(١).

الضرب يكبت السلوك ولا يمحوه:

يؤدي الضرب إلى كبت السلوك المرفوض الذي عوقب عليه الطفل، دون أن يمحوه نهائياً.

ويختلف الكبت (Repression) عن القمع (Suppression) في أن الكبت حيلة نفسية لاشعورية يتم فيها مصادرة السلوك غير المرغوب فيه، بإبعاد الدوافع والأفكار المؤلمة أو المخزية أو المخيفة المؤدّية إلى القلق من حَيِّز الشعور إلى حَيِّز اللاشعور.

أمّا القمع: فهو يتضمن كبح وضبط النفس ومصادرة السلوك غير المرغوب فيه بطريقة شعورية واعية في ضوء المعايير الاجتماعية خشية الخزي والعار.

«والضرب يؤدي إلى كبت المظاهر السلوكية، التي يحاول المربي إزالتها من المظاهر السلوكية، التي تتبدّى لدى الطفل أو المراهق، ولكن ليس معنى

(١) «أثر العقوبات البدنية» (ص ١١٦).

كبت تلك المظاهر السلوكية، أنها تتلاشى من القوام النفسي للطفل أو المراهق، بل معنى ذلك أن ما يُكَبَّتُ منها في لاشعورهما، يُطِلُّ برأسه من آن لآخر، سواء على النحو نفسه الذي كان عليه، أم في هيئة صيغ أخرى مباينة كثيرًا أو قليلًا للصيغة الأصلية التي كان عليها، وقت قيام المربي بضربهما»^(١).

وقد يتم تحويل السلوك المعاقب عليه -بعد كبته- إلى مسارٍ آخر بعيدًا عن عين المعاقب.

«إنَّ نتائج العقاب غالبًا ما تكون مؤقتة وسريعة الزوال، لأن الشخص لم يستوعب القيم الأخلاقية التي يُرَجَى زرعها في نفسه، ولم يدرك المقصود من النظام، ولم يقتنع بأهمية الانضباط بالنظام، وإن الامتناع المؤقت عن مخالفة القوانين عبارة عن رد فعل مؤقت للعقاب الخارجي، فإذا ما أُزِيلَ التهديد بالعقاب فإن الفرد لا يلبث أن يستعيد السلوك الخاطئ بقوة أكبر من ذي قبل، فالامتناع عن السلوك السيئ يحدث مؤقتًا عندما يكون الفرد تحت أنظار السلطة، وما أن يختفي عن أنظار السلطة حتى يعود إلى ممارسة السلوك السيئ، وهذا مما يؤكد لنا أن الخوف والعقاب والعنف لا تعلم الأفراد، صغارًا كانوا أم كبارًا، القيم والأخلاق السامية، ولا تعلمهم السلوك السوي والانضباط الذاتي، إنما تعلمهم المكر والاحتيال والخداع»^(٢).

(١) «أثر الضرب في البيت والمدرسة» (ص ١٣٤).

(٢) «كيف تنمي الانضباط الداخلي عند أطفالك؟» (ص ٦٣).

تشجيع الطفل على الكذب؛

يهدد الضرب سلامة الطفل البدنية فمن ثمَّ يجد في الكذب والنفاق والتنصل من السلوك السلبي مخرجًا له كي يُفْلِتَ من العقاب الذي ينتظره.

وبينما يغرس الحوار والإقناع والرفق في الطفل القيمة والسلوك الحسن بشكل جذري متأصل في أعماق نفسه، فإنَّ الضرب لا يغرس سلوكًا، بل يكون مرتبطًا بوجود الضارب، فإن رحل وغاب عن عينه فلا قيمة ولا سلوك حينئذ.

دفع الطفل إلى المراوغة والاحتتيال؛

«لقد صرَّح علماء النفس والتربويون بأضرار العقاب البدني على شخصية الطفل، وأكدت نتائج الأبحاث الميدانية ما له من آثار سيئة على الفرد، فالعقاب يمكن أن يغير سلوك الإنسان، ولكن هذا التغير الفوري سرعان ما يزول، فالسائق الذي يعاقب لمخالفة قوانين السير أو لتجاوزه السرعة القصوى، لا يلبث أن يعود إلى مخالفته بعد أيام، ولكنه يتعلم الحذر من أعين شرطة السير، ويتوقى المناطق التي يوجد فيها أجهزة رادار لمراقبة السرعة، فما الذي تعلَّمه السائق؟ إنه تعلم المكر والخداع والبراعة في مخالفته تعليمات السير دون أن يقع تحت طائلة القانون، ولكنه لم يتعلم القيادة الآمنة للسيارات.

إنَّ هذه المشاهدات تدفعنا للتساؤل عن الهدف الذي يريد المجتمع تحقيقه من وراء توقيع العقاب على المخالفين، هل هو تحقيق القيادة الآمنة للسيارات، أم إيقاع العقوبات على المخالفين؟»^(١).

(١) «كيف تنمي الانضباط الداخلي عند أطفالك؟» (ص ٦٢).

إنَّ الضرب يجعل اهتمام الطفل منصباً على تجنب التعرض له أكثر من الالتزام بالسلوك الإيجابي المرغوب، «وما دام الهدف الذي ينبغي المربي تحقيقه، هو القضاء على المظاهر السلوكية الخارجية التي لا تعجبه، فإنَّ الطفل أو المراهق يحاول جاهداً أن يحقق هذا المطلب، حتى يُرضي المربي، فهو يدرب نفسه على المراوغة والمواربة والخداع، فكل ما ينحو إلى فعله هو إخفاء العَرَض السلوكي عن أنظار المربي، ولكنه إذا اطمأنَّ إلى أنَّ المربي قد انشغل عنه، أو غفل عن متابعته، فإنه يعود إلى ما كان عليه من انحراف أو أخطاء، ويكون شأنه في ذلك شأن الممثل، الذي يتلبَّس بالشخصية التي يقوم بتمثيل دورها على خشبة المسرح، ولكن ما أن ينتهي دوره في تمثيلها، حتى يعودَ إلى شخصيته الحقيقية، ويخلع عنه الخصائص السلوكية التي كان قد استعارها من تلك الشخصية، التي يقوم بتمثيل مظاهرها السلوكية، وليس جوهرها»^(١).

ولقد سبق أن نبَّه إلى هذه المعاني العلامة عبد الرحمن بن خلدون^(٢) رَحِمَهُ اللهُ

(١) «أثر الضرب في البيت والمدرسة» (ص ١٦).

(٢) عبد الرحمن بن خلدون، وُخَلِدُون هو جده الأعلى خالد بن عثمان، أضيفت إليه واو، وتُؤن على طريقة أهل الأندلس، وُلِدَ في تونس (٧٣٢هـ)، وأصله من «حضر موت» عرب اليمن، ويصل نسبه إلى وائل بن حُجْر رَحِمَهُ اللهُ عَنَّة، وتوفي رَحِمَهُ اللهُ: (٨٠٨هـ - ١٤٠٦م)، ودُفِنَ في مقبرة الصوفية خارج باب النصر بالقاهرة.

ولقد سُجِّلَ اسمُه في سجل التاريخ البشري باعتباره «مؤسس علم الاجتماع»، وفي الواقع كان ابن خلدون رَحِمَهُ اللهُ رائداً في علوم شتى، ولم يقتصر على كونه أباً لعلم الاجتماع، فهو أول مؤسس لفلسفة التاريخ، وأول مبدع لفن «السيرة الذاتية» أي ترجمة المؤلف لنفسه (Autobiography)، وأول باحث مجدد للبحوث التربوية، وعلم النفس التربوي والتعليمي، وأول مكتشف لمبادئ الاقتصاد السياسي، وأول مؤسس لمبادئ سقوط الدول وقوتها وضعفها، ومبتكر علم العمران، فإذا كان في ذلك بلا سلف، فقد بقي دون خَلَف. يقول «أرنولد توينبي» -أكبر مؤرخي الغرب في العصر الحديث عن مقدمة ابن خلدون-: «إنها -ولا ريب- أعظم عمل من نوعه أبدعه عقل من العقول في أي زمان وأي مكان».

منذ (٦٦٥) سنة^(١)، فقال:

«الفصل الأربعون: في أنَّ الشَّدَّةَ على المتعلمين مُضِرَّةٌ بهم

وذلك أنَّ إرهافَ الحدِّ بالتعليم مُضِرٌّ بالمتعلم سِيَّما في أصاغرِ الولد؛ لأنه من سِوَى الْمَلَكَةِ، وَمَنْ كَانَ مَرْبَاهُ بِالْعَسْفِ والقَهْرِ من المتعلمين أو المماليك أو الخدمِ سطا به القهرُ، وَضَيَّقَ عن النَّفْسِ في انبساطِها، وذهب بنشاطِها، ودعاه إلى الكسلِ، وحملَ على الكذبِ والخُبْثِ، وهو التَّظَاهُرُ بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وَعَلَّمَهُ المكرَ والخديعةَ لذلك، وصارت له هذه عادةً وَخُلُقًا، وَفَسَدَتْ معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتَّمَرُّنُ وهي الحِمِيَّةُ والمدافعةُ عن نفسه ومنزله، وصار عيالاً على غيره في ذلك، بل وَكَسَلَتْ النَّفْسُ عن اكتسابِ الفضائلِ والخُلُقِ الجميلِ فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيَّتها، فارتكس وعاد في أسفل السافلين. وهكذا وَقَعَ لِكُلِّ أُمَّةٍ حَصَلَتْ في قبضةِ القهرِ ونال منها العسف.

واعتبره في كُلِّ من يَمْلِكُ أمره عليه ولا تكونُ الْمَلَكَةُ الكافِلَةُ لَهُ رَقِيقَةً به تجدُ ذلك فيهم استقراءً، وانظره في اليهودِ وما حصلَ بذلك فيهم من خُلُقِ الشُّوءِ حتَّى إنهم يُوصَفون في كُلِّ أَفْقٍ وعَصْرٍِ بالخرَجِ، ومعناه في الاصطلاح المشهور التَّخَابُثُ والكيدُ، وسببه ما قلناه، فينبغي للمُعَلِّمِ في متعلِّمه والوالِدِ في وَلَدِهِ أن لا يستبدَّ عليهما في التأديب^(٢).

(١) وذلك لأنه فرغ من تصنيف كتابه «العبر» سنة (٧٧٩هـ)، وقد قدَّم له ببحث في شؤون الاجتماع الإنساني وقوانينه عُرف بـ «مقدمة ابن خلدون».

(٢) «مقدمة ابن خلدون» (ص ٦٩١) طبعة دار الفضيحة - القاهرة - (٢٠٠٥م).

جنوح الأحداث - Juvenile Delinquency

جنوح الأحداث: هو مجموع المخالفات التي يرتكبها الحدث في حق المجتمع، وهي تعبر عن الصراع الذي يصطدم الحدث من خلاله مع المجتمع الذي ينتمي إليه.

وأسباب جنوح الأحداث كثيرة متعددة، لكن ما يناسب سياق كلامنا هنا هو أن استعمال أسلوب الضرب والقسوة على الأبناء أحد أسباب جنوح الأحداث، فإنك إذا تتبعته الخيوط التي نسجت قصة شخصية مضادة للمجتمع، فقد تقودك إلى بداية «مشروع مجرم» تم تدشينه عندما طرد الطفل من البيت، أو عندما تكالبت عليه وحشية المدرس العنيف، وقسوة الأب الغليظ، فكره البيت وكره المدرسة، فانقطع عن الدراسة، وهرب من البيت، فالتقطه رفقاء السوء، وعاش حياة التبطل والضياع، وربما احتضنته بعض العصابات أو تجار المخدرات، إلى أن ينتهي به الأمر وراء القضبان.

إن «من أوليات عوامل النجاح في الحياة، انتماء الإنسان إلى أسرة مستقرة يعتز بالانتماء إليها، فإذا تلقى فيها معاملة قاسية، وتعرض فيها إلى عقوبات غير منصفة، مع افتقار إلى الحب والعطف والحنان، اهتزت هذه الرابطة الأسرية التي تربطه بها، وضعف شغفه بالسعي لكسب رضا أعضائها، بل قد ينعكس شعوره هذا سلباً على علاقته بها وبالأخرين.

فإذا تعرض الأبناء إلى عقوبات بدنية في المدرسة، ولم تكن هذه العقوبات مُقْنَعَةً لهم، فقد ينعكس أثرها سلباً على حبهم لمدرستهم، وأصدقائهم

ومعلميهم، مما يدفع بهم إلى قطع روابطهم الإيجابية بهم، وبالتالي تنشأ لديهم علاقات سلبية بهؤلاء، ويشعرون بالحرمان العاطفي والعزلة الاجتماعية، مما يدفعهم إلى إنشاء علاقات أخرى مع رفاق السوء، ممن هم على شاكلتهم في المعاناة، فيُشبعوا حاجتهم الاجتماعية للانتماء، بتقوية رابطتهم بهم وحبهم لهم، والبوح بأسرارهم إليهم، وكما قال صاحب كتاب «أسباب جنوح الأحداث»: (الشخص الذي يلفظه مجتمع ما، يتلعه مجتمع آخر، ... وكلما ضَعُفَ الارتباط بالأب؛ زادت احتمالات الجنوح).

ونحن نعلم أن المحضن الأساسي للتربية والتنشئة، البيت والمدرسة، فإذا لقيَ الأبناء فيهما معاملة لا تسر، وعقوبات بدنية أو غير بدنية متكررة، فمن المؤكد أن يكون موقفهم من ذلك أحدَ تصرُّفين: إما الانكفاء على النفس والانغلاق على الذات، مما يحدث أمراضاً نفسية، أو المقاومة الشديدة التي تؤدي إلى الهروب منها إلى الشوارع والمنتديات والرفقاء، وكلا الأمرين أحلاهما مرٌّ، يقول صاحب كتاب «أسباب جنوح الأحداث»: (إنَّ شعورَ الأولاد بتناقض معايير المجتمع، يدفعهم لارتكاب الخطأ، الذي يلقون عليه التأنيب والتحقير والعقاب، مما يدفعهم لعدم الشعور بالأمن ومن ثمَّ السَّخط، والشعور بالظلم وسوء العلاقة بينهم وبين الناس، فيلجؤون إلى الفرار من أسرهم ومدارسهم إلى الشارع، ليعبروا عن أنفسهم بما يخفض من قلقهم وتوترهم).

وبتلَقَّف الشارع والرفقاء لهم، يعلو شأنُ قيم الحرية المغلوطة، التي يُحسِّنُها لهم هذا المحيط، فيضحون بقيم النجاح الشخصي، التي تمثل لديهم قيم الكبار وعالمهم، يقول صاحب «كتاب أسباب جنوح الأحداث»: (الارتباط بالرفقاء

يمكن أن يُضعف الروابط بالوالدين ويُسهّم في الجنوح؛ لأنهم يرتبطون بمن يستحسن أفعالهم، فتُخلَقُ مقاييسُ جديدةٌ تُبعدُ عن أهدافِ الكبار، أو قيم المجتمع، وبهذا يهملون تحقيق النجاح الشخصي لأنفسهم).

ويشكل الهروب من البيت والمدرسة أكبر محضن لسوء الأخلاق، التي يتلقاها الأبناء من الشارع ورفاق السوء، وتشكل لديهم قيمٌ أخرى، بعيدة عن قيم الأهل والمجتمع، يُمدح فيها الأبناء من قبل أفراد مجتمعتهم الجديد، الذي يُشعرهم بحرية الاختيار، ودفعِ العاطفة، واستقلالية التصرف.

ولا يشترط أن يكون هذا التحوُّل في الأخلاق فوريًا، ولا حتّى مُقنعًا؛ لأن الصراع الداخلي في نفوس الأبناء يستمر بالتدرج مع استمرار أخطاء المربين، في استخدام العقوبات البدنية أو القاسية، واختلاف ردود فعل الأبناء تجاهها، فقد تؤدي إلى حسن التكيف وقد تؤدي إلى سوءه، لكن المؤكد تحول الحياة في نظر مثل هذه البيئة إلى حياة شيئية تهدر الكرامة الإنسانية^(١).

التماهي مع المعتدي - Identification with the aggressor

إنَّ المعاملة القاسية العنيفة للطفل تُنتج عواقب وخيمة على نموه النفسي المستقبلي، وقد أثبتت بعض الدراسات أن حوالي (٨٥٪) من الأطفال الذين اضطهدهوا في طفولتهم يمارسون الاضطهاد نفسه (ومنه الضرب) مع أقرانهم وإخوتهم في صغرهم، وعندما يكبرون سواءً أكانوا آباء مع أبنائهم أو مُعلِّمين مع طُلابهم^(٢).

(١) «أثر العقوبات البدنية» (ص ١١٩ - ١٢٢) بتصرف.

(٢) «تشويه الطفل» (ص ٢٥، ٢٦).

والتماهي لغةً: من الجذر (م و هـ)، يُقال: أمّاه الشيء بالشيء: خلطه، ودجّه، وموّه الحديث: زخرفه ومزجه من الحق والباطل.

ومن دلالات هذا الجذر: الانتشار، والتماهي: انتشاراً لصفات المتسلّط على غيره من المقهورين.

تعريف التماهي مع المعتدي:

هو حيلة نفسية دفاعية لاشعورية يدمج فيها الشخص في داخله (Introjects) صورة عقلية للشخص الذي يمثل مصدر الإحباط من العالم الخارجي (المعتدي أو المتسلّط)، فيشكّل نفسه على غرار (في سلوكه وأفكاره وانفعالاته)، ويتوحد معه في شخصيته، ويمارس السلوك العدواني (الذي ارتكبه ضده) تجاه الآخرين، فيتحوّل من مهّدّد ومقهور وضحية (Abused) إلى مُهّدّد ومعتدٍ (Abuser) على الآخرين.

وهذا النموذج يستعمله الطفل للتكيف مع العنف الذي يتعرض له، والذي يولّد لديه القلق، كوسيلة دفاعية ضد مشاعر الرعب والضيّق والضعف الذي يعاني منه، فيندفع نحو السيطرة والإساءة والعدوان على الآخرين.

وقد عرّفه الدكتور مصطفى حجازي بأنه «استلاب الإنسان المقهور الذي يهرب من عالمه كي يذوّب في عالم المتسلّط عليه أملاً في الخلاص»^(١).

فالتماهي بالمتسلّط يتم بدون عنف ظاهر، بل من خلال رغبة الإنسان المقهور في الذوبان في عالم المتسلّط.

(١) «سيكولوجية الإنسان المقهور» (ص ١٢٧)، وانظر: «مقدمة ابن خلدون» (ص ١٨٧).

وقد تُرجم «التماهي» -الذي هو من مصطلحات التحليل النفسي- أحياناً بالتقمص، والتوحد، والتعيين، ويُعبّر عنه أحياناً بـ«متلازمة ستوكهولم» (Stockholm Syndrome)، وقد نشأ هذا المصطلح سنة (١٩٧٣م) حين أخذ سارقو بنك في العاصمة السويدية رهائن أثناء جريمتهم، وفيما بعد دافع الرهائن عن مختطفيتهم، ورفضوا أن يشهدوا ضدهم، وكانوا يشعرون تجاههم بمشاعر إيجابية، ويتبنون قيمهم^(١).

ويحدث مثل ذلك في معسكرات الاعتقال، ويُعبّر عنه شعبياً بغسيل الدماغ.

الفرق بين التماهي والتقليد؛

التقليد أو (المحاكاة): شعور قصدي، حيث يضع الفرد نفسه مكان آخر وضعاً مؤقتاً، فيأتي بأفعاله وحركاته، ويردد أقواله دون أن يُحدث ذلك تغييراً جوهرياً في شخصيته؛ لأن السلوك هنا قابلٌ للتغيير، ولا يتطلب التعليم بالتقليد وجود روابط عاطفية مع النموذج الذي يقلده.

أما التماهي: فإنه عملية لاشعورية بعيدة المدى، يكتسب بها الشخص خصائص شخص آخر تربطه به روابط انفعالية قوية، فيشاركه انفعالاته وسماته واتجاهاته وقيمه، ويكون السلوك ثابتاً نسبياً.

لماذا يحدث التماهي مع المعتدي؟

ذكرنا أن التماهي حيلة لاشعورية تُصطنع للتغلب على الخوف من المعتدي، والطفل حينما يُعتدى عليه بالضرب والعنف يشعر بالذعر والفرع

(١) و«متلازمة ستوكهولم» نوعٌ من أنواع «رابطة الصدمة» (Trauma Bonding) وهو تعلق غير صحي، وينشأ حين يكون المصدر الأساسي للدعم هو المعتدي المسيء.

والعجز، ويحاول حماية نفسه من هذه المشاعر بالمقاومة والثوران، لكن يتم كُفُّها بسبب الخوف الشديد، والسلطة القاهرة للراشدين، وهذا يقوده إلى أن يهرب من ذاته الخائفة الخاضعة فيتنكر لها، ويتناساها بالكلية، ويأوي إلى ذات المتسلط عليه، فيتشبه به، ويتبنَّى قيمه، ويتمثل نمط حياته وعدوانيته وطغيانه، ويضم شخصيته إلى شخصية مَنْ تماهى معه وتوَحَّد به كأنها صارا كيانًا واحدًا^(١).

الإيذاء البدني للطفل يرشحه لاضطرابات نفسية:

تزدحم عيادات الاضطرابات النفسية بنوعين من ضحايا العنف التربوي: الأول: أطفال في عمر الزهور لجؤوا إليها مبكرًا، والثاني: آباء وأمهات كبار السن، تراكم لديهم الأثر النفسي للتربية العنيفة والمعاملة القاسية التي تلقوها في صغرهم، ولم يلحظ أحدٌ أثرها في حينها، ثم شرعت تُحْيِك في النفس مشكلات وجدانية وسلوكية تركت ندوبًا وجروحًا غائرة صعب حلها رغم مرور الزمن. من عواقب الإيذاء الجسدي للطفل والمعاملة العنيفة والإهمال؛ أنه يزيد احتمالية إصابته باضطرابات نفسية فيما بعد خصوصًا إذا وُجِدَتْ عوامل أخرى واستعدادات وراثية.

وآثار الإيذاء الجسدي بعيدة المدى ولا تقتصر على مرحلة الطفولة، وإنما تمتد إلى مراحل أخرى في حياته، لتشوه نموه النفسي والاجتماعي والانفعالي،

(١) وهذا ما يحدث على المستوى الفردي في عبادة «الأبطال» ذوي النزعات الإجرامية والسلوك العدواني، حتى يعتقد أنه هو نفسه الذي يقوم بهذه الأعمال، ويتشبه بهذا (البطل)!

وحدث على المستوى الجماعي مع «الشخصية الجمعية اليهودية» الذين عاشوا في الشتات مهتدين مذعورين أسرى مخدولين مستكينين، ثم تحوَّلوا لما احتلُّوا فلسطين إلى قتلة سفّاحين فتأكين قاهرين مُستعبدِين لأصحاب الأرض (فأفسدوا في الأرض وعلَّوْا علوًّا كبيرًا).

وتعيق تكيفه مع نفسه وبيئته، وتؤثر في نظراته إلى المستقبل، وقدرته على مواجهة شدائد الحياة.

وقد بينت بعض الدراسات أن الأطفال الذين تعرّضوا لإيذاء بدنيّ تزيد لديهم مخاطر الإصابة باكتئاب خطير على مدى حياتهم بنسبة (٥٩٪) مقارنة مع نظرائهم من الأطفال الذين لم يتعرضوا لهذه الإساءة.

وأظهرت دراسة أخرى أنّ الأطفال الذين تعرّضوا لإيذاء بدنيّ أو إهمال أو الاثنين معاً كانت لديهم احتمالات أكبر بنسبة (٧٥٪) على الأقلّ للتعرض لاكتئاب شديد بعد البلوغ

ويقول الدكتور سُليمان الفولي -أستاذ الطب النفسي-: «إنّ ضربَ الأطفال المتواصل قد يدخلهم مصحّات الأمراض العقلية أو مؤسسات الأحداث، ومستقبلاً يؤدّي إلى ارتكابهم الجريمة ودخول السجن؛ نظرًا للحقد الذي يتركه في نفوسهم، كما يؤدّي الضرب إلى عدّة أمراض، منها: الاضطراب النفسي، والتأتأة في الكلام، والفرع الليلي، والتبول اللاإرادي، ونوبات الإغماء المتكررة، والخوف المرضي، والتأخر الدراسي والاكْتئاب، وتموت قدراته، إذ إنّ قدراتِ الطفل تتغذّى بالتشجيع، وتضمّر وتموت بالضرب»^(٢).



(١) «أحسن مُربٍّ في العالم» (ص ١٦١).

(٢) «تشويه الأطفال» للأستاذ محمد سعيد مرسي (ص ٢٨).

البَابُ الرَّابِعُ

العقاب المقبول



تمهيد

يهدف العقاب التربوي إلى تعليم الطفل كيف يميز بين السلوكين المقبول والمرفوض، ويزيد قدرته على ضبط النفس والتحكم فيها، ويعينه على تعديل السلوك السلبي والتزام الانضباط، دون أن تُسيء إلى الطفل أو نضيع حقوقه، ودون أن نفسد العلاقة بين المربي والطفل.

وقد أساء كثيرٌ من الناس فهم واقع العقاب التربوي في منهاج التربية الإسلامية للأطفال، بل تشبَّهوا بوسائل تربوية ضارة تضر بصحتهم النفسية وسلامتهم الجسدية ﴿وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وهي وسائل لا تعدل سلوكًا، وإنما تأتي بنتائج عكسية من تمرّد وعنادٍ وانحراف، واضطرابات نفسية.

ومن أسوأ وسائل عقاب الأطفال الشائعة في مجتمعاتنا الضرب الانتقامي المُبرَّح، الذي لا يمكن للشريعة أن تُقرَّه بحالٍ من الأحوال، أو العقاب بوسائل دون ذلك، ولكنها أيضًا مرفوضة عقلاً وشرعاً^(١).

إنَّ مما يجهله الغارقون في وحل (الأمية التربوية) أنَّ هناك قائمة طويلة تتضمن أساليب صحية ومتنوعة من أساليب العقاب التربوي المدروس المأمون، وهي طرق ذكية ومرنة ومؤثرة بريئة من العنف والصراخ والإهانة والتخويف؛ لأنها تراعي «ضوابط وقواعد العقاب التربوي» التي فصلناها في «الباب الثاني».

(١) انظر صورًا من العقاب البدني المقبول (ص ٤٩٨)، وسنفضّل الكلام في «العقاب بالضرب» في الجزء التالي من «سلسلة نحو الأمية التربوية» إن شاء الله تعالى.

وينبغي أن لا يلجأ المربي إلى العقاب إلا إذا أخفقت الأساليب الناعمة الرفيقة في إحداث التغيير التربوي المأمول.

وفي حالة اللجوء إلى العقاب، فلا بُدَّ من مراعاة استعمالها على هيئة مراحل متدرجة تصعد من الأخف إلى الأشد، وإذا أمكن الطبيب أن يفتح الخراج بالمبضع (المشرط) فلا مسوغ لاستعمال الفأس.

يقول القاضي حسن العشماوي رَحِمَهُ اللهُ: «العقاب لا يُستعمل إلا لعلاج عدم المبالاة، وعدم الاكتراث بمشاعر الغير وحقوقهم، فإذا كان ذلك ضرورةً، فلنعلم أنه يتدرج في مراحل، لا يجدر الالتجاء إلى إحداها قبل استنفاد ما دونها، فالنظرة مؤلمة، وقد تكفي، والإعراض مؤلم، وقد يكفي، والكلمة القاسية مؤلمة، والضرب مؤلم (بقدره).. ويُلجأ إليه للإصلاح ضرورةً حين تُستنفَد جميعُ وسائل الإصلاح غيرها، ويُحاط استعمالها كما يحاط استعمال كل ممنوع أباحتها الضرورة، بأقصى ما يمكن من الحذر والأناة»^(١) اهـ.



(١) «كيف نربي أولادنا؟» (ص ١١).

أنواع العقاب التربوي

الأول: خصم درجات في جدول التحفيز؛

حيث يعاقب الطفل بخصم جزء من الدرجات في «جدول التحفيز» مقابل سلوكه السلبي، وحين يُجمَع محصُولُ درجاته في نهاية الأسبوع أو الشهر؛ إن نقص عن قدر معين يُحرَمُ من المكافأة^(١).

الثاني: العقاب باستعمال لغة الجسد وتعبيرات الوجه؛

يحرص الطفل أشدَّ الحرص على أن يحظى بإعجاب أهله وتقديرهم واهتمامهم ورضاهم عن أفعاله، وموافقتهم عليها، من أجل تأكيد ذاته (Self Affirmation)، فمن ثَمَّ كان إبداء الاعتراض على سلوكه السيئ وسيلةً من وسائل زجره عنه، وهذا يتم بالكلام والتعبير الصريح، أو بلغة الجسد، وهي كل وسيلة غير لفظية يفهم منها الطفل استياء المربي وعدم رضاه عن سلوكه، ويُستعمل فيها تعبيرات الوجه ووضعية الجسد في تنبيه الطفل على أن سلوكه السلبي يحزن المربي، ويحرمه من التواصل الفعّال والمبهج معه، ومن صورته:

- النظرة الحادة في عينيه زجرًا له عن السلوك السيء.
- الوجه العبوس وانقباض الحاجبين، وتقطيب الجبين إظهارًا للاستياء وعدم الرضا.
- الإمساك بكفه مع الضغط عليها إذا آذى بها أخاه مثلاً.
- الإشارة بإصبع السبابة يمينًا ويسارًا إشارةً إلى الرفض.

وقد بيّن ذلك بوضوح (ص ١٦٢).

- الإشاحة والإعراض عنه وتجاهله وإهماله وعدم تدليله أو ملاطفته، وهجر الكلام معه، وعدم الإنصات له مدة قصيرة، فإذا ما انزجر عن السلوك السيئ أو اعتذر عنه، نُقبل عليه بالاهتمام والحب والتودد والاحتضان؛ ليعلم أنا نهجر سلوكه وليس ذاته.

الثالث: تخصيص ثوب يلبسه الطفل المُعاقَب:

كأن نختار ثوبًا باليًا وغيرَ محبَّب للطفل، ليلبسه لفترة معينة عند ارتكاب سلوك سيئ (T-Shirt)؛ ليُعلن للجميع في البيت أنه مُعاقَب.

الرابع: العقاب اللفظي بالكلام:

وهو عقاب يستعمل فيه الكلام للتعبير عن الاعتراض على سلوك الطفل، ومن صورته:

- المهمة: هي التكلُّم بكلامٍ خَفِيٍّ غيرٍ مسموعٍ، وصوت يخرج من الحنجرة يدل على الإنكار على الطفل، وتنبيهه إلى أنه أخطأ، أو يشرع في ارتكاب خطأ.

- تغيير نبرة الصوت: بحيث يفهم الطفل منها اعتراضك، وعدم رضاك.

- الكلام معه ومخطابته: بالاعتراض على خطئه بالتحذير أو التوبيخ بشرطه^(١).

- مدح غيره أمامه: ليفهم من ذلك أنَّك راضٍ عن سلوكِ هذا الطفل الآخر، وأنَّ ما فعله طفلك لا يلقي قبولك، دون أن يكون ذلك أسلوبًا متبعًا، ودون أن ينطوي على مقارنة تُحدث آثارًا سلبية.

(١) انظر (ص ٣٤٤).

ويمكن عقاب الطفل بمدحه؛ كأن تقول: «أنت الولد النشيط تتأخر عن المدرسة؟»، أو: «أنت الولد الطيب الذي نحبه تتناول على أخيك؟»، ونحو ذلك.

الخامس: العقاب بأعمال منزلية إضافية؛

الأصل أن يتعود الطفل على المشاركة في أعمال المنزل في حدود قدرته، وفي حال ارتكابه لخطأ يمكن معاقبته بتكليفه بعمل إضافي من الأعمال المنزلية التي لا يميل إليها، والتي ليست ضمن واجباته الأصلية.

السادس: العقوبة المالية؛

١ - كيس المكافآت:

نمنح الطفل كيساً أو (حصالة)، ونضع له فيها قدرًا مناسباً من العملات المعدنية، ثم نخبره أن هذا المال سيكون حقاً خالصاً له في نهاية الأسبوع، ولكن كلما صدر منه سلوك سلبي، فإننا سنسحب من الكيس قطعة من النقود عقاباً له على هذا السلوك المرفوض.

٢ - حصالة الأخطاء:

هي صندوق صغير يوضع في زاوية ظاهرة من البيت، وكل من خالف قاعدة منزلية، أو أساء السلوك يُخصم جزء من مصروفه كغرامة مالية ليُوضع في هذا الصندوق^(١)، وفي نهاية الأسبوع (أو الشهر) يُتصدّق بحصيلة الصندوق، أو يُشترى بها شيء يحتاجه المنزل.

(١) ويراعى عند تصميم لائحة القواعد الأسرية أن يُنصَّ فيها على العقوبة المالية المقابلة لبعض التصرفات غير الملائمة، والتي يخضع لها الكبار والصغار.

تنبيه:

لا يصلح عقاب الطفل بحرمانه من كل مصروفه، بل بجزءٍ مناسبٍ منه فقط؛ لأنه حق أصليٌّ له يُراعى فيه احتياجاته وإمكانية الوالد المادية، ومماثلة الأقران قدرَ المستطاع بلا تقتير ولا تبذير، ومن ثمَّ رفض بعض التربويين مبدأ العقاب بالخصم من المصروف رأسًا؛ لأنه قد يكون ذريعةً إلى وقوع الابن في السرقة ليسترد ما فقده.

السابع: دعه يتحمل عواقب سلوكه:

من المهم أن يفهم الطفل أنه مسؤول عن أفعاله، وأن لكل خطأ يرتكبه تداعياتٍ وثمراتٍ يدفعه، وأنه لا سبيل إلى إعفائه من ذلك، وأن غيره لن يتحمل عنه ذلك، وهذا الأسلوب يدربه على تحمل تبعات تصرفاته بخبرة ذاتية يكتسبها، دون أن نتدخل أو نقلل من احترامه.

كما أن هذا الأسلوب يعلمه الربط بين السبب والنتيجة، وبمكَّنه من توقع ما الذي سيحدث لو أساء التصرف، ومن وسائله الفعالة أن يتحمل العواقب الطبيعية والمنطقية التي تنتج عن سلوكه السيئ، وهاك صورًا لتحمل العواقب:

١- العقاب الذاتي:

وهنا يتحمل عاقبة فعله (إذا لم ينفذ نصائحنا، ولم يستجب لتحذيرنا من العاقبة)، ليخوض التجربة بنفسه، ويذوق ألم عاقبتها^(١).

(١) بشرط أن تكون العاقبة غير خطيرة ولا تهدد سلامته، وأن تكون العاقبة واقعية، ومتناسبة مع السلوك السلبي.

- إذا تأخَّرَ الطفل في الاستيقاظ من النوم رغم محاولتك إيقاظه في الموعد، وتحذيره من العقوبة، دعه يذهب إلى المدرسة متأخراً لينال عقوبة المعلم.

- إذا امتنع عن أداء واجبه المدرسي، دعه يذهب إلى المدرسة ويتلقى عقاب المدرس.

- إذا رفض ارتداء الملابس الشتوية في طقسٍ باردٍ، حذَّره من العقوبة، فإن لم يستجب دعه يتألم من البرد، ويقدر قيمة نصيحتنا في المرات القادمة.

- إذا رفض الأكل، دعه يشعر بألم الجوع.

- إذا رفض تمشيط شعره، دعه يتعرض لسخرية زملائه.

٢- التعويض وإصلاح ما أفسده:

- إذا كسر أو أتلف لعبة طفل آخر، يكلف بتعويضه بلعبة من ألعابه، أو يسدد ثمن لعبة بديلة على أقساطٍ بجزء من مصروفه.

- إذا سكب العصير على الأرض، ينظف المكان أو يشارك في تنظيفه.

- إذا أساء للمدرسة، يشتري بطاقة جميلة من مصروفه، ويهدى إليها، ويعتذر عن تصرفه.

٣- تحمل العواقب الطبيعية والمنطقية لتصرفه:

- فإذا قاد دراجته في مكان غير آمن، يُحرَم من ركوب الدراجة لمدة أسبوع (مثلاً).

- إذا بعثر لعبه على الأرض، قل له: «إذا لم تلتقط لعبك وتُعدها إلى مكانها ستُحرَم من وقت اللعب في المرة القادمة».

بعث عبد العزيز بن مروان ابنه عمر إلى المدينة يتأدّب بها، وكتب إلى صالح ابن كيسان يتعهده، وكان يُلزمه الصلوات، فأبطأ يوماً عن الصلاة، فقال: «ما حبسك؟»، قال: «كانت مُرَجِّلتي»^(١) تُسَكِّنُ شعري»، فقال: «بلغ من تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة؟»، وكتب بذلك إلى والده، فبعث عبد العزيز رسولاً إليه، فما كلمه حتى حلق شعره^(٢).

الثامن: العقاب بالحرمان؛

هو حرمان الطفل من بعض الأشياء -أو الأنشطة الترفيهية- المحببة إليه، أو سحب بعض الامتيازات الممنوحة له، بصورة كاملة أو جزئية^(٣) لبعض الوقت، كردّ فعلٍ على سلوكٍ سلبي ارتكبه، من أجل أن ينتبه لخطئه، ويرتدع عن سلوكه، ويعدله كي يستبقي ما يحبه ولا يُحرّم منه.

ف(العقاب بالحرمان) إذن نوع من (التعزيز السلبي) حيث نحمل الطفل على الفعل الذي نريده منه من خلال سلبه بعض التعزيزات التي يحصل عليها، مادية كانت أو معنوية عند اقتراف السلوك السيئ، مما يحمله على أن يفكر جيداً قبل تكرار هذا السلوك؛ ليحمي نفسه من فقدان هذا التعزيز.

(١) التي تُسَرِّحُ شعره.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١١٦/٥).

(٣) كحرمانه أصلاً من اللعب، أو تقليص مدة اللعب عن المعتاد.

أنواع الحرمان كعقاب:

- ١- الحرمان من الاهتمام والمعاملة الودودة^(١).
- ٢- الحرمان من دمية يحبها، أو لعبة كالقطار المتحرك، أو الكرة، أو الدراجة^(٢).
- ٣- الحرمان من رواية قصة له، أو قراءته إياها بنفسه.
- ٤- الحرمان من الشاشات؛ كالتلفاز، والحاسوب، والهاتف الذكي، ونحوها^(٣).
- ٥- الحرمان من خروجه إلى نزهة، أو اصطحابه لزيارة جدته، أو اصطحابه إلى المسجد، أو خروجه مع أصدقائه، أو مقابلة صديق مقرب إليه، أو رحلة مدرسية^(٤)، أو الذهاب إلى النادي، ونحو ذلك، بشرط أن لا يُترك وحدَه في البيت.
- ٦- الحرمان من مكافأة أو هدية سبق اعتبارها ضمن أنواع الإثابة؛ لأنَّ الحرمان من الثواب المرتبط بسلوكٍ حسن نوع من أنواع العقاب بسبب سلوكٍ سيئ.

(١) انظر (ص ٥١٦).

(٢) يمكن تخصيص صندوق كبير يُغلف باللون الأحمر، ونسميه «صندوق الحرمان»، تحتجز فيه الدمية أو اللعبة في الحالات التالية:

- إذا حاول الطفل تكسيروها أو تمزيقها.
- إذا رفض مشاركة أخيه فيها.
- إذا رفض إعادتها إلى مكانها بعد فراغه من اللعب بها.
- إذا استمرَّ في اللعب بها متجاهلاً نداءك بتركها لتناول وجبة الغداء.
- ويحذر أنه إذا لم يعدل سلوكه حالاً فسوف تحتجز اللعبة في هذا الصندوق لمدة يوم مثلاً.
- (٣) يمكن أن يتم ذلك بسحب الجهاز منه، وإعطائه هاتفاً قديماً مكان الهاتف الذكي، أو بإطفاء الـ (WiFi).
- (٤) بشرط أن لا يكون قد سبق وعده بالذهاب إليها.

تنبيه:

لم ندرج هنا معاقبة الطفل بحرمانه من الحلوى أو البيتزا أو الطعام عمومًا؛ لأنه سبق أن بينّا أهمية عدم ربط الطعام بالثواب والمكافأة والانفعالات العاطفية عمومًا^(١).

ضوابط العقاب بالحرمان:

الأول: لا يجوز عقاب الطفل بحرمانه من أمرٍ ضروري، أو احتياج أساسي؛ كوجبات الطعام الأساسية، أو النوم، أو دخول الخلاء، بل يكون الحرمان مما هو دون ذلك من الأشياء الثانوية.

الثاني: اجتهد في تحديد وحصر الأشياء التي يجبها ويتعلق بها؛ لتساومه بها عند اللزوم؛ مثل لعب الكرة، أو زيارة مواقع إلكترونية يحبونها، أو الألعاب الإلكترونية، أو الرسم والتلوين، أو قراءة القصص... إلخ.

لأنّ الأطفال يتباينون في اهتماماتهم وهواياتهم وميولهم، فلذلك ينبغي تحري ذلك بالنسبة لكل طفل على حدة؛ لأن العقاب بالحرمان لن يُجدي إذا كان الحرمان من شيء لا يميل إليه أو يكرهه، فإذا حددنا الأمور التي يجبها وحرمانه منها، وعللنا ذلك الحرمان وربطناه بسلوكه السلبي، وربطنا إيقاف الحرمان بتوقفه عن هذا السلوك، وتعهده بعدم تكراره، فحينئذٍ سيكون العقاب بالحرمان مفيدًا ومعينًا له على تعديل سلوكه.

(١) انظر: «التربية بالثواب» (ص ١٠٥، ١٠٦).

الثالث: لا بد أن يقترن العقاب هنا بصدور السلوك السلبي فوراً بدون تأجيل حتى يربط الخطأ بالعقاب.

و يخاطب المربي طفله قائلاً: «أنتَ فعلتَ كذا...»، مع أنه سلوك سيئ، وكررت ذلك عدة مرات رغم أني كررتُ تحذيري إِيَّاكَ في كُلِّ مرة، ولذلك سوف تُعاقَب بالحرمان من (كذا)، إذا أجبني: لماذا ستُعاقَب؟»، ويجب الطفل: «لأنني فعلتُ كذا...».

الرابع: لا بدَّ أن يكون سن الطفل مناسباً لنوع الحرمان ومدته.

الخامس: لا بد من أن يكون الحرمان محدد المدة، مع إعلام الطفل بها.

السادس: لا يعاقب الطفل بالحرمان إلا بعد تكرر صدور الخطأ منه (عدوان أو إهمال أو وقاحة وسوء أدب... إلخ) عدة مرات، رغم تحذيره من العقاب مع كل مرة.

السابع: متى ما قرر المربي العقاب بالحرمان، يجب عليه الثباتُ على موقفه وعدم الاستسلام مهما ألحَّ الطفل أو صرخ أو بكى، أو ضرب رأسه في الحائط؛ لأنه إذا رضح لتوسل الابن وإلحاحه؛ يكون قد كافأه على سلوك سلبي.

إنَّ حكمة المربي وخبرته ومرونته -قبل أي شيء آخر- هي رائده في تحديد التفاصيل التي يراعيها حين يطبق هذا النوع من العقاب حتى يكون مناسباً ومؤثراً.

الثامن: مراعاة التناسب بين نوع الخطأ، ونوع الحرمان:

يفضل أن يكون نوع الحرمان مناسباً لنوع الخطأ كما في الأمثلة التالية:

١ - طفل أفسد أثاث المنزل بالألوان، أو كتب بها على الحائط، يحرم من أدوات التلوين، ويُحسب منه لمدة مناسبة.

٢ - تكرر تقصير طفل (ما بين ٧ إلى ١٠ سنوات) في أداء الصلاة على وقتها بسبب انهماكه في الألعاب الإلكترونية رغم تحذير الأم له من ذلك، يعاقب بالحرمان منها لمدة أسبوع مثلاً

وكذلك إذا انشغل بها عن أداء واجباته المدرسية يُحرّم منها لمدة (ثلاثة أيام) مثلاً.

(١) تحكي فتاة عمرها أربع عشرة سنةً موقفًا تربويًا من أبويها أفادها كثيرًا، فتقول: «أذكر في إحدى المرات أن والدي عاقباني لأنني لم أحسن إدارة وقتي، بل أهدرته وفوّت واجبي، وقد كان عقابي هو عدم مشاهدة التلفاز لمدة أسبوعين، وأحسستُ في ذلك الوقت أن هذا عقاب غير عادل، ولكنني الآن عرفتُ أنه كان درسًا عظيمًا لي.

لقد كنتُ أشاهد التلفاز أنا وأختي الصغرى لمدة تقرب من ساعتين، حتى ضيّعنا صلاة المغرب، وعندما عرفتُ أُمي ذلك طلبت منّا أداء صلاة المغرب، ثم منعتنا من مشاهدة التلفاز لمدة أسبوعين عقابًا لنا.

خلال هذه الفترة كان والدي يتعاملان معي بطريقة طبيعية جدًا ويُوليانني العناية والرعاية والدعم وسائر احتياجاتي، ولم يكررا تذكيري بذنبي وخطأي الذي ارتكبته.

أعتقدُ أن هذا العقاب قد نجح كثيرًا في تلقيني درسًا مفيدًا وقيّمًا، إنه لم يكن عقابًا شديدًا وقاسيًا، ولكنه كان مناسبًا للذنوب الذي ارتكبته، وفي الوقت نفسه لم أفقد حبّ وعطف والدي أثناء فترة العقاب، مما جعلني أقتنع تمامًا أن العقاب ليس انتقامًا مني أو كرهًا لي، ولكنه تقويم للخطأ الذي ارتكبته، وكان الدرس الذي لن أنساه: أن لكل عملٍ عواقب تترتب عليه في الحياة».

٣- خالف قاعدة (داخل المنزل لا يُسمح باللعب بالكرة) تُسحب منه الكرة لمدة مناسبة.

٤- تنازع الأشقاء على أي برنامج يشاهدونه في الشاشة وتشاجروا، يُحرم منه جميعهم بأن يُطفأ الجهاز إلى أن يتنازل بعضهم لبعض، ويتفقوا على رأي واحد.

وكذلك الحال إذا تشاجروا حول اللعب بلعبة معينة، تُسحب اللعبة من جميعهم إلى أن يتفقوا.

٥- أكثر الابن الخروج مع أصدقائه مما تسبب في تراجع مستواه الدراسي، يعاقب بأن يُحرم من الخروج معهم لمدة مناسبة.

٦- تكرر من الولد تضييع المال بسبب استهتاره، يُعاقب بالحرمان من جزء من مصروفه اليومي لمدة مناسبة.

التاسع: التهديد بإمكانية العقاب بلسان الحال؛

وهذا تهديد صامت يُحدث في الأطفال رهبةً من السلوك السيئ، حيث يُكتفى فيه بأثر هذه الرهبة (من إمكانية إيقاع العقاب فعلياً) في الكف عن السلوك السلبي، وذلك بأن تعلق آلة العقاب على مرأى منهم؛ عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «عَلِّقُوا السُّوْطَ حَيْثُ يَرَاهُ أَهْلُ الْبَيْتِ؛ فَإِنَّهُ لَهُمْ أَدَبٌ»^(١).

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير»، وابن عساكر، وحسنه الهيثمي في «المجمع» (١٠٦/٨)، والألباني في «الصحيحة» (١٤٤٧).

العاشر: عقوبات بدنية خفيفة:

١- مَسْكُ الأُذُن:

وهي عقوبة جسدية رفيقة تنبه الطفل إلى خطئه، ليحسّن سلوكه؛ عن عبد الله ابن بُسْرِ المازني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بعثني أُمِّي إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقُطْفٍ مِنْ عِنَبٍ، فَأَكَلْتُ مِنْهُ قَبْلَ أَنْ أُبَلِّغَهُ إِيَّاهُ، فَلَمَّا جِئْتُ بِهِ أَخَذَ بِأُذُنِي، وَقَالَ: «يَا غُدْرًا»^(١).

٢- تقييد حركة الطفل:

كطفل يستعمل يديه في ضرب أخته أو بَعَثَرَةِ القمامة على أرضية الحجرة، فيقوم المربي بإقاعاده على الأرض، ويُقيّد كفيه معًا برفقٍ برباطٍ خفيف (كالجورب) لمدة قصيرة، ثم يُخلّله.

٣- الضرب الخفيف على اليد:

ارتكبت الطفلة خطأً يستحق العقاب، فأمسك المربي عصًا صغيرةً، وقال لها: «هيا أخبريني أتريدين أن أضربك بلطف أم بشدة؟»، فردت الطفلة: «بألطف ما يمكن»، فأمرها أن تقف منتصبة، وتمد كفَّها، فضربها بغاية اللطف؛ كأنه لمس يدها، ثم قال: «هل تفهمين؟ لا تفعلي هذا مرة ثانية يا ابنتي».

٤- ومن صور العقاب البدني:

- تكليف المراهق بأن يمارس تدرّيات رياضية شاقّة عليه (نسبيًا) ويكررها بما يناسب سنّه إلى أن يُرهق بدنه.

- أو أن يحمل إطار السيارة المطاطي، ويرفعه عن الأرض، ويمشي به فترةً تناسب سنّه وقدرته على التحمل.

(١) انظر تخريجه (ص ٣٢٠).

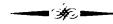
الحادي عشر

العقاب بالإقصاء المؤقت



أولاً: مدخل: حاجة الطفل إلى الاهتمام

ثانياً: الإقصاء المؤقت



أولاً: مدخل

حاجة الطفل إلى الانتباه

(الاهتمام) (Attention)



الانتباه وظيفة عقلية يهتم بها علم النفس المعرفي، وهو النقطة الأولى للاتصال بالعالم الخارجي؛ لأن الانتباه يسبق الإدراك ويُمهّد له، فأنت تُركّز وعيك، وتوجّه طاقاتك العقلية إلى الشيء (المُنْبَه) بالانتباه، ثم تعرفه بالإدراك (عن طريق الحواس الخمس)، وبعد الإدراك تأتي ردود أفعالك.

تعريف الانتباه:

هو تركيز الوعي على مُنبّهات (Stimuli) مُعيّنة، واستبعاد مُنبّهاتٍ أخرى في الوقت نفسه.

فهو عملية انتقائية للمثيرات، أو (مِصفأة) لهذه المثيرات التي تستقبلها أعضاء الحس، فيختار بعضها، ويهمل البعض الآخر.

يُصنّف الانتباه (الاهتمام) إلى نوعين:

- ١- الاهتمام الإيجابي.
- ٢- الاهتمام السلبي.

ويزيد بعضهم:

- ٣- الاهتمام المحايد: وهو تواصل (أو رد فعل) لا يحتوي على المشاعر

القوية.

ويُميّز الانتباه (الإيجابي والسلبي) عن طريق أثره على المستقبل.

الاهتمام الإيجابي؛

طريقة مميزة في الاستجابة للآخرين تجعل المستقبل يشعر بالتأييد والتشجيع والتدعيم.

الاهتمام الإيجابي بالأطفال؛

هو أن تتفاعل بإيجابية مع الأطفال، وهذا شيء جيد وإيجابي بحق؛ لأنه يدعم السلوك الحسن^(١)، ويوثق علاقتك بهم، ويوفر لهم بيئة دافئة، ويتم ذلك من خلال:

(أ) الاهتمام اللفظي (بالكلام):

بالتعليق الإيجابي بكلمات سارة، أو بالمدح الاجتماعيّ مثلاً، أو بالكلام معه بطريقة رقيقة ومطمئنة.

(١) قد يُدعم الاهتمام الإيجابي سلوكاً سيئاً: كالطفل الذي يصفع أمّه أو يشتّمها فتنفجر الأم ضاحكة في كلّ مرّة يفعل ذلك.

هنا يفسر الطفل ردّ فعل الأم الإيجابي بأنّه إجازة لسلوكه وموافقة عليه، وبالتالي يستمر في ضرب الأم؛ ليُدخل السرور عليها، وليحظى باهتمامها.

إذن قد يحدث التفاعل (الإيجابي) في غير موضعه، كذلك الأم التي تعود طفلها على أنه إذا غضب يصرخ ويُولول ويرمي بنفسه إلى الأرض ويتمرّع عليها، فتهرول إليه أمّه لتستوضح منه ما الذي أزعجه، وتسترضيه، وتغمره بالمشاعر الحانية الفياضة (وهذا اهتمام إيجابي).

وهذا (السيناريو) يُعزّز سلوك الطفل العنصريّ، ويشجعه على التهاذي فيه، والواجب على هذه الأم أن تدخّر هذا الاهتمام الإيجابي، ولا تبذله إلّا حين يتصرّف الطفل بهدوء وبطريقة مهذّبة، وبهذا يتعلّم أن يحصل على الاهتمام الإيجابي بطريقة وظيفية ملائمة.

(ب) الاهتمام غير اللفظي (عن طريق سلوكيات أو أدوات عالية التعزيز):

ومن صورته:

- إعطاء هدايا مفاجئة، ومكافآت تشجيعية، وألعاب يحبونها.
- منح امتيازات.
- بذل العناية اللائقة بهم.
- إظهار الابتهاج بهم، والدفع في علاقتك بهم.
- النظر لهم والإنصات لحديثهم، وهزُّ الرأس بالموافقة.
- التواصل الجسدي: باحتضانهم، والابتسام في وجوههم، وتقيلهم، والتربيت على الكتف، ومسح الرأس.
- بتمضية الوقت معهم، والوجود حولهم.

الاهتمام السلبي:

لَئِنْ سَاءَ نِي أَنْ نَلْتَنِي بِمَسَاءَةٍ لَقَدْ سَرَّنِي أَنْي خَطَرْتُ بِبَالِكَ

هل حاولت يوماً أن تُجرِّي محادثةً هاتفيةً وطفلك الصغير جالسٌ بجوارك؟
إنَّه يشدك إليه، ويقاطعك باستمرار، وربما يمسك بالهاتف، أو يحاول أن
يلوي وجهك ناحيته، ويتهدى في ذلك حتى لو نهيته وزجرته، أو وبَّخته وعَنَّفَتْه،
وهذه هي الصورة الدقيقة للاهتمام السلبي.

تعريفه:

هو تفاعل يدل على الاعتراض أو النقد لكلام المستقبل أو أفعاله أو هو بذل اهتمام زائد لتصرفات سلبية يفعلها شخص آخر، فيتبادى فيها^(١).

يحدث الاهتمام السلبي حين يُسيءُ الطفل التصرف، فيؤبّخه المربي، ورغم أن اللوم والتوبيخ أمر غير سار للطفل إلا أنه يسعى إليه هنا؛ لأنه يحصل على انتباه المربي من خلال رد فعله الذي يعزز السلوك السيئ للطفل، وربما سعى وراء المزيد منه، فتحدث دورة يتصاعد فيها تمرّده وسوء سلوكه؛ كي يحصل على المزيد من الاهتمام (السلبي)^(٢).

إنَّ وجودَ هذه الدورة ليس معناه أنَّ المربي شخص سيئ، ولا أنَّ الطفل سيئ، بل يعني ببساطة أنه صغير اكتشف طريقة تمنحه الاهتمام الذي يتوق إليه (مع أنه سلبي يجلب له التوبيخ والنقد)، وبهذا يساهم (الاهتمام السلبي) في تعزيز السلوك السيئ وتشجيع الطفل على التماهي فيه.

تنبيهان:

الأول: كُلُّما استقبل الطفل اهتماماً إيجابياً كافياً، كُلُّما قلَّت احتماليَّة سعيه للحصول على الاهتمام السلبي بطرقٍ مُحتلَّة^(٣).

(١) وقد يحدث نمطياً مع شخصين بالغين (كزوجين متحابين) أحدهما يبحث عن الاهتمام السلبي (negative attention seeker)، والآخر يبذله له، والحل الأمثل هنا مغادرة المكان، وإلا فقد ينتهي الأمر إلى حصول إساءة (Abuse).

(٢) ومن أسباب بحث الطفل عن (الاهتمام السلبي) انشغال الوالدين عنه طوال الوقت، فينخرط في سلوكيات تستفزهم؛ ليقابلوها بالتوبيخ والتعنيف، فيحصل على مبتغاه (وهو الاهتمام السلبي).

(٣) أي إنه لن يحتاج إلى الحصول على الاهتمام السلبي - عبر السلوك السلبي - ما دام أنه يمكنه أن يُحسِّن سلوكه، ويحصل على جائزة (الاهتمام الإيجابي).

الثاني: يفيد الاهتمام الإيجابي في تدعيم السلوكيات الجيدة، ومع ذلك فإنه لا يُجدي في تغيير السلوكيات السيئة حتى لو تمَّ بطريقة استراتيجية.

الاهتمام السلبي لا يزال (اهتماماً)؛

أي إنه بالنسبة للطفل ليس دائماً سلبياً، وبخاصة إذا كان عنيداً مُتَشَبِّهاً برأيه، ذا إرادة قوية، فإنه يفضل الاهتمام السلبي المحتوي على (تفاعل) على غياب الاهتمام (الخالي من التفاعل)

ماذا أفعل إزاء سلوك البحث عن الاهتمام (Attention-Seeking Behavior)؟

١- كافئه بالاهتمام الإيجابي إذا حسن سلوكه فقط:

- بدلاً من (مكافأة) الطفل بمنحه (الاهتمام السلبي) الناتج عن سلوكه السيئ؛ ابذل له (الاهتمام الإيجابي) حين يحسن سلوكه، بتحيته وإظهار الإعجاب به، أو إعطائه هدية أو لعبة يحبُّها، وبهذا تُدعَّم سلوكه الحسن، ويكون الدرس المستفاد: أنَّ «البقاء هادئاً والتزام السلوكيات الملائمة» هو الطريقة الصحيحة للحصول على الاهتمام.

- إذا احتاج الطفل إلى تهذيب وانضباط فخاطبه بهدوء ولين، ولكن بنبرة حازمة وصارمة، بدلاً من رفع الصوت، فإذا أحسن التصرف فكافئه بالانتباه الإيجابي والمدح.

(١) وسترى عند دراسة أسلوب (الإقصاء المؤقت) -إن شاء الله- كيف أنَّ الطفل الذي حُرِّم من الاهتمام، وعُزِّلَ على (كُرسيِّ الإقصاء) المُيل، سيحاول الحصول على اهتمامك السلبي بأن يقاوم الإقصاء، أو يغادر الكرسي، ليستمتع بمطاردتك إيَّاه، وحديثك إليه.

٢- امدح الطرق الملائمة للحصول على الاهتمام:

أفضل طريقة لإدارة السلوك المختل الباحث عن الاهتمام (السلبى) هي مدح الطرق المناسبة للبحث عن الاهتمام، وترغب الطفل فيها، مع تجاهل كل الصور غير المناسبة للبحث عن الاهتمام.

٣- أشبع حاجته إلى الاهتمام:

يسلك الأطفال طرقاً كثيرةً ليحوزوا على اهتمام الكبار والأصدقاء، وبالتالي يلفتون الأنظار إليهم، وقد يكون (الاهتمام) هو القوة الدافعة وراء كثير من التصرفات:

- كطفل يطلب من الكبار أو زملائه أن يلاحظوه وهو يُصوّب كُرّة السّلة.

- أو طفلة تدلّت من فرع شجرة صغيرة رأساً على عقب مثل الحفّاش،

وهي تقول لك: انظر إليّ.

فالاهتمام رغبة بشرية، ومما يؤسف عليه أنّ النوع السلبى منه قد يكون

أسهل على الأطفال كطريقة للحصول على الانتباه السلبى، كذلك الطفل الذي

يجلس خلف مقعد السائق ويرفسه باستمرار، فإنه يجلب اهتمام والده (بالتوبيخ

واللوم) أكثر من أخيه الجالس بجواره هادئاً متوقعاً مدح الوالد.

والحقيقة المؤسفة أننا نميل إلى توبيخ الطفل المنخرط في سلوكٍ يضايقنا

أكثر من ميلنا إلى مدح الطفل المنخرط في سلوكٍ مقبول وملائم.

وبناءً عليه :

- قُم بإشباع حاجته إلى الاهتمام قبل أن يحاول الحصول عليه بطريقة سيئة.
- عدّل في جدولك بحيث تخصص له وقتاً مناسباً تشارك فيه معاً في أنشطة مناسبة.

إنّ هذا الجدول يُمكنه من أن يعلم متى سيحصل على اهتمامك، كما أنه سوف يعينه على ممارسة الصبر.

- كُن محدداً ونوعياً فيما يتعلق بتعيين هذا الوقت، فلا تستعمل عباراتٍ مثل: «بعد قليل» أو «فيما بعد» أو «حالا»، وبدلاً من ذلك اربط بداية وقت المشاركة بانتهاء مهمة محددة -أو مهام- مثل أن تقول الأم له: «نستطيع أن نعلب معاً بمجرد أن أنهى غسل الأطباق وتجهيزها وإعادتها إلى مكانها في المطبخ»، أو «بمجرد أن أصلي صلاة العصر».

وبهذا سيعلم بوضوح أن مشاركة اللعب لن تبدأ إلا بعد الفراغ من المهمة المعينة، وسيصبر وهو يراك تنجزها، وهو يعلم أنك في النهاية ستفي بوعدك.

لا بدّ أن تفهم بوعدك -ولو لوقتٍ قصير-؛ لأنه إذا حسن سلوكه، وصبر ثم لم تلتزم من جهتك بهذه الصفقة، فلن يبقى لديه دافع كي يُحسن سلوكه في المرة المقبلة

وقت مكثف مشبع أفضل من وقت وجيز متفرق يبقيه متعطشا للاهتمام؛

إذا وفّرت لطفلك اهتمامًا مباشرًا متواصلًا لفترة طويلة بدون انقطاع، مع التواصل البصري واللفظي أثناء ذلك، فإنك تشبع حاجته إلى الاهتمام لمدة أطول، وبطريقة أفضل من (فترات) الانتباه القصير المتوزّع أثناء انشغالك ببعض أمورك، الذي يشعره بأنه لم يحصل على اهتمام، وسيبقى محتاجًا إلى أكثر وأكثر.

كيف تمنحه الاهتمام بدون تعزيز السلوك السلبي؟

يستمر عادةً مكافأة الأطفال على السلوك السلبي، ليس لأنك تعتمد ذلك، ولكن لأن طفلك لو رمى أخته بالسيارة اللعبة تجد نفسك مدفوعًا لأن تتدخل في الموقف بصورة ما.

قد تخاطبه بكلام وجداني (من القلب إلى القلب) قائلاً: «ولكنك تحب أختك؟!»، وربما تصرخ فيه وتوبّخه، وربما جمعت اللعب كلها وأخرجتها من المكان.

انتبه!

لقد حصل على تفاعلك، ونجح أن ينال اهتمامك، وأعطيته ما يريد، إنه يعلم جيدًا كيف يُشغلك بضغطٍ على زرّك.

والآن قَدِّر العكس:

هل هذا التفاعل الذي أبديته سيجعله قادرًا على أن يتصرف بطريقة جيدة؟ الواقع أن سلوكه السيئ سيصبح أكثر شيئا يعتمد عليه؛ كي يحصل على اهتمامك.

إنك لن تستطيع أن تغمرهم بالحب والاهتمام طوال الليل والنهار، ولكن ماذا تفعل كي تمنحهم الاهتمام الذي يحتاجونه دون أن تستنزف طاقتك يوميًا في محاولة إيقاف السلوك السلبي؟

١- التجاهل يوقف التعزيز السلبي:

تجاهل سلوك الطفل السيئ أنسب طريقة لمواجهة (سلوك البحث عن الانتباه) (Attention Seeking Behavior)، لا تندمج معه إذا شرع في (الدراما)، ولا تستجب لاستفزازاته، ولا تُحدث رد فعل، وحاول أن تُبقي انفعالك متعادلاً مُحيّداً، وبذلك تمنع تعزيز هذا السلوك وتغذيته واستمراره.

حقاً يكون من الصعب عليك أن تنظر إلى الجهة الأخرى وتبقى صامتاً وتجاهله، لكن تذكر: لقد فعل هذا؛ لأنه يريد اهتمامك، ومجرد توبيخه وتأنيبه سيبقى منحا للانتباه الذي يبحث عنه ولو كان سلبياً، فإن الاهتمام السلبي لا يزال (اهتماماً).

٢- وجه اهتمامك نحو شخص آخر.

٣- وجهه إلى نشاطٍ مختلف.

دون أن توبّخه وتُنقّره من سلوكه السيئ.

٤- اقرأ العلامات المنذرة:

هناك علامات (مُنْذِرَة) تدل على أن طفلك على وشك الانخراط في سلوكٍ

سلبي:

- كأن يشرع في الدرجة الدنيا من النحيب والعيول (قبل أن يتصاعد).

- وقد يغادر الحجرة فوراً ليذهب كي يَحْرَبَ شيئاً.

وفي هذه اللحظة -بمجرد رصد العلامة المنذرة- اعرض عليه نشاطاً

تشاركه فيه، مثل: «ما رأيك لو جلسنا نُلوِّن معاً؟».

أو: «هل تحب أن أقص عليك حكاية؟».. وهكذا.

هكذا يتم منع السلوك السلبي دون أن تكافئه عليه، وهكذا تعلمه أن

يطلب مشاركتك إياه في نشاطٍ مُجَبَّب عندما يحتاج إلى الاهتمام.

من الضروري -بمجرد التقاط العلامة المنذرة- أن تمتدد ببطء وقت تحمله،

كي لا يتجاوز عتبة (Threshold) التصعيد، فإذا فَوَّتَ عليه فرصة الانخراط في

السلوك السلبي فإنه سيفقد شدَّته خلال مرور الوقت.

متى يأتي دور الإقصاء؟

حينما يصير الطفل على السلوك السلبي بحيث يكرره مرة واحدة على الأقل

في كل يوم؛ هنا يأتي دور (الإقصاء المؤقت) الذي يُعدُّ وسيلةً علميةً ومُجَرَّبَةً

في إيقاف السلوك السيئ، بشرط أن يلتزم المُربِّي بشروطه، ويتدرَّب جيِّداً على

تطبيقه بطريقةٍ صحيحة.

ثانياً: الإقصاء المؤقت

(Time-Out)



هناك سلوكيات يمكن تغييرها بأمان وكفاءة دون أي إجراء عقابي، وذلك إذا كان لدينا خطة جيّدة لإدارة السلوك الإيجابي، وذلك يتضمن أمرين:

أولهما: التعزيز الإيجابي (Positive reinforcement) ويعني تدعيم السلوك الجيد بشيء يحبه الطفل. مثل:

- المدح (كأن تقول له: عمل رائع).

- أو التريبت على كتفه، مع ذكر الشيء الذي فعله بالتحديد.

- أو المكافآت (مثل الملصقات كالنجوم ... إلخ)، وذلك لتشجيعهم على

المهام التنموية مثل: (التدرب على الإخراج، أو التدرب على المشي).

وهناك أيضًا (الامتيازات) التي تناسب الأطفال الأكبر سنًا، والسبب

في ذلك أن الصغار أقل من خمس سنوات يصعب عليهم الانتظار، ولذلك

تكون العواقب الإيجابية المباشرة والفورية أكثر فعالية معهم، أمّا الأكبر فوق

خمس سنوات فيمكنهم الانتظار، الامر الذي يتناسب مع (الامتيازات)؛ لأنها

تتضمن غالبًا شيئًا ينبغي عليه أن ينتظره^(١).

(١) انظر: «التربية بالثواب» للمؤلف (ص ٥٦ - ٥٨).

الثاني؛ هناك نوعان متباينان من الاستجابة الإيجابية (Differential

Attention Positive Reinforcement)؛

(أ) حين يكون سلوكه إيجابياً (أو محايداً): فتعطيه اهتماماً ودفئاً أكثر، وردّ فعل أقوى (وهذا معزز إيجابي).

(ب) وحين يكون سلوكه أقرب إلى السيئ فيمكنك تنويع عواقبه:

- بتجاهل السلوكيات غير الضارة، والعادات السيئة^(١).
- وباستعمال العواقب المنطقية لبعض السلوكيات السيئة مثل: إزالة اللعب أو الممتلكات الأخرى، أو سحب الميزات.

وكلا النوعين يساعد على تغيير السلوك بطريقة إيجابية دون اللجوء إلى العقاب. لكن يبقى نوع آخر من السلوكيات السيئة لن تستجيب بالطريقة الإيجابية؛ لأنها بالفعل (شديدة) وتحتاج إلى استعمال استراتيجية عقابية تساعد على تعليمهم الصواب من الخطأ، والالتزام بالحدود التي يرسمها الكبار، مما ينقلهم إلى مسار أفضل.

ومن أمثلتها: عصيان تعليمات الكبار، رغم أنك علمتهم من قبل ماذا عليهم أن يفعلوا، والسلوكيات المرتبطة بالأمان، مثل: العدوان - التخريب - الضرب .. إلخ، فهذه وأمثالها تحتاج إلى (عقاب) بطريقة ثابتة مُطَرِّدة إلى أن يتمّ التخلي عنها.

(١) وذلك حين يكون سلوكه السيئ متوسط الشدة (Mild)، فتبقى هادئاً ومتجاهلاً للسلوك، ومُعَبِّراً عن رفضك له إمّا بالانسحاب، أو بأن تدير ظهرك له، أو بأن تتجنّب أن تنظر إليه بإعجاب، ونحو ذلك.

يقع من الأطفال مخالفات شائعة عابرة يمكن غض الطرف عنها وتجاهلها، بخلاف السلوكيات الشديدة السوء، فهنا نرفع الراية الحمراء بالإلذار.

وكلما عاجلنا هذا النوع من السلوكيات مبكرًا، كان أسهل وأفضل.

فإذا فكّرنا في العقاب بالإقصاء (وبخاصة في الأطفال الأكبر سنًا)؛

- فعلينا أولاً بسحب الامتيازات (Loss of privileges).

- ثم نلجأ إلى (الإقصاء) الذي يكون أكثر تأثيرًا وفعاليةً إذا نُفِّذَ بطريقة سليمة.

و(الإقصاء) عبارة عن تعليق مؤقت (Pause) للاستمتاع بمكونات البيئة المحيطة التي تكافئه، وتبذل له الاهتمام والتسلية.

وبالتالي فهو يشبه إبعاد اللاعب في (لعبة الهوكي) إلى (صندوق العقاب) (Bad Box) أو (Sin Bin) أو (Penalty Box).

وبيان ذلك:

أنَّ الحَكَمَ في (لعبة الهوكي) يقوم بإيقاف اللاعب الذي يسلك مع خصمه سلوكًا غير رياضيٍّ (Unsportsmanlike) عن اللعب لمدة تتراوح بين دقيقتين إلى خمس أو عشر دقائق حسب درجة المخالفة ونوعها، فيخرج من الملعب، ويجلس هذه المدة في (مكان مخصص للعقوبات) بينما يتابع فريقه اللعب ناقصًا هذا اللاعب المُعاقَب، ويبقى هذا اللاعب في (صندوق العقاب) محرومًا من المشاركة في اللعبة، محرومًا من أيِّ اهتمام، بينما يرى الآخرون يتسلَّون، ويبقى هو معزولًا لا يستجيب له، ولا يهتم به أيُّ أحد.

الإقصاء (Time-Out):

ويُسمَّى أيضًا: الإبعاد - أو العزل - المؤقت، أو الوقت المستقطع، وسمَّاه بعضهم: «الاحتجاز الانفرادي» (Solitary confinement) المؤقت.

وأما المكان الذي يُعزَّل فيه الطفل فيُسمَّى: كرسي السلوك السيئ - أو غير المطيع - (Naughty chair)، أو صندوق العقاب (The Penalty Box)، أو كرسي - أو منطقة - التفكير؛ لأنَّ الطفل المعاقب يجلس عليه، ويفكر - خلال فترة الإبعاد - في السلوك السيئ كضرب أخيه مثلاً، وهل يقبل هو أن يضربه أحد؟

هدفه:

- هدفه البعيد المدى: مساعدة الطفل على اكتساب الانضباط الذاتي.
- وهدفه الفوري: تقليل - أو وقف - أي سلوك مُقلق أو غير آمن يصدر عن الطفل.

وتطبيقه بطريقة صحيحة يُفهم الطفل أن لكل سلوكٍ سيئٍ عاقبةً، وأنَّ عليه أن يكبح هذا السلوك في المستقبل.

تعريف الإقصاء:

- هو طريقة تربية يراها كثيرٌ من الخبراء والآباء مفيدة وفعَّالة لعقاب الطفل المُخطئ دون اللجوء لطرق العقاب العنيفة التي تؤثر على نفسيته سلباً.
- حيث يعزل المُربِّي الطفل مباشرةً فورَ صدور سلوك سيئ عنه.

- ويقوم بإبعاده عن المكان الذي مارس فيه هذا السلوك (مكان أنشطته السارة المعززة والمسلية) إلى مكانٍ آخرٍ آمِنٍ هادئٍ، مُملٍّ قدر المستطاع، غير مرغوبٍ لديه، خالٍ من المعززات (كالأشياء التي يجبها من اللُّعب والأجهزة)، والأنشطة التي تُسليّه، والأصوات السَّارة، ولا يجد فيه ما يفعله، فهو في الأساس إبعادٌ عن التعزيز والمكافأة والاهتمام.

- وهناك يجلس منفردًا وحيدًا فترةً محددةً وجيزةً من الوقت؛ ليدوق وبال سلوكه الخاطئ، ويُعطى فرصةً للهدوء والتفكير.

- ثم يجتمعان معًا مرةً ثانية بعد انقضاء المدة.

الإقصاء عقوبة مفيدة للأطفال:

يتوهَّم البعض أنَّ الإقصاء يحرمُ الأطفال من حاجتهم الماسَّة للتواصل؛ إذ يعزلهم ويبعدهم عن البيئة الدافئة والأشياء السارة، ويزعمُ هؤلاء أنه يأتي بنتيجة عكسية؛ إذ تزداد المشاكل السلوكية لدى الأطفال سوءًا بسبب الإقصاء

ولا يتعلَّق هذا الأمر بالإقصاء في حد ذاته، ولكنه يتعلق بكيفية تطبيقه واستعماله بصورة غير صحيحة، أمَّا إذا استُعمل بالطريقة المثلَّى فإنه ينفع مع معظم الأطفال، ويصحح السلوك المتهور والمندفع والانفعالي؛ وذلك لأنه أسلوب سريع ومحدد، وفوري، ولا يتمكن الأطفال عادةً من تجنُّب هذا النوع من التأديب، وعادةً ما يختفي سلوكُهم المزعج سريعًا بعد انتهاء العقوبة؛ بسبب تأثر الأطفال بهذا العقاب من طرف آبائهم.

(١) انظر الرد المُفصَّل على هذا الزعم: (ص ٥٥٠)، وما بعدها.

القيم الاجتماعية مكتسبة:

لا يولد الأطفال وبدخلهم جزء مغروس يخبرهم كيف يميّزون الخطأ من الصواب، وإنما يكتسبون ذلك من خلال العلاقات الاجتماعية، وهذا يتوقف بدوره على كيفية التربية الوالدية، والقيم الاجتماعية التي يحتاجون لاكتسابها بالتعلم منذ الصغر.

والأطفال يتعلمون بطريقتين:

الأولى: من العواقب التي تحدث لهم:

وهذه العواقب قسّمان:

(أ) عواقب إيجابية بالنسبة لهم: وهذه تزيد السلوكيات التي أنتجت هذه العواقب المحبوبة لديهم.

(ب) عواقب سلبية لا يحبونها: وبالتالي تنقص السلوكيات التي أدّت إليها.

الثانية: من ملاحظة سلوك الآخرين واستجاباتهم:

فالأطفال يمتصون التصرفات التي يفعلها الكبار والبالغون، ويحاكونهم في تصرفاتهم، ويتخذونهم (قدوة) يحتذون بها في المواقف المشابهة.

إذن من مسؤوليات الآباء تعليم الأطفال الصواب من الخطأ، وعدم الاقتصار على التصرف أمامهم بالسلوكيات المناسبة كوسيلة لتلقينهم السلوك السليم؛ ليتأسوا بهم عملياً، ومن مسؤولياتهم كذلك توفير بيئة آمنة ومُحَبَّة إلى أطفالهم.

ولأن الصغار لا يعرفون الخطأ من الصواب؛ ينفق الآباء وقتًا كبيرًا لتلقينهم القواعد وشرحها لهم، ثم يرسمون لهم الحدود، ويطبقونها عليهم، وحينئذٍ يحاول الأطفال اختبار مدى صرامة الآباء في تطبيقها.

ويبدأ فرض الحدود من السن الصغير بين السنة الأولى والثانية من عمر الطفل، وهذا يُشكّل ضغطًا كبيرًا على الآباء كي يبقوا على اتصالٍ بالأطفال، ويعلموهم ذلك بطريقة مؤثرة.

كلمة السر هي الاهتمام (Attention)؛

يُعَدُّ الانتباه للأطفال والاهتمام بهم أهم عاقبة يستجيب لها الأطفال، ولا سيما الصغار منهم.

ويتطلع الصغار إلى البالغين وينظرون إليهم على أنهم الشيء الأكبر في عالمهم، فهم أكبر في نظرهم من أطفال المدرسة والمراهقين، ولذلك فإنَّ انتباه البالغين إليهم يُعَدُّ أقوى مكافأة يتلقاها منهم الأطفال، وهي جائزة ثمينة يتلهفون للحصول عليها، ويتوقون للاحتفاظ بها، وبالتالي يكون خسارتهم لهذا الانتباه وفقدانهم إيَّاه شأنا جسيمًا وعقوبة شديدة.

وعندما يتمُّ (إقصاء الطفل) في الـ (Time - Out) فإنه يخسر الاهتمام العائلي، ويخسر القوة والسيطرة والقدرة على إزعاج الآباء وإغضابهم، كما يخسر الألعاب المحبوبة، والأنشطة المرغوبة المُسلِّية.

وحينما يتم (الإقصاء) بسبب سلوك ما فإنه يُعطي إشارات تحذيرية تُنبه الطفل إلى أن الإساءة التي ارتكبها أمرٌ جادٌ وخطير، ولن يتجاهل، ولن يمرّ مرورَ الكرام.

لا يُجدي الإقصاء بدون التفاعل الإيجابي؛

No (Time - out) without (Time - in):

لا ينجح الإقصاء ولا يؤتي أكله إلا إذا كانت البيئة المحيطة بالطفل قبل الإقصاء، وبعده مثيرة ودافئة ومُسليّة وممتعة وحافلة بالاهتمام والتفاعل الإيجابي مع الطفل، وهذا ما يُسمّى (Time - in).

ومن مظاهر هذا التفاعل الإيجابي؛

تشجيع الطفل عندما يقوم بسلوك جيّد، والثناء على انضباطه، مثال: طفل كان معتاداً على ضرب أقرانه، إذا عدّل سلوكه، وصار يلعب معهم دون مشاكل، فعلينا أن نمتدح هذا التصرف الجيّد، سواء أكان ذلك قبل تطبيق الإقصاء أو بعده.

دواعي اللجوء إلى الإقصاء؛

هناك أسبابٌ عديدة للانتقال إلى التأديب وتحسين السلوك^(١) بالإقصاء،

نذكرها فيما يلي:

(١) تكون الاستفادة من الإقصاء أقوى في حالات السلوك العدواني، والمؤذي، والمدمر التي لا يمكن تجاهلها.

أمثلة للسلوكيات التي يمكن تعديلها بالإقصاء:

- ١ - كسر قاعدة من قواعد الأسرة.
- ٢ - العبث بموقد الغاز أو مقابس الكهرباء.
- ٣ - صراخ الغضب والذعر.
- ٤ - تكسير الألعاب.
- ٥ - تخريب الأثاث.
- ٦ - الحركة المفرطة.
- ٧ - عصيان الأوامر.
- ٨ - قيادة الدراجة في وسط الشارع.
- ٩ - الضرب أو الرفس أو الصفع.
- ١٠ - استفزاز الآخرين.
- ١١ - البصق أو التهديد بالبصق على الآخرين.
- ١٢ - رمي الآخرين (بالتراب أو الحجارة).
- ١٣ - القرص والتخميش.
- ١٤ - شد الشعر.
- ١٥ - لمز الآخرين بألقاب كريمة أو شتمهم.
- ١٦ - التعبير عن استيائه بألفاظ غير مهذبة.

تنبيهات حول تطبيق الإقصاء:

١ - قبل الانتقال إلى اختيار السلوك المستهدف، يجب عليك أن تفهم كلاً ما يتعلق بالإقصاء بدراسته جيّداً وباتقان، وأن تشرحه لطفلك مقدّماً.

٢ - لا بدّ - قبل اللجوء إلى الإقصاء - أن تكون قد حاولت مع الطفل بتطبيق الاستراتيجيات الإيجابية، فقبل أن تقول له: «سنبداً في (الإقصاء)؛ لأنّك ضربت أخاك» - مثلاً - لا بدّ أن تكون قد مدحته وكافأته من قبل على السلوك العكسي، بمعنى أنك تكون قد أثبتت عليه ومدحته كلّما تعامل مع أخيه برفق وحُنو، أو تكون قد أمسكت يده إذا حاول مدها ليضرب أخاه.

٣ - يظنّ بعض الآباء أنهم لو طبّقوا الإقصاء، فسوف يبقى أطفالهم النهار بطوله في مكان الإقصاء؛ لأنهم يظنون أن الإقصاء يُطبّق كلّما ارتكب الطفل سلوكاً سيئاً، والصحيح أن الإقصاء يُدخّر للسلوك الجاد الذي يُشكّل خطورةً على الطّفل مثلاً، أو ما يليه - في سُلّم الأولويّات - من السلوكيات المطلوب تعديلها

ولذلك لا بدّ من رصد هذه السلوكيات، ثم ترتيبها من حيث أولويّتها، ما بين أساسية وفرعية، وملاحظة عدد مرّات تكرارها (كأن تُكرّر باستمرار مرّة واحدة على الأقل في كلّ يوم).

١ أمّا السلوكيات السيئة الأقل جدية، فهناك وسائل أخرى - غير الإقصاء - تنجّع في علاجها، كما تقدّم (ص ٤٨٧)، وما بعدها.

٤- حدد السلوك النوعي الرئيسي المستهدف بعناية ووضوح، مُراعياً الأولويات، ولا تعمل على سلوكين رئيسيين في وقتٍ واحد^(١)، ثم انتظر حتى يرتكب السلوك المستهدف، ووجه له إنذاراً واحداً؛ ليُكفَّ عنه، فإن لم يستجب طبق عليه الإقصاء فوراً.

٥- فكّر بعناية قبل أن تنتقل إلى السلوك التالي؛ لأن هذه الطريقة المتدرجة هي التي تضمن -بإذن الله- أن سلوك الطفل سيتغير بمرور الوقت.

٦- حافظ على هدوءك حين يستثيرك الطفل بسلوكٍ سيئ، فكلما كُنت أكثر هدوءاً، كلما كانت النتيجة أفضل.

فإذا ضغط الطفل على أزرارك، ووقعت منه تصرّفات صعبة، فلا تفقد أعصابك، وخذ نفساً عميقاً، واحرص -من خلال تصرّفك الهادئ المتزن- على أن تنقل إليه هذه (النمذجة) (modeling) التي تعلمه كيف أن العصبية ليست طريقة مقبولة للتعامل مع الاستفزازات.

٧- كرر الإقصاء كلما تكرر السلوك السيئ:

ولا تقتصر على تطبيقه عندما يُغضبك السلوك فقط، فإذا كرر السلوك المستهدف، فبيّن له لماذا هو سيئ، وما السلوك الصواب، وتنذره بالإقصاء إذا لم يمثل، وإلا فهو الذي يجلبه إلى نفسه.

(١) ويرى بعض التربويين إمكانية استهداف سلوكٍ واحدٍ رئيس، وسلوك فرعي معاً.

٨- لو كان لدي طفلان أساء التصرف في وقت واحد، هل يمكن أن أطبق

عليهما الإقصاء في الوقت نفسه؟

والجواب:

ما دامت القاعدة المنزلية التي خرقاها، تنطبق على الطفلين (وبخاصة إذا كانا متقاربين في السن) فنعم، وإلا فلن يكون من العدل في هذه الحالة أن يطبق الإقصاء على أحدهما دون الآخر.

وعليه فلا حرج في تطبيق الإقصاء عليهما في الوقت نفسه، على أن يكون كل واحد منهما بعيداً عن الآخر، كأن يكون أحدهما في الممر والآخر في غرفة مثلاً، مع بقائهما في مرمى بصرك؛ لتطمئن أنهما في أمان.

٩- هل يُطبق الإقصاء في حالات نوبة الغضب Temper Tantrum؟

نوبة الغضب: هي أحد أعراض (الإجهاد العصبي) للطفل، وهي وسيلة يُنفّس بها عن مشاعره، وهي نوبة مفاجئة من التصرفات الحادة، تحدث دون تخطيط مُسبق، يصرخ الطفل في أثنائها، ويتحرك بعنف، ويتدحرج على الأرض، وربما يرمي الأشياء، ويخبط بقدميه على الأرض، أو يضرب الحائط أو الأرض برأسه.

تنشأ (نوبة الغضب) عند شعور الطفل بالإحباط أو الغضب تجاه أمر ما، وقد تحدث بسبب شعوره بالجوع أو التعب، وأحياناً يفتعلها لجذب الانتباه إليه، أو للحصول على شيء، أو الامتناع عن فعل شيء، وتستمر ما بين دقيقتين إلى خمس دقائق.

والإقصاء لا يُحتاج إليه في معظم حالات (نوبات الغضب)، فبعض الأطفال يهدّون ويسيطرون على نوبة الغضب خلال بضعة دقائق إذا توفّر لهم الوسط الآمن لذلك.

وهناك آخرون يجدون صعوبة في إيقافها من تلقاء أنفسهم، فالتصرف الأمثل هنا:

١- أن تبقى الأم في أثناء النوبة هادئة متسامحة مُتّزنة بدون انفعال حتى يجتازها، وتذكّر نفسها بأن هذا جزء من النمو الطبيعي^(١).

٢- أن تشتت انتباهه بإعطائه اللعبة المفضّلة، أو تغريه بالنظر إلى القطّة أو (العصفورة)، وأن تُعيد توجيه سلوكه (Redirection) بتوفير نشاط بديل؛ ليركز فيه، «ربّما لو فعلت كذا يكون أفضل»، ويمكن أن توفّر له وسادة مُعلّقة وتدعوه إلى لكمها (مثل كيس الملاكمة).

٣- أن تبعد الطفل بلطف (Removal) عن المكان والموقف الذي حدث فيه نوبة الغضب.

٤- وعليها ألا تستجيب لما يطلبه أثناء النوبة؛ (حتّى لا يذوق حلاوة الانتصار)، فيعتمد النوبة سبيلاً للحصول على ما يريد.

(١) لأن هذه النوبات في الطفولة المبكرة شيء عامّ وطبيعي، ولا تعد مرضية إلا إذا كانت عنيفة جداً ومتكررة بشكل زائد، وتستغرق وقتاً طويلاً نسبياً، وتلازمه في سنّ متقدمة. وتشيع نوبات الغضب أكثر في سن المهد والطفولة المبكرة؛ لأنه يبدأ عندئذ في تعلّم ضبط رغباته بالتدرّج، ويتعرض لكثير من الإحباط الذي لمّا يتدرب على تحمّله.

٥- بمجرد أن يهدأ الطفل ويتوقف عن الصراخ تعطيه كل الاهتمام، وتتكلم معه بدفء وعاطفة.

السن الملائم للإقصاء:

- يبدأ المربي استعمال أسلوب الإقصاء بنجاح مع الأطفال من سن (ستين^(١) إلى ثلاث سنوات)؛ وذلك لأنه السن الذي يستطيعون فيه إدراك مبدأ «السبب والتأثير»^(٢)، وفهم العواقب، كما أنهم في هذا السن يبدوون في اكتساب القدرة على ضبط النفس، ويتحملون البقاء في مكان الإقصاء، ويبدوون في التفريق بين الخطأ والصواب، والسلوك اللائق من السلوك غير اللائق.

- وأقصى سن لتنفيذ الإقصاء عشر سنوات، وذهب بعض الخبراء إلى تحديده بـ (١١ أو ١٢ سنة).

- وفضل بعض الخبراء -إذا بلغ الطفل سن الثامنة- أن يُستعمل معهم استراتيجية (العواقب الطبيعية التي تتناسب مع السلوكيات غير المقبولة)^(٣).

- لا يُستعمل أسلوب الإقصاء لأول مرة إذا تجاوز عمر الطفل (١١ سنة).

- أقوى الأعمار تأثيراً بالإقصاء (Peak Ages) ما بين (٢ إلى ٥ سنوات)؛

لأنهم في هذا السن يتأثرون بالأفعال أكثر من الأقوال.

(وقيل: من سن ١٨ شهراً، وعموماً لا يحتاج إلى تطبيق الإقصاء قبل أن يمشي الطفل، ونادراً ما يحتاج الطفل الأصغر من ١٨ شهراً إليه؛ لأن الأطفال في هذا السن عادةً ما يستجيبون للاعتراض

البسيط منك إذا قلت لهم: «لا»، كما أنهم سيشعرون أنهم عوقبوا دون أن يفهموا لماذا؟

(٢) أي يقدر على ربط أفعاله (السبب) بردود أفعالك (النتيجة أو التأثير).

(٣) انظر: (ص ٤٩١).

مُدَّة الإقضاء

١- يُحدد أغلبُ التربويين مدة الإقضاء بأنها دقيقة عن كل سنة من عمر الطفل، فلذي الثلاث السنوات ثلاث دقائق، وذوي السبع السنوات سبع دقائق، وهكذا.

لكن ينبغي أن نعلم أنه لا يُشترط أن يكون الوقت طويلاً حتى يكون مؤثراً، فالأنسب أن يُحدَّد دقيقتان لطفل ما قبل المدرسة، وخمس دقائق للأكبر منهم سنّاً، ولا يُتعدى ذلك حتى لو كان ذا عشر سنوات.

أمّا إطالة الوقت فلن يساعد عادةً؛ لأن الهدف إعطاء الطفل مهلةً من الوقت حتى يراجع نفسه، وإطالة الوقت فوق خمس دقائق قد يُنسيه سبب العقاب، وقد يؤثّر على نفسيته سلبياً، فيشعر بالإهمال.

ويؤكد اختصار الوقت في الحالات الآتية:

الأولى: في بداية تعليم الطفل وتعويده على الجلوس في مكان الإقضاء، يكون الوقت الأقصر أفضل، حتى لو كان عمره سبع سنوات مثلاً، نبدأ بدقيقتين، ثم ندرج.

الثانية: مع الطفل النشط أو الملول أو المتهور المندفع الذي لديه مشكلة في الاستقرار في مكان واحد.

فلا حاجة إذن إلى الالتزام الصارم بقاعدة (دقيقة لكل سنة من العمر)، بل الأنسب دقيقتان لطفل ما قبل المدرسة، وخمس دقائق للأكبر منهم سنّاً. يمكنك إنهاء الإقضاء إذا ظلّ الطفل هادئاً قبل انتهاء مدته بخمس ثوانٍ مثلاً.

٢- كُنْ أنت الذي يحدد المدة.

٣- بما أنه إقصاء (مؤقت)، فإن من المنطقي وجودَ عدّادٍ للوقت (Timer) أو منبه أو ساعة رملية إذا كان ذلك ممكناً، ويُضبط -أمام الطفل- على أن يَرِنَ عند انقضاء وقت الإقصاء، وهي طريقة تُضفي على أسلوبك قدرًا من الجدِّية، وأنَّك لستَ تقتصر على القول، بل تنفذ ما تقول عمليًّا، «وقد جاء دور عداد الوقت؛ ليكون مسؤولًا عن عدد الدقائق التي ستجلسها على كرسي العقاب، فإذا انطلق الجرس فقد أنجزت المطلوب منك».

كما أن استعمال عداد الوقت أو جهاز التوقيت يُشعرُ الطفلَ أنَّك لن تضعفَ أمام حيلِهِ، ولن تخضعَ لتوسُّلِهِ، فإذا حاولَ التفاوضَ معك أو التوسُّلَ إليك تقول له: «إنَّ جهاز التوقيت هو المسؤول الآن، وعليك الانصياع حتى يدقَّ الجرس».

ووجود (عدّاد الوقت) سيُعفيك من سؤال الطفل المتكرر: «كم مضى من الوقت؟» أو «كم بقي من الوقت لأغادر هذا المكان؟»؛ ولأن انقياد الطفل لعدّاد الوقت أسهلُّ عليه من الانقياد لك.

٤- ويوضع عدّادُ الوقت في مكانٍ بحيث يستطيع سماع رنينه عند انتهاء الوقت، ولا يستطيع حمله أو اللعب به.

٥- أخبر الطفل -مقدمًا- بالمدة التي سيستغرقها الإقصاء.

٦- لا بدّ أن تعلنَ للطفل بنفسك عن انقضاء المدة، فأنت المسؤول عن ذلك، ولا يُقبلُ أن تكَلِّ هذا إلى الطفل نفسه، فمن الخطأ أن تقولَ له: «إذا انقضت الخمس الدقائق -مثلاً- تستطيع أن تعودَ إلى غرفة المعيشة».

٧- ثم تشرع بعد إعلان انقضاء الوقت في إجراءات ما بعد انتهاء وقت الإقصاء^(١).

مكان الإقصاء:

يُختار مكانٌ ملائم في المنزل، ويُخصَّص؛ -كي يُستعملَ في كلِّ مرة ومع كل طفل- للإبعاد المؤقت، على أن يتحقق فيه المواصفات التالية:

١- يجب أن يكون من السهل الوصول إليه خلال عشر ثوانٍ بحدِّ أقصى.

٢- يجب أن يكون المكان المحدد آمناً، غير مظلم، بل جيّد الإضاءة، غير خيف؛ لأن الإخافة غيرُ مطلوبة، وتسبب مشاكل انفعالية.

٣- يجب أن يكون المكان مُملأً للطفل قدر الإمكان^(٢)، بعيداً عن كل المنبّهات والمؤثرات:

- خالياً من الأشخاص، بعيداً عن أماكن تواجدهم؛ كيلا يفلح في شدِّ اهتمام أيِّ واحدٍ من أفراد الأسرة نحوه.

(١) انظر: (ص ٥٤٥).

(٢) لأن كونه مملأً سيجعله حريصاً على ألا يُورطَ نفسه -في المستقبل- في السلوك الذي أتى به إليه.

- وخالياً من كل وسائل التسلية والترفيه، كالكمبيوتر، والجوّال، والتلفاز، والألعاب، وكذا لا يصحب معه شيئاً منها؛ كيلا يجد ما يشغل به وقت الإقصاء.

- ويجب ألا يكون قادراً على مشاهدة برنامج مُسلّ يراه أشقاؤه فيشاهده معهم أثناء الإقصاء.

٤- أن يكون المربي قادراً على مراقبة الطفل ومشاهدته أثناء الإقصاء؛ للتأكد من أنه آمن، ولضمان سلامته.

٥- يؤخذ عمر الطفل بعين الاعتبار عند اختيار مكان الإقصاء.

أولاً: الطفل من سنتين إلى أربع سنوات؛

يناسبه كرسي الإقصاء أو (Naughty chair)، وهو مقعد خاص يوضع في زاوية، يجلس عليه الطفل، ويُفَضَّل أن يُطْلَى باللون الأحمر، أو تُرَسَم على قاعدته ساعة ذات عقارب ومركمة، أو يثبت على قاعدته ساعة رملية^(١).

- ينبغي أن يكون الكرسي عالياً، بحيث لا يسهل نزول الطفل عنه بنفسه حين يُترَك وحده، ويُفَضَّل أن يكون ثقيلاً وله ذراعان جانبيّان.

- امنع الطفل من الوقوف على الكرسي أو القفز عنه.

- امنعه أن يصحبَ معه أيّ شيء مُسلّ أثناء جلوسه على الكرسي.

- بالسنة للسن المذكور (٢ - ٤ سنوات) يعتبر الكرسي أفضل من غيره؛ لأن لدى هؤلاء الأطفال مشكلة مع الحدود، فإذا قلتَ له: اذهب إلى هذا

(١) يمكن أن تُطْلَق على الكرسي اسمًا يوافق اسم السلوك المستهدف، مثل: (كرسي الصراخ)، (كرسي ضربك لأخيك)، وهكذا.

الركن، أو: قف أمام هذا الجدار؛ فمن المحتمل أن يتجوّل، بخلاف الحدود التي يرسمها الكرسي، فإنّها تحصره عليه.

إذا كان الطفل لا يمكنه الاستقرار في المكان المحدد ورفضه بإصرار، فعلى الأم أن تُوجِدَ بدائلَ للتصرّفِ معه طبقاً لسنّه وحجمه وقوته، ومن هذه البدائل: - يمكن أن تجلسَ الأمُّ على الكرسي وتحمّله أثناء جلوسها، بحيث توجّه وجهه بعيداً عنها، على أن تنفصل عنه معنوياً.

ثانياً: في حال عدم توفر كرسي العقاب، أو كان عمر الطفل فوق الخامسة؛ فمن البدائل:

- ركن مخصوص يقف فيه مواجهاً الحائط.
- آخر درجة من سلم داخلي.
- حصيرة صغيرة أو سجّادة، أو دائرة ورقية حمراء يقف عليها.

ثالثاً: إذا قاوم الطفل الصغير بإصرار كرسيّ العقاب، ورفضه؛

فإنَّ آخرَ حيلة معه هي وضعه في (حجرة الإقصاء)^(١)، فإذا غادر الحجرة، تقول له: «أنا آسف، أنا مُضطر لإغلاق الباب، وسوف أفتحه حين تَعِدُّني بأنك ستبقى في الحجرة حتى ينقضي وقت الإقصاء»^(٢).

ومعظم الأطفال يحتاجون إلى بقاء الحجرة مغلقة مرّاتٍ قليلة فقط.

(١) على أن تتأكد من أن الحجرة آمنة مضيئة، خالية من أيّ شيء قد يضره، ومن أيّ من أدوات التسلية التي يمكن أن تبدد شعوره بالملل.

(٢) يُفضّل أن يكون بابُ الحجرة قصيراً (نصف باب) يمكن إحكام إغلاقه، أو يُصمم حاجز نصفني يوضع في مخرج الحجرة عند الحاجة.

- ويترك الطفل في الحجرة يصرخ ويزجر بحرية بشرط ألا تُعيرَه الأم - إذا مكثت معه - أيَّ اهتمام.

هل تصلح غرفة نوم الطفل مكاناً للإقصاء؟

هناك رأيان في هذا:

الاول: نعم تصلح رغم وجود لُعبِه المُسلِّية فيها؛ لأن حالته المزاجية وقت الإقصاء والعزل لن تسمح له باللعب بها.

الثاني: لا يصلح تخصيص غرفة نوم الطفل مكاناً للإقصاء:

- لأنها تشتمل في الغالب على لُعبٍ مُسلِّية ومرغوبة لدى الطفل، وأشياء أخرى قد ينهمك فيها.

- ولأن حجرة نومه هي عرينه وملجؤه الذي يخلد فيه إلى النوم ويستريح، ومن الضروري أن أحافظ على ارتباطها بالسكينة والراحة والاسترخاء، وأتجنَّب تحطيم هذه الرابطة النفسية التي تربطه بحجرة النوم بأن أخصصها كمكانٍ للعقاب^(١)

تطبيق الإقصاء في مكان عام خارج المنزل:

قد يعتقدُ الطفل أنه يمكن أن يفلت من العقاب إن أساء التصرف خارج المنزل، معتقداً بأن الأم ستشعر بالحرج وتتغاضى عن تصرفاته السيئة، لكن لا بُدَّ أن يعيَ الطفلُ أنَّ العقابَ سيُطبَّق عليه بدون تأجيلٍ ولو كانا خارجَ المنزل، إن أساء التصرف، ولم يستجب لإنذار الأم بتعديل سلوكه، فتتبع الخطوات نفسها

(١) إذا اخترتِ غرفةَ الحَمَّام أو الغسيل، فيجب إبعادُ المواد الخطيرة كالزجاج أو الآلات الحادَّة أو سوائل التنظيف أو الماء الحميم.

التي تتبعها داخل المنزل، فتأخذه لبضع دقائق إلى مكان معزول عن الناس بقدر الإمكان، (كالسيارة أو مواجهة رُكنٍ أو حائطٍ أو شجرة مثلاً) حتى يشعر بجدية الأمر.

- لا ينبغي للأم أن تستعمل الإقصاء خارج المنزل إن لم تكن قد اكتسبت خبرةً فيه وطبقته داخل المنزل بطريقة صحيحة، وكذا إن لم يخضع الطفل من قبل للإقصاء داخل المنزل.

- لا بدّ من رسم خُطة واضحة مقدّمًا قبل الخروج من المنزل، كأن تقول الأم للطفل: «نحن ذاهبون إلى محل التسوّق، وإذا أسأت التصرّف هناك فسنطبق الإقصاء مباشرةً خارج المحل أو في الحديقة»^(١).

لا تطبق الإقصاء بطريقة فجائية؛

- لا بدّ أن تكون متأكّدًا من أنّ الطفل يعي الفرق بين السلوك الجيد والسلوك السيئ، وأن بإمكانه التمييز بين السلوكين المقبول والمرفوض.

- حاول الحدّ من سلوكه السيئ إذا شرع فيه بأن تشغله بشيء آخر، أو تغير نشاطه.

- قد يصدر السلوك السيئ عن مشاعر سلبية (كالخوف أو الجوع أو التعب)، لكنه عبّر عنها بطريقة خاطئة (السلوك السيئ)، لذا ينبغي أن يكون الطفل قد وصل إلى مرحلة يستطيع فيها الكلام بما يفصح عن مشاعره الداخلية «أنا خائف، أنا جائع، أنا حزين».

(١) ولذا يمكن للأم أن تحمل في حقيبتها قماشة صغيرة تفرشها على الأرض؛ لتحدد للطفل حدود المكان.

- قد يفيد أحياناً -إذا كان الأطفال يتعاركون من أجل لعبة (Toy)، أو يلعبون بها معاً بخشونة وعنف- أن تسحب اللعبة نفسها، وتضعها في مكان الإقصاء.

- لا تتخذ قرارات حينما تكون محبطاً ومتردداً ما الذي ينبغي عليك أن تفعله مع طفلك، واستعمل الإقصاء في اللحظة المناسبة حين تكون عازماً على تطبيقه بثبات كلما تكرر السلوك السيئ.

- كرر على مسامعه من وقتٍ إلى آخر توضيح القواعد المنزلية^(١) المهمة كلما كان في مزاج هادئ؛ لأن الذاكرة تحتاج إلى هذا التكرار، وهذا مما يعينه على النجاح في احترامها، وسرعة استحضارها عند الحاجة.

اشرح تفاصيل الإقصاء للطفل قبل تنفيذه:

رصدت الأم أن الطفل يتكرر منه ضرب أخته -مثلاً- كل يوم، وحاولت استعمال الاستراتيجيات الإيجابية، ولكن دون جدوى، ودرست بالتفصيل كيفية تطبيق الإقصاء بطريقة صحيحة، وقررت أن تطبقه، فإنها تتربص وقوع هذا السلوك من الطفل، ثم تقول بعده مباشرة بصوت حازم معتدل خالٍ من التراخي والعصبية: «لدينا الآن مشكلة، وهي أنك تضرب أختك، وكما ترى أنا أحاول أن أعينك كي تتعلم طرقاً أخرى للتعامل معها غير الضرب، وقد قررت أن أوضح لك مقدماً أسلوباً جديداً سأتبعه من الآن فصاعداً إذا ضربت أختك؛ حتى تكون على بينة مما سأفعله، وكيف سيكون وضعك أثناء تطبيقه.

(١) انظر: (ص ١٣٧)، وما بعدها.

قبل كل شيء أنت تعلم أنني أحبك، وسأظلُ أحبك، ولكنني أكره سلوكك هذا نحو أختك، وأنا مقبلة على تطبيق إجراءٍ يساعدك على التخلص من هذا السلوك المرفوض^(١)، وهو سوف يضايقك ويزعجك، ولكن بإمكانك أن توقفه، وبمجرد كَفِّكَ عن ضرب أختك فلن يبقى هناك داعٍ للجوء إليه، وتذكّر إذا كررت هذا السلوك، فسوف تتحمل مسؤوليته وعاقبته مباشرة في كل مرة تفعله».

ثم يُبيّنُ له الأمُّ أنّها قد خصّصت مكاناً للإقصاء في حال صدور هذا السلوك عنه، وأنّه سيمكث فيه وحده (كذا) دقيقة، وأنّها لن تتحدّث معه إطلاقاً خلال هذه المدة، وإنّما يكون الكلام معه بعد انقضائها.

ويمكن أن تقدّم له درسا عملياً من خلال صياغة (أنموذج) للإقصاء:

- إمّا عن طريق تمثيل دور (Role playing) تقوم به (اللعبة) التي ضربت (أختها)، وكيف يتم اقتيادها إلى مكان الإقصاء... إلخ.

- وإمّا أن تمثّل الأمُّ مع طفلها هذا الدّور، فيتظاهر أنّه كسر قاعدة من قواعد الأسرة، مثل: (نحن لا نضرب)، فتذكره الأم بالقاعدة، وتأخذه إلى موضع الإقصاء، وتجبره أنّه سيمكث فيه كذا دقيقة... إلخ.

الضرورة شرط في الإقصاء:

من أساليب العقاب ما يجب تطبيقه عقب وقوع السلوك المستهدف مباشرة، ومنها ما يصلح بعد ذلك.

(١) إذا كان قد سبق للأم أن عاقبته بالصراخ أو الضرب على (الكفّل) (Spanking) ونحوهما، فعليها أن تجبره أن (الإقصاء) سيحل محل الصراخ والضرب.

والإقصاء من النوع الأول، لا بدّ أن يطبق فوراً بعد السلوك السيئ.

١- لا بدّ أن يكون الطفل في مكان الإقصاء خلال عشر ثوانٍ من حدوث السلوك السيئ، ويتأكد ذلك إذا كان عُمرُ الطفل بين الثانية والرابعة؛ كي يربط بين سلوكه وبين العقاب بالإقصاء، فيتعلم تجنُّبه.

٢- لا تؤجّل تنفيذ الإقصاء إلى حين عودته من المدرسة مثلاً إذا كان السلوك قد حدث في الصباح.

٣- بمجرد أن يرتكب الطفل السلوك المستهدف - كأن يضرب أخاه مثلاً - تعطيه الأم تعبيراً على وجهها يوحي بعدم الرضا، وتنظر إلى عينيه، وتقول له كلمتين فقط:

(أ) نحن لا نضرب -أو: أنت ضربت أخاك^(١) - (وبهذا تحدد بدقة واختصار خطأ الطفل).

(ب) إلى كرسي الإقصاء (وتشير إلى المكان بيدها).

ثم تأخذه إلى مكان الإقصاء مباشرة ودون أيّ كلام إضافي^(٢)، ويجب أن تتجنب المفاوضة والجدال والنقاش معه حول تنفيذ الإقصاء؛ لأن هذا يمنحه الاهتمام، ويؤجّل ابتداء الإقصاء، ويفقده شرط (الفورية).

(١) ويمكن إضافة عبارة: «كن رفيقاً بأخيك فلان» فقد تُوفّر له هذه الجملة المختصرة مادةً يُفكّر فيها ملياً أثناء الإقصاء.

(٢) ومن الخطأ أن توبّخ الطفل قبل وضعه في مكان الإقصاء؛ لأن هذا يشجعه على المجادلة، ويمنحه (الاهتمام السلبي).

٤ - إذا راتكب الطفل الخطأ، ولم تعلم به إلا بعد مرور الوقت، تحوّل إلى أساليب عقابية أخرى:

- (أ) كالتوبيخ وإظهار عدم الرضا.
- (ب) والنتائج الطبيعية للسلوك السيئ.
- (ج) والنتائج المنطقية للسلوك السيئ^(١).

وَجْهٌ إِنْذَارًا وَحِيدًا!

ترقب حصول السلوك الذي حددته، واستهدفته للتغيير، فإذا شرع فيه الطفل، قل له بنبرة صارمة ولهجة جادة: «أنت تعلم، نحن لا نضرب، وأنت الآن تضرب أخاك، فإن لم تكف عن ضربه فستخضع للإقصاء لمدة (كذا) دقيقة».

إذا هدّدت الطّفل بأنه سيتعرّض لعاقبة بسبب سلوكه، فلا بدّ أن تنفذها، ومن غير المقبول أن تنذر بعاقبة لست مُستعداً لتطبيقها عملياً.

لا بدّ أن تحذره مرّة واحدة فقط لا غير:
 كأن تقول له: «توقّف عن شدّ شعر أختك، وإلا تعرّضت للإقصاء».

(وهذه العبارة تتضمن شيئين: تعيين السلوك السيئ بوضوح، وربطه بالعاقبة).

ملحوظة: قاوم الرغبة في إلقاء محاضرة مُفصّلة عليه، وإلا ستذهب رسالتك هباءً.

(١) انظر أمثلتها: (ص ٤٩١).

مثال آخر:

تلميذ يضرب زميله، فتقول له المدرسة: «يا فلان أنت تعلم أن ضرب زميلك سلوك عدواني غير مقبول هنا، فلك الخيار: إمّا أن تبقى في الفصل ملتزمًا بالهدوء، وإمّا أن تحظى بوقتٍ للإقصاء خارج الفصل».

فإذا اختار البقاء في الفصل، لكنه لم يلبث أن كرر السلوك، تقول له المدرسة: «أنت اخترت بنفسك، الآن اذهب إلى مكان الإقصاء».

احذر أن تكرر التهديد:

لأنّ التهديد تلو التهديد يعني أنّك لا تأخذ الأمر على محمل الجد، وهو يتضمن رسالة سيئة للطفل فحواها:

١ - استمرّ في السلوك السيئ.

٢ - ولا تُبالِ بتهديداتي، ولا تتوقع تنفيذها، فإنها فارغة.

والخبر الجيد هو:

أنّك لو أطلقت التحذير مرّة واحدة فحسب، فإنه سيكون مؤثّرًا، ولن تصبح كالأسطوانة المشروخة.

لن يأبه الطفل بالإنذار، ولن يأخذه بجديّة إلّا إذا صدر عنك مرّة واحدة فقط، وباستمرار مرة واحدة في كل موقف مماثل.

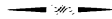
مثال:

بدأ الطفل يطلب شيئاً بنبرة الأنين، وهو يولول ويتحب.

تقول له: «ها... إنه الإنذار رقم واحد، اطلب ما تريد بأدب وهدوء»
ويمكن أن تحاكي كلامه بنبرة صوت ملائمة، (كنمذجة): «من فضلك هل
يمكن أن أتناول بعض العصير؟».

فإذا كرر النحيب والصراخ، فهذا وقت تنفيذ الإقصاء بدون تردد.
- توقع أن يصدر عن الطفل رد فعل بشكل مزعج أو مختلف عما ترغب
فيه^(١).

- يمكنك أن تحيّر طفل ما بعد الخامسة بين الطريقة السهلة والطريقة
الصعبة، بأن تقول له: «هل تريد أن تذهب بنفسك إلى مكان الإقصاء، أم تريدني
أن أقودك إليه؟ لا فرق بينهما بالنسبة إليّ».



(١) انظر: مقاومة الطفل للإقصاء (ص ٥٤٢).

سلوك المربي أثناء الإقصاء:

ذكرنا أن من أهم شروط الإقصاء أن يكون مُملاً ورتيباً، وأن يكون بالنسبة إلى الطفل تجربة غير ممتعة، خالية من التسلية والالتناس بالآخرين، ولذلك عليك أن تتجنبَ كلَّ ما يتنافى مع هذا؛ لأنه يُقلل فعالية الإقصاء، ويحول دون تأثيره المطلوب.

- إذا تصرّف الطفل بطريقة سيئة، واستحقَّ الإقصاء، فعليك أن تقولَ له شيئين لا ثالث لهما:

الأول: السلوك السيئ الذي فعله (مثل: أنت ضربت أختك)

الثاني: اذهب إلى مكان الإقصاء (كرسي العقاب...) لمدة (كذا) دقيقة.

- وبمجرد أن يشرع الطفل في تنفيذ الإقصاء، ويجلس في المكان المخصص؛ يصبح دورك الوحيد هو أن تبقى متجاهلاً إيّاه، حتّى ينتهي الوقت المحدد.

- تذكّر أننا نعاقبه بالحرمان من الاهتمام (Attention)، فعليك ألا تُعيره أيّ صورة من صوره، سواء أكانت إيجابية أم سلبية؛ لأنه مثير له ومكافئ (مما يتنافى مع العقاب).

(١) ولا تتحدث معه عمّا حدث، ولا تشرح له كيف أنه كان خطأ؛ لأنك بالفعل فصلتَ له ذلك عندما شرحت له تفاصيل الإقصاء مُقدِّماً. (ص ٥١٩)

إنَّ من الأخطاء عند تطبيق (الإقصاء) أن تُخاطبَ الأمُّ طفلها بعد السلوك السيئ قائلة: «أنت تعرف أن جرح مشاعر الناس سلوكٌ مرفوض، وقد بيّنت لك مراراً كيف أن أذية الآخرين سوف تجلبُ لك العقاب، وعليك الآن أن تذهب إلى (كرسي العقاب).

إنَّ خطأ الأمِّ هنا -وهو خطأ شائعٌ- أنها ثرثرت كثيراً مع الطفل عقب تصرّفه السيئ، فحصل الطفل بذلك على (الاهتمام) مباشرةً بعد الفعل الخطأ، والأطفال يحبّون جدّاً الانتباه إليهم والاهتمام بهم حتى لو كان سلبياً كالتوبيخ والتأنيب والتعنيف و(الثرثرة) معهم، وهذا كله يعيق تأثير الإقصاء أو يضعفه.

- أثناء الإقصاء تجنّب (أنت وأي شخص آخر موجود) التواصل معه لفظياً كان أو غير لفظي:

(أ) أمثلة التواصل (الاهتمام) اللفظي المطلوب تجنّبه:

- التفاوض معه حول مدة الإقصاء، أو قوله: «أعطني فرصة أخرى»، ونحو ذلك.

- التحدث إليه.

- إجابة أسئلته، مثل: كم مرّة من الوقت؟ أو كم تبقى؟

- إذا ناداك تجاهل مناداته ولا تتجاوب معه.

(ب) أمثلة التواصل غير اللفظي المطلوب تجنّبه:

- لا تنظر إليه بشكل مباشر

- ثبّت على رأسك (وجه البوكر) ^٢ قدر استطاعتك.

(١) مع أنّك لا بدّ أن تبقى في (مجال إبصارك)؛ لتراقبه، وتُبقى عينك عليه؛ لتتأكد من أنه آمن، دون أن يشعر بذلك.

(٢) وجه البوكر أو (الوجه الصّلب/ الصخري/ الخشبي) تقنية تُستعمل كي تفصل مشاعرك عن تعبيرات وجهك، بحيث تمنعه من أن يكون مرآة تعكس مشاعرك الداخليّة، وردود أفعالك لما يجري حولك بل تحتفظ بها داخل نفسك، ولا تُمكن الطرف الآخر -مهما كان مُتنبّها- من (قراءة) وجهك واختراقه؛ لتخمين مشاعرك المخفية وراء (حجاب) البوكر، كما يفعل (بوتين) رئيس روسيا، وكذا رئيس الصين، إذن هو وجه غير عاطفي لا يُظهر المشاعر التي تعترى صاحبه؛ إيجابية كانت أو سلبية، بل يُظهر الأثران، والهدوء المحايد، واللامبالاة المطلقة.

وأصله من (وجه لاعب البوكر «الماهر») الذي يُبثّ ملامح وجهه كي لا ينقل -عبر إظهارها- معلومات مهمة إلى خصمه من غير قصد من خلال لغة الجسد؛ لأن أيّ تعبير يُظهر عليه هو إضافة إلى قوة خصمه.

- لا تمسكُ به كي تضمنَ بقاءه في مكان الإقصاء.
- لا تنصتُ إليه إذا تكلم.
- إذا صرخَ وتمادى في الصُّراخ تجاهله تمامًا.
- لا تدعه يراك وأنت تنظر في الساعة لتعلم كم تبقى من وقت الإقصاء.

تذكّر؛

- أنّك إذا استجبتَ له أثناء الإقصاء فإنه لن يستفيد ولن يتعلم الدرس.
- قاوم الشعور بالذنب نحو طفلك وأنت تنفذ الإقصاء.

ابق ثابتًا وحازمًا؛

- يَعدُّ الخبراء (ثبات الموقف) أهمَّ عنصرٍ في (الإقصاء)، وكلّما زاد إصرارك وثباتك كالصخرة، تجنّب طفلك السلوك السيئ في المستقبل.

- إِيّاك أن يُثنيكَ عن الثبات حَيْلُ الطِّفْلِ وهو يختبرُ جدِّيَتَكَ في تنفيذ

الإقصاء!

- كلّما ازدادت قدرة طفلك على (التنبؤ) بما يمكن أن تفعله معه، كلما كان أقدرَ على الالتزام بالقواعد والحدود والجداول.

- عليك أن تستعملَ الإقصاء بثبات في كل مرة ترى فيها السلوك المستهدف، وإِيّاكَ أن تستعمله حسب هواك فتجاهل السلوك أحيانًا، وتحاسب عليه نفسه أحيانًا.

= و(البوكر) لعبة على مال، وهي من أنواع القمار المحرّم شرعًا، ويعتمدُ احتمالُ الفوزِ أو الخسارة فيها - إلى حدٍّ كبير - على قدرة اللاعب على حجب البطاقات التي لديه عن شركائه، بحيث لا يتمكنون من تخمين اللحظة التي يستولي فيها على زمام المبادرة، ويحسم اللعب لصالحه.

إنَّ الإقصاءَ لا يُكسِبُ الطفلَ مهاراتٍ، ولكنَّه يُقلِّلُ السلوكَ السيئَ، والمهاراتُ الجديدة تُكتسَبُ عن طريق استعمال الآباء للاستراتيجيات الإيجابية. يحتاج الإقصاء في تطبيقه إلى أن يتمَّ بطريقة استراتيجية ثابتة وحازمة ومتَّسقة، والسلوك لن يتغيَّر في لحظة، ورُبَّما لا يتغيَّر في اليوم التالي؛ لأن التغير يتمُّ خلال (عملية - Process) مستمرة يتناقص فيها السلوك تدريجيًّا إلى أن يتلاشى تمامًا، والتغير ليس (محطة) تصل إليها، ولكنه (طريق) تسلكه.

ماذا لو بدا أنَّ الطفلَ لا يبالٍ بالإقصاء؟

صدَّقني، إنَّه يبالٍ ويهتم، لا تدعه يخدعك.

الإقصاء مثل أي وسيلة تربوية قد تحتاج إلى تطبيقه مرات عدَّة حتَّى يؤثِّرَ ثمرته، ويُحسِّن السلوك.

من عادة الأطفال أن يختبروا القواعد؛ ليرَوْا إذا كان بإمكانهم أن يُنْهَكوكَ ويُزَيَّحوكَ عن موقفك بأساليب شتَّى، وما عليك إلَّا أن تُثَبِّتَ على موقفك في فرض (الإقصاء)، وفي النهاية ستحصل على التقدم بإذن الله.

دعه يتضايق .. إنه شيء جيد ومطلوب

ماذا عن انزعاج الطفل وتضايقه من تنفيذ (الإقصاء)؟

هذا شيء جيد؛ لأن الإقصاء لا يقتصر على جلوسه هناك بهدوء متأملاً في الخطأ الذي ارتكبه، لكن الإقصاء هدفه الأول أن يشعر الطفل فيه بالملل والسآمة والضيق، وذلك كي لا يرغب في الذهاب إليه مستقبلاً.

ولذلك فمن الجيد أن يكون منزعجاً ومتضايقاً خلال هذه التجربة؛ لأن هذه هي عاقبة سلوكه، إنها (شعور سلبي) ونحن لا نريد منه أن يحبها خلال جلوسه على (كرسي الإقصاء)؛ لأنها لو كانت محبوبة لما صَلَحَتْ لأن تكون عاقبة مؤثِّرة، فإذا كان متضايقاً، فإنه بالفعل متضايق، وعليك أن تدعه يتضايق.. هذا شأنه، هو وحقه.. فليفعل ما يشاء، وليشعر كما شاء ما دام جالساً على «مقعد الإقصاء»، وبمجرد أن ينطلق صوت «عدّاد الوقت» معلناً انتهاء الوقت فقد انتهى الأمر كله.

مقاومة الطفل للإقصاء:

بعض الأطفال سوف يلتزمون بالجلوس على كرسي الإقصاء، وبعضهم سيحاولون مغادرته، وهذا لا يعني أنَّ الإقصاء غير ناجح، ولكنه يعني أنهم يحتاجون إلى ممارسته والتدرب عليه أكثر.

- معظم الأطفال لا يقاومون الإقصاء أكثر من أسبوعين من بدء تطبيقه.

- ذكرنا آنفاً أنَّ من الطبيعي أن يكره الطفل الذهاب إلى (الإقصاء)؛ لأنه شيء سلبي ممل، ولأنك تسحبه من موقف مُجْزٍ (Rewarding situation) فتوقع انزعاجه منه، ومقاومته بالركل أو الصراخ، أو الهروب من مكان الإقصاء.

- إذا تأخر أو رفض الذهاب إلى مكان الإقصاء أمسك بيده بهدوء، وخذ به إلى المكان المخصص.

- إذا قام بإزعاج أو صراخ أثناء الإقصاء: تجاهله إن كان صغيراً، أو زد عليه فترة الإقصاء بضع دقائق إن كان عمره فوق خمس سنوات كما سيأتي.

انتبه:

لا يتم تحرير الطفل من الإقصاء إلا بعد أن يُنجِزَ إقصاءً (ناجحاً)؛ بأن يمكنه في مكان الإقصاء ولا يغادره حتى ينتهي الوقت، هذا هو الحد الأدنى من الإنجاز.

أمَّا الهدوء وعدم الصراخ أثناء فشيء جيد، لكنه ليس بشرط؛ لأن اشتراطه يصعب إنهاءه وتجاوزه (لا سيما مع الأطفال حتى سن ٥ سنوات)، أمَّا من فوق

سن ٥ سنوات، فأفضل ما تقوله: «إنما جُعِلَ الإقصاء كي تفكر، ولكي تفكر لا بد أن تكون هادئاً، وإذا صرخت أو شكوت، فسأبدأ العدّ من جديد».

إذا غادر الطفل كرسيّ الإقصاء:

أعده بسرعة إلى المكان نفسه دون أن تتكلم معه أو تتواصل معه بصريّاً، ودون أن تمسكه حتى يثبت في مكانه^(١)، وإن عاد فعُدّ.

قد تحتاج إلى فعل ذلك مراراً؛ كي يتأكّد أنّك صارمٌ في تطبيقه بحزمٍ مهما حاول التملّص منه بالبكاء أو الصراخ أو الاعتذار

وإذا رفض العودة إلى مكان الإقصاء:

هناك حالتان:

الأولى: إن كان سنّه أقلّ من خمس سنوات:

تجاهل صراخه وغضبه، واحمله بسرعة، وضعه على كرسي الإقصاء.

الثانية: إن كان سنّه فوق خمس سنوات:

فأخبره أنّك ستزيد مُدّة الإقصاء بمقدار دقيقة لكل عشر ثوانٍ من التأخير.

وعليك أن تشرح له في كل مرة يغادر فيها مكان الإقصاء:

(١) بعض الصغار ذوو الإرادة القوية يحتاجون -عند الشروع في تنفيذ الإقصاء- إلى أن يُمسكوا، إن إمساك الطفل هنا يُعلّمه أنّك تعني ما تقوله، وأنّ عليه أن يتجاوب ويخضع، فإذا غادر الكرسيّ أعده إليه، وأمسك بكتفيه من الخلف، وأخبره أنّك ستوقف عن إمساكه حين يتوقّف عن محاولة الهروب، ولا تتواصل معه بالبصر ولا بالكلام.

(٢) وربما طلب (شطيرة) (Sandwich) أو كوباً من الماء، أو الذهاب إلى الحمام، فهنا نخبره الأم بجديّة أنه في حال تنفيذ أيّ من هذه الطلبات ستبدأ مُدّة العقاب من جديد.

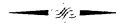
«في كل مرة تغادر المقعد فسوف أضطرُّ لضبط عدّادِ الوقت من جديد، وبناءً عليه فإنَّ مدة الإقصاء ستطول كُلِّما غادرت المكان».

سُرَّعان ما سيفهم الطُّفلُ أنَّ من الأفضلِ له أن يستقرَّ على الكرسي من أوَّلِ مرَّةٍ إلى أن تنقضي مُدَّةُ الإقصاء؛ لأنَّ هذه أسرعُ طريقةٍ للخروج من هذا الموقف المزعج.

الخُطة الاحتياطية:

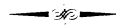
إذا غادر الطفل مكان الإقصاء، ومَرَّت خمسُ دقائق دون أن يعودَ، حَوِّلِ العقوبة إلى نوعٍ آخرٍ يُوَثِّرُ فيه:

- كأنَّ تسحب منه ميزةً، أو شيئًا يملكه، أو شيئًا يشاهده، أو لُعبةً مُفضَّلةً، أو رحلةً، أو زيارةً مع الأصدقاء، أو ذهابًا إلى النادي. وإذا نفَّذْتَ شيئًا من هذا فانصرف، ولا تناقشه أكثرَ من هذا.



إذا أعلنت له انتهاء وقت الإقصاء:

فإن لم يغادر الكرسي، أو ظلَّ يصرخ ويكي، تجاهل سلوكه، وابتعد عن المكان، وإذا قام بالتخريب في غرفة الإقصاء، لا تسمح له بالخروج حتَّى يعيدَ ترتيبها ويصلحَ ما أفسده.



ماذا بعد انتهاء وقت الإقصاء؟

١ - بعد انتهاء وقت الإقصاء تتوجه الأم إلى الطفل، وتخبره أن وقت الإقصاء قد انتهى، وتقول له: «كان هذا إقصاءً جيِّداً، بإمكانك أن تغادر».

وقبل أن يغادر مكانه تنزل إلى مستوى عينيه، وتسأله عن سبب عزله في (الإقصاء)، وما هو السلوك الذي فعله، ولولاه ما تعرَّض للإقصاء؟

فإذا نسي لماذا عُرِّل، أو ذكر أسباباً غير صحيحة، حينئذٍ تُذكِّره الأم بالسبب، وتشرح له كيف أن هذا التصرف غير مقبول، وتبين له السلوك الصحيح.

مثال: «لقد حصل على الإقصاء؛ لأنك ضربت أختك، وهذا تصرف خاطئ، نحن لا نضرب، أنتظر منك ألا تُكرِّر ذلك في المستقبل. والآن: ماذا كان سبب الإقصاء؟» وتعيد هذا السؤال عليه إلى أن يتمكن من ذكر السبب في الإقصاء^(١).

- إذا كان الطفل قد انصاع للإقصاء وظلَّ هادئاً حتَّى نهاية مُدَّتِه دون ضجَّة وبكاء وتوسُّل، فمن المهم أن تُثني على انضباطه أثناء المهلة، وأن ذلك ينمُّ عن تحمُّله المسؤولية.

(١) ويرى بعض خبراء التربية أنَّه لا حاجة بعد انتهاء مدة الإقصاء إلى أن يجلس المُربِّي معه، ويجري حواراً لمدَّة عشر دقائق حول ما فعله، ولماذا كان خطأ، وعدَّ ذلك إفراطاً لا تدعو إليه حاجة، فإن رنَّ المنبه مُعلنًا انتهاء وقت الإقصاء فليس هناك شيءٌ تقوله، بل امضي لشأنك، وتجاوز ما حدث، واستمر بصورة طبيعية.

- وتنهى كلامها بأن تخبره بأنها ما زالت تحبه، ثم تتخطى الموقف وتنسى أي غضبٍ أو امتعاضٍ، وتعفو عنه.

تنبيهان:

الأول: لا تجبري نفسك على الاعتذار لطفلك عن الإقصاء، فأنت لست بحاجة إلى الاعتذار^(١) عن إجراء تربوي مقصود ومنضبط ومحدد الهدف، وقولك: «أنا آسفة» سيكون عديم المعنى بالنسبة إلى الطفل، ومن يقول: «أنا آسف» يجب أن يكون آسفًا بالفعل على ما قام به، ومن شروط نجاح الإقصاء ثبات المربي على موقفه وعدم التذبذب.

الثاني: إذا كان سبب الإقصاء أن الطفل لم يمثل أمرًا من المربي، فلا ينبغي السماح له بأن يتهرّب من تنفيذ ما طُلب منه قبل الإقصاء.

مثال:

أمرته الأم أن يعيدَ ملابسه ولعبه المبعثرة على أرضية الحجرة إلى أماكنها، فلم يفعل، وتم الإقصاء، حينئذٍ يطالب بتنفيذ الأمر وإلا أعيد الإقصاء.

٢- بعد ذلك تُترك الحرية للطفل في أن يستغرق ما شاء من وقتٍ إلى أن يستقرّ ويهدأ، أو يغادر المكان، ويزاول نشاطه^(٢) من جديد؛ ليكمل يومه بشكلٍ طبيعي.

(١) لكن إذا اكتشفتِ الأم بعد انتهاء الإقصاء أن الطفل بريء، فعليها أن تعتذر إليه مباشرة.

(٢) ويُفضّل تغيير اللعبة التي تخللها السلوك السيئ الذي عوقب عليه بالإقصاء، والعدول عنها إلى نشاطٍ آخر.

وإذا ظلّ متضايقًا بعد الإقصاء فتجاهله، ودعه يُعبّر عن مشاعره، لكن إذا أراد مناقشتك في صحة عزله أو عدمه، فأنصت إليه وحسب، ولا تُجادله.

٣- بادر إلى العودة إلى (وقتٍ معنا) (Time-in) بأسرع ما يكون، كأن تترقّب أوّل سلوكٍ نوعيٍّ جيّد يعملّه الطفل فتمدحه عليه؛ لأن عودة التفاعل الإيجابي بينكما يؤكّد له عمليًّا انتهاء الإقصاء، وأنك ما زلت تُحبّه وتحنو عليه، وتعتني به.

٤- إذا عاد للسلوك السيئ نفسه، فعُدْ إلى تطبيق (الإقصاء المؤقت) من جديد دون يأْسٍ أو ملل^(١).

قياس نتيجة الإقصاء:

لن يُصلحَ الإقصاءُ سلوكيّاتِ الطفلَ كلّها مباشرةً، ولكن إذا تم تطبيقه بطريقة سليمة فيُرجى أن يُقلّل السلوك السيئ بمرور الوقت.

ويمكن قياس نجاح الإقصاء بأن تحصل على تراجع نسبة حدوث السلوك المستهدف بمقدار (٥٠) إلى (٩٠) في المائة خلال أسبوعٍ أو أسبوعين.



(١) ويستمر ذلك إلى أن يكفّ تمامًا عن هذا السلوك، وحينئذٍ تنتقل إلى السلوك التالي من حيث الأولوية، كما شرحنا ذلك (ص ٥٢٠).

مزايا الإقصاء التربوية،

(الإقصاء المؤقت) تقنية مجربة، وثبت تأثيرها الفعال في ضبط سلوك الأطفال، إذا نُفِّذَتْ بطريقة صحيحة ومستمرة^(١)، ومثلها مثل أي طريقة تحتاج إلى تكرار، كي تحقق التأثير المطلوب.

١ - وإذا كنّا نرفض الأساليب العنيفة لتأديب الأطفال (كالضرب والإهانة والصراخ... إلخ)؛ لما يترتب عليها من أضرار نفسية وبدنية، فإنّ طريقة (الإقصاء) طريقة آمنة وعقلانية، ومحيدة، لا مكان فيها للغضب والعدوان والصراخ والتخويف من جهة الأبوين، ولا يترتب عليها أضرارٌ تُذكر.

٢ - (الإقصاء) وسيلة ممتازة لتربية الطفل على الانضباط، تعينه على التمييز بين السلوكيات المقبولة والمرفوضة، وتُعينه على التخلّص من السلوك السلبي بالتدرّج إلى أن يتلاشى بالكلية.

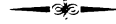
٣ - يبدو الطفل في (الإقصاء) كأنّه هو الذي يعاقب نفسه وليس المربي؛ لأن سلوكه السيئ هو الذي تسبب في (عاقبة الإقصاء)، فيتحمّل المسؤولية عن (عاقبة) هذا السلوك، ويحرص على تجنّب ما يؤدّي إلى الإقصاء.

٤ - يُعطي الإقصاء الطفل فرصةً للهدوء والتفكير واسترداد قدرته على التّحكّم في انفعالاته، ولذلك يُسمّى أحياناً (وقت التهدئة - Quiet Time \ Cooling-off Time).

(١) ولذلك أوصت بها (الأكاديمية الأمريكية لطب الأطفال - AAP)، ويستعملها حوالي ٨٥٪ من الآباء في أمريكا.

٥- سرعان ما تعود العلاقة بين الآباء والأطفال طبيعيةً ودافئةً بمجرد انتهاء وقت الإقصاء.

٦- وقد يساعد الوالد أيضًا على الهدوء.



اعتراضات وجوابها

الاعتراض الأول:

زعموا أنَّ «الإقصاء المؤقت» يُخلُّ بالرابطة الوجدانية والتَّعلُّق (Attachment) الصَّحي، ويشوِّش على الاتصال الذي يحتاجه كلُّ من الأمِّ والطفِّل.

والجواب:

أنَّه بغضِّ النظر عن وجود كلِّ أنواع التَّعلُّق في الأطفال، وبعيدًا عن نمط التربية الوالدية (Parenting style)، فإنَّ تعلقَ الأطفالِ بآبائهم لا يتعرَّض للتهديد بسبب الإقصاء، بل يبقى لدى الأطفال شعورٌ بالأمان نحو هذا التَّعلُّق؛ لأنهم يعرفون آباءهم، ويثقون بأنهم -أي الآباء- يُعتمدُ عليهم، ويستطيع الأطفالُ اكتشافَ ذلك بأنفسهم.

وإلى جانب توفرِ هذا التَّعلُّق الآمن (Secure Attachment)، فإنَّ الآباء يستطيعون أيضًا أن يرسموا بعضَ الحدود، ويفرضوها، مع الاحتفاظ بالمشاعر الدافئة، وثقةِ الأطفال في حبِّ الوالدين إيَّاهم.

ولأنَّ التربية طائرٌ يطير بجناح (الحب) وجناح (الحزم) معًا، فإنَّ المرء يحتاج إلى أن يضع حدودًا لتصرفات الأطفال تُعلِّمهم الانضباط، وتهذب سلوكهم دون أن يتعارض ذلك مع ضمان استمرار الحب وبقائه، والواقع أنَّ الأطفال يحسُّون أنَّهم محبوبون من خلال الانضباط والحدود دون تعارض بين الأمرين،

ويدركون أنَّ الوالد له كالمرآة ينظرُ فيها ليرى عييه ويصحِّح سلوكه، أو كالمُشط المبلل الذي يستعمله المرء لِيُشَدِّبَ شعره ويصلحَ هيئته.

ولندلل على ذلك نسردُ هذه الواقعةَ الظريفة:

تقول الأم: قد يصدر من المربي رسالةٌ مزدوجة، كأن تقول للطفل: «نحن لا نصرخ في وجه أحد» أو: «لا تصرخ في وجه أخيك».

وإذا بهذا المربي -إذا صار منفعلًا أو مُحبطًا لسببٍ ما- يصرخُ في وجه طفله.

تقول الأم: لقد رميتُ كرةً صغيرةً مطَّاطيةً بشدَّة نحو طفلي الصغير وهو يمرُّ بجواري، فالتفتَ إليّ، وقال: «أمي، نحن لا نقذفُ بالأشياء».

- أنا آسفة.

- تعالَ يا أمي، لا بأس، ولكن تعالَ، أنتِ تحتاجين أن تأتَي وتأخذي نفسًا عميقًا.

وأخذ بيدي، واقتادني إلى ركن في حجرة، حيث أجلسني، وقال لي: لا بدَّ أن تجلسي هنا، وتستحضري هذه القاعدة: «نحن لا نقذفُ بالكُرَات»، ثم خذي نفسًا عميقًا، وأنا سوف أعودُ إليك؛ لأتأكَّد أنَّكِ تجلسين في مكان الإقصاء.

ثمَّ عاد إليَّ بعد بُرْهةٍ بكل ثقة؛ كي يتأكَّد من بقائي في مكان الإقصاء، ثم قال: «أمي، هل لديكِ شيءٌ تُحِبِّين أن تقوليهِ؟».

أجبتُه: «نعم، إنني آسفة؛ لأنِّي رميتُ الكرة داخلَ المنزل، لقد أسأتُ التَّصرُّفَ».

فقال: «هيه يا أمي، أنا ما زلتُ أحبك، ما الذي تعلّمتيه يا أمي؟».

تقول الأم: إنني أقسم لقد كان الموقف كالمرآة تعكس طريقتي في تربيته طبق الأصل، لقد كانت فرصة فريدة جسّدت لي كيف نجح أسلوب (الإقصاء المؤقت) حين رأيتُه من خلال منظور طفلي الصغير.

ولقد أدركتُ أنني -كأم ومربية- لا أقومُ بكل شيءٍ على الوجه الأمثل، فها أنا ذا رميتُ بالكرة في المنزل؛ لأنني كُنتُ محبطة ومنزعجة، لكن أدائي يتحسّن باستمرار من خلال تعلّمي من أخطائي.

لقد رأيتُ أننا حين نستعمل (الإقصاء المؤقت) فإننا في الواقع لا نعاقب، فإنَّ الطفل الذي يقذف الأشياء، أو يضرب أخاه ربما كان مُتعباً أو جائعاً أو فقد قدرته على التّحكّم في انفعالاته -تماماً كما وقع مني-، ومن أجل هذا نُعطيه من خلال (الإقصاء المؤقت) فُسحةً أو برهة من الوقت؛ ليستجمعَ فيها نفسه.

لماذا لا يشوّش (الإقصاء المؤقت) على الرابطة الوجدانية بين الوالد والطفل؟ أولاً: لأنه ليس مجرد (إقصاء)، ولكنه (إقصاء مؤقت) يستغرق وقتاً قصيراً وسُرْعان ما ينقضي؛ لنقطفَ ثمرته بتصحيح سلوك الطفل في المستقبل.

وبمجرد انقضائه تتوفر الفرصة لعودة التواصل، وإصلاح العلاقة معه، وشموله بالدفء والحب والارتباط.

ثانياً: أن الآباء -خلال الوقت القصير- لا يغادرونهم، ولا يغيبون عن أنظارهم، ولا يهددونهم بذلك، ولذلك لا يخطر ببال الطفل نفسه أنهم لن يعودوا إليه، بل يتواجد الآباء في مرمى بصرهم، ويقتصرون على عدم الاكتراث والاهتمام بهم، ويجنبون أي صورة من المكافأة لهم أثناء (الإقصاء المؤقت).

الثاني: الرّغم بأن الإقصاء يأتي بنتائج عكسية، وتفنيد:

ادّعى معارضو (الإقصاء المؤقت) أنه غير مجّد، بدليل أن الطفل يرفضه ويقاومه، بل ذهبوا إلى حدّ الزّعم بأنّه لا يغير السلوك السيئ، بل إنّّه يزيده سوءاً (Counter productive).

والجواب:

أنّ هذا الادّعاء ليس على إطلاقه، بل هذا يحدث (فقط) مؤقتاً في بداية الأمر عند شروع المربّي في تطبيق (الإقصاء)، وهذا معناه أنّ المربّي صار يستعمل أسلوباً جديداً مع الطفل، ومن ثمّ فلا بُدّ أن نتوقع استجابة عنيفة من هذا الطفل، وهذا رد فعل متوقّع، وهو ما نسمّيه: «الانفجار الناتج عن الانطفاء»

(Extinction Burst)

ولكي نفهم ذلك الاصطلاح نحتاج إلى تعريف كل من: الانطفاء،

والتعزيز.

١- الانطفاء (Extinction):

هو نوع من التعلُّم، ويعني الامتناع عن الاستجابة بسبب توقُّف التعزيز (التدعيم).

فيتعلم الطفل -مثلاً- الكفَّ عن القيام بعملٍ لم يُعَدَّ يُقْتَرَنُ بالتعزيز، وهذا الكفُّ يتمُّ تدريجيًّا مع مرور الوقت، إلى أن يتلاشى السلوك تمامًا (حين تساوي الاستجابة صفرًا)، وحينئذٍ يُعَدُّ الانطفاء ناجحًا.

مدة انفجار الانطفاء:

تتوقف على أن يتعلَّم الطفل جيّدًا توقُّف الربط بين السلوك والتعزيز، بحيث يتأكَّد أنَّ السلوك لم يُعَدَّ وسيلةً ليجنيَ الهدف، ولن ينتج عنه تدعيم من الآن فصاعدًا.

ومُعظم حالات (انفجار الانطفاء) تكون قصيرة، لكن شديدة جدًّا.

٢- التدعيم (التعزيز) (Reinforcement):

هو تقوية الرابطة بين المثير (Stimulus) والاستجابة (Response)، وبناءً على هذا: فإنَّ (الانطفاء) -إثارة دون تدعيم أو بتدعيم سلبي- عكس (التدعيم).

وهو يحدث حين يتكرر (المثير) دون أن يحصل (التدعيم) الذي كان يعقبه في السابق، فتضاءل (الاستجابة) بالتدريج إلى أن تتلاشى تمامًا. ولذلك يُستعمل (الانطفاء) لإيقاف سلوكٍ مستهدف.

ولكي نُقَرِّب مفهوم (الانطفاء) نضربُ هذا المثال:

وضعَ شخصٌ عملةً نقديةً في ماكينة البيع بقطع نقدية معدنية، وضغط على الزر، ففي العادة يخرج له عُلبة المشروب المبرد مثلاً.

وفي آخرِ مرّةٍ وضعَ العملة، وضغط على الزرّ، فلم يخرج له شيء.

كرّر الضّغط عدّة مرّات حتّى إنّهُ هزّ الماكينة قليلاً، ولم يخرج له شيء.

في النهاية تأكّد أنّها لم تُعدّ تعمل، فاستسلم، وأيس منها، وكفّ عن الضّغط على الزرّ.

مثال آخر للانطفاء:

- طفلٌ تعود أنّهُ بعدما يسمعُ صوتَ أمّه، فإنّها تحضر إلى جانبه، فصار كلّما سَمِعَ صوتها تظهرُ عليه علاماتُ البشَرِ والسرور قبل حضورها (وهذا تعليم شرطي).

فإذا تكرر سماعه صوت أمّه مرّاتٍ كثيرة متتابعة دون أن تحضر إليه، هنا يحدث (الانطفاء) فلا تظهرُ عليه علاماتُ البشَرِ والسرور.

- طفلٌ تعود على أنّه إذا طلب شيئاً ولم يُلبّ طلبه، يصرخ ويبكي ويولول، فتنصاع له أمّه، وتنفذ له طلبه.

فالطفل في هذا المثال تعود فيما مضى على أنّه متى ما ضغطَ على زرّ (الأم) بالبكاء وبالصراخ والنّحيب فإنّه (يكافأ) باهتمامها وانصياعها لرغبته، مما يعزز

سلوكه السيئ. فإذا امتنعت مرارًا وتكرارًا عن هذه (الاستجابة) بأن أخضعته للإقصاء، فإن هذا السلوك (ينطفئ).

- حينما يشرعُ المربي في تنفيذ الإقصاء (ويزول الاهتمام المعزز للسلوك) فإنَّ الطفلَ يُجَبِّطُ وَيُضَدِّمُ حين يرى أنَّ هذا السلوك الذي طالما جلبَ له كُلَّ ما يريد، لم يعد يعمل، ويتساءل: لماذا لم يُجِدْ صُراخه نفعًا؟ لماذا لم يعد يحصل على اهتمام الأم؟

فيحاول جاهدًا من جديد اختبار السلوك الذي تعود على فعله من قبل، بل إنه ينخرط فيه بدرجة أشد، فيصرخ بقوة أكبر ولوقتٍ أطول، لعلَّ وعسى! وردُّ فعله العنيف هذا يُسمَّى (Extinction Burst) فمن رآه بادي الرأي زعم أنَّ (الإقصاء) قد أتى بنتيجة عكسية، ورُبَّما نصح بالتَّوقُّف عن الإقصاء.

في حين أنَّ الصواب هو المواظبة على تطبيق الإقصاء بشروطه بإصرار وثبات، ومع تكراره وثبات المربي على موقفه في المرات التالية يخبث (الانفجار) ويستمرُّ (الانطفاء)، وتتناقص السلوكيات السيئة المستهدفة بالإقصاء، وذلك كُلُّه بشرط ألا يعودَ المربيُّ إلى تدعيمها كطريقة للحصول على الاهتمام، فعاد الأمر كما هو واضح إلى التطبيق الصحيح والصارم للإقصاء، وليس إلى الإقصاء نفسه.

الاعتراض الثالث:

زَعَمَ بعضهم أَنَّ (الإقصاء) أو (العزل) عقاب يؤذي الطفل، ويخرج كرامته، ويصيبه بالقلق وعدم الأمان مع والديه، ويجعله هو المسؤول عن القرب منها، ورُبَّمَا قاومَ الاتِّصَالَ بهما، وأضرَّ بالعَلاقَةِ معهما، وقالوا: «يجب أن نزرع فيهم التَّأكُّدَ من أنَّ عَلاقَتَنَا بهم أقوى من المشكلة السلوكية، لا أن نُشعِرَهم أنَّها على المحكِّ أو في خطر».

والجواب:

- أن طريقة (الإقصاء المؤقت) إنما استُحدثت واعتمدت؛ لتكونَ بديلاً عن الصَّفعِ على الكَفَل^(١) (Spanking)؛ لتجنيبهم أضرار الضرب الجسدي.

- أنَّ ما ذكروه من الأضرار إنما يحدث عند تطبيق الإقصاء بطريقةٍ غير صحيحة.

- أن كثيراً من الأبحاث العلمية قد أثبتت أن للإقصاء المؤقت فوائدَ إيجابيةً:

- فالطفل يدرك أنَّ المُرَبِّي يهدفُ إلى تربيته على الانضباط وإصلاح سلوكه.
- والإقصاء المؤقت يعطيه فرصةً خلالَ هذه الاستراحة؛ ليتعلَّم ويمارسَ مهارةَ تنظيمِ سلوكه ومشاعره، وفي الوقت نفسه يحصل على عَلاقَةٍ مُحبَّة دافئة مع الوالدين.
- وللإقصاء آثارٌ إيجابية على العَلاقَةِ بين المُرَبِّي والطفل، وكذا يُؤثِّرُ إيجابياً بتخفيض احتمالية التَّربيةِ الحَشِنة (Harsh Discipline).

(١) الكَفَل: العَجْزُ أو الرَّدْفُ أو القَطَنُ للإنسان والدَّابة.

الاعتراض الرابع:

أن أسلوب الإقصاء صورةٌ من صور (الصمت العقابي).

والجواب:

أن هذا خلطٌ جسيم بين أمرين بينهما بُعدُ المشرقين، ونحن لن نفيض هنا في ذكر أوجه الاختلاف الشديد بينهما، وإنما يكفي أن نُعرِّفَ (الصَّمَتَ العقابي) لينكشف بطلانُ إلحاق (الإقصاء المؤقت) بالصمت العقابي.

(فالصمت العقابي) أو (الصمت الغاضب) أو (الانكفاء النرجسي) (Silent Treatment) هو أحد خصائص الشخصية النرجسية، ويظهر حينما يتخيل مريض (اضطراب الشخصية النرجسية) أن ذاته المتضخمة قد أُهينَتْ، وأنه قد جُرِحَ بسببِ صدرٍ بدون قصدٍ عن الطرف الآخر، فيعبس وجهه، ويتصنّع اللامبالاة، ويصمت فجأة رافضاً التجاوب والتواصل معه، دون أن يشرح سبب غضبه، ويخلق مسافة عاطفية باردة مع الطرف الآخر، قد تمتد لأسابيع وشهور.

والصمت العقابي أسلوب للضغط النفسي المتعمد، ووسيلة من وسائل السيطرة والإخضاع، وهدفه إيلاُم الضحية وإشعارها بالذنب من خلال نظرات التوبيخ والاحتقار والتّعلي، ورغم أنّه (صمت) إلّا أنه يُدرج ضمن أنواع الإساءة (Abuse).

فلا أحسب أننا بعد هذا التوضيح نحتاج لذكر أوجه المقارنة بينه وبين (الإقصاء المؤقت) الذي فصلنا غايته ووسائله وشروطه وثمرته فيما تقدّم.

الاعتراض الخامس:

وقت معنا، وليس وقتاً معزولاً عنا (Time-in Instead of Time-out).

ذهب هذا الفريق إلى أنّ طريقة «الوقت معنا» صحيحة وفيها تعاطف أكثر من (الوقت بعيداً عنا) أي الإقصاء المؤقت.

وقالوا: إن الإقصاء يُشعرُ الطفل أنه وحده في الحياة، دون أن يدري كيف يتصرّف بشكل سليم.

وبدلاً من أن نقصيه بعيداً عنا، ونقول له: «تفضّل! اذهب مع غضبك إلى مكانٍ آخرٍ وحيداً، فأنا لا أهتم بك، ولا بما تفكر فيه، وجعلك تشعرُ هكذا»، فإننا نصحبه بعيداً عن الموقف الذي حدث فيه السلوك السلبي، ونجلس معه في مكان آمن وحدنا، ثم نتكلم معه عن المشكلة وعن مشاعره ومخاوفه وأفكاره التي يخبرها ويمرُّ بها.

ومن خلال الحوار والتواصل اللفظي نوفر له طريقةً أفضل للتعامل مع الآخرين بدلاً من (الإقصاء) المبني على تجنب التواصل بيننا.

والجواب عن هذا:

١- أنّ هذه الطريقة (وقت معنا، وليس وقتاً معزولاً عنا) لا تقتصر على إلغاء مفهوم (الاهتمام السلبي) الذي يدعم السلوك السيئ، بل تبذل للطفل هذا (الانتباه السلبي) مجاًناً وبكل كرم.

٢- بيّنًا من قبل أن الأصل هو اتباع الاستراتيجيات التربوية التي تعزز السلوك الإيجابي، وبيّنًا أن (الانتباه الإيجابي) يعزز السلوك الحسن، ولكنه لا يستطيع أن يغيّر السلوك السيئ كما يفعله (الإقصاء المؤقت).

٣- أنت لا تحذل طفلك بالإقصاء، ولكنك تُدرّبه على الانضباط بطريقة ممزوجة بالحب.

٤- الطفل في (الإقصاء) لا يُترك معزولاً تمامًا، ولا يشعر أبدًا (أنه وحده في هذه الحياة!!) بل يبقى في مجال بصر المربي دون أن يمنحه الانتباه السلبي الذي يضره، كما أن الإقصاء فترة قصيرة مؤقتة يعود بعدها الانتباه الإيجابي والتعاطف والتواصل.

٥- نحن لا نقلل من أهمية (الوقت معنا)، بل -على العكس- بيّنًا^(١) أنه لا يمكن أن ينجح (الإقصاء) بدون أن يسبقه ويلحقه الـ (وقت معنا) (Time - in).



الخاتمة

لقد قال الله تعالى حاكياً عن نبيه شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وقال عز وجل مخاطباً خليفه محمداً صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

والهداية المنفية هنا هداية القلب وتوفيقه إلى الانقياد للحق، فهذه لا يملكها أحدٌ إلا الله، أما هداية البيان والدلالة والإرشاد فهذه يقدر عليها الرسل وأتباعهم والدعاة إلى الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

فعلى الآباء القيام بما يستطيعونه، وهو البيان والإرشاد والنصح، وأن يستعينوا بالله وحده كي يهدي قلوب الأبناء لما فيه صلاح دنياهم وأخراهم، ويُنسب إلى عمر رضي الله عنه أنه دعا: «اللهم أرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل»، واجعلنا للمتقين إماماً.

وبناءً عليه، فإن على الآباء أن يلزموا الدعاء لذريتهم بالهداية والسداد والصلاح، وكان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم يقول ضمن دعائه في استفتاح الصلاة: «اللهم اهدي لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت»، وكذا يُعلمون أولادهم أن يلزموا الدعاء، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ

مما نزل، ومما لم ينزل، فعليكم بالدعاء»^(١)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اعجز الناس من عجز عن الدعاء» الحديث.

وليلزم الآباء - وكذلك الأولاد - قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله»؛ فإنَّها كنز من كنوز الجنة، وباب من أبوابها، ومعناها: أنه لا حول لأحدٍ في دفع شر، ولا قوة في تحصيل خير إلا بمعونة الله.

وليتذكر الآباء أنَّ صلاحهم ينفع الأولاد، قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]، وقال سبحانه: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

رَأَيْتُ صَاحَ الْمَرْءِ يُصَلِّحُ أَهْلَهُ وَيُعَدِّيهِمْ دَاءَ الْفَسَادِ إِذَا فَسَدَ
وَيَشْرُفُ فِي الدُّنْيَا بِفَضْلِ صَلاحِهِ وَيُحَفِّظُ بَعْدَ الْمَوْتِ فِي الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ

احذر عقوق الوالدين:

وقد تتلامس بعض الأخطاء التربوية - التي نقف عليها في مثل هذا الكتاب - مع ذكريات أليمة في طفولة غير سعيدة قد مارسها المربون، لا سيما الوالدان، فيثور غضبُ الابن، ويحس بالظلم، وقد يدفعه ذلك إلى عقوق والده إن كان حيًّا، أو عدم ذكر مساوئه وعدم مسامحته والعفو عنه إن كان ميتًا^(٢)، وقد يجد من الأخصائيين النفسيين الذين لا يفقهون معنى (البر والعقوق) في الإسلام من يشجعه على العقوق والتمرد والإساءة، ونذكر هنا بأمور:

(١) انظر: «الأوراد الماثورة» للمؤلف (ص ١٣٣) وما بعدها.

(٢) انظر: «الإحسان إلى الأموات» للمؤلف، فصل: «اعفُ عن ذي قبر تقدَّم، وأفضى إلى ما كان قدَّم» (ص ١٨١ - ٢١٧).

الأول: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِظَمَ حَقِّ الْوَالِدَيْنِ، وجعله تاليًا لحقه تعالى في توحيدهِ وعبادته: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الْوَالِدَيْنِ إِحْسِنَا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال عَزَّجَلَّ: ﴿وَلِذَٰلِكَ قَالَ لِقَمْنُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ثم أتبعه بقوله سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٣-١٥].

ومهما بلغ الوالدان الكافران من جهدٍ ومغالبة وضغط من أجل إغراء ولدتهما بالشرك بالله تعالى، فهو مأمور من قِبَلِ الله سبحانه بعدم طاعتها، ومع ذلك فإنَّ هذا لا يُسْقِطُ حَقَّهُمَا في طيب المعاملة والبر بهما وحسن صحبتها في الدنيا: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ فإنَّها رحلة قصيرة محدودة عبر هذا العالم الدنيوي الزائل.

وهذه (الحصانة من عقوق الوالدين) التي منحها الله للوالدين -ولو كانا كافرينٍ مشركينٍ لا يكتفيان بدعوة ولدتهما إلى الشرك بالله، بل يجاهدانه، ويبدلان قصارى جهدهما في دعوته إلى الشرك- لم تكن حائلًا دون برهما والشكر لهما ومصاحبتهم في الدنيا بالمعروف في مقابلة إحسانها إليك بالتسبب في نعمة الحياة بعد العدم.

فما عدا هذه الحال -بقياس الأولى- أولى بالثبات على برهما ومصاحبتهم بالمعروف، فما بالك بالوالدين المسلمين الموحِّدين؟

الثاني: أنَّ الخبرة التربوية علم وفن يُكتسب بالتعلم والممارسة، ولا يولد أبوان خبراء مختصين في التربية الصحيحة، نعم تتكفل الفطرة السوية بجزء كبير في عملية التنشئة، ولكن العلم والخبرة يُضيفان الكثير من الإتقان والتجويد لعملية التربية، ويجنبان مزالق كثيرة تكتنفها، والناس يتفاوتون بين مُكثِر ومُقل، ومسكين بل فقير في مدى إلمامهم بخبرات التربية السوية.

الثالث: أن والديك لم يتعمدا الإساءة إليك، وما أرادا بك إلا خيراً، وما وقع منهما من أخطاء تربوية نشأ غالباً عن جهل، لا عن عمد، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون».

الرابع: أننا لا نستطيع استرجاع الماضي لتصحيحه، ولكننا نسترجعه مؤقتاً ونتفهمه بطريقة صحيحة، ونعامله كدرس نستفيد منه فيما يأتي، ثم ندفنه كأبي ميت، ونتوقف عن نبشه^(١)، ونستفيد من تجاربنا الماضية في تربية أبنائنا؛ لتجنبهم أخطاءها وحمايتهم من عواقبها.

الخامس: أنك تحب من أولادك أن يسامحوك ويستغفروا لك في أي إساءة صدرت منك إليهم، فقس على هذا حالك مع والديك، «والجزء من جنس العمل».

(١) انظر: «الإحسان إلى الأموات» (ص ١٩٤) فصل: «ذكر مساوئ الموتى نبش لهم».

وهذا آخر ما قصدتُ إلى بيانه في باب التربية بالعقاب؛ تذكرةً لأولي الألباب، وإنِّي أبتهلُ إلى الله تعالى بأكفِّ الضراعة، وأتوسل إليه بِحُبِّهِ نبيّه محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وسببًا للفوز بالرضى والقبول والتكريم، وأن يجعله لنفع عباده الصالحين موقوفًا، وعن أهل التحذلق والتنطع مَصُونًا مصروفًا، وأن يرحمني ووالديَّ وسائر المسلمين، إنه أرحم الراحمين، وأكرم الأكرمين:

قَرُبَ الرَّحِيلُ إِلَى دِيَارِ الْآخِرَةِ	فاجعلْ إلهي خَيْرَ عُمري آخِرِهِ
فَلئنَ رَحِمْتَ فَأَنْتَ أَكْرَمُ رَاحِمٍ	وَبِحَارِ جُودِكَ يَا إلهي زَاخِرِهِ
أَنِسْ مَبِيتِي فِي الْقُبُورِ وَوَحْدَتِي	وَارْحَمْ عِظَامِي حِينَ تَبْقَى نَاخِرِهِ
فَأَنَا الْمُسَيِّكِينُ الَّذِي أَيَّامُهُ	وَلَأَنْتَ بِأَوْزَارِ غَدَتِ مُتَوَاتِرِهِ
وَتَوَلَّاهُ بِاللُّطْفِ عِنْدَ مَا لِه	يَا مَالِكَ الدُّنْيَا وَرَبَّ الْآخِرِهِ

وصلَّى الله على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



المفهرس

المقدمة ٥

الباب الأول مدخل وتنبهات

- الأول: حضانة الطفل البشري هي الأطول زمناً في الكائنات الحية ٩
- الثاني: حاجة الطفل إلى سلطة ضابطة لسلوكه ١٠
- أهداف السلطة الضابطة ١٢
- الثالث: تربية الأولاد مسؤولية جسيمة ١٣
- مؤثرات خارجية تشاركك، بل تنازعك في تربية أولادك ١٤
- الرابع: نستفيد من العلوم التربوية الحديثة لكن بحذر ١٥
- الخامس: لا تنحصر التربية في العقاب، ولا ينحصر العقاب في الضرب ١٧
- السادس: العقاب التربوي ١٨
- تعريف العقاب ١٨
- أهم دواعي العقاب ١٩
- الأساس النفسي لمبدأ الثواب والعقاب ١٩
- فوائد العقاب التربوي ٢١
- من ميزات العقاب التربوي وخصائصه ٢٢
- لماذا ينتج العقاب أحياناً سلبيات؟ ٢٣
- لماذا يعاود الطفل ارتكاب الخطأ رغم العقاب؟ ٢٣

الباب الثاني

قواعد العقاب وضوابطه

- تمهيد ٢٧
- تربية الطفل تحتاج إلى تخطيط ولا تجوز فيها العشوائية ٢٧
- تربية الأطفال اليوم صارت علمًا وفنًا وتحتاج إلى اكتساب ومهارة ٢٧
- أخطاء الطفل فرصة ثمينة لتعليمه ٢٨
- العقاب وسيلة واحدة من وسائل تعديل السلوك ٢٨
- العقاب محاط بسياسات من الضوابط والشروط حتى يحقق هدفه التربوي ٢٨
- استشر المختصين في التربية ما داموا يحترمون إطارنا المرجعي ٢٨
- عقلية المربي المبدع قادرة على ابتكار وسائل تحقق الأهداف التربوية دون اللجوء إلى العقاب ٢٩
- القاعدة الأولى: ابدأ بالوسائل الناعمة ٣٠
- لماذا نبدأ بالوسائل الناعمة؟ ٣١
- استنفد الأساليب الناعمة قبل اللجوء إلى العقاب ٣١
- القاعدة الثانية: ابن مع الطفل علاقة متينة قائمة على الحب والاحترام والثقة ٣١
- القاعدة الثالثة: الرفق هو الأصل الأصيل في التربية ٣٢
- العقاب التربوي استثناء يؤيد أن الرفق هو الأصل ٣٤
- القاعدة الرابعة: حاول منع السلوك السلبي من الأصل بسد ذريعتيه ٣٦
- بدائل مقبولة تحل محل السلوك السيئ ٣٧
- القاعدة الخامسة: دعم السلوك العكسي المرغوب بالإثابة عليه ٣٨

- القاعدة السادسة: علمه وأقنعه أولاً ٣٨
- القاعدة السابعة: بين لطفك أن الهدف الوحيد من العقاب هو مصلحته ٤٠
- القاعدة الثامنة: عاقب بعد تكرار الخطأ، وليس عند أول خطأ ٤٠
- القاعدة التاسعة: التصحيح أولاً ٤١
- أولاً: التصحيح النظري المعرفي ٤١
- نماذج من التصحيح النظري العلمي في السنة الشريفة ٤١
- ثانياً: التصحيح العملي التطبيقي ٥٠
- نماذج من التصحيح العملي التطبيقي في السنة الشريفة ٥٠
- القاعدة العاشرة: العفو عن الطفل إذا أخطأ ٥٣
- القاعدة الحادية عشرة: المداراة والتغافل والتجاهل أحياناً ٥٤
- أولاً: فصل تمهيدي للقاعدة الحادية عشرة ٥٤
- شرح مفهوم المداراة والتغافل والتجاهل ٥٤
- تعريف المداراة ٥٤
- من صور المداراة في القرآن الكريم ٥٥
- من مواقف المداراة والتغاضي في السنة الشريفة ٦٠
- المداراة خُلِقَ كَسْبِي لا يُنَالُ إلا بخبرات الحياة ٦٤
- التغافل والتجاهل والتغاضي عن أخطاء الآخرين من سمات الرجل العاقل ٦٤
- التغافل يحميك من عواقب الغضب ٦٥
- شَعْرَةُ معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ٦٧
- استقصاء الزَّلَّاتِ وإحصاؤها أقصرُ طريق لخسارة الصديق ٦٧
- ثانياً: التجاهل والتغافل عند خطأ الطفل ٦٩
- من المفيد أحياناً أن نتجاهل خطأ الطفل ٦٩

- ٧٠ اختر معاركك بدقة.
- ٧٠ اطوِ ملفّات الماضي.
- ٧٠ احذر الأبوة المفرطة (المروحية).
- ٧٢ مواقف يُفضّل فيها التجاهل والتغافل.
- ٧٤ خصائص التجاهل التربوي.
- ٧٤ كيف تتحكم بلغة جسدك عند التجاهل؟
- ٧٥ تنبيهات.
- ٧٥ الأول: تجاهل بصورة انتقائية.
- ٧٥ الثاني: اثبت على موقف التجاهل ولا تراجع.
- ٧٥ الثالث: لا تُدمن التجاهل.
- ٧٥ الرابع: فائدة التجاهل مع الطفل الباحث عن الاهتمام.
- ٧٦ الخامس: لا بُدّ - قبل التجاهل - من وجود رابطة إيجابية بين الطفل والديه.
- ٧٦ القاعدة الثانية عشرة: راع الفروق الفردية عند العقاب.
- يجب أن ينظر المربي إلى كل طفل على أنه حالة فريدة متميزة بعيداً عن
- ٧٦ الأحكام العامة.
- مواقف من السنة الشريفة تعكس مراعاة رسول الله ﷺ الفروق
- ٧٨ الفردية بين الناس.
- ٨٢ مراعاة رسول الله ﷺ لعقل الطفل وحدوده.
- ٨٢ قابل خطأ الطفل بما يليق به ويناسبه.
- ٨٥ راع قدر الطفل حين تعاقبه.
- ٨٧ القاعدة الثالثة عشرة: لا بد أن يتناسب العقاب مع سن الطفل.
- ٨٧ لماذا لا يعاقب الرضيع.

- العقاب ما بين الثلاث إلى الخمس السنوات ٨٨
- مثال تطبيقي لمراعاة السن عند العقاب: الطفل الذي يضرب أمه مثلاً ٨٩
- كيف يعاقب الطفل في سن الطفولة المتوسطة؟ ٩٠
- كيف يعاقب المراهق؟ ٩١
- القاعدة الرابعة عشرة: لا تعاقبه على سلوك أنت قدوته فيه ٩٢
- أهمية تعزيز ثقة الأبناء بالوالدين ٩٣
- القاعدة الخامسة عشرة: لا يجتمع غضبٌ وعقاب ٩٦
- أولاً: فصل تمهيدي حول الغضب وعواقبه وكيفية إدارته ٩٦
- تعريف الغضب ووظيفته ٩٦
- الغضب نوعان: مذموم (منحرف) ومحمود ٩٧
- مثيرات الغضب نوعان: داخلية وخارجية ٩٧
- تفاوت الناس في انفعال الغضب ٩٧
- آثار الغضب وعواقبه ٩٩
- ١- الغضب مفتاحٌ كُلُّ شر ٩٩
- ٢- الغضب وسيلة إلى غضب الله تعالى ١٠٠
- ٣- الغضب عدوُّ العقل ١٠٠
- ٤- إحباطُ العمل ١٠٢
- ٥- أثره على اللسان ١٠٣
- ٦- الغضب بذرُّ النَّدم ١٠٤
- ٧- الغضب يُفْضِي إلى ذُلِّ الاعتذار ١٠٤
- إدارة الغضب ١٠٥
- يدار الغضب من خلال إزالة أسبابه، والتحكم في نتائجه ١٠٥

- خطوات مهمة في علاج الغضب ١٠٥
- ١ - السكوت ١٠٥
- ٢ - الاستعاذة بالله تعالى ١٠٧
- ٣ - الوضوء ١٠٩
- ٤ - الجلوس أو الاضطجاع ١١٠
- ٥ - الانسحاب من الموقف ١١١
- ٦ - استحضار وصايا رسول الله ﷺ في الغضب ١١٢
- ٧ - استحضار فضائل العفو وكظم الغيظ ١١٥
- العفو والصفح ١١٥
- كظم الغيظ ١١٧
- الحلم بالتَّحَلُّم ١١٩
- نماذج في كظم الغيظ لوجه الله تعالى ١٢٠
- ٨ - ذكر الله تعالى، واستحضار حلم الله عليك ١٢٣
- ٩ - التَّعَزِّي بالقَدَر ١٢٣
- ١٠ - أن يستحضر قُبْح صورته عند الغضب ١٢٤
- ١١ - استحضار عواقب الغضب وتوابعه ١٢٥
- ثانيًا: لماذا لا يجتمع الغضب مع العقاب التربوي؟ ١٢٥
- الغضب أكبر أسباب الفشل التربوي والعقوبات الظالمة ١٢٥
- من يعاقب وهو غضبان ينبغي أن تسحب منه «رخصة القيادة التربوية» ١٢٦
- ما الغضب الذي نقصده هنا؟ ١٢٦
- الغضب يفسد العقاب ١٢٧
- تريث وتمهل إلى أن ينطفئ غضبك ١٢٧

- فائدة تحويل المشاعر الانفعالية إلى كلام منطوق ومسموع ١٢٨
- المربي الغاضب يداوي نفسه ولا يقوم سلوك الطفل ١٢٩
- سليبات العقاب في حالة الغضب ١٣٠
- كيف يتصرف المربي الغضبان؟ ١٣١
- الحب يطفئ الغضب كما يطفئ الماء النار ١٣١
- أتبع السيئة الحسنة تمحها ١٣٢
- من وسائل الاسترخاء لتخفيف التوتر ١٣٢
- القاعدة السادسة عشرة: يجب توحيد السياسة التربوية بين الأبوين ١٣٣
- الآثار السلبية التي تنشأ من تعارض المواقف التربوية للأبوين ١٣٣
- أمثلة لازدواجية الموقف التربوي بين الأبوين ١٣٤
- القاعدة السابعة عشرة: سل نفسك قبل العقاب ١٣٥
- مجموعة من الأسئلة يوجهها المربي إلى نفسه قبل العقاب ليضمن نزاهته ١٣٥
- القاعدة الثامنة عشرة: لا عقاب قبل الاتفاق على القواعد الأسرية ١٣٧
- معنى القواعد الأسرية ١٣٧
- خصائص القواعد الأسرية ١٣٧
- القواعد الأسرية ملزمة للجميع ١٣٨
- ماذا يفعل الوالد إذا كسر قاعدة؟ ١٤٠
- قواعد خاصة لبعض الأبناء دون بعض ١٤١
- هناك ظروف تطرأ فتستلزم استثناء من القاعدة ١٤١
- ما يُراعى عند تحديد القواعد الأسرية ١٤١
- ضع في اعتبارك المرحلة العمرية لأبنائك ١٤٣
- مواصفات قائمة القواعد الأسرية ١٤٥

- أشرك أبناءك في وضع بعض القواعد..... ١٤٦
- أمثلة لقائمة القواعد الأسرية ١٤٨
- لكل سلوك عاقبة ١٥٢
- لا تراجع ولا تتردد في فرض النظام ١٥٤
- اشرح لأولادك القواعد مقدماً ببساطة ووضوح..... ١٥٥
- قصة القرد (ميمون) مع قوانين الغابة ١٥٧
- إعلان القواعد الأسرية..... ١٦٠
- لا بد من فترة تدريب كافية على القواعد قبل إيقاع العقوبة ١٦١
- ماذا لو كسر الطفل قاعدة أسرية؟..... ١٦١
- دعم التزامهم بالقواعد عن طريق جدول التحفيز ١٦٢
- راجع القواعد وعدّها عند الحاجة..... ١٦٣
- أهمية الاجتماع الأسري الدوري..... ١٦٤
- ثمرات وفوائد دستور «القواعد الأسرية» ١٦٤
- القاعدة التاسعة عشرة: مراعاة التناسب بين الخطأ والعقاب..... ١٦٧
- لا تعاقب الطفل على سلوك طبيعي ١٦٧
- مناسبة العقاب للجرم منطقياً..... ١٦٨
- أضرار العقاب المبالغ فيه ١٦٨
- القاعدة العشرون: فتش عن سبب الخطأ، وتريث قبل العقاب حتى لا تظلمه ١٦٩
- يُعذر الطفل بالجهل والخطأ والنسيان ١٦٩
- قد لا يحسن الطفل التعبير عن دوافعه الكامنة وراء سلوكه المزعج ١٧٠
- الأسباب المحتملة وراء سلوك الطفل المزعج ١٧٢
- نفتش عن الأسباب للتفسير وليس للتبرير ١٧٦

- القاعدة الحادية والعشرون: ركز على سلوك سيئ واحد..... ١٧٧
- تحديد السلوك المستهدف والتركيز عليه يزيد فعالية الإجراء العقابي ١٧٧
- القاعدة الثانية والعشرون: اربط العقاب بالسلوك السلبي ١٧٧
- القاعدة الثالثة والعشرون: وجه النقد إلى سلوكه لا إلى شخصه ١٧٩
- القاعدة الرابعة والعشرون: وقت العقاب..... ١٧٩
- تجنب العقاب الطويل الأمد ١٧٩
- لا تعاقبه على مائدة الطعام وقت الأكل..... ١٨٠
- لا تعاقبه وهو يدرس أو يذاكر..... ١٨٠
- لا تعاقبه قبل النوم ١٨٠
- القاعدة الخامسة والعشرون: لا تضاعف عليه العقوبة ١٨١
- القاعدة السادسة والعشرون: احذر أن تعاقبه بأثر رجعي ١٨١
- القاعدة السابعة والعشرون: لا تستفز أثناء العقاب ١٨١
- القاعدة الثامنة والعشرون: اضبط لغة جسدك وأنت تعاقبه ١٨٢
- القاعدة التاسعة والعشرون: لا تقتصر على التهديد دون التنفيذ ١٨٢
- ١- لا تهدد الطفل بعقاب لا يمكنك تنفيذه ١٨٢
- ٢- إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع ١٨٣
- ٣- لا تهدده بشيء يضره ١٨٣
- ٤- لا تهدده بأمور وهمية ١٨٣
- ٥- نفذ العقاب مباشرة دون تردد..... ١٨٤
- التهديد بالعقاب لا يستلزم تنفيذه دائماً، ويمكن إخلافه أحياناً لمصلحة..... ١٨٤
- القاعدة الثلاثون: فورية العقاب بعد السلوك السيئ بدون تأجيل ١٨٤
- ذكر مواقف وسلوكيات تستلزم التدخل المباشر والسريع دون أدنى تأجيل ... ١٨٥

إذا كان المربي في حالة غضب شديد لا يتعجل العقاب، ولكن يترَوَّى ويتمهل

- حتى يهدأ ١٨٥
- القاعدة الواحدة والثلاثون: من الخطأ تخصص أحد الوالدين في العقاب ١٨٦
- تأجيل عقاب الطفل إلى أن يعود أبوه له عواقب سيئة على الطفل والأب والأم ١٨٦
- الأبوان يتعاضدان ولا يتعارضان ١٨٨
- القاعدة الثانية والثلاثون: حدد العقوبات الممكنة وخَيِّرِ الطفل بينها ١٨٨
- القاعدة الثالثة والثلاثون: الثبات على الموقف عند تطبيق العقاب ١٨٩
- أصدر الأمر مرة واحدة، ولا تكررهِ ١٩٠
- كلما تكرر السلوك؛ كرر العقاب ١٩٠
- من مواقف «عدم الثبات» التربوي ١٩١
- المربي المثالي: طيب مُحَبٌّ، ولكن حازم وجادّ ١٩٣
- القاعدة الرابعة والثلاثون: دع الطفل يعبر عن مشاعره ١٩٣
- لا تجبر الطفل على الشعور بالسعادة ١٩٥
- معنى «المواجهة» ١٩٥
- دعه يبكي! ١٩٦
- طفلي يضحك وأنا أعاقبه! ١٩٧
- ماذا تفعل الأم في هذا الموقف؟ ١٩٩
- قواعد ما بعد العقاب ٢٠٢
- القاعدة الخامسة والثلاثون: علمه أن يعتذر بعد العقاب ٢٠٢
- القاعدة السادسة والثلاثون: شجِّعه على استبقاء الحب والأمان ٢٠٣
- القاعدة السابعة والثلاثون: كافئه على أول سلوك إيجابي يفعله ٢٠٣
- القاعدة الثامنة والثلاثون: عامله -بعد العقاب- معاملة طبيعية ٢٠٣

- القاعدة التاسعة والثلاثون: لا تشعر بالذنب بعد العقاب، ولا تعتذر للطفل عنه
 ما دام موقفك مخططاً ومدرّساً ٢٠٦
- القاعدة الأربعون: تكرار العقاب واعتياده يسلبه قيمته التربوية ٢٠٧
- القاعدة الواحدة والأربعون: لا تكرر العقاب نفسه في كل موقف ٢٠٨
- القاعدة الثانية والأربعون: إعادة تقويم العقاب طبقاً لمدى تأثير الطفل به ... ٢٠٨
- ينبغي قياس درجة السلوك السلبي قبل العقاب وبعده للتأكد من فعاليته وجدواه .. ٢٠٨
- من أسباب تغيير العقوبة: رد فعل الطفل تجاهها ٢٠٨

الباب الثالث

أنواع العقاب المرفوض

- النوع الأول: عقاب الطفل بحرمانه من الاحتياجات الأساسية ٢١٣
- النوع الثاني: عقابه بطرده من المنزل ٢١٤
- الطرد من البيت أقبح صورة من صور «الإهمال» ٢١٤
- من احتياجات الطفل: الشعور بالأمن والأمان ٢١٥
- أمور تهدد شعور الأبناء بالأمان ٢١٥
- وِزْر الأب الجاني على ولده بالطرد ٢١٦
- ما يجنيه الأب الذي طرد ابنه من البيت ٢١٨
- أثر الطرد على الطفل المطرود ٢١٩
- النوع الثالث: عقابه بالتهديد بحبسه في غرفة مغلقة ٢٢٤
- أضرار هذا العقاب ٢٢٤
- النوع الرابع: عقابه بالتهديد والترهيب والتخويف ٢٢٦
- الأمن النفسي الذي يحتاجه الطفل يعني التحرر من الخوف أيًا كان مصدره ... ٢٢٦

- أشياء تثير الخوف عند الطفل ٢٢٧
- تعريف الخوف لغة واصطلاحًا ٢٢٧
- الخوف فطري ومكتسب ٢٢٨
- الخوف الطبيعي المعتدل قد يكون انفعاليًا مفيدًا للإنسان ٢٢٩
- الخوف المرضي ٢٢٩
- الخوف العادي خوف موضوعي من خطر حقيقي ٢٣٠
- تعريف الخوف المرضي (الخُوف أو الرُّهاب) ٢٣١
- التخويف رادع مؤقت ٢٣١
- أسباب الخوف عند الأطفال ٢٣٢
- من أهم أسباب زرع الخوف في الأطفال: الأساليب التربوية الخاطئة ٢٣٥
- ازرع الخوف تحصد الخُوف ٢٣٥
- «شرطة الأطفال» تطبيق متوفر في «الهواتف الجواله» لإرهاب الأطفال ٢٣٧
- عواقب العقاب بالتخويف ٢٣٨
- النوع الخامس: تخويف الطفل من الله عَزَّوَجَلَّ ومن عذاب القبر وعذاب النار .. ٢٤٠
- خاطبوا الناس على قدر عقولهم ٢٤٠
- من بلاغة الكلام: مراعاة مقتضى حال المخاطب ٢٤٣
- رُفِعَ القلم عن الصبي حتى يحتلم ٢٤٥
- العقل مناط التكليف ٢٤٥
- لم يثبت أبدًا - في الوحيين الشريفين - أن الطفل يعاقب بالنار إذا ارتكب محرماً ٢٤٧
- هذا المكلف، فكيف بالطفل؟ ٢٤٨
- أكثر من عبارة «الله يحب كذا، ولا يحب كذا» ٢٥٢

- ٢٥٣ بشروا الأطفال ولا تنفروهم.
- ٢٥٤ علّمه كيف يحب الله تعالى؟
- ٢٥٥ ركّز على الترغيب دون التهيب.
- ٢٥٨ بدائل التخويف بالعذاب.
- ٢٥٩ النوع السادس: عقاب الطفل بالصراخ في وجهه.
- ٢٦٠ الصراخ في وجه الطفل حل فاشل للمشكلات.
- ٢٦٠ المطلوب هو «الاستجابة» المتأنية، وليس «رد الفعل» الطائش.
- ٢٦٠ تقنية (قف، ثم فكر، ثم قرّر).
- ٢٦٢ النوع السابع: عقاب الطفل بالدعاء عليه.
- ٢٦٢ الأبوة حماية وليست جنابة.
- ٢٦٢ فضائل الدعاء وأهميته كسبب لتحصيل خيرات وبركات الدنيا والآخرة
- ٢٦٤ ثناء الله على الأنبياء الذين دَعَوْا لأبنائهم.
- ٢٦٤ دعاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأطفال.
- ٢٦٨ دعوة الوالد لولده مستجابة لا شك فيها.
- ٢٦٩ تفسير آيتين كريمتين تتعلقان بدعاء الوالد على ولده بالشر.
- ٢٧١ الدعاء على الأبناء من الاعتداء الذي حرمه الله في الدعاء.
- تنبيه خطير: قد يستجاب دعاء الوالد على ولده - وإن لم يقصد حقيقة الدعاء -
- ٢٧٢ إذا وافق ساعة إجابة
- ٢٧٣ أضرار الدعاء على الأولاد
- ٢٧٥ من أشهر مواقف دعاء الأم على ولدها: دعاء أم جريج العابد عليه
- ٢٧٦ وقائع يتفطر لها القلب من دعاء الوالد على ولده

- النوع الثامن: وسم الطفل ٢٧٩
- نظرية الوسم ٢٧٩
- الوسم الذي يلصق بشخص ما يؤثر على سلوكه ٢٧٩
- مفهوم «النبوءة» التي تحقق نفسها بنفسها ٢٧٩
- لا تعلق ملصقاً على ولدك ٢٨٠
- الأطفال كائنات بريئة لا تتسم بالكمال، ولكنها مبرأة من السمات التي نطلقها عليهم ٢٨١
- صورة الذات عند الطفل تبني على ما يعتقد الآخرون فيه، وكيف يرونه
- من خلال «الملصقات» ٢٨٢
- من يقوم بالوسم؟ ٢٨٣
- لماذا يحدث الوسم؟ ٢٨٣
- من أسباب الوسم ٢٨٤
- الوسم يصف جزءاً صغيراً من كيان الطفل، لكن أثره يمتد ليشمل كيانه كله . ٢٨٤
- بين وسم «الطفل» ووسم «الفعل» فقط ٢٨٥
- الوسم الإيجابي وأثره على الطفل ٢٨٦
- لماذا لا ينبغي وصف الطفل بأنه مثالي، أو رجل حكيم عاقل رزين؟ ٢٨٧
- «الطفل الداعية» نموذج من الوسم الإيجابي ٢٨٧
- أهمية اللعب والمرح بالنسبة إلى الأطفال ٢٨٨
- إشكال وجوابه: قصة إمامة عمرو بن سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَوْمَهُ وهو ابنُ ست
- أو سبع سنين ٢٨٩
- كيف نعالج مشكلات الأطفال بدون وسم؟ ٢٩١
- ركز على وسم الفعل دون الفاعل ٢٩٢

- موقف تربوي جيّد ٢٩٤
- النوع التاسع: العقاب المقترن بالسَّبِّ والشَّتْمِ واللعن، أو السخرية والتحقير والإهانة والاستهزاء ٢٩٨
- تحتوي الإساءة اللفظية - غالبًا - على وسمٍ سلبي ٢٩٨
- تحريمُ الشرع الشريف السخرية والاستهزاء والتحقير والسباب والفُحْش ٢٩٨
- من صور الإساءة اللفظية السخريةُ من الطفل ٣٠١
- «إِنَّ مِنْكُمْ لُمُفْرِّينَ» ٣٠٤
- احترمت الشريعةُ كرامةَ العصاة ومرتكبي الكبائر، ولم تُبَحْ شتمهم واحتقارهم ٣٠٦
- تجنَّب تحقير الذات ٣٠٨
- عاقب الطفل وأنت تحترمه ٣٠٩
- دلالة لجوء المربي إلى السَّبِّ والتحقير والإهانة أثناء العقوبة ٣١٠
- لا توجد «تربية بالإهانة» ٣١١
- مخاطر وعواقب العقاب المهين ٣١١
- إهاناتٌ تتضمن الكذب، وتهدرُ كرامةَ الآدمي ٣١٢
- من مساوئ الإهانة والتلقيب بالصفات القبيحة والأسماء الكريهة ٣١٦
- اعتذار المربي لولده يخفف من الآثار السيئة للإهانة ٣١٧
- النوع العاشر: العقاب بكثرة التوبيخ والنقد الهدام ٣١٨
- العقاب الكلامي بكثرة اللوم والتوبيخ والنقد، صورة من صور العقاب ٣١٨
- العتاب والتوبيخ في السنة الشريفة ٣١٨
- التغافل قبل التوبيخ ٣٢٥
- لا تتحمل عن الطفل أخطاءه ٣٢٦
- متى يكون التوبيخ نافعًا؟ ٣٢٦

- ٣٢٧ تجنب توبيخ الطفل في هذه الحالات
- ٣٢٨ الحوار قبل التوبيخ
- ٣٢٩ كيف نوبخ الطفل؟
- ٣٢٩ هدف التوبيخ
- ٣٢٩ أخطاء الطفل فرصة لتعليمه
- ٣٢٩ قوّم أخطاء الطفل بروح التفهم والاحترام لمشاعره
- ٣٢٩ لا ترسل للطف رسالة مشوّشة
- ٣٣٠ أظهر عدم الرضا عن السلوك السيئ
- ٣٣٠ ركّز على خطأ واحد
- ٣٣٠ لا تنتهز الفرصة فتعاقبه بأثر رجعي
- ٣٣١ لا تعاتبه وأنت بعيد عنه
- ٣٣٢ وجه نقدك إلى سلوكه وليس إلى شخصه
- ٣٣٢ إياك أن تقارنه بغيره أثناء التوبيخ
- ٣٣٣ تجنب أسلوب المنّ والأذى
- ٣٣٤ لا تتعقب الطفل كأنه مجرم يخطط لارتكاب جريمة
- ٣٣٤ إياك والولع بالسلبات
- ٣٣٦ حاجة الطفل إلى التقدير
- ٣٣٨ التشجيع بالمدح التقديري
- ٣٤١ التشجيع وأثره على الأطفال
- ٣٤٣ من ضوابط التوبيخ ألا يقع أمام الآخرين
- ٣٤٤ عدم الإكثار من التوبيخ أهم ضابط لممارسته
- ٣٤٤ عواقب كثرة التوبيخ والنقد السلبي الهدام
- ٣٤٥ الآثار السلبية التي تترتب على كثرة التوبيخ

- النوع الحادي عشر: العقاب بالتشهير ٣٤٨
- معنى التشهير ٣٤٨
- صور من العقاب بالفضيحة والتشهير ٣٤٩
- التشهير الإلكتروني وأمثله ٣٥٣
- لماذا استنكر خبراء التربية أغلب صور التشهير الإلكتروني؟ ٣٥٤
- الفرق بين (الشعور بالذنب) و(الشعور بالعار) ٣٥٥
- هل للعقاب بالتشهير مكان في العملية التربوية؟ ٣٥٨
- الأصل هو السَّتر ٣٥٨
- فائدة التغافل الواعي أحياناً ٣٥٨
- تجنب تأديبه أمام الآخرين إلا في حالات استثنائية ٣٥٩
- من هدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نصيحة الناس ٣٦١
- النصيحة بالتعريض ٣٦١
- «ما بال أقوام» سنة مهجورة ٣٦٣
- من يصلحه التلميح لا يُعَدَّل عنه إلى التصريح ٣٦٨
- النصح في السر دون العلن ٣٦٩
- النصيحة بالرفق ٣٧١
- النوع الثاني عشر: المقارنة بين الأطفال ٣٧٥
- يكتسب الطفل (صورة ذاته) من خلال تعامل الآخرين معه ٣٧٥
- المقارنة بين الأطفال تطبع عليهم آثاراً ضارة ٣٧٥
- من صور المقارنة ٣٧٦
- المقارنة تصرف غير منصف ٣٧٦
- الفروق الفردية بين الأطفال ٣٧٧

- آثار المقارنة على الطفل ذاته ٣٧٨
- المقارنة تُعرّض الطفل للإجهاد النفسي ٣٧٨
- أثر المقارنة في ضعف تقدير الذات ٣٧٩
- المقارنة تقلل رغبته في تحسين ذاته ٣٨١
- المقارنة قد تؤدي إلى «اللامبالاة» ٣٨١
- تحفيز أم تعجيز؟ ٣٨٢
- آثار المقارنة على علاقة الطفل بالآخرين ٣٨٢
- لا تقارن بين الجيلين ٣٨٤
- ركّز على تصحيح الخطأ بدون مقارنة ٣٨٥
- قارن ولدك بنفسه ٣٨٦
- جدول قياس الإنجاز ٣٨٧
- العبقريّة استثناء ٣٨٨
- كيف تحفز طفلك دون أن تقارنه بغيره؟ ٣٨٨
- ماذا لو قارن الطفل نفسه بغيره؟ ٣٩٠
- النوع الثالث عشر: العقاب بالهجر الطويل ٣٩٣
- عيوب العقاب بالهجر الطويل وآثاره الضارة على الولد ٣٩٣
- النوع الرابع عشر: عقاب الطفل بمثل عمله ٣٩٥
- النوع الخامس عشر: عقاب الطفل بشيء إيجابي (كترار العبادة) ٣٩٦
- النوع السادس عشر: عقاب الطفل بإتلاف ممتلكاته ٣٩٩
- إذا لم يكن مناص من استعمال الطفل للشاشات؛ فلا بُدَّ من ترشيد ذلك ٣٩٩
- النوع السابع عشر: إياك والظلم في العقاب ٤٠١
- أهمية العدل في العقاب ٤٠١

- ٤٠٣ كيف يحقق المدرس العدل بين الطلاب؟
- ٤٠٣ يستحسن الطفل العدل ويحبه، ويضيق بالظلم وينفر منه
- ٤٠٥ وظيفة التأديب بالعقوبة حكر على المربي
- ٤٠٥ لا توكل عقاب الطفل إلى شقيقه أو زميله
- ٤٠٥ لا يعاقب بريء
- ٤٠٧ لا يعاقب معذور
- ٤١٤ لا تعاقبه على خطأ أنت قدوته فيه
- ٤١٥ لا يعاقب الطفل على خطأ سبب له آلاماً جسدية أو نفسية
- ٤١٦ يُلغى العقاب أو يخفف إذا اعترف بخطئه واعتذر
- ٤١٦ عدم المحاباة في إيقاع العقاب
- ٤١٦ تناسب حجم وصفة العقوبة مع صفة الخطأ وحجمه
- ٤١٧ النوع الثامن عشر: العقاب الجماعي
- ٤١٧ العقاب الجماعي ظلم ينافي أبسط قواعد العدل
- ٤١٧ من صور العقاب الجماعي
- ٤١٨ العقاب الجماعي يصادم مبدأ مسؤولية الشخص الفردية عن أعماله
- ٤١٨ العقاب الجماعي إعلان إفلاس، وفشل تربوي وإداري
- ٤١٩ في العقاب الجماعي يعاقب من لا ذنب له، ويُسوَّى الصالح بالطالح
- ٤١٩ الخطأ في الإمساك عن العقاب الجماعي أهون من الخطأ بعقاب البريء
- ٤٢٠ عيوب العقاب الجماعي وآثاره السيئة
- ٤٢٠ آثاره على الطالب البريء
- ٤٢٢ آثاره على الطالب المذنب
- ٤٢٢ إبطال قاعدة «الحسنة تخص، والسيئة تعم»

- «المساواة في الظلم عدل» قاعدة (فاشيّة) تسوّغ الظلم ٤٢٣
- الحق أن الحسنة تخص، وكذلك «السيئة تخص» ٤٢٣
- الرد على استدلال بعضهم بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾، وما في معناه من الأحاديث ٤٢٤
- الهلاك العام قد يكون طهرة للمؤمنين ونقمة على الفاسقين ٤٢٧
- النوع التاسع عشر: العقاب بالفضل الحار والصّبار المر ٤٣٠
- النوع العشرون: العقاب بالتعذيب الجسدي ٤٣٢
- النوع الواحد والعشرون: العقاب بالضرب غير التربوي ٤٣٥
- الضرب البدني من أسوأ أساليب التربية ٤٣٥
- الآثار الجانبية الناتجة عن هذا النوع من العقاب كثيرة ومتنوعة ٤٣٥
- أولاً: أضراره الجسدية ٤٣٥
- اكتظت جعبة الباحثين بنماذج عقابية بالغ فيها المربون في العقاب الجسدي ٤٣٥
- الشرع الشريف يُجرّم تعذيب الأطفال بحجة التربية ٤٣٧
- تدل أدلة السنة الشريفة على أن الأصل الأصيل هو المحافظة على سلامة البدن
وحمايته من العدوان والأذى ٤٣٧
- التسلط على بدن الطفل بالضرب الانتقامي مواجهة دينية وظالمة وغير متكافئة ٤٣٨
- يجمع المربون والمشرعون على إدانة العقاب البدني الشديد والمؤذي ٤٣٨
- الواقع أن الالتزام بالضوابط الصارمة للعقاب البدني التربوي أمر نادر الحدوث
في عصرنا ٤٣٩
- نماذج مؤسفة للعقاب البدني المتوحش من بعض المربين:
- ١ - شيخ الأزهر العلامة محمد الخضر حسين رَحِمَهُ اللهُ يُدين عنف أحد معلمي
القرآن الكريم مع الأطفال ٤٣٩
- ٢ - الدكتور عمر الأشقر رَحِمَهُ اللهُ: «لا تكون التربية هكذا» ٤٤٠

- ٣- «نعم للتأديب، لا للقسوة» ٤٤٢
- ٤- تأديب أم تعذيب؟ ٤٤٢
- ٥- الأم العنيفة قتلت طفلها، فقتلها الأب، ثم سُجن ٤٤٥
- ٦- معلمٌ يؤدب الطفل بخنقه! ٤٤٦
- ٧- معلم حبس الطفل في خزانة، ونسيه في الحبس ٤٤٦
- ثقافة متخلفة يقول فيها الأب للمدرس: «كَسَّر، ونحن نَجْبُر»، «لكم اللحم، ولنا العظم»، «اكسِر للبننت ضلعًا؛ يَنْبُت لها اثنان»، «مَنْ لا يقسو قلبه لا يُربي ولده» .. ٤٤٧
- معلمٌ في الابتدائية يُعاقب الأطفال بشنقهم بحبلٍ مُتَدَلٍّ من سقف الحجرة ٤٤٨
- ظهور مدرسة تربوية تنبذ مبدأ العقاب رأسًا كرد فعل على هذه الوحشية ٤٤٨
- ثانيًا: الأضرار النفسية للضرب غير التربوي ٤٤٩
- العقاب بالضرب أقدم وسائل السيطرة الاجتماعية التي مارسها البشر ٤٤٩
- الحنين إلى الماضي انتقائي، ومعنى (نوستالجيا) ٤٤٩
- بعض الناس يتباكون على «زمن الضرب الجميل» ٤٥٠
- مبادرة المربي إلى ضرب الطفل إعلان عن إفلاسه وفشله التربوي ٤٥٠
- كيف يشعر الطفل بعد أن يُضْرَب؟ ٤٥١
- أسوأ ذكريات الطفولة هي التي ضربنا فيها من يربوننا ٤٥٢
- القاعدة التربوية الأصلية تنص على أن «كل وسائل التهذيب التي تبث الخوف والرعب مُضِرَّة غير نافعة» ٤٥٢
- العقاب البدني من أجل السيطرة والإخضاع لا مكان له في علاقة صحية ٤٥٣
- الضرب العنيف وبخاصة المقترن بالإساءة اللفظية والتحقير ينتج عنه صورتان .. ٤٥٣
- الأولى: تشوه صورة الذات، والشعور بالضآلة والدونية، مما ينتج عنه عزلة وانطوائية، وعجزًا عن التكيف الاجتماعي، وانكماشًا لمهاراته الاجتماعية
- بسبب خجله، وعجزًا عن اتخاذ القرار، وهروبًا من تحمل المسؤولية ٤٥٣

- ٤٥٥ الصورة الثانية: تعزيز السلوك السلبي بالتحدي والتمرد والعناد
- ٤٥٧ أثره على النمو العقلي للطفل
- الفشل التربوي الذي يتجسد في الضرب يؤخر العمر العقلي والعمر النفسي عن
- ٤٥٧ العمر الزمني للفرد
- ٤٥٧ لا توجد صلة بين الضرب والتقدم الدراسي، ولا علاقة له بالنشاط الذهني ..
- ٤٥٧ الضرب يبعث الخوف في قلب الطفل، ويشل قدرته على التركيز والاستيعاب
- ٤٥٨ الضرب يقتل الإبداع ويعطل القوة المخيلة المبدعة
- ٤٥٨ من عواقب الضرب: نفور الطفل من المربي أو المعلم
- ٤٥٩ من الخطأ ربط الحب والحماية والأمان بنوعية سلوك الطفل مهما كان سيئاً
- ٤٦٠ من آثار الضرب السلبية على عملية التعلم:
- ٤٦٠ - تدني مستوى التحصيل الدراسي
- ٤٦٠ - انخفاض نسبة المذاكرة الطوعية، ثم تقلص فرصة التعلم الذاتي
- ٤٦٠ برغبة شخصية
- ٤٦٠ - كراهية الطفل للمدرسة والتعليم، واحتمال انسحابه من التعليم، والسقوط في
- ٤٦٠ مستنقع الانحراف والجنوح
- ٤٦١ التكيف مع الضرب
- ٤٦١ الضرب إذا تكرر وتعود عليه الطفل يفقد أثره
- ٤٦١ إعاقة النضج الاجتماعي والأخلاقي
- ٤٦٢ عدم ولائهم للقيم التي ندعوهم إليها
- ٤٦٣ الرغبة في الانتقام والتشفي من ضاربه وكراهية التعليم والمعلم
- زيادة العدوانية نحو الآخرين وتلقينه أن العنف وسيلة لتفريغ شحنة الغضب،
- ٤٦٥ أو للحصول على ما يريد

- محدودية فائدة الضرب ٤٦٦
- الضرب مجرد وسيلة لقمع بعض السلوكيات المرئية ٤٦٦
- ترويض القردة وتدريبها يختلف عن «التنشئة» الإنسانية ٤٦٧
- الضرب لا يؤدي إلى الانضباط الداخلي، ونتائجه زائفة ٤٦٨
- الضرب يخفي السلوك السلبي، ولكنه لا يقضي عليه ٤٦٨
- نتائج الضرب مؤقتة لا تدوم ٤٦٩
- أضرار الضرب النفسية تفوق أضراره الجسدية بمراحل ٤٦٩
- الضرب يكبت السلوك السيئ ولا يمحوه ٤٧٠
- الضرب يشجع الطفل على الكذب ٤٧٢
- الضرب يدفع الطفل إلى المراوغة والاحتيال لإخفاء سلوكه السيئ عن المربي . ٤٧٢
- نص رائع لابن خلدون في بيان العواقب السيئة للضرب ٤٧٤
- جنوح الأحداث ٤٧٥
- قد يصبح الطفل «مشروع مجرم»، وينتهي به الأمر إلى «جنوح الأحداث» ٤٧٥
- العنف البدني قد ينتهي بالطفل حين يصبح أباً إلى «التماهي مع المعتدي»
- فيؤذي أولاده كما آذاه أبوه أو معلمه ٤٧٧
- تعريف «التماهي مع المعتدي» ٤٧٨
- الفرق بين التماهي والتقليد ٤٧٩
- لماذا يحدث «التماهي مع المعتدي»؟ ٤٧٩
- الإيذاء البدني يرشح الطفل للإصابة بالاضطرابات النفسية عاجلاً أو آجلاً .. ٤٨٠

الباب الرابع العقاب المقبول

- ٤٨٥ تمهيد
- ٤٨٥ هدف العقاب التربوي المقبول
- ٤٨٥ هناك قائمة طويلة تتضمن أنواعاً كثيرة من العقاب الصحي المأمون
- ٤٨٦ لا يُلجأ إلى العقاب إلا بعد إخفاق الأساليب التربوية الناعمة
- ٤٨٦ لا بُدَّ من التدرج في مراحل العقاب من الأخف إلى الأشد
- ٤٨٧ أنواع العقاب التربوي
- ٤٨٧ الأول: خصم درجات في جدول التحفيز
- ٤٨٧ الثاني: العقاب باستعمال لغة الجسد وتعبيرات الوجه
- ٤٨٨ الثالث: تخصيص ثوب يلبسه الطفل المعاقب
- ٤٨٨ الرابع: العقاب اللفظي بالكلام
- ٤٨٩ الخامس: العقاب بأعمال منزلية إضافية
- ٤٨٩ السادس: العقوبة المالية
- ٤٨٩ ١ - كيس المكافآت
- ٤٨٩ ٢ - حصالة الأخطاء
- ٤٩٠ السابع: دعه يتحمل عواقب سلوكه
- ٤٩٠ ١ - العقاب الذاتي
- ٤٩١ ٢ - التعويض وإصلاح ما أفسده
- ٤٩١ ٣ - تحمُّل العواقب الطبيعية والمنطقية لتصرفه
- ٤٩٢ الثامن: العقاب بالحرمان
- ٤٩٢ معنى العقاب بالحرمان وفائدته

- أنواع الحرمان كعقاب ٤٩٣
- ضوابط العقاب بالحرمان ٤٩٤
- مراعاة التناسب بين نوع الخطأ ونوع الحرمان ٤٩٦
- التاسع: التهديد بإمكانية العقاب بلسان الحال ٤٩٧
- العاشر: صور من العقوبات البدنية المقبولة ٤٩٨
- الحادي عشر: العقاب بالإقصاء المؤقت ٤٩٩
- أولاً: مدخل تمهيدي: حاجة الطفل إلى الانتباه والاهتمام ٥٠٠
- تعريف الانتباه ٥٠٠
- الاهتمام نوعان إيجابي وسلبي ٥٠٠
- ١- الاهتمام الإيجابي بالأطفال ٥٠١
- ١- الاهتمام اللفظي (بالكلام) ٥٠١
- ٢- الاهتمام غير اللفظي ٥٠٢
- ٢- الاهتمام السلبي ٥٠٣
- تعريفه، ومتى يحدث؟ ٥٠٣
- الاهتمام السلبي لا يزال اهتماماً ٥٠٤
- ماذا أفعل إزاء سلوك «البحث عن الاهتمام»؟ ٥٠٤
- ١- كافئه بالاهتمام الإيجابي إذا حسن سلوكه فقط ٥٠٤
- ٢- امدح الطرق الملائمة للحصول على الاهتمام ٥٠٥
- ٣- أشبع حاجته إلى الاهتمام ٥٠٥
- ٤- وقتٌ مكثفٌ مُشبع أفضلٌ من وقتٍ وجيزٍ مُتفرّق يُبقيه مُتعطّشاً للاهتمام .. ٥٠٧
- كيف تمنحه الاهتمام بدون تعزيز السلوك السلبي؟ ٥٠٧
- ١- التجاهل يوقف التعزيز السلبي ٥٠٨

- ٢- وجه اهتمامك نحو شخص آخر ٥٠٨
- ٣- وجهه إلى نشاط مختلف ٥٠٨
- ٤- اقرأ العلامات المنذرة ٥٠٩
- متى يأتي دور (الإقصاء)؟ ٥٠٩
- ثانياً: الإقصاء المؤقت** ٥١٠
- التعزيز الإيجابي معناه تدعيم السلوك الجيد بشيء يحبه الطفل ٥١٠
- هناك نوعان متباينان من الاستجابة الإيجابية ٥١١
- الإقصاء تعليق مؤقت للاستمتاع بمكونات البيئة المحيطة التي تكافئ الطفل،
وتبذل له الاهتمام والتسلية ٥١٢
- وجه الشبه بين (الإقصاء المؤقت) و(صندوق العقاب) في لعبة الهوكي ٥١٢
- أسماء الإقصاء ودلالاتها ٥١٣
- هدفا الإقصاء: بعيد المدى، والفوري ٥١٣
- التعريف المفصل للإقصاء، وبيان كيف يتم بطريقة صحيحة ٥١٣
- الإقصاء عقوبة مفيدة للأطفال ٥١٤
- يكتسب الطفل القيم الاجتماعية من خلال العلاقات الاجتماعية والتربية الوالدية .. ٥١٥
- يتعلم الأطفال بطريقتين ٥١٥
- الأولى: العواقب التي تحدث لهم ٥١٥
- الثانية: ملاحظة سلوك الآخرين واستجاباتهم ٥١٥
- كلمة السر هي «الاهتمام» ٥١٦
- لا يُجدي الإقصاء بدون التفاعل الإيجابي مع البيئة المحيطة ٥١٧
- دواعي اللجوء إلى الإقصاء ٥١٧
- أمثلة للسلوكيات التي يمكن تعديلها بالإقصاء ٥١٨

- تنبيهات حول تطبيق الإقصاء ٥١٩
- ١ - ادرس الإقصاء جيدًا، واشرحه لطفلك مقدمًا ٥١٩
- ٢ - طبق الاستراتيجيات الإيجابية قبل اللجوء إلى الإقصاء ٥١٩
- ٣ - ادخر الإقصاء للسلوك الجاد، وراعِ سُلم الأولويات ٥١٩
- ٤ - حدد السلوك النوعي المستهدف بعناية ٥٢٠
- ٥ - فكر بعناية قبل أن تنتقل إلى السلوك التالي ٥٢٠
- ٦ - حافظ على هدوئك حين يستثيرك الطفل بسلوكٍ سيئ ٥٢٠
- ٧ - كرر الإقصاء كلما تكرر السلوك السيئ ٥٢٠
- ٨ - هل يمكن تطبيق الإقصاء على طفلين في الوقت نفسه؟ ٥٢١
- ٩ - هل يطبق الإقصاء في حالات «نوبات الغضب»؟ ٥٢١
- ما هو التصرف الأمثل في حالة نوبة الغضب؟ ٥٢٢
- السن الملائم للإقصاء ٥٢٣
- مدة الإقصاء ٥٢٤
- مكان الإقصاء ٥٢٦
- يؤخذ عمر الطفل بعين الاعتبار عند اختيار مكان الإقصاء ٥٢٧
- أولاً: الطفل من سنتين إلى أربع سنوات ٥٢٧
- ثانيًا: في حال عدم توفر كرسيّ العقاب، أو كان عمر الطفل فوق الخامسة ٥٢٨
- ثالثًا: إذا قاومَ الطفل الصغيرُ بإصرار كرسيّ العقاب ورفضه ٥٢٨
- هل تصلح غرفة النوم مكانًا للإقصاء؟ ٥٢٩
- تطبيق الإقصاء في مكان عام خارج المنزل ٥٢٩
- لا تطبق الإقصاء بطريقة فجائية ٥٣٠
- اشرح تفاصيل الإقصاء للطفل قبل تنفيذه ٥٣١

- ٥٣٢ الفورية شرط في الإقصاء
- ٥٣٤ وجّه إنذارًا وحيدًا
- ٥٣٥ احذر أن تكرر التهديد
- ٥٣٧ سلوك المربي أثناء الإقصاء
- ٥٣٩ ابقَ ثابتًا وحازمًا
- ٥٤٠ ماذا لو بدا أنَّ الطفل لا يبالي بالإقصاء؟
- ٥٤١ دعه يتضايق! إنه شيءٌ جيّدٌ ومطلوب
- ٥٤٢ مقاومة الطفل للإقصاء
- ٥٤٥ ماذا بعد انتهاء وقت الإقصاء؟
- ٥٤٧ قياس نتيجة الإقصاء
- ٥٤٨ مزايا الإقصاء التربوية
- ٥٥٠ اعتراضات وجوابها

الاعتراض الأول:

- ٥٥٠ - زعم بعضهم أن الإقصاء يخل بالرابطة الوجدانية بين الأم والطفل
- ٥٥٢ - لماذا لا يشوش الإقصاء على الرابطة الوجدانية بين الوالد والطفل؟

الثاني:

- ٥٥٣ - الزعم بأنَّ الإقصاء يأتي بتأثير عكسي، وتفنيده
- ٥٥٤ - معنى الانفجار الناتج عن الانطفاء

الثالث: زعم بعضهم أن الإقصاء يؤذي الطفل، ويجرح كرامته، ويصيبه بالقلق

- ٥٥٧ وعدم الأمان مع والديه، ويضر بالعلاقة بينهما
- ٥٥٨ الرابع: زعم بعضهم أنَّ الإقصاء صورة من صور «الصمت العقابي»
- ٥٥٩ الخامس: دعوة بعضهم إلى «وقت معنا، وليس وقتًا معزولاً عنا»، والرد عليهم

الخاتمة.....	٥٦١
على الآباء استفراغ وسعهم في نصيح الأبناء والدعاء لهم	٥٦١
احذر عقوق الوالدين	٥٦٢
أمر الله الولد أن يصاحب والديه بالمعروف في الدنيا، ولو كانا مشركين يُجاهدانه	
على أن يُشرك بالله	٥٦٣
أخطاء الوالدين التربوية لا تُسوِّغ عقوق الأبناء إيَّاهم	٥٦٤
فهرس الموضوعات	٥٦٧

مَسْجِدُ مُحَمَّدٍ ﷺ

